

# النظور والجديد

في الشعر الأموي



# النَّطُورُ والجَنَدِيدُ

## في الشعر الأُمويِّ

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

أستاذ آداب اللغة العربية في كلية الآداب

بجامعة القاهرة

الطبعة الثامنة

مققة



دار المعارف



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة الطبعة الثانية

ظنَّ بعضُ من قرأوا هذا الكتاب في طبعته الأولى أنني أنكر به الصلة بين الشعر الأموي والشعر الجاهلي وأزعم أنها كانت منبثقةً منقطعة . ولست أدري من أين جاءهم هذا الظن ، وأنا لا أنكر هذه الصلة ولا أدفعها عن الشعر في العصر الأموي ، بل أنا لا أنكرها ولا أدفعها عن الشعر العربي في جميع عصوره التالية ، فقد ظلت الصلة قائمةً متينةً بين عصوره وأقاليمه المختلفة وبين الجاهلية وحياة العرب البدوية القديمة ، فهي تفرض نفسها على الشعر والشعراء ، لا من حيث الصيغ والأخيلة والصور فحسب ، بل أيضاً من حيث الموضوعات والأغراض وذكر الأطلال والرسوم ووصف الإبل وحيوانات الصحراء ومساكنها ومنازلها .

كلُّ ذلك لا أنكره في الشعر العربي مهما اختلفت عصوره ، فهو يحفظ بكثير من طوابعه البدوية الجاهلية مهما شَرَّقَ وغَرَّبَ وتغايَرت أوطانه وتباعدت . ولكن ليس هذا هو الجانب الذي عُنيت ببحثه في الشعر الأموي إنما عُنيت بالجانب المقابل ، جانب التطور والتجديد فيه ، فهو مع محافظته على العناصر البدوية واستقرارها في كيانه قد تطور وتجدد كما يتطور ويتجدد كل شعر يتحول من عصر إلى عصر ، وخاصة إذا كان العصر الجديد يختلف عن العصر القديم في الدين والسياسة والحضارة والثقافة . لقد دخل العرب في الإسلام وخرجوا من جزيرتهم واتصلوا بالأمم الأجنبية واتخذوا القصور والرقائق والحواري وهكُموا . من شئون الفكر ما لم يكونوا يعلمون كما عرفوا من شئون الحياة المادية ، لم يكونوا يعرفون . ولم يحدث ذلك خارج الجزيرة فقط ، فقد تغلقت العناصر الحضارية في الحجاز وفي المدينة ومكة حيث قامت أفواج كبيرة من الموالى على خدمة الحجازيين . فكان طبيعياً أن يحدث تطورٌ خطيرٌ في حياة العرب داخلياً وخارجياً ، وأن يتبع ذلك

تطوراً واسع في شعرهم ، وهو تطور لم تُلغ فيه إلغاء الأصول الفنية التقليدية الموروثة بل ظلت قوية بارزة .

فالشاعر الأموي لم يعيش في عالم فني طليق من القيود والعناصر التقليدية القديمة ، بل ظل متمسكاً بها شديد التمسك ، ولكن مع إنعائها والملازمة بينها وبين حياته المادية والمعنوية الجديدة ، فهو يخوض فيها يخوض فيه معاصره ويواصل السير معهم في ميادين التطور السامى والاجتماعى والدينى والعقل . وهنا هو ما حُتبت بالكشف عنه والتبصير به ، لسبب مهم ، وهو أن محافظة الشعر الأموي على السنن التقليدية الموروثة أوضح من أن تُبحث وأن تُفرد لها الكتب ، إنما الذى يفتر إلى البحث والكتب حقاً هو مدى ما حدث في هذا الشعر من تطور وتجديد .

وقد رجعت إلى دواوين الشعراء في العصر ونصوصهم المختلفة ، فاستخرجت منها — ما استطعت — الأدلة والشواهد على أن احتفاظهم في شعرهم بالأصول التقليدية لم يعقهم عن إدخال عناصر تجديدية كثيرة ، وهى تختلف في العصر باختلاف البيئات والشعراء قوة وضعفاً وسعة وضيقاً . وإنما دفنى إلى تفسيرها وتصويرها في كتاب أنى وجدت مؤرخى الأدب العربى ونقاده لا يكادون يلمون بها فرأيت أن أبسط القول فيها ، حتى أزيل من الأفهام أن العصر الأموي كان عصر جمود وركود في الشعر وأن الشعراء فيه كانوا يحاكون الجاهليين عماكاة تامة ، فقد عبروا عن ذات أنفسهم وذات عصرهم وكل ما اضطربوا فيه من مذاهب دينية وسياسية وثقون حضارية مادية أو ثقافية . ولست أزعم أنى بلغت الغاية مما أردت من تفسير وتصوير للحقائق الفنية المستحدثة في العصر ، إنما حاولت وبذلت الجهد . وقد أضفت إلى هذه الطبعة الثانية تمهيداً عن الشعر في صدر الإسلام ، حتى تتضح خطوات التطور الأولى التى خطاها الشعر العربى قبل العصر الأموي ومدى سرعتها وبطئها . واقه يهذى إلى سواء السبيل .

شوقي ضيف

القاهرة في أول فبراير سنة ١٩٥٩ .

## مقدمة الطبعة الأولى

يقومُ هذا البحثُ على أسسٍ نظريّةٍ جديدةٍ تناقضُ أشدَّ المناقضة ما استقرَّ في نفوس الباحثين في الشعر العربي من أن الطبقة التي كونها هذا الشعر في عصر بني أمية تشبه تمام الشبه الطبقة الجاهلية ، إن لم تتحدَّ معها في خصائصها الفنيّة تمام الاعتماد . فالعربُ — في رأيهم — استمروا بنظمين شعرهم بعد الفتح الإسلامي ونزولهم في الأوطان والأقاليم الجديدة خارج الجزيرة على شاكلة ما كان ينظمه أسلافهم ، حتى أرسل الله لهم المولى في العصر العباسي ، فطوروا لهم صورة شعرهم ، وجدّدوا في إظهارها ونطوطها وألوانها فنوناً مختلفة من التجديد . ولا يعرف تاريخ الشعر العربي حُكماً جازماً على حقائقه الأدبية مثل هذا الحكم الذي يجعل العرب أحجاراً ، يُنقشون من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن طور بداهة إلى طور حضارة ، دون أن يتأثروا بما يصادفهم في كل ذلك من مؤثرات حضاريّة وغير حضاريّة .

ولا ريبَ في أن العرب ليسوا بدعاً من الأمم والشعوب ، بل هم كغيرهم يطورون ويتأثرون بالزمان والمكان وظروفهما ، سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً . وشأن بين عربيّ الصحراء القديم وعربيّ العصر الأمويّ الذي ورث كسرى وقبصر ، وخرج من صحرائه ، ونزل في الشام والعراق وغيرهما من الأقاليم الإسلامية .

لقد كان العربيّ القديم ساذجاً في حياته ووسائلها وبطالها ، وكان أيضاً ساذجاً في تفكيره ، بل كان لا يجد وقتاً كي يفكر في الأشياء ، إذ كان مشغولاً دائماً بالسعى في طلب قوته . أما عربيّ العصر الأمويّ فكان يعيش في حياة معقّدة عقدهتها الحضارات الفارسيّة والإغريقيّة الرومانيّة التي غزا أهلها واستعمرهم سياسياً ، وغزوه واستعمره حضارياً وثقافياً . ولقد أخذ يفكر في الأشياء ويحلل التفكير ، بل أخذ يحترف التفكير احترافاً في كل شئون حياته من مياسة واقتصاد .

ومن المخالفة لطبائع الأشياء أن تكون الطبقة الفنية التي كونها الشعر العربي في هذه الحياة الجديدة مُعَاثِلَةً للطبقة الفنية الجاهلية تمام المائلة ، فقد اختلفت الحياة في يتابعها ، وأصبح العربي يعيشُ معيشةً جديدةً ، ويقع تحت مؤثراتٍ دينيةٍ وحضارية لم يكن يعرفها في الجاهلية . ومن أجل ذلك كنا نزع أن نفسه تبدلت . وفرقٌ بعيدٌ بين نفسية وتُنْسِي ونفسية مُسْلِم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويستشعرُ السعادة فيها يؤدّيه من تقوى وعبادة . وفرقٌ بعيدٌ بين عقلية بدوى يعيشُ معيشة بسيطة في الخيام لا يخضع لسلطان سوى سلطان القبيلة المحدود وعقلية حضريّ يعيشُ في مَسْكَنٍ مستقرّ البنیان ، ويخضعُ لضرورات الحياة في الدول والمدن ، ويختلفُ إلى دور اللهو والغناء والموسيقى أو إلى دروس العلماء وحلقاتهم في المساجد حيث كانوا يفرصون في بحار الفكر غوصاً ، وحيث فتحو للناس أبواب البحث ، في مشاكلهم السياسية والدينية والعقلية ، على مصارعها .

والحق أن الأدب العربي لا يعرف في تاريخه حكماً فائلاً مثل هذا الحكم الذي يُشْكِرُ على العرب أن ينهضوا بشعرهم وفنّهم في عصر بني أمية ، كأن العرب قوم يستعصنون على التحوّل والتطور ، مهما تكن انتغيرات والاقلابات التي تصادفهم في حياتهم ، ومهما تكن الهزات العنيفة التي تمسّهم في عقولهم وأفئدتهم .

ونحن لا نكاد نُلْقِي عينا هذا الحكم وما مدّ بين أعيننا وبين رؤية الحقائق الفنية لهذا العصر من حُجُب ، ونلخلُ في دراسة دواوين الشعر الأموية باحثين وفاقدين محلّين حتى نرى رأيَ العَيْنِ أننا نلخلُ في عالم جديد مُبَايِنٍ أَشَدَّ المَبايِنَةِ وأَوْضَحَهَا للعالم الفني القديم ، عالم العصر الجاهلي .

ففي كل جانب من جوانب هذه الدواوين نجد ظواهر الحضارات الأجنبية ، بل ظواهر الترفّ الذي غيّر ما بأنفس العرب ، حتى ليتحوّل الغزل عند ابن أبي ربيعة عن طبيعته المألوفة ، وهي غزلُ عاشقٍ يصفُ حُبّه لمشوقته ، إلى طبيعة جديدة ، هي غزلُ معشوقٍ يصفُ حبّ المرأة العاشقة له . وبجانب ابن أبي ربيعة نجد ضربة الانغماس في الترف عند الوليد بن يزيد مبتدع فنّ

الخميرية في العربية قبل أبي نؤاس وأضرابه من العباسيين .  
 وكان الإسلام يقضى قوس العرب بتعاليمه ، وتضمق أشعة هذه التعاليم .  
 قلوبهم ، فتغيرت مثالياتهم في الحياة ، وظهر ذلك بينك واضحاً في مدائحهم  
 وأهاجيهم ، إذ نرى الصفات الدينية تتلأأ في قصائدهم ، فهم يصفونها على  
 مملوحهم ، ويظفونها عن مهجورهم . وقد زهد فريق في حطام الدنيا ،  
 فحول يتبتل إلى ربه ، ويتلجج في شعره ، أو يهجو إبليس ويحكمه من  
 الخروج في حياته .

وهضت الحياة العقلية في هذا العصر نهوضاً واسعاً ، كان من آثاره أن  
 عمّت موجة من المناظرات في حقائق الأشياء دينية وغير دينية . وتحت تأثير  
 هذه المناظرات ألّف جرير والفرزدق والأخطل نقائضهم في اللطاع عن قبائلهم  
 أو عن قبائل أخرى ومهاجمة الحصوم ودمغ حُجَجهم . ولم تكن مناظرات  
 جادة ، إنما كان يراد بها قطع الفراغ المائل الذي واجه العرب حين استقروا  
 في الكوفة والبصرة وكفتهم الدولة أرزاقهم ، فلم يعرفوا كيف يصفون أوقاتهم ،  
 وإذا جرير وصاحبه يحولون الهجاء القديم إلى هذه النقائض ليلسوم بها ، وليقطعوا  
 لهم أوقات فراغهم . وكانوا يخرجون للفرجة عليهم ، وخاصة على جرير والفرزدق ،  
 كما نخرج نحن الآن لاسماع المناظرات في مشاكلنا الاجتماعية ، أو كما نخرج  
 لتمضية بعض الوقت في دور التمثيل والخيالة .

وخطأ الكسيت بالمناظرة والجدال خطوة أخرى إذ كان شيعياً على مذهب  
 زَيْد بن علي بن الحسين ، وكان في الوقت نفسه تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس  
 الاعتزال ومنشئيه . فألّف على هندی أستاذه وعقيله واحتجاجه أول دفاع  
 في تاريخ النحلة الزيدية ويحكي الشيعة عامة ، ولم يكتب هذا اللطاع نثراً ، وإنما  
 كتبه شعراً في ديوانه المسمى بالهاشميات .

وكانت المدرسة اللغوية بالبصرة أخذت تؤنئ ثمارها ، فأعدت طائفة من  
 الشعراء لتصنع لها شعراً يعينها على بحثها اللغوية ، أو على الأكل النهشهم  
 ذلك . وبرع في هذا الجانب رؤبة بن العجاج ، فكان يصمق العرب  
 والوحش الشارد في اللغة ، وكان يحتمد على حسه وصيد العربية في نحت

الألفاظ واشتقاقها وتحريف صورتها في حروفها وحركاتها . وبذلك كانت أراجيزه متونة لغوية ، وكانت أقدم صورة من صور الشعر التعليمي في العربية .

ونجد في هذا العصر شاعراً يبرز في وصف الطبيعة تبرزاً بديعاً ، وهو ذو الرمة الذي نشأ في الصحراء ، ثم نزل في البصرة والكوفة ، فتلقن ما كان بهما من ثقافات . وشغف بصحرائه القديمة ، فعاش برحّل إليها ، يتأمل فيها ، ويصوّر في جمالها وسحرها تصوير الماهم المفتون . وبهذا الهيام دبّج لوحات رائعة لصحرائه ، تفصل انفصالاً عن أشعار من سبقوه من الجاهليين ، وهي لوحات تتداعى فيها الألفاظ والصور تناعياً غير مترابط ، وهو تناعٍ يجعل شعره في كثير من جوانبه رؤى وأحلاماً بهيجة .

وأمل في هذا كله ما يدلُّ أصلى الدلالة على أن العرب لم ينتظروا إلى العصر العباسي ليجدد لهم الموالي شعرهم ويحدّثوا فيه فنوناً مختلفة من التطور به ، بل لقد سبقوا إلى ذلك في العصر الأموي ، إذ أحسوا إحساساً عميقاً واضحاً أنهم امتدادٌ لقديم ونهوضٌ بجديد ، فاستمرّ في شعرهم كثيرٌ من التقاليد الأدبية الموروثة ، وفي الوقت نفسه انزعجوا بمشاكل هذا الجليل وما انطوى فيه من تطوّر انشغاعاً شليداً .

والصفحات التالية من هذا البحث تبسّط ما حدث من ذلك التطور والتجديد في الشعر الأموي ، بحيث كان نتيجة طبيعية لهذا القانون المعروف ، قانون الفعل ورد الفعل ، فروح العصر الأموي ، ومزاجه ، وحضارته ، وسيامته ، وثقافته ، وكل ما اتصل به ، مائل فيه مصوّر أدقّ تصوير . والله ولي التوفيق .

## تمهيد

### الشعر في صدر الإسلام

١

#### الإسلام

أخرج الإسلامُ العربَ من ظلمات حياتهم الجاهلية الوثنية المادية إلى أضواء حياة روحية سماوية تتعَنُّو فيها الوجوهُ للهِحَى القَبِيُوم الذى خلق السموات والأرض وما بينهما ، إله قوى عزيز وَسِعَتْ قُدْرَتُهُ وَرَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ . إنها حياة رَبَّانِيَّة جلييلة فُرِضَتْ فيها فروض وواجبات دينية من مثل الحج والزكاة وصوم رمضان والصلاة في أوقات معلومة ، وقد حُرِّمَتْ فيها جملة الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، من مثل الزنا والخمر ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، لأن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يُحْشَرُ فيها الناس ليحاسَبُوا على أعمالهم ، فيعاقبوا أو يثابروا عليها ، فمن يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، ومن يعمل مثقالَ ذرةِ شَرٍّ أَرَهُ ، فأما الأبرار فلهم الجنة والنعم المقيم ، وأما العصاة فلهم النار والجحيم . ودأب القرآن الكريم يدعو إلى البر بالفقراء والمساكين وصلة الرحم وحسن الجوار والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد والعدل وكل ما هو خير .

وطبى أن يكون لهذه الحياة الدينية الجليلة أثرها البعيد في العرب ، وخاصة في صحابة الرسول من المهاجرين والأنصار فقد امتلأت قلوبهم بالإيمان ، وانتصبت أمام أبصارهم الجنة والنار ، فهم يراقبون الله في كل ما يأتون من صغيرة وكبيرة ، يخشون عقابه ويرجون ثوابه ، فإنه ( يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ) ( ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حَبَّةٌ في ظلمات الأرض ولا رَطْبٌ ولا يابس إلا في كتاب مبين ) .

وأفضى ذلك كله بالعربي الذي حسن إسلامه إلى قلق روجي عظيم ، فقد

أصبح خائفًا وَجِلًا من سلطان أعلى يسيطر على الكون والناس ، وهو سلطان حَدِّد حرّيته ، فلم تعد حرية مطلقة كما كان الشأن في الجاهلية ، بل أصبحت حرية مقيدة بأوامر الدين الجديّد ونواهيه . وليس هذا فحسب ، فهي حرية في حدود حرية الآخرين ، فلا نهب ولا سلب ، ولا تفاخر بالأحساب والأنساب ، فكل الناس لآدم وآدم من تراب ، يقول جلّ وعز : ( يا أيها الناس إنّنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ) فلا عصبية ولا دعوة قبلية ، أو جنسية ، فالمؤمنون جميعًا من كل القبائل ومن عرب وغير عرب إخوة ، وجماعة واحدة ، اختلفت تحت راية كبيرة هي راية الإسلام ودعوته أو شريعته ، بل دولته ، وهي دولة قد نُقِلَ إليها حقُّ الأخذ بالتأثير من رد والقبيلة ، فهي التي ترعى حقوق الأفراد ومصالحهم ، وهم جميعًا متعاونون على ر ، أذِلَّةٌ على المؤمنين أَعِزَّةٌ على الكافرين رُحَمَاءُ فيما بينهم ، يأخذ قوتهم ضعيفهم ، لا يتحاربون ، بل يتناصرون ويتآزرون .

وكل هذه مثالية روحية سامية ، ولكن هل استقرت في نفوس العرب جميعًا بصورة واحدة ؟ الحق أن الناس لبسوا سواء في الدين ، منهم من يتعمقه الإيمان ، ومنهم من لا يتعمقه مثل بعض الأعراب الذين وصفهم القرآن بقوله تعالى : ( الأعراب أشدّ كفرًا ونفاقًا وأجدرُ أن لا يعلموا حدودَ ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق منَ غَرَمًا ويربّص بكم الدوائر ، عليهم دائرةُ السوء ، والله مهيّج عليهم ) . وأكبر الدلالة على ذلك حروب الردة فإن بعض هؤلاء الأعراب سارعوا إليها بمجرد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لهذا السبب وهو أن الإسلام لم يتغلغل في ضمائر كثير منهم وقلوبهم ، وقد ردّهم أبو بكر إليه بعد حرب مريّة . وربما كان مرجع ذلك إلى أنهم كانوا يبالغون في التصكك بسنة الآباء . وكل ذلك معناه أن العرب لم يكونوا سواء في تقبل الدعوة الإسلامية ، ومن غير شك كان أكثرهم قبولًا لها المهاجرون والأنصار ممن عاشوا بجوار الرسول وتلقوا عنه مباشرة تعاليمه . أما الأعراب فعلى الرغم من أن الرسول وخطبائه أقاموا بينهم مَنْ يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وما شرع الإسلام من فروض دينية ، فقد ظل نَقَرٌ منهم يعيلين عن روح الإسلام ، فهي لا تتعمقهم إلا قليلًا .

## الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

كان لهذا الانقلاب الديني الذي من حياة العرب من جميع الوجوه الروحية والاجتماعية والسياسية أثره المحقق في حياة الشعر والشعراء ، فقد وقف شعراء المدينة مع الرسول ينفذون عنه بأكستهم ويناضلون عنه بأشعارهم ، بينما وقف في الصفوف المقابلة شعراء مكة والطائف يردون عليهم ويمحسون لهم ضد الرسول ودعوته . ولم تكن مكة تُعترف في الجاهلية بشعر ولا شعراء ، وكان هذا الانقلاب الروحي الخطير أتاح الفرصة لكي يظهر فيها شعراء ، لولا الحوادث الجديدة ما ظهروا ولا عرفوا مثل خيكر بن الخطاب الفهري وعبد الله بن الزبعرى والحارث بن هشام وأضرابهم ممن نجد أسماءهم مشورة في السيرة النبوية لابن هشام ، وهم الذين نزلت فيهم الآيات الكريمة : ( والشعراء يتبعهم الغاويون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ) .

وواضح أن القرآن الكريم إنما يهاجم الشعراء الوثنيين ، أما الذين اتبعوا هداه وآمنوا برسوله فإنه يستثنيهم ، بل إن الرسول ليدفعهم دفعاً إلى نصرته ، إذ يقول لحيان بن ثابت : « اهجج قريشاً فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في خلّس الظلام ، اهجههم ومك جبريل روح القدس »<sup>(١)</sup> . وعلى نحو ما أظهرت خصومة الرسول شعراء جنداً لم يكونوا معروفين في مكة كذلك أظهرت في المدينة شعراء لم يعرفوا بالشعر قبل الإسلام مثل عبد الله بن رواحة .

وإذا رجعنا نقرأ في شعر المكيين وجدناه لا يختلف في شيء عن الشعر الجاهل لسبب طبيعي ، وهو أنهم كانوا لا يزالون على دين آبائهم ، يقلعون السنن الجاهلية التي ورثوها في الشعر وغير الشعر ، وحقاً نسبت إلى أمية بن أبي الصلت شاعر قبيص وعلم الإسلام ورسوله أشعار كثيرة تفيض بروح اللياليات النفاوية وقصصها الديني ، ولكن لا شك في أنها نُحلت عليه ، إذ نجد فيها نفس المعاني التي

(١) كلسة لابن رقيق (طبعة القاهرة سنة

١٩٢٥) ج ١ ص ١٢ .

سألفها القصاص في تفسير الذكر الحكيم . وقد زعم « جابر » أنه اكتشف فيها مصدراً للقرآن الكريم<sup>(١)</sup> ، ولو صح ذلك لأعلنه أمية نفسه في عصر الرسول وتناقلته الرواة وأصحاب الأخبار ، والصحيح أنه كان عدواً للإسلام ولمحمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا يمكن أن يقال إنه تأثر بالقرآن كما لا يمكن أن يقال إن الرسول تأثر به ، إلا ما يزعمه خصوم الإسلام ، وإنهم ليشعرون كما قلنا بشعر منحول ، وُضع على لسان أمية وضعاً ، ويظهر أنه وُضع قديماً ، فقد روى الجاحظ في كتاب الحيوان أطرافاً منه .

على كل حال ليس في شعر المكيين ولا في شعر غيرهم من حادوا الله ورسوله أي تأثر بالقرآن الكريم ودعوته ، لسبب واضح وهو أنهم لم يؤمنوا به ولا بهتد به ، وهناك قصيدة تُنسب إلى الأعشى في مديح الرسول ، وفيها أثارة من الإحساس برسالة كما نرى في قوله<sup>(٢)</sup> :

نبي يرى مالا نرون وذكره أغار - لعمري - في البلاد وأنجد  
وأكبر الظن أنها موضوعة . وليس معنى ذلك أن الأعشى لم يحاول مديح الرسول الكريم ، ففي أخباره أنه فعلاً فكر في الفادة عليه مادحاً له وأن قريشاً علمت بذلك فردته عن غايته ، إذ ذكرت له أن محمداً يحرم الخمر والزنا والقمار ، فأنصرف عن الذهاب إليه ، وتوفى الأعشى عقب ذلك ولم يدخل الإسلام قلبه .

أما شعراء المدينة الذين نافحوا عن الرسول الكريم ودعوته ووقفوا يرمون خصومه المكيين وغيرهم بسهام شعرهم وقذائف أبياتهم فلإننا حين نقرأ ما نظموه من شعر نجد كثرت - وخاصة عند حسان - تُنظَّم في ضوء الصورة الجاهلية ، وتقصد صورة الهجاء القائمة على بيان الضعة في الأنساب والعجز عن حماية الجار والفرار من الحرب وغير ذلك من معاني الهجاء التي كان يدور فيها الشعر الجاهلي . وفي الأغاني : « كان يهجو قريشاً ثلاثة نفر من الأنصار

(٢) ديوان الأعشى طبة جابر ، القصيدة رقم ١٧ ، وانظر الأغاني (طبع دار الكتب) ج ٩ ص ١٢٥ .

(١) المجلة الآسيوية ج ١٠ ق ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥ وانظر ترجمة أمية في دائرة المعارف الإسلامية .

يجيبونهم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه ويعلم أنه ليس فيهم شرٌّ من الكفر ، فكان في ذلك الزمان أشدُّ شيء عليهم قول حسان وكعب وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا للإسلام كان أشدُّ القول عليهم قول ابن رواحة<sup>(١)</sup> .

وأسابغ مختلفة اجتمعت لتظل للهجاء عند حسان وكعب معانيه القديمة ، إذ كانت متمكنة من نفسيهما ، وكانت هي المعاني التي تؤذي نفوس أعداء الإسلام من قريش ، ولو أنهما هجياهم بكفرهم وعنادهم أو توعداهم النار لما كان لذلك وقع عليهم ، فهم لا يؤمنون بنار ولا يبعث ، وهم يفتخرون بكفرهم ويعتزون بأنهم متمسكون بدين آبائهم . فكان طبيعياً أن يهجوهم حسان وكعب بما يعدونه حقاً هجاء ، مما يتصل بالأنساب والأحساب ، وبالوقائع والمزائم التي يصلحهم الرسول وأصحابه نيرانها . وقد وجه الرسول نفسه حسناً هذه الوجهة إذ قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم » ، ثم أجههم وجبريل معك<sup>(٢)</sup> ، وكان الرسول يعرف أن هجاءهم بفضلائهم لا يسجدى ، وهم أنفسهم يتهجون بالمثل الجاهلية الماثورة في الهجاء ، ومهمة شعرائه أن يناقضوهم ، ولو أنهم عيروهم بعبادة الأصنام مثلاً لسخروا منهم لأنهم فعلاً يعبدونها ويتخلونها زلّفتى إلى ربهم ، ويقدمون لها الأدعية والقرابين . وليس معنى ذلك أننا لا نجد عند حسان أى أثر للإسلام ، إنما معناه أن هذا الأثر لم يتسع عنده ، ومن يرجع إلى ديوانه يجد فيه شعاعات إسلامية مختلفة كقوليه في رثاء حمزة عم الرسول حين قُتل في موقعة أحد ، يذكر مصيره ومصير قتلى قريش<sup>(٣)</sup> :

وإن جنان الخلد منزلها بها      وأمر الذي يقضى الأمور سريع  
وقتلهم في النار أفضل رزقهم      حميم معاً في جولها وضريح<sup>(٤)</sup>

رقم ١٢٥ .  
(٤) الحميم : الماء الحار ، والضريح : نبات كزبرة خبيث .

(١) أغاني (طبعة الساسي) ج ١٥ ص ٢٨ وانظر  
(طبعة دار الكتب المصرية) ج ٤ ص ١٣٨ .  
(٢) أغاني ج ٤ ص ١٣٨ .  
(٣) ديوان حسان (طبعة أوربا) القصيدة

وقوله - إن صح أنه له - (١) :

ونعلم أن الله لا ربَّ غيرُه وأن كتابَ الله أصبح هاديا

وقوله (٢) :

فأنزل ربِّي للنبيِّ جُودَةً وأَيَّدَه بالتَّصْصِرِ في كلِّ مَشْهَدٍ

وتتسع هذه المعاني الدينية عند عبد الله بن رواحة ، غير أنه لم تكن له شاعرية حسان الذي ذاع اسمه في الجاهلية ، حتى عدَّ من شعرائها البارزين .

على كل حال لم يحدث في هذه الفترة انقلاب في هجاء المسلمين للمشركين بتأثير الإسلام ومثاليته إلا في حدود ضعيفة . ويتضح ذلك بالمقارنة بين هجائهم ومثالية القرآن الكريم في الهجاء ، فهو لا يقذف في الأعراض ولا يتوعَّد بغارة تُسبَّبِي فيها الأطفال والنساء وتسيل الدماء ، وإنما يتوعَّد بعذاب النار . وقد يعرض المنافقين فيصور نفاقهم وكذبهم على المسلمين وتبسيطهم عن حرب الكافرين في غير مساس بأعراضهم ولا عمد إلى شتم وسباب ، ويتلطف معهم فيدعوهم إلى التوبة والأسوة بالرسول والمؤمنين الصادقين ، وهو مهما قسا عليهم فلن يزيد على وصفهم بأفهم لا يفقهون ( وإذا رأيْتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشبٌ مسنَّةٌ ، يحسبون كلَّ صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله ) . وهكذا الوعيد والهجاء في القرآن ليس سبًّا ولا شتمًا ولا قذفًا في الأعراض . ولم يتحول هجاء حسان وشعراء الرسول إلى هذه الصورة القرآنية الجديدة بل ظل غالبًا في حدود الصورة الجاهلية القديمة ، إلا خيوطًا إسلامية متناثرة ، ولكنها لم تؤثر في النسيج العام تأثيرًا واسعًا .

وهذا نفسه نلاحظه في المديح ، فقد كان حسان وغير حسان يمدحون الرسول الكريم بالشجاعة والسعة في الكرم والبطش بالأعداء والوفاء بالعهود ، وكأنهم يمدحون ملوكهم وساداتهم القداماء . وقد اشتهر كعب بن زهير بقصيدة نظمها في مديح

(١) ديوان حسان ، القصيدة رقم ١٩ . (٢) ديوان حسان ، القصيدة رقم ٤٥ .

الرسول ، وهي القصيدة التي يستهلها بقوله <sup>(١)</sup> :

بانت سعادٌ قلبي اليومَ مقبولٌ متيسمٌ إثرها لم يُلندَ مكشُوبٌ

ويستطرد في الغزل ، ويخرج منه إلى وصف الناقة على الطريقة الجاهلية ، حتى إذا استوفى ذلك أخذ يعتذر إلى رسول الله من سقطة له في هجاء أخيه بجيز حين أسلم من قبله ، وقد جاء يتصل من عثرته ويعلن إسلامه ويمدح الرسول ودعوته ، ومع ذلك فلولا ما جاء في القصيدة من قوله :

أنبت أن رسول الله أوعلى والعفو عند رسول الله مأولٌ  
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلةً القرآن فيها مواعظٌ وتفصيل  
إن الرسول لنورٌ يستضاء به مهتدٌ من سيوف الله مسلولٌ

لما عرفنا أنها في مديح الرسول ، ولتبادر إلينا أنها في مديح سيد من سادة القبائل فهو يمدح الرسول بالشجاعة والظفر بأعدائه كما يمدح المهاجرين من قريش بالقوة ، وشدة المراس وإباء الضيم ، وأنهم يلبسون الدروع السابعة في القتال ، ولا يفرحون بنصر ولا يجزعون من هزيمة ، بل يترامون على حياض الموت ترامياً . وتبلغ به العصبية القديمة في المديح أن يعرض بالأنصار في غير موضع من قصيدته ، وكأنه يمدح محمداً القرشي وقبيلته من قريش ، لا محمداً الرسول الذي هدم العصبية القبلية ، والذي أثر بعد فتح مكة المقام مع الأنصار على قومه .

وقد حسن إسلام كعب وأخذ يصدر في أشعاره عن هدى الإسلام ، على نحو ما يتضح ذلك في ديوانه <sup>(٢)</sup> ، وهي ظاهرة تعم في أشعار كثيرين من مثل قول الحصين المرِّي <sup>(٣)</sup> :

أعوذ بربي من المخزيا تِ يوم ترى النفسُ أعمالها  
وخفّ الموازينُ بالكافرين وزُلزِلَتِ الأرضُ زِلزالها

(٢) انظر ديوان كعب ص ٢٢٨ وما بعدها .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥/١٤ .

(١) انظر ديوان كعب (طبع دار الكتب)

ص ٦ وما بعدها ، وبافت : فارت ، ومجول :

سقيم ، ومجول : مقيد .

وقول النَّمير بن تَوَلب<sup>(١)</sup>:

أَعِذْنِي رَبُّ مِنْ حَصَرٍ وَعِيٍّ      وَمِنْ نَفْسٍ أَعَابَهَا عَاجِزًا

وعلى هذا النحو لا تزال تلقانا اشعاعات إسلامية مختلفة عند من بايعوا الرسول بالإسلام ؛ ومن المؤكد أن هذه الإشعاعات كانت تسيل على السنة أهل المدينة بأكثر مما كانت تسيل على السنة النجديين .

### ٣

#### الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

وقف الهجاء بين المدينة ومكة وبينها وبين العرب ، فقد دخلوا جميعا في دين الله ، وحقاً حدثت حروب الردة في عصر أبي بكر ، ولكن سرعان ما انطفأت نيرانها ، واتجه العرب إلى الفتوح ، ففوضوا على الدولة الفارسية واستولوا على أهم إقليمين يتبعان الدولة البيزنطية وهما مصر والشام .

وفي هذه الأثناء لم تعد ترتفع أصوات المكيين بالشعر ، فقد انتهت الحروب التي كانت تثيره ، وكذلك الشأن في المدينة ، إلا بعض قصائد وأشعار تنظم في مناسبات كبيرة كأن يُتَوَقَّى خليفة نيرثيه حسان أو غير حسان بصورة من التأبين يمازجها شيء من مثالية الإسلام وما يدعو إليه من تقوى الله والعدل في الناس .

وإذا تركنا المدينتين الكبيرتين في الحجاز إلى نجد وفيافيها الضيعة بشعراء الأعراب وكان منهم نفر لم يتعمقهم الإيمان ولم يمس قلوبهم إلا قليلا ، وخير من يمثلهم الخطيئة تلميذ زهير في صقل الشعر وتنقيحه ، فلأنك لا تكاد تجد عنده اختلافا في شعره بين ما نظمته منه في الجاهلية والإسلام ، وكان أحد من

(١) أغان (طبعة الساسي) ١٩٢/١٩ .

سارعوا إلى الردة ، وهجا أبا بكر بيوتين مشهورين<sup>(١)</sup> ، ثم دخل فيها دخل فيه العرب ثانية ، دخل في الإسلام وحسن إسلامه ، ولكنه كان كثير الشر ، فأكثر من هجاء الأشراف ، حتى اضطر عمر إلى حبسه ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن أخذ عليه المواثيق أن يكف<sup>٢</sup> أذاه عن الناس .

وبجانب الخطيئة شعراء كثيرين حسن إسلامهم وسقطت إلى أشعارهم خيوط كثيرة من مثالية الإسلام وروحانيته ، ومن أشهرهم الشماخ وله ديوان مطبوع مثل الخطيئة ، وهو فيه كثير الهجاء والوصف للقوس والحُمُر ، وأجمل ما أثر عنه أبيات نظمها في رثاء عمر بن الخطاب ، حين امتدت إليه يد أبي لؤلؤة المجهري الآثمة في الظلام ، وطعمته طعنة مسمومة ، لقي بهاربه ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

جَزَى الله خَيْرًا من إمامٍ وباركْتَ      يَدُ الله في ذاك الأديم الممزقِ  
فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَيْ نعمة      لِيُدْرِكَ ما حاولتَ بالأمس بُسْبُجِ  
فَقَضَيْتَ أمورًا ثم غادرتَ بعدها      بَوَاقِي<sup>(٣)</sup> في أكامها لم تُفْتَقِ

وهو يدعو لعمر أن يجزيه الله خيرًا عما قدّمت يدها لرعيته وأن يبارك أديمه الممزق بسكين أبي لؤلؤة ، وانتقل يتحدث عن سيرته في المسلمين وتفقدته اليقظ لشئونهم ، وأنه أحكم أمورهم ، وقد خلف موته دواهي لا تزال في أكامها لم تفتق . وواضح أنه يصور الكارثة فيه تصويرًا قويًا .

وقد أخذت روحانية الإسلام تتعمق في نفوس أهل نجد ، ولعل خير من يصور ذلك لييد والناطقة الجعلى ، فأشعارها تفيض بمواعظ كثيرة ، وقد قصر لييد نفسه على تلك المواعظ يتغنى بها مخوفًا من كارثة الموت ويوم الحساب وداعيًا إلى التقوى والعمل الصالح بمثل بيته المشهور :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلَا الله باطلٌ      وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ  
وتجري أضواء الإسلام في أشعار النابتة ، وقد روى ابن قتيبة في ترجمته له بكتابه الشعر والشعراء موعظة بارعة يتحدث فيها عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والبعث والقرن البائدة والأمم الخالية ، وهو حديث يستعمله مباشرة

(٢) ألفان ج ٩ ص ١٥٩ .

(٣) بواقي : فن وشعر .

(١) ألفان (طبع دار الكتب) ج ٢

ص ١٥٧ .

من آى الذكر الحكيم . ولم يلبث العرب أن خرجوا من جزيرتهم يجهلون في سبيل الله ودينه الخفيف ، وقد نظموا حينئذ كثيراً من الأشعار الحماسية .

واقراً في الطبرى وفي فتوح البلدان للبلاذرى فستجد الشعر على كل لسان ، وستجد الروح الدينية تنفذ فيه نفوذاً قوياً ، فالشاعر يتغنى بشجاعته وبما قتل من أعدائه ، ويلم بفكرة الجهاد الدينى في الحين بعد الحين على نحو ما نرى في هذه المقطوعة التى جرت على لسان قيس بن المكشوح المرادى عقب قتله لرسم قائد الجيوش الفارسية في موقعة القادسية إذ يقول (١) :

|                                 |                            |
|---------------------------------|----------------------------|
| جلبتُ الخيلَ من صنعاء ترّدى (٢) | بكل مدّججٍ كاللّيث سام     |
| إلى وادى القُرى فديارٍ كُلب     | إلى اليرموك فالبلد الشام   |
| وجشّ القادسيّة بعد شهرٍ         | مؤمّة دوابرُها دواى (٣)    |
| فناهضنا هنالك جمّع كرى          | وأبناء المرازبة (٤) الكرام |
| فلما أن رأيتُ الخيل جالت        | قصدتُ لموقف الملك الهمام   |
| فأضربُ رأسه فهوى صريعاً         | بسيف لا أفلّ ولا كهام (٥)  |
| وقد أبلىّ الإلهُ هناك خيراً     | وفعلّ الخير عند الله نأى   |

واللمسة الدينية واضحة في نهاية المقطوعة . وعلى هذا النحو شعر الفتوح كله ، لا تزال تلقانا فيه هذه اللامعات التى يتصايح بها الشعراء معبرين عن حُسن بلائهم في سبيل إعلاء الدين الخفيف ، ويقال إنه كان لأوس بن مغراء قصيدة عد فيها بلاء العرب في الفتوح ، وفيها يقول :

محمدٌ خيرٌ من يمشى على قدمٍ وكان صافيةً لله خلصاناً

وقد شاعت الإشاعات الإسلامية في أشعار كثيرين من الفاتحين وغير الفاتحين ، فن ذلك أننا نقرأ لسُوَيْد بن أبى كاهل اليشكرى وصفاً طويلاً للمنافق في قصيدته رقم ٤٠ في المفضليات وقد امتد هذا الوصف من البيت ٦٧ إلى ٩١ وهو

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (طبعة ليدن)

ص ٢٦١ .

(٢) تردى الخيل : ترمى الأرض بحوافرها .

(٣) مؤمّة : مملّة ، والدوابر : المراكيب ،

ودواى : ملطنة بالدم .

(٤) المرازبة : رؤساء الفرس .

(٥) أفلّ : مثلم ، وكهام : كليل لا

غناء فيه .

فيه يتأثر بصورة المتأفق في القرآن الكريم تأثراً واضحاً كما يتأثر بما جاء فيه عن الغيبة والمغتائبين . ونجد عبدة بن الطبيب يوصي أبنائه بتقوى الله وبر الولد والحذر من التسمم الذي يبت الضغائن حتى بين الإخوة ، يقول (١) :

أوصيكمُ بتقَى الإله فإنه يُعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ  
ويعزُّ والدكم وطاعة أمره إن الأبرَّ من البنين الأطوعُ  
واعصوا الذي يُزجى إليكم التَّأَمُّمُ بينكم متنصِّحاً ، ذاك السَّامُ المنفَعُ

وعبلة هذا كان ممن شهدوا حروب العرب مع الفرس وأبلى في موقعة القادسية بلاء حسناً وله قصيدة يصف فيها موقعة المدائن (٢) ذكر فيها جهاده وجهاد قومه للفرس ، بمثل قوله :

يقارعون رموسَ العُجْمِ ضاحيةً منهم فوارسُ لا عزُّلٌ ولا ميلٌ (٣)

ونراه يحدثننا عن هجرته مع قومه للجهاد وأنهم يبتغون بذلك ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربِّ سَيِّبُهُ حَسَنٌ وكلُّ خيرٍ لديه فهو مقبولٌ

وقد ختم القصيدة بوصف طويل لمجلس شراب ، ويظهر أنه كان للقصيدة أصل جاهلي أضاف إليه عبلة بعد إسلامه وجهاده حديثه عن موقعة المدائن . وهي ظاهرة لانتلاخظ في هذه القصيدة وحدها ، بل تلاحظ أيضاً في شعر نفر من المخضرمين ، إذ نجدهم يسوقون في بعض قصائدهم الإسلامية الحمر التي حرمها الإسلام . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور أثر الإسلام في شعر المخضرمين وأنه لم يكن أثراً ضئيلاً ، كما زعم بعض الباحثين من المستشرقين وغير المستشرقين . ومن الحق أن في هذا الزعم مغالفة صريحة لطبيعة الأشياء فما كان العرب ليؤمنوا ويطلبوا الاستشهاد في سبيل دينهم الخفيف ، ابتغاء رضوان الله ، ويظل الإسلام بعيداً عن نفوسهم وأشعارهم ، وما الشعر إلا مرآة لناظمية وتعبير عن خواجهم وكل ما يعتقدونه ويؤمنون به . ويرجع هذا الزعم في رأينا أن أصحابه لم يطلعوا اطلاعاً كافياً على نصوص الشعر في هذا العصر ، وهي تفيض كما رأينا بأضواء الإسلام التي كان المخضرمون يصدرن عنها صدور الضوء عن الشمس الساطعة .

(١) المفصلات (طبع دار المعارف) ص ١٤٦ . (٢) عزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه ،

والميل : جمع أميل وهو من لا ترس معه ، والجبان . (٣) المفصلات ص ١٣٤ .

## الفصل الأول

### بيئات الشعر الأموي

#### ١

#### الحجاز

يمتد الحجاز في غرب الجزيرة العربية محاذياً للبحر الأحمر من أبلة ( العقبة ) شمالاً إلى اليمن جنوباً . وكلمة الحجاز ، ومعناها الحاجر ، تدل على حقيقة هذا الإقليم ، فهو سلاسل من جبال تسمى جبال السراة تحجز بين نجد شرقاً وتيامة غرباً ، وتتخلل هذه السلاسل وديان ذات زرع وأخرى غير ذات زرع . وفي واد من الوديان الأخيرة تقوم مكة حول بئر زمزم بينما تقوم الطائف على بعد سبعين ميلاً جنوبياً في بقعة خصبة تشتهر بالبساتين النضرة ، وتقوم في الشمال يشرب في هذه الواحة الجميلة التي شققتها الطبيعة بين حرات مختلفة .

وكان الحجاز في العصر الجاهلي طريق القوافل المصعدة شمالاً إلى البحر المتوسط ، إلى الشام ومصر ، والمنحدر جنوباً إلى حوض المحيط الهندي ، إلى اليمن والحبشة<sup>(١)</sup> . وقد استقرت مفاتيح هذه القوافل وما تحمل من عرؤض للتجارة في أبلى أهل مكة فكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالاً وجنوباً ، وشرقاً أيضاً حيث كانت تحمل سلع الفرس ، وما ينزل على الخليج الفارسي من سلع الهند .

ونشطت مكة في هذه التجارة أواخر العصر الجاهلي نشاطاً هائلاً ، حتى ليظن بعض الباحثين أنها كانت جمهورية تجارية ممتازة<sup>(٢)</sup> ، فقد كانت حينئذ أهم حلقة للاتصال بين حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندي . وساعد على ذلك

(Beyrouth, 1924) p.175.

وانظر في ثنون مكة المالية ، الفصول : الثامن والتاسع والعاشر .

(١) انظر هنا : O'Leary, Arabia Before :

Muhammad (London, 1927) p. 179.

(٢) انظر : Lammens, La Mecque :

أن طريق المَوْصِل إلى الشام كان مُقَفَّلًا بسبب الحروب المستمرة بين الفرس والروم ، وأيضًا فإن الملاحة في البحر الأحمر ضغطت بسبب كثرة القراصنة فيه ، فلم تعد هناك وسيلة للصلة بين الشمال والجنوب ولكل ثوابل الهند وعروض اليمن وسيلع الحبشة والعراق سوى هذه القوافل التي أمسكت مكة بزمامها .

وهذا المركز لمكة في الجاهلية جعلها — بحكم لوائها وتجاريتها — تتصل بعناصر مسيحية وإغريقية وفارسية مختلفة ، فقد كان بها جالية من الحبشة والروم المسيحيين ، ويظهر أنه كان بها لبيزطة مندوبون<sup>(١)</sup> . وهذا لا شك يؤكد الصلة بينها وبين العالم المسيحي الإغريقي ، عالم البحر المتوسط ، وهو العالم الذي كانت تتجرف فيه . وكان بعض القساوسة يزورون أسواقها ويعطون فيها الناس<sup>(٢)</sup> ، ويذكر العقوبى في تاريخه أن جماعة من أهل مكة تنصروا في الجاهلية ، منهم ورقة بن نوفل<sup>(٣)</sup> .

وفي يَثْرِب وعلى طول الطريق إلى الشام في الشمال كانت هناك مستعمرات يهودية منبثة في خَيْبَر ووادي القُرَى وتَيْمَاء ، وهي مستعمرات رحل إليها اليهود منذ اضطهادهم أباطرة الرومان من مثل أدريان الذي طردهم من فلسطين عام ١٣٢ م .

وقد استمر اليهود قبل نزولهم الحجاز أحقابًا متطاولة تحت الحكم اليوناني الروماني وكانوا منتشرين في حوض البحر المتوسط على العموم ، وكان إذ ذاك حوضًا للثقافة ، وطبيعي أيضًا أن يتسرب شيء من ذلك إلى يهود الحجاز ، يحملونه معهم — في أثناء هجرتهم — تارة ، ويحملة إليهم يهود جُدُدٌ واصلون تارة ثانية .

ومعنى ذلك أن الحجاز في العصر الجاهلي كان متصلًا بالحضارة الرومانية الإغريقية وأيضًا فإنه اتصل بالحضارة الفارسية ، إذ كان كثير من أهله يغلبون على الحيرة ويتصلون بالفرس ، ويأخذون عنهم ، ففي السيرة أن النَّضْرَ بن الحارث وقَدِمَ الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسُتَمَ وإِسْفَنْدِيَارَ ،

وانظر السيرة الخلية (طبعة القاهرة سنة

١٣٠٨ هـ) ٧٥/١ .

(٢) البيان والتبيين (طبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ٣٠٨/١ .

(٣) العقوبى (طبعة موكبا) ٢٩٨/١ .

(١) انظر أوليسس ص ١٨٤ ولاش ص ٢٥٧

وارجع إلى أسد الغابة (طبعة المطبعة الومية)

٣٢/٢ ، ٤٢٧/٤ وكذلك ١٩٤/٥ ،

٤٦٢/٥ ٤٨١/٥ حيث تجد أبياء رومية

لرجال ونساء كانوا في مكة قبل الإسلام .

فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً ، فذكر بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار<sup>(١)</sup> . وفي الأغاني أن ابن جُدعان كان عيلاً من قريش فوفد على كسرى ، فأكل عنده الفالوذ ، فسأل عنه ، فقيل له : هذا الفالوذ ، قال وما الفالوذ ؟ قالوا لئساب البر يلبسك مع عسل النحل ، قال ابغوني غلاماً يصنعه ، فأتوه بغلام يصنعه ، فابتاعه ، ثم قدم به مكة معه<sup>(٢)</sup> . واسم سلمان الفارسي الذي أسلم حين هاجر رسول الله إلى المدينة ذائع مشهور .

فالحجاز لم يكن مختلفاً في العصر الجاهلي أمام الحضارتين الفارسية والرومانية الإغريقية ، بل كان على اتصال بهما ، حتى إذا أفاء الله عليه نعمة الإسلام وأخذت ألويته تخفق في ربوع فارس والشام ومصر اندمج اندماجاً تاماً في الحضارتين ، إذ صبّت فيه كنوز الأرض ، وانصبّت معها ألوان الحضارتين الكبيرتين .

وهنا يحدث تطور واسع في حياة الحجاز ، فقد أصبح لا يقل في شيء عن العالمين المتحضرين من حوله ، إذ أصبح أبناؤه — وخاصة من قريش — سادة العالم ، وقد احتكروا احتكاً شديداً بأبناء الأمم الأجنبية الذين استرقوهم ، وأحضروهم معهم إلى مكة والمدينة ، لينهضوا بهما في جميع جوانب الحياة .

ويذهل الإنسان حين يقرأ ما صار إليه الصحابة من ثراء عريض ، وخاصة كبارهم ، فقد روى الرواة أن الزبير بن العوام توفي عن خمسة وثلاثين ألف ألف درهم ، وقيل بل عن اثنين وخمسين ألف ألف<sup>(٣)</sup> ، وتوفي طلحة بن عبيد الله عن ثلاثين ألف ألف درهم<sup>(٤)</sup> ، ويقال إن دخله يوماً من بعض ضياعه في العراق بلغ ألف دينار . وقد عقد المسعودي في كتابه ( مروج الذهب ) فصلاً طريفاً عن هذه الثروات الكبيرة ، فقال : إن يعلّى بن مثنى مات عن خمسمائة ألف

١ ق ١ ص ٧٧ .

(٤) ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٥٨ .

(١) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١/٢٢١ .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٨/٢٢٩ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبع لين) ج ٣

دينار ، ومات زيد بن ثابت عن مائة ألف دينار ، وبلغ الربيع في تركة عبد الرحمن ابن عوف أربعة وثلاثين ألف دينار ، أما عثمان بن عفان فخلّف خمسين ومائة ألف دينار وألف درهم وخطارات قيمتها مائة ألف دينار . وعلّق المسعودي بعد ذكره لهذه الثروات الفخمة بقوله : « وهذا باب يتسع ذكره ، ويكثر وصفه <sup>(١)</sup> » .

ولا ريب في أن هذا الثراء الذي سال في حجور الحجازيين وخاصة من أهل مكة والمدينة تبعه تبدلٌ واسع في حياتهم وحياة أبنائهم فقد اتخذوا القصور وبَنَوْها بِالْأَجَرِ وَالْجِصِّ وَالسَّاج ، وجعلوا في أعلاها الشرفات ، وكانت قصور عثمان وسعد بن أبي وقاص وطلحة والمقداد وعبد الرحمن بن عوف تسترعى الأنظار <sup>(٢)</sup> . وأصاب مكة ما أصاب المدينة ، فقد بنى فيها معاوية دوراً يقال لها « الرُقْط » لاختلاف ألوانها ، وأحضر لها البُنانين من الفرس <sup>(٣)</sup> ، وتبعه سُرّةُ مكة بِشِدُونِ قُصُورٍ بِادْحَةِ في عهده وبعد عهده . روى الأزرق أن ابن عباس قال لابن صفوان ضاحكاً عبد الله بن الزبير : « هيهات هيهات ! تركت والله سُنّةَ عمر ، فقصّى عمر أن أسفل الوادي وأعلاه مُنَاخٌ للحجاج وأجنياداً وقُعَيْقَمَانٍ للمريحيين والداهيين ، واتخذتها وصاحبك دوراً وقصوراً <sup>(٤)</sup> » .

وعلى هذا النحو أصبحت المدينتان الكبيرتان في الحجاز لا تَمْلِكَانِ في شيء عن مدن البحر المتوسط وقد أخلقتا تفرقان في الحضارات الأجنبية إلى آذانها ، ولم يحل تحول الخلافة إلى دمشق في العصر الأموي بينهما وبين شيء من ذلك ، بل لعله أعطاهما الفرصة لكي تنهلا من الحضارات الأجنبية كما تريدان ، أو كما يريد أهلها . وفرق بعيد بين الصحابة وأبنائهم في التحضر ، فإن أولئك عاشوا في البهاية ، وفي شطّاف العيش ، أما أبنائهم فلأنهم عاشوا في عصر جديد ، هو عصر الفتح والثراء ، وكان الأمويون يكثرّون من نشر الأموال عليهم ، حتى يصرفوهم عن الخلافة <sup>(٥)</sup> .

(١) أخبار مكة للأزرق (طبع ليهك)

(١) مروج الذهب (طبع باريس) ٢٥٥/١ .

ص ٣٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢٥٤/٤ .

(٣) انظر القنري (طبعة دنيبرغ) ص ١٤٥ =

(٣) ألفان (طبع دار الكتب) ٢٨١/٣ .

وليس كل ما يلاحظ في حياة الحجازيين في أثناء العصر الأموي القصور والأموال فحسب، بل يلاحظ أيضاً الترف، فقد طعموا وشربوا في أوالي الذهب والفضة<sup>(١)</sup> ولبسوا الخنز<sup>٢</sup> والديباج<sup>٣</sup> والإستبرق<sup>٤</sup> والحلل<sup>٥</sup> الموشاة<sup>(٦)</sup>، وغالوا في ذلك، فكان العرجي الشاعر يلبس الخلتين بخمسمائة دينار<sup>(٧)</sup> أو نحو ثلاثمائة<sup>٨</sup> بجنه، وكان مروان بن أبان بن عثمان يلبس سبعة قمص<sup>٩</sup> كأنها درج بعضها أقصر من بعض، وفوقها رداء علفي<sup>١٠</sup> بألني درهم<sup>(١١)</sup>. أما النساء فكان يلبسن الثياب الرقيقة الشفافة<sup>(١٢)</sup>، ولكن يبالغن في التحلى باللؤلؤ والياقوت والحواهر الكريمة<sup>(١٣)</sup>.

وسرنا في أول هذا الكلام أن الحجاز كان على صلة بالحضارتين الفارسية والرومانية الإغريقية في الجاهلية، أما في هذا العصر فقد اندمج اندماجاً تاماً في هاتين الحضارتين بواسطة الرقيق الأجنبي الكثير الذي حقل به منذ الفتوح. ويكنى أن نعرف أن معاوية أرسل إلى عمر أربعة آلاف من سبئ قيسارية<sup>(١٤)</sup> وحدها ولا بد أن سبئاً كثيراً جداً دخل من الملدن الرومية الأخرى التي فتحت ثم الملدن الفارسية. ولعل مما يوضح كثرة هذا الرقيق الأجنبي في الحجاز ما يروى من أن الزبير بن العوام ترك ألف عبد وأمة<sup>(١٥)</sup>، وأيضاً فإنه يروى أن من قتلوا في موقعة الحرّة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية من الموالى بلغوا خمسة آلاف، بينما قُتل من الأنصار وقريش ثلاثة آلاف<sup>(١٦)</sup>. فإذا قلنا بعد ذلك إن الحجاز اقتحمت في هذا العصر الأموي الحضارتان الفارسية والرومانية الإغريقية لم نكن مجاوزين للواقع في شيء.

ومعنى ذلك أن الحجاز إن كان قد فتح الدولتين الكبيرتين: فارس وبيزنطة،

وديون ابن أبي ربيعة (طبع ليبيك) ص ٣،  
٤٥٠/٢١، وابن سعد ٣٥٢/٨.

(٦) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧٣/٨  
و (طبع السامي) ١٦١/١٤ وابن سعد ٣٤٣/٨  
وديون ابن أبي ربيعة ص ٢٥.

(٧) فتوح البلدان لبلاذري (طبع دي غويه)  
ص ١٤٢.

(٨) المسعودي ٢٥٤/٤.

(٩) انظر كلمة حرة في سبب البلدان لياقوت.

والعقد الفريد (طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ)

١٤٥/١ والطبري (طبعة دي غويه) ٤/٢  
وكلك ٤٠٢/٢، ٤٢٢/٢.

(١) ابن عبد ربه ١١١/١.

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٢١/١.

٢٧٨/١، وكلك ٣١٠/١، ٦٥/٥.

١٣/٦ و (طبعة السامي) ٢٠٤/١٨.

(٣) أغاني ٣٩٥/١.

(٤) أغاني (طبعة السامي) ٨٩/١٧.

(٥) أغاني (طبع دار الكتب) ٤٠٤/١.

فلان حضارتيهما فتحتاه عن طريق هذه العناصر الكثيرة التي انتقلت إليه ، وقامت على نخلة أبنائه وإعداد الحياة لهم . يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبنائهم ، واستعملوهم في مهمهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المشورة في أمثال ذلك والقائمة عليه ، فألادهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ونظروا بطور الحضارة والترقى في الأحوال ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخزائى<sup>(١)</sup> ، فاتوا من ذلك وراء الغاية<sup>(٢)</sup> » .

وأظن في هذا ما يوضح كيف تطورت الحياة في الحجاز تحت تأثير العناصر الجديدة من الموالي ، فقد تطورت هناك الحياة المادية تطوراً كبيراً ، وسعت الأيدي الأجنبية عليها ، وظلتها إلى ما يشبه الحياة المألوفة لما في مدن بى ساسان ومدن البحر المتوسط .

وسرعان ما وجدت في مكة والمدينة هذه الطبقة العاطلة التي توجد في الأمة حين تنحصر ، فقد فرغ كثير من الشباب ، وأنتهم الدنيا بمخاديرها ، فإذا يصنعون بأوقاتهم ؟ وكيف يُنفصلوها ؟ . إن طائفة منهم عُنيت بالدرس الدينى في المساجد ، ولكن بقيت طوائف تريد اللهو والمتعة بالحياة . وهنا نجد هذا الرقيق الأجنبى ينهض بغير<sup>١</sup> كان معروفًا في الجاهلية ولكنه كان لا يزال قريباً من طور السذاجة ، وهو فن الغناء ، فنراه يُقبل على هذا الفن كى يُرفقه عن الشباب فنراه يفتح له النوادى في المدينة ويكثّر جميعاً ، بحيث تصبح نواديه أشبه ما تكون بدور الخيالة والمسارح في عصرنا . واشتهر في المدينة نادى جميلة ، أو كما كانوا يقولون دارها التي خرجت مئات المغنين والمغنيات .

يكل من يقرأ الأغاني لأبى المخرج الأصهبانى يجعله راحراً بأسماء المغنيات والمغنين من الموالي الذين عاشوا في مكة والمدينة من مثل ابن سُرْبَج ، وابن مسنَج ، وابن مُحَرَّر ، ومثل طُويس ، وصائب خاثر ، ونشيط ، ومُحَمَّد ،

(٢) مقنة ابن خلدون (طبع بولاق) ص ١٤٤

(١) الفرى : أثاث البيت .

وسلامة القسّ ، وحَبَابَة ، وغير هؤلاء كثير . ونحت أبيهم وأبلى زميلاتهم وزميلاتهم ظهرت نظرية الغناء الجديلة المعروفة في كتاب الأغاني إذ يذكر أبو الفرج الصوت ، أو كما نقول الآن الدور ، ثم يذكر ورامه الرقم الموسيقى الخاص به ، من مثل ثَقِيل أول ، وخفيف الثقيل ، وخفيف الرَّمَل ونحو ذلك .

وإذن فالحجاز هو الذي استحدثت نظرية الغناء الجديلة عند العرب ، استحدثتها موالى مكة والمدينة ، ولم يستحدثها أهل دمشق البيزنطية ، ولا أهل البصرة والكوفة القريبتين من فارس . ولعل في هذا دليلاً واضحاً على أن البلدين القديمتين في الحجاز لم تنقصاً هذا العصر في التحضر والحضارة . وإن الإنسان ليخيل إليه كأن الناس هناك فرغوا للهو والغناء وسماع المغنين والمغنيات ، فقد صمّت لهم الدنيا إلا فترة قليلة نحو ثمانى سنوات ، هي سنوات ابن الزبير ، أما بعد ذلك وقبل ذلك فكانت الريح ساكنة ، وكان العيش هادئاً رَضيّاً . وقد أقبلوا يَحْبُون من الترف والنعم ، كما أقبلوا على الغناء يسمعون ويطربون .

وأكبر الظن أن هذه البيئة من بيئات الشعر في عصر بني أمية قد اتضحت لذا ، فهي من ناحية بيئة تحضّرت ، وأتّرف ذوقها ، وأصبح أهلها يمثلون رقّة في الشعور ورقّة في الحس لم تكن لأبائهم ، لسبب طبيعي ، هو أنهم أبناء حضارة جديدة وعصر جديد ، فيه ترف ونعم ، وفيه هذه التأثيرات الحضارية التي تُرهِف الحس ، وترقّق الشعور ، بل تجعل بعض الناس حسّاً وشعوراً خالصين .

وطبيعى أن ينفصل شعر هذه البيئة المتحضرة عن الشعر الجاهلى القديم ، فكل من يتابع درسَ شعر الحجازيين لهذا العصر يلاحظ أن الهجاء يقلّ فيه قلة شديدة ، كما يلاحظ أن المديح لم يعد اللون الصارخ في الشعر ، فإن أكثر الحجازيين لم يكونوا في حاجة إلى التكسب بشعرهم ، إنما اللون الذى يستفدهم هو الغزل ، وهو لون يتلاءم مع رقّة الحس ورقّة الشعور ، وأيضاً فإنه يتلاءم مع فن الغناء الجديد .

ومن هنا كان أكثر الشعراء في الحجاز لهذا العصر شعراء حُبّ وغزل على نحو ما نعرف عند عمر بن أبى ربيعة والعمرجى وابن قيس الرقيات في مكة

والأخوص في المدينة ، فقد ذهب شعرهم جميعاً في التفتي بقصة الحب وأحداثه ووقائعه ، وعبروا في ذلك عن رقة حس شلييلة ، وكاد شعرهم يتحول في كثير من جوانبه إلى أنفاس خالصة .

ومعنى ذلك أن الشعر طُبع في أثناء العصر الأموي في الحجاز بطوايع حصارية أثرت في الحس والشعور ، كما أثرت في عمل الشعر نفسه عن طريق فن الغناء ونظريته الجديدة . ولعل من أهم ما يلاحظ بصدد هذا الفن أنه أحوال شعر الحجازيين إلى ما يشبه أن يكون عملاً مشتركاً بين الشعراء وبين المغنيات والمغنين ، إذ كان الشاعر ينظم شعره ، ثم يعرضه على من حوله من المغنين والمغنيات ليغنوا به ، فكانوا يحورون فيه حتى يتلاءم مع أحوالهم والباحهم .

وإذن فالشعر لم يعد في الحجاز عملاً مستقلاً يقوم به الشاعر ، بل أصبح عملاً يعتمد على عمل آخر ، أو قل أصبح فنّاً يعتمد اعتماداً على فن الغناء وألحانه وأنغامه ، وهو فن كان ينهض به الموالى من المغنين والمغنيات .

وهؤلاء الموالى لم يؤثروا في الشعر فقط عن طريق نظرية الغناء التي استحدثوها ، بل أخذوا يؤثرون فيه مباشرة ، فإن كثيراً منهم أخذ يتقن صناعته ، بحيث لا نصل إلى أواخر القرن الأول للهجرة وأوائل الثاني حتى نجد بين الموالى من بشهرون بنظم الشعر من مثل أبي العباس الأعمى في مكة <sup>(١)</sup> وإسماعيل بن يسار النسابي وإخوته في المدينة <sup>(٢)</sup> . وأخذ يظهر بين المغنين الأجانب أنفسهم من بحس نظم الشعر مثل أبي سعيد مولى فائد ، وكان مغنياً وشاعراً <sup>(٣)</sup> ، ومثل سلامة القس وكانت تحسن الشعر والغناء جميعاً <sup>(٤)</sup> .

فالحجاز في هذا العصر الأموي كان مسرحاً لشعر غنائى تام يقوم على وصف قصة الحب من جهة كما يقوم على الصلة الدقيقة بالغناء وألحانه من جهة أخرى ، فهو شعر قيل ليُغنى ، وليُصحب بالعزف والضرب على الآلات الموسيقية مما سنعرض له في غير هذا الموضع .

(٣) أغاني ٤/٢٣٠ .

(٤) أغاني ٨/٢٣٣ .

(١) أغاني (طبع الساسي) ٥٧/١٥ .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٤٠٨/٤ .

وما بطلها .

## نجد

هي الصحراء الداخلية لجزيرة العرب ، وهي تمتد من الحجاز غرباً إلى الخليج العربي ووادي الفُرات شرقاً ، وليس فيها أنهار جارية ، إنما فيها أودية تهبط فيها الأمطار ، وتنمو حولها بعض الأعشاب والمراعى . ويمكننا أن نميز في هذه الرقعة الكبيرة صحراء النفود التي تقع في شمالها ، وتشتهر بكثبانها الرملية ، وقلة آبارها ، ولولا رطوبة الجو بها التي تسمح بنمو النباتات الصحراوية ذات الجذور الطويلة من مثل الأثل والأرطى وكذلك نمو بعض الأعشاب لتمذرت الحياة فيها . وفي جنوبي هذه الصحراء الشمالية نجد جبل طَيْيٍّ : أجباً وسَلَمَى ، وهما يمتدان في شكل هلال كبير ، والجو بهما صحى ، والطقس منعش ، وتسقط بعض الأمطار التي تؤهل للمراعى .

وتضيق صحراء النفود كلما اتجهنا شرقاً حتى نصل بواسطة برزخ ضيق إلى صحراء الدَّهْنَاء الشرقية ، تلك الصحراء التي تسقط سقوطاً شديداً نحو الخليج العربي ، وتمتاز بكثرة وديانها وبنابيعها . وإذا انتهينا إلى جنوب هذه الدهناء وسرنا غرباً ، أصبحنا في دَهْنَاء كبيرة تسمى الربع الخالى ، وهي تُعدُّ مجهولة حتى اليوم . والبقية الباقية من نجد في شمالى الربع الخالى وشرقى الحجاز تكثر فيها المرتفعات ، كما تكثر الوديان ، إلا أن طقسها أكثر احتمالا .

وهذه الصحراء هي موطن البدو أو القبائل الرُّحَّل من العرب الذين يرعون الأغنام والأنعام ، ويتنقلون حول المراعى معتمدين على ما تهبه السماء لهم من مطر ، ولعلمهم من أجل ذلك سموه غَيْثاً . وإذا احتبس هذا الغيث جفَّت الحياة وهلك القطعان والرُّعاء ، ولذلك كثرت رحلة البدو في الصحراء يطلبون مساقط الغيث ، ويتجمعون الكلاً والماء .

وإذا ضاقت بهم صحراؤهم رحلوا إلى المناطق المتحضرة من حولهم بغزون

أو ينهبون ، وأحياناً نراهم يقيمون جنباً إلى جنب مع أصحاب هذه المناطق ، ويحاولون أن يتعلموا الزراعة منهم كما حدث لقبائل ربيعة في العراق قبل الإسلام ، وكان ذلك سبباً مهماً في اقتباسها بعض العادات والأفكار من سكان أحواض دجلة والفرات .

ولكن الكثرة الغالبة بقيت في الصحراء نهادر داخلية من كلاً إلى كلاً ومن مَرَّعى إلى مَرَّعى ، وقتلت في سبيل ذلك مع جيرانها ومن تصادفهم في طريقها ، وقد طبع ذلك الحياة الجاهلية في نجد بطابع الغزو والإغارة ، فكثرت أيام العرب ، وكثرت حروبهم .

ومعنى ذلك أن حياة البدو في نجد لم تعرف الاستقرار ، فقد كانت من جهة حربياً مستمرة ، وكانت من جهة ثانية رحلاً مستمراً . وهذا الرحيل المستمر الدائر لم يؤهل هؤلاء البدو لحضارة ، بل جعلهم في شبه عزلة ، فأسوار الصحراء تفصل بينهم وبين من حولهم من الأمم المتحضرة ، وليس عندهم من الفرصة أو الوقت ما يجعلهم يستقرون ويعملون في سبيل حضارة متدرجة . ومن هنا تخلفت قبائل نجد عن التقدم في حضارة الحضارة إلا ما سقط إلى بعضهم سقوطاً عن طريق احتكاكهم بسكان العراق وسكان الشام .

ويقسم النسابون قبائل العرب قسمين كبيرين يشعبان من قحطان وعدنان ، ويسميان القبائل القحطانية والعُدنانية<sup>(١)</sup> ، وهو تقسيم يُردُّ إلى حقيقة تاريخية ، فالقبائل القحطانية أو اليمنية قبائل جنوبية هاجرت إلى الشمال في أزمان متفرقة ، وخاصة بعد أن ضعفت الدولة الحميرية ، أي منذ القرنين الرابع والخامس للميلاد ، أما القبائل العدنانية فهي القبائل التي كانت تسكن في الشمال دائماً .

والمعروف أنه كانت هناك لغة جنوبية تفرق عن لغة عرب الشمال ، وهي اللغة الحميرية ، وهي أقرب إلى الحبشية منها إلى العربية الشمالية . وكان عرب الجنوب أكثر تحضرًا من عرب الشمال ، وهم في واقع الأمر متحضرون تَبَدُّوا ، غير أن من يرجع إلى أسفار هذه القبائل حين ظهور الإسلام يلاحظ أنهم طُبِعوا بطوابع

(١) انظر هنا كتاب أولري السابق ص ١٥ وما بعدها .

عرب الشمال لا من حيث البداوة فقط ، بل من حيث اللغة أيضاً ، فقد هجروا لغتهم الحميرية أو اليمنية إلى العربية الشمالية ، ولملك قلما نلاحظ فروقاً بين لغة شعرهم ولغة شعر جيرانهم العدنانيين .

والذي يلفت النظر حقاً هو أن قبائل نجد تكتلت في هذين الفرعين الكبيرين وقامت بينها منافسات كثيرة على أساس هذا التكتل ، وهو ما يُعرَفُ في تاريخ العرب بالعصبيات القحطانية والعدنانية ، أو اليمنية والمضرية . وقد ظلت هذه العصبيات بعد الإسلام في صورة لا تدع للباحث مجالاً للشك في أنها تعبر عن نزعات قديمة توارثتها القبائل العربية .

وأهم القبائل القحطانية لَحْمٌ وقد نزلت في الحيرة ، وَجُهَيْنَةُ وَكَلْبٌ وقد نزلتا في بادية الشام ، وَغَسَّانُ التي نزلت على الحدود السورية ، وعَامِلَةُ وَجُدَّامُ وَقُضَاعَةُ اللاتي نزلن شماليّ الحجاز وعلى حدود فلسطين ، وَعُدْرَةُ التي نزلت بالقرب من تَيْحَمَاءَ ووادي الْقُرَى . ثم الأوس والخزرج في يثرب ، وخزاعة حول مكة ، وطَيْئٌ في جبلى أجأ وسلمى ، وبَجِيلَةُ في الطائف ، وأزد السَّراة في الحجاز ، وأزد عُمَآن ، وَكِنْدَةُ في حَضْرَمَوْتْ ، وَهَمْدَانُ وَمَذْحِجٌ في اليمن ، وإلى مَذْحِجٍ تنسب قبيلة الحارث بن كعب ، وَتُعرَفُ بِبَلْحَارِث ، وكانت تنزل ناحية نَجْرَان .

وأهم القبائل العدنانية بَكْرٌ وَتَغَلَبٌ وكانتا تنزلان في الشمال الشرقى للجزيرة ، وَتَمِيمٌ وكانت تنزل في صحراء الدَّهْنَاءِ ، وعبد الْقَيْسِ وكانت ينزل في البحرين ، وَكِنَانَةُ وهَذِيلُ بالقرب من مكة ، وأسد في شمالي نجد . ثم قبائل قَيْسِ عَيْلَانَ ، وأشهرها هِوْازَنُ وَسُلَيْمٌ وعامر وَغَطَفَانُ : وإلى غَطَفَانِ تنسب عَيْسٌ وَذُبْيَانُ . وكانت هذه القبائل تنزل في شرقيّ الحجاز .

وواضح أن أكثر القبائل العدنانية كان يقيم في داخل الصحراء العربية ، وعلى العكس كانت القبائل اليمنية يقيم أكثرها على الحدود وفي منشآت متاخمة للأمم الأجنبية . وجعلها ذلك نحتك أكثر من القبائل العدنانية بالحضارات المجاورة في العراق والشام ، ولذلك كثرت فيها المسيحية .

على أنه ينبغي أن نلاحظ هنا أن ما أشرنا إليه من انعزال قبائل نجد عن

جيرانهم المتحضرين إنما هو نظرة عامة ، ولكن من يتفحص صلتهم بمن جاورهم ، وخاصة هذه القبائل القحطانية التي كانت تنزل متاخمةً للفرس في العراق والبيزنطيين في الشام ، يرى أنهم لم يكونوا منعزلين ألبتة عن جيرانهم بل كانوا على صلة دائمة بهم . وكان للقوافل التجارية التي تحدثنا عنها قبل ذلك أثر لا ينكر في هذه الصلة ، وكذلك الأسواق التي أقامتها الدول المجاورة لتبادل السلع معهم . وليس ذلك فحسب فإن المستعمرات اليهودية كانت منبثة في الحجاز ، وكانت البعث المسيحية نشيطة ، واستطاعت أن تُنصّر نَجْران . فذلك كله كان له أثره في تسرب بعض العناصر الحضارية إلى الجزيرة العربية .

وكما قدمنا كانت هذه القبائل تعيش في الجاهلية على الرعي والارتحال وراء مساقط الغيث ، وهي معيشة اعتمدت على منافسات قبليّة شديدة بين الفريقين الكبيرين من القحطانيين والعدنانيين ، ثم انقسم الفرعان إلى غصون وشعب كثيرة ، كلها تحاربت وكلها تقاتلت ، بحيث كان تاريخ العرب في الجاهلية ليس إلا أياماً وحروباً ، يتربّص فيها بعضهم ببعض ، ويأكل فيها بعضهم بعضاً .

وحاول الإسلام أن يميّز فيهم هذه الروح ، واستجابوا لهديه إلا نفرًا طلوا يحكّمون السيوف ، ويعظمون اللماء ، ويفعلون انفعالات شديدة عندما تُمسّ كرامتهم بأذى شيء ، إلا أن يدخل السلطان فيا بينهم . ونستطيع أن نلاحظ في وضوح أنهم ظلوا بعد الإسلام محتفظين بكثير من صفات بداوتهم ، إذ كانت الجيوش العربية الفاتحة تمرّ منهم ، وكانوا من أجل ذلك كثيرى الهجرة شرقاً وغرباً لحاجة الثغور إليهم ، ولأن الدولة كانت ترى أن يقوم العرب أنفسهم بنشر الإسلام وفتح البلدان .

على أن هذه الهجرة أحدثت شقاقاً جديداً بين هذه القبائل ، فإن القبائل القيسية المضرية حين هاجرت إلى الشام والجزيرة وزاحمت كلباً في الشام وأخوانها من القبائل اليمنية ، كما زاحمت تغلب في الجزيرة ، شَبَّت الحرب جدّةً ما بينها وبين هذه القبائل التي زاحمتها . وسرعان ما رأينا الجماعتين تتحوّلان إلى ما يشبه حزبين سياسيين ، فكانت تغلب العدنانية وكنب وغيرها من القبائل اليمنية حزباً للدولة الرسمي ، وكانت قيس تقف ، بحكم منازعتها لأصحاب هذا الحزب في

## الصفوف المعارضة .

وقد ورث العصر الأموي بسبب هذه الخصومة أياماً كثيرة ، وأشعاراً كثيرة أيضاً نظمتها كل قبيلة ، أو قُلْ نظمها كل حزب في الانتصار لنفسه . ولعل الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري خيرَ مَرَجِعٍ لهذه الأشعار الكثيرة التي نظمها الفريقان في تلك الحروب .

أما القبائل التي قَسَرَّت واستمرت في داخل الجزيرة فقد وُجِدَ عندها نشاط أدبي محدود ، إذ وجد بينها شعراء يشبهون آباءهم الجاهليين في طباعهم وفي موضوعاتهم التي طرعوها . على أن هناك جانباً إسلامياً جديداً في حياتهم لم يكن مألوفاً لهم في الجاهلية ، وكان له صدهاء في شعرهم ، ونقصد الجانب السياسي وما نظَّمته الدولة بينها وبينهم من العلاقات ، وما فَرَضَ عليهم الإسلام من الصدقات ، فإن ذلك دعا إلى إقامة وُلاة وسُعاة عليهم يجمعون الصدقات منهم ، ويظهر أن بعضهم كان يشتطُّ في ذلك ويبالغ ، فكثُر سخطهم على الوُلاة والسعاة ، وصوِّرَ شعرهم ذلك تصويراً طريفاً ، مما سنعرض له في مكان آخر .

ومن غير شك كان النشاط الأدبي في نجد في أثناء هذا العصر الأموي أقلَّ مما كان عليه في العصر الجاهلي لسبب بسيط ، وهو كثرة مَنْ هاجروا منها شرقاً وغرباً . على أن ضرباً طريفاً من الغزل شاع فيها ، ولم يكن مألوفاً من قبل ، وهو غزل عُدْرِيٍّ عفيف . وقد اشتهرت به قبيلة عُدْرة ، وكلنا نحفظ اسم جميل بِثَيْنَةَ العُدْرِي ، كما اشتهرت به بعض القبائل النجدية الأخرى ، فظهر فيها مثل قَيْس بن ذَرِيح ، وأيضاً ظهرت فيها أسماء أشبه ما تكون بالرمز مثل مجنون لبلب العامري ، وهو — فيا نظن — شخصية أسطورية .

على كل حال ظهر هذا الغزل العُدْرِي ، وشاع في نجد وبادي الحجاز في أثناء عصر بني أمية ، وهو غزل ينمُّ عن نفس صافية ، صفاءها الإسلام ، وأحال الحب فيها إلى براءة وطهارة ، فقد سما بالنفوس ، وكان لهذا السمو أثره في هذا الغزل العُدْرِي الذي يرتفع في بعض جوانبه عن المادة والحس .

## العراق

كان جريان دجلة والفرات في العراق وما عُرِف به من خصب أرضه سبباً في قيام حضارات على رافديه كحضارة بابل وآشور ، وقد سكنه منذ أقدم الأزمنة عناصر مختلفة منها السامى كالأكديين ، ومنها غير السامى كالسومريين . وكل من يرجع إلى تاريخ العراق قبل الإسلام يلاحظ كثرة الغارات والهجرات إليه من الغرب تارة ومن الشرق تارة ثانية ، وطبيعى أن تكثر الغارات عليه لما يَطَوِّقه من صحارى مجربة وجبال قاحلة كجبال طوروس التى تقع في شماليته ، ولذلك كثر وفود القبائل عليه غازية ناهية .

ولما علا نَجْمُ الفرس ونشب الصراع بينهم وبين الرومان كان كل منهما يَحْتَدُّ عَيْنَهُ إلى ما بيد الآخر ، فالرومان يريدون أن يستولوا على الرافدين وما يَكُرُّ نَانَهُ من الهلال الخصيب ، والفرس يريدون أن يستولوا على مستعمرات الروم : الشام ومصر . ورأى كل منهما أن يقيم دولة من العرب تكون درعاً له أمام جَشَعِ الآخر ، فكوّن الرومان دولة الأنباط وتدمر .

وفي العهد الساساني قبل الإسلام وبعد انقسام الدولة الرومانية إلى غربية وشرقية أو إلى روما وبيزنطة رأينا كلاً من الطرفين يحاول بكل ما وسع من قوة أن يتألف جماعة من العرب يقيم منها دولة ، فكوّن الروم أو كونت بيزنطة إمارة الغساسنة في الشام على حدود سوريا ، بينما كوّن الساسانيون إمارة الحيرة في العراق ، واعتبرا حاكمها العربى أميراً من أمرائهم ، وكانوا يختارونه عادة من قبيلة لحم اليمنية .

ووصلت الحيرة إلى الذروة في القرن السادس الميلادى ، فإن الدولة الحميرية ضعفت ضعفاً شديداً ، فتحول عرب الجنوب كما تحول كثير من قبائل نجد الوسطى وشرق الجزيرة إلى الحيرة ، فكان لما عليهم شبه سيادة ، ولعل ذلك هو الذى جعل الفرس يستولون على اليمن حقبة من الدهر .

ونستطيع أن نلاحظ هذا التفوق الذى وصلت إليه الحيرة إذا عرفنا أن المنذر الثالث الذى كان يعاصر جومستينان صاحب بيزنطة ، اضطرب الرومان حين عقدوا الصلح بينهم وبين الفرس سنة ٥٣٢ م أن يدفعوا له قدرًا من المال ، مثله فى ذلك مثل ملك الفرس<sup>(١)</sup> ودار الزمن دورات وولى الحيرة النعمان بن المنذر الخامس صاحب النابغة الذبياني ، وساءت العلاقات بينه وبين الفرس فحبسوه<sup>(٢)</sup> حتى توفى سنة ٦٠٢ م . وبهذه السنة انتهى حكم الأسرة اللخمية للحيرة ، وولّى الفرس عليها إياساً الطائى ، وغضبت قبيلة بكر للخميين ، واتجهت جنوباً إلى البحرين ، حيث ظلت تناوى الفرس إلى أن جاء الإسلام .

ومن غير شك سقطت إلى عرب الحيرة فى العصر الجاهلى عناصر حضارية كثيرة بعضها عن طريق أصدقائهم من الفرس ، وبعضها عن طريق أعدائهم من البيزنطيين . فكان منهم من يعرف اللغة الفارسية مثل عدى بن زيد ، وكان من تراجمة أبرويز ملك الفرس ، وكان أبوه زيد شاعراً خطيباً وقارئاً كتب العرب والفرس<sup>(٣)</sup> . وعدى وأبوه زيد إنما هما رمزان لهذه الصلة الحضارية بين أهل الحيرة وجيرانهم الفارسيين .

وكان اشتراك اللخمين فى الحروب مع بيزنطة سبباً فى أن تقتبس الحيرة كثيراً من الأفكار والعناصر الرومانية الإغريقية ، إذ كان ينزل بها بعض الأسرى من البيزنطيين ، كما تدل على ذلك المصادر اليونانية واللاتينية<sup>(٤)</sup> ، ويذكر لامنس أنه كان بها بيزنطى يدعى ابن تيوفيل الطبيب<sup>(٥)</sup> . ويروى أن النعمان الأول استخدم فى بناء حصونه بعض البنائين من الإغريق<sup>(٦)</sup> .

وهذه النصوص تشير إشارة قاطعة إلى تأثيرات رومانية إغريقية وصلت إلى الحيرة قبل الإسلام . على أن هناك جانباً مهماً جداً لم نتحدث عنه حتى الآن ، وكان

الأغانى ( طبع الساسى ) ٩١/١٤ وما بعدها  
حيث يقول أبو الفرج : إنه كان من تجار  
الشام وكان حريفاً للنعمان يبايعه وكان أدبياً  
حسن الحديث والادب .  
(٦) أوليرى ص ١٥٨ .

(١) انظر أوليرى ص ١٥٩ .  
(٢) أغانى ( طبع دار الكتب ) ١٢٢/٢  
- ١٢٨ وانظر المسعودى ٢٠٥/٣ وما بعدها .  
(٣) تاريخ ابن خلدون ٢٦٦/٢ .  
(٤) أوليرى ص ١٥٩ .  
(٥) كتاب بكة للانس ص ٣٤٥ وانظر

أعرق في الحيرة من كل ما سبق، وهو جانب المسيحية وما كان من تنصّر أهل الحيرة .  
 وحققاً تأخرت الهيئة الحاكمة في التنصّر إلّا أننا نجد هنداً أم عمرو بن المنذر بن ماء  
 السماء تبتنى ديراً<sup>(١)</sup> في أواسط القرن السادس ، ويقال إن النعمان بن المنذر  
 دخل في المسيحية<sup>(٢)</sup> .

ولا نصل إلى الإسلام حتى تصبح الحيرة مسيحية ، وكانت تتبع الكنيسة  
 النسطورية التي سيطر عليها السريان في العراق والجزيرة . وصلة السريان وكنيستهم  
 النسطورية بالثقافة الإغريقية مقررّة معروفة<sup>(٣)</sup> ، فقد أنشأوا في نصيبين وغيرها  
 مدارس لاهوتية كانت تقتبس عن الأكاديميات الفلسفية ، وكانت تحاول أن توفق  
 بين اللاهوت المسيحي والفلسفة اليونانية .

ولم تكن المسألة مسألة صبغة إغريقية عمت في الكنيسة النسطورية ، بل  
 كانت أكثر من ذلك ، فإن السريان انطلقوا يترجمون كثيراً من المؤلفات الإغريقية ،  
 وقد عرض دى بور لما ترجموه وقال إنهم أحلوا في الإلهيات عناصر مسيحية  
 محل ما هو وثني ، فبطرس وبولس ويوحنا يترامون أحبائنا بدل سقراط وأفلاطون  
 وأرسطو ، وحلّ الإله الواحد محل القدر والآلهة ، ويقول : إنهم ترجموا الرياضيات  
 والطبائعيات والطب ومجموعات من الحكم الخلقية والتهديبية ، وعُتوا أشد العناية  
 بالفلسفة الفثاغورية الأفلاطونية ومنطق أرسطو<sup>(٤)</sup> .

وكان هؤلاء السريان ينتشرون في حوض دجلة الأعلى وفي الجنوب حول الحيرة  
 وفي الحيرة نفسها . فإذا قلنا بعد ذلك إن العرب المقيمين في شرق الجزيرة قبل  
 الإسلام وقعوا تحت تأثيرات فارسية لمجاورتهم لفارس ، وليس ذلك فحسب ، بل  
 لقد وقعوا تحت تأثيرات إغريقية بواسطة هؤلاء السريان من النساطرة الذين  
 نشروا المسيحية فيهم لم تكن مبالغين ولا مغالين ، فقد دخلت المسيحية في بكر  
 بقلوب كما دخلت في الحيرة ، وإذا كان بين عرب الحيرة من عرفوا اللسان الفارسي  
 مثل عدى وأبيه زيد فأكبر الظن أن كثيراً منهم عرفوا اللسان السرياني . ونفقدوا نه

(٢) أولري ص ١٢٤ وما بعدها .  
 (٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٠٠  
 (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٢٠ .

(١) انظر مسمي البلدان لياقوت في اسم دير  
 البند الصغرى ودير هات الكبرى والأغانى (طبع دار  
 الكتب) ١٣١/٢ .  
 (٢) أغانى ١٠٦/٢ .

إلى تمثل كثير من الثقافة الإغريقية .

ومعنى كل ذلك أن عرب العراق خضعوا قبل الإسلام لتأثيرات فارسية وأخرى رومانية إغريقية ، فلما جاء الإسلام وخرجت قبائل كثيرة من نجد إلى العراق خضعوا لنفس التأثيرات ، بل إن التأثيرات كانت أعنف وأحد ، فقد انتقل الفرس بحضارتهم إلى الإسلام كما انتقل كثير من نصارى العراق إلى الإسلام أيضاً . وحلّت البصرة والكوفة محل الحيرة ، واحتفظتا بكل التراث الثقافي الفارسي والروماني الإغريقي الذي كان منشأً هناك . ومن المحقق أن حركة عقلية كبيرة انبثقت في الكوفة والبصرة في أثناء عصر بني أمية ، وكان العرب هم الذين أشعلوا جذوتها ، فقد أخذوا يقبلون على دراسات القرآن الكريم وتعاليم الإسلام الحنيف ، وأخذت تتكون مدارس مختلفة تُعنى بالتفسير والفقه ورواية الحديث النبوي ، كما تكونت مدرسة كلامية تبحث في مسائل القدر ، وكلنا نعرف المدرسة العقلية التي كان من أهم دعائمتها الحسن البصري وتلميذه واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال ، وهي المدرسة التي أُسست بالبصرة والتي كانت تقول بحرية الإدارة .

وكل ذلك أتاح للعرب هناك نشاطاً عقلياً جماً ، فهم يثيرون المسائل في الدين ، ويجيبهم عليها جيئةً من الفقهاء ، وهم يبحثون في الإيمان وفي القضاء والقدر ، ويجيبهم عليها المتكلمون الورعون ، من أمثال الحسن البصري ، الذين وقفوا أنفسهم على وعظ المسلمين وإرشادهم وتوضيح ما يغمض عليهم مستنديين إلى آي الذكر الحكيم ونصوص الحديث الشريف .

على أنه ينبغي أن ننضم إلى إقليم العراق في هذا العصر الأموي لإقليم فارس وما كان به من تأثيرات رومانية إغريقية عن طريق البيزنطيين الذين كانوا يتزلون هناك إما مأسورين أو فارين من الدولة البيزنطية حين اضطهدت من لا يقول بعقيدتها المسيحية في طبيعة المسيح . ومعروف أن كسرى أنوشروان ( ٥٣١ - ٥٧٩ م ) أسس في جَسْدِيسَابُور معهداً للدراسات الفلسفية والطبية ، وقام على هذا المعهد أستاذة من المسيحيين السريان يعاونهم بعض اليونان .

ونحن إنما ننضم هذا الإقليم إلى العراق لأنه كان مضموماً في هذا العصر الأموي فعلاً إليه ، إذ كان يتبعه في السياسة ، فكان والي العراق هو الذي يُديره ، وهو

الذى يؤلى عليه من يشاء من موظفيه . وكذلك الشأن في إقليم خراسان وما فتح من الهند ، فالعراق كان يضم تحت جناحيه شرق الدولة العربية كلها .

ومهما يكن فإن العراق أهدى هو وما وراءه من فارس إلى العرب كل ما عرف الفرس من حضارة ، وكل ما سقط فيه أو في فارس من تأثيرات بيزنطية . وقد اتسعت هذه التأثيرات في العصر الأموي ، وأخذت تدفع العرب دفعا أن يؤسروا — على مناهج صحيحة — دراساتهم المختلفة .

وإذا كان العراق أهدى إلى العرب كل ما احتفظ به من تراث ثقافي فارسي أو روماني إغريقي ، فإنه أهدى إليهم أيضا منافسة القديمة لعرب الشام الذين كانوا يحاربون دائما في صفوف بيزنطة ، بينما كان يحارب هو في صفوف الدولة الساسانية . فلما جاء الإسلام أسدل الستار مؤقتا على هذه المنافسة ، وشغل اللخميون والغساسنة جميعا بالفتوح ، وخيّل إلى الناس أن نيران هذه المنافسة استحالت رمادا ، ولكن لم تكد تظهر أول فتنة في الإسلام حتى تبين أنه لا يزال تحت الرماد وميض جسيم ، فاشتبكت الفتنان في سلسلة حروب ، واستطاعت الشام يمثلها معاوية أن تنتصر على العراق التي كان يمثلها علي . وصوّر شاعران في الإقليمين التنافسين تصويرا واضحا هذه النزعة ، فقال شاعر الشام :

أرى الشام تكره ملك العراق      وأهل العراق لهم كارهونا  
وقالوا على إمام لنا      قتلنا رضينا ابن هند رضينا

وقال شاعر العراق :

أناكم على بأهل العراق      وأهل الحجاز فما تصنعونا  
فإن يكره القوم ملك العراق      فقدما رضينا الذي تكرهونا<sup>(١)</sup>

ومن هنا ظهر التنافس شديدا طوال عصر بني أمية بين أهل العراق وبينهم من فارس وبين أهل الشام . فكان الأولون دائما في اضطراب مستمر ، إذ كانوا معارضين للأمويين أصحاب أهل الشام ، وكانوا دائما طيرون

(١) الأغيار الباقية للدينوري (طبع لندن)

مع أول ناعق للثورة عليهم ، طاروا أو ثاروا مع الحسين بن علي ، أو على الأقل حاولوا ، وثاروا مع المختار الثَّقَفِي ، وثاروا مع مُصْعَب بن الزبير ، وثاروا مع عبد الرحمن بن الأشعث ، وثاروا مع يزيد بن المهلب . فتاريخ العراق في العصر الأموي ثورات متعاقبة لسبب طبيعي ، وهي أنه كان يُكْرَهُ خصومة حفيقة للأمويين وأنصارهم من أهل الشام .

وعَبَّرَ العراق عن هذه الخصومة في حزينين كبيرين هما حزبا الخوارج والشيعة ، وملاً كل من الحزبين صفحات الأدب العربي في هذا العصر بخطبه وشعره ، بحيث يستطيع الباحث أن يؤلف دراسة ممتعة لشعر كل من الطائفتين . وهو شعر كان يدور في كثير من جوانبه على الدعوة للانتفاض على الأمويين وبتَّ هذه الخصومة العنيفة التي تُسْتَخْدَمُ فيها السيوف وتُسْفَكُ الدماء ، يَسْفِكُهَا الخوارج دائماً ، ويسفكها الشيعة من حين إلى حين .

وتصادف أن أكثر عرب العراق كانوا من العدنانيين ، بينما كان أكثر عرب الشام من القحطانيين ، فاتخذ الصراع بين الإقليمين شكل عصبية قَبَلِيَّة بين الفرعين العربيين الكبيرين . ولم تقف هذه العصبية عند القحطانيين والعدنانيين فقد ذهبت كل قبيلة بل كل عشيرة تجترَّ تاريخها في الجاهلية وأيامها وحروبها ، فاندلعت نيران خصومة شديدة بين القحطانيين والعدنانيين من جهة ، وبين شعَبهم وأحيانهم من جهة ثانية .

ولعل من طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أن كلا من البصرة والكوفة خُطِّطَ تخطيطاً قَبَلِيّاً ، فكل قبيلة لها خِطَّتُها ، ففي البصرة مثلاً لكل من تَمِيم والأزد وبكر وعبد القيس خِطَّتُها التي تنزل فيها ، وكانت الكوفة مقسمة إلى خِطَطٍ مختلفة بين القحطانيين والعدنانيين <sup>(١)</sup> ، وكان القحطانيون اثني عشر ألفاً ، بينما كان العدنانيون ثمانية آلاف <sup>(٢)</sup> .

قبيلة قبل نزول علي بن أبي طالب الكوفة وبعد نزوله . ومن طريف ما ذكره أن البصرة سبقت الكوفة في التحضر ، فقد بنيت منازل وشيدت مساكنها قبل الكوفة بزمان بعيد .  
(٢) نوح البلدان للبلاذري ص ٢٧٦ .

(١) انظر خطط الكوفة وشرح خريطتها للمسنون ترجمه المصمعي (طبع مطبعة العراق - صيدا) حيث يوضح مسنونيون ص ١٠ منازل كل قبيلة قحطانية أو عدنانية ، وقد ذكر أن القبائل حشدت في سبع خطط ، وأوضح خطة كل

وساعد هذا التخطيط نفسه على احتدام العصبية بين القبائل ، وكانت هذه العصبية أو الحصومات القبلية موضوعاً خطيراً ، يُدلى كل شاعر فيه بدلوّه ، ويحاول أن يأتي فيه بكل ما يستطيع من ثناء على قبيلته أو أزهار فتخبر بتوجهها بها ، وفي الوقت ذاته يحاول أن يخسر من خصومها بل يحاول أن يرميهم بكل ما يستطيع من حجارة هجاء وقذف . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يعد من الممكن دفع هذا السيل ، فكل قبيلة أصبح لها شاعرها الذي يتغنى بمآثرها في الجاهلية وما كان لها من أيام وحروب وأجناد مختلفة ، وفي الوقت نفسه يصب جام غضبه على القبائل المعادية ، ويحاول أن يطعنها في صميم شرفها وحسبها الطعنة القاضية . وأصبحت البصرة والكوفة مسرحاً لهذه العصبية أو قل لهذه السهام التي كانت ترشها القبائل المختلفة هناك ، وتصوبها كل منها إلى صدر جارتها . وشاركتهم في ذلك القبائل المجاورة كقبيلة تغلب في الجزيرة . وهكذا أخذت كل قبيلة تزحف على جاراتها بشعرائها ومآثرها .

ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف أن بيئة العراق أهلت الشعر العربي في هذا العصر لأن يخوض في موضوعين كبيرين . أما أولهما فهذه الحصومة السياسية التي اشتعلت بين الحوارج والشيعة وبين الأمويين ، وأما ثانيهما فهذه الحصومة القبلية التي التهمت بين العدنانيين والقحطانيين ، ثم بين أغصانهم وشعبهم المختلفة . فالشعر الذي وجد في العراق لعصر بني أمية إما شعر سياسي ، وهو الذي كان يُقَال في الحصومة الأولى ، وإما شعر قبلي وهو الذي كان يقال في الحصومة الثانية .

وتأثرت موضوعات الشعر المختلفة في العراق بهذين الموضوعين الكبيرين . وظهر التحامهما خاصة في مديح بني أمية على نحو ما نجد عند جرير والفرزدق والأخطل ، فقصيد المديح عندهم تتأثر بالحصومات السياسية ، كما تتأثر بالحصومات القبلية .

على أننا إذا كنا لاحظنا على شعراء الحجاز تأثرهم بالحضارة المادية وما اندمج فيها من موسيقى وغناء ، فإننا نلاحظ على شعراء العراق أن التأثيرات الحضارية المعنوية فيهم كانت قوية . فهذا التراث الفارسي والروماني الإغريقي الذي كان

هناك قبل الإسلام وجَدَ سبيله إلى الشعراء مما سنعرض له في موضع آخر .  
وليس هذا كل ما نلاحظه على هذه البيئة ، فنحن نلاحظ عليها أيضاً كثرة  
الشعر والشعراء ، بحيث تكاد تستقلُّ بأكثر ما جاءنا من شعر عن عصر بني أمية .  
وأكبر الظن أن ذلك يرجع إلى أن عرب العراق كان أكثرهم من العدنانيين أصحاب  
العربية الشمالية ، فقد اندفعت القبائل العدنانية من قيس ومُضَرَ إلى العراق ،  
وهي القبائل التي تميز بالشعر الكثير . ويكفي أن يعود الإنسان إلى ما تركت تحميم  
في هذا العصر من شعر ليرى أن العراق كان حقاً البيئة الأولى للشعر والشعراء في  
زمن بني أمية .

وأخرى نلاحظها على هذه البيئة ، وهي أنه إذا كان وُجِدَ في العصر الجاهلي  
من عرَفَ اللسان الفارسي من عرب العراق كعمديّ وأبيه زيد ، فإن الذين عرفوا  
هذا اللسان في العصر الأموي كانوا أكثر عدداً ، خاصة أن الفارسية كانت شائعة  
في البصرة والكوفة<sup>(١)</sup> ، وتذكر كتب الأدب شاعراً بصرياً ، هو يزيد بن مُفَرِّغ  
الحميري ، كان يعرف الفارسية ، وكان ينظم فيها بعض شعره<sup>(٢)</sup> . وفي الوقت نفسه  
نجد هؤلاء الموالي الكثيرين الذين كان يطفح بهم العراق يشاركون في الشعر  
العربي ، فيظهر من بينهم بعض شعراء يحسنون صنْعَ هذا الشعر ، ويجاولون أن  
يتفوقوا فيه ، مثل زياد الأعجم مولى عبد القيس<sup>(٣)</sup> . وكل هذا دليل قوّة  
الشعر الشديدة في العراق ، وكثرة ينابيعه التي شاركت فيه .

رأيه بنصوص مهمة . وأورد بيثان في فهراس  
تقائض جرير والفرزدق التي نشرها بابا للألفاظ  
الفارسية التي استخدمها . انظر الجزء الثالث  
الملصق بالفهراس ص ٦١٢ .  
(٢) البيان والتبيين ١/ ١٤٣ .  
(٣) أغاني (طبعة السامي) ٩٨/١٤ .

(١) انظر في ذلك كتاب (العربية دراسات  
في اللغة واللهجات والأساليب) ليجان فكترجمة  
الدكتور النجار (طبع جماعة الأزهر للشر  
والتأليف) ص ١٤ وما بعدها ، حيث يلعب  
المؤلف إلى أن سيل العناصر الإيرانية في القرن  
الأول كان من القوة بحيث كانت اللغة الفارسية  
تحتل المكان الأول في البصرة والكوفة ، ودعم

## الشام

يشتهر هذا الإقليم بكثرة مياهه ، واعتدال مناخه ، والتفاف غاباته وأشجاره من زيتون وغير زيتون ، وكان حصنه ووقوعه على حافة البحر المتوسط الشرقية سبباً في أن تقوم به وتتعاقد عليه حضارات مختلفة ، فقد يمتدحها كان فيه الفينيقيون والعبريون ، وقد يمتدحها استعمره المصريون واليونان والرومان . وأهلّه ذلك دائماً للاتصال بالأمم القديمة وتمثل ما عندها من مدنيات .

وكان قبل الإسلام تابعاً لبيزنطة ، وكان الفرس يفكرون دائماً في الاستيلاء عليه ، فرأت بيزنطة ، كما رأت روما من قبل ، أن تستعين بالعرب المجاورين له ، فكونت الإمارة المعروفة باسم إمارة الفساسنة من آل جفنة .

والمصادر العربية التي تحت أيدينا عن تاريخ هذه الإمارة غامضة ، ولعل مرجع ذلك أن وثائقها التاريخية كانت بيزنطية بخلاف الحيرة ، فقد كانت وثائقها فارسية أو سريانية ، وكان كثير من أسلم في العراق يعرف الفارسية والسريانية ، فانصل العرب بتاريخ الحيرة مباشرة . أما تاريخ الفساسنة فلم يستطيعوا الاتصال به لعدم معرفتهم اليونانية ، ومن هنا بدأ ما كتبه عن هذا التاريخ مضطرباً مشوشاً ، وغامضاً مبهماً ، فبينما تعد بعض المصادر ملوك الفساسنة عشرة إذ تجعلها أخرى سبعة وثلاثين<sup>(١)</sup> ، وبينما يجعل حمزة الأصفهاني حكم الحارث بن جبلة عشر سنين إذ المصادر اليونانية تجعله أربعين . ثم إن حمزة يذكر بعد الحارث عدة أمراء حكموا ، على زعمه ، نحو خمسة قرون مع أنه من المحقق أن خلفاء الحارث لم يملكوا بعده أكثر من خمس وستين سنة<sup>(٢)</sup> .

ويشير نولدكه إلى أن مؤرخي العرب المختلفين لم تكن لهم معرفة واضحة بغير

(١) انظر أمراء غسان لنولدكه (طبع بيروت)

(٢) أمراء غسان ص ٥ .

ص ٥٧ وما بعدها .

أفراد قلائل من بني جفنة ، ويذكر أن الطبرى ومن نقلوا عنه كانوا يجهلون هله الأسرة جهلاً يكاد يكون تاماً<sup>(١)</sup> .

والتاريخ الحقيقى لآل جفنة إنما يبدأ بالحارث بن جبلة فهو أول أمير غسانى يثى المؤرخون بإمارته ، إذ كان معاصراً لخمستينان ، وقد جعله أميراً على كل القبائل العربية الشمالية سنة ٥٢٩ م بعد حادثة مهمة هى انتصاره على المنذر أمير الحيرة . ولم يكف خمستينان بذلك ، بل منحه لقب « فيلارك » وبطريق . وكانت حياة الحارث سلسلة حروب بينه وبين المنذر ، وقد قضى عليه عام ٥٥٤ م ، وزار بيزنطة عام ٥٦٣ م وتوفى عام ٥٧٠ م .

وعيّنت بيزنطة من بعده ابنه المنذر ، وفى عهده هاجم عرب الحيرة الحمد السورية ، فانصر عليهم فى وقعة « عين أباغ » . وفى سنة ٥٨٠ م زار بيزنطة مع ولدين له فاستقبل استقبالاً عظيماً ، وهناك ألبسوه التاج ، واعترفوا به ملكاً أو أميراً على العرب . غير أنهم لم يلبثوا أن اتهموه وقبضوا عليه ، فثار عليهم أولاده بقيادة النعمان ، ووقع هو الآخر فى قبضة أيديهم . ومن حيثئذ ضعف شأن الغساسنة ، وكادوا يعدّون منتهين ، ولذلك لا نسمع بهم فى الحروب البيزنطية الفارسية التى شبت عام ٦١٣ م ، وإن كنا نجد مؤرخى العرب يذكرون لهم أميراً فى عصر الفتوح هو جبلة<sup>(٢)</sup> بن الأيهم الذى أسلم ، ثم ارتد ، وهرب إلى قيصر ، وظل عنده حتى مات .

وإذا كان عرب العراق اللخميون عُرِفوا بمدينة اشتهرت هى الحيرة فإن عرب الشام الغساسنة لم يعرفوا بمدينة معينة . والمؤرخون والشعراء يذكرون لهم عدة مواضع ، كانوا يتزلون فيها ، إذ كانت إمارتهم تمتد من شمال بادية الشام من بُصْرَى إلى فلسطين ، فكانت تشمل مقاطعات الجولان وحوران والبلقاء . ويتردد على ألسنة الشعراء ذكر جِلَّتَى ، وكانت منازل بالقرب من دمشق فى موضع على نهر بَرْدَى الذى يشتهر بساتينه . وأشهرُ من جِلَّتَى الجابيةُ وكانت على مسافة يوم إلى الجنوب الشرقى من دمشق .

(٢) أمراء غسان ص ٤٩ .

(١) أمراء غسان ص ٦٠ .

ويظهر أن الفساسة لم يحلوا هاتين القريتين إلى مدينتين حقاً ، فكانتا خليطاً من الخيام والمباني البسيطة ، وإن كان حمزة الأصفهاني يُشيد دائماً بما بناه الفساسة ، إلا أن نولده يشكك في كل ما يزعمه من ذلك<sup>(١)</sup> . وربما كان للعلاقات السيئة بين بيزنطة والفساسة في أواخر العصر الجاهلي أثر في أنهم لم يستقروا تماماً ، إذ جعلوا أنفسهم دائماً على أهبة الفرار داخل الصحراء .

على أن هذا كله ليس معناه انقطاع الصلة بين عرب الشام والعناصر الحضارية البيزنطية ، فقد دخل هؤلاء العرب في المسيحية وأكثروا من بنائهم للأديرة . والذي لا شك فيه أن تأثيرهم بالعناصر الرومانية الإغريقية كان أقوى من تأثير عرب العراق لأنهم كانوا في نفس المجال البيزنطي . وقد اختاروا المذهب العقوي ، فإذا كان النساطرة هم الذين أثروا في عرب العراق فإن العقوبيين هم الذين أثروا في عرب الشام . وبذهب أوليري إلى أن البعاقبة يتفوقون على النساطرة في ترجمة الفلسفة الأرسطائية ، وشرحها ، والتعليق عليها<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أن ما تسرب إليهم من الفلسفة اليونانية لا يقل ، إن لم يزد ، عما تسرب إلى النساطرة .

ونحن نعرف أن الشام أو أكثرها تحول إلى الإسلام عربياً وغير عرب ، وكانت الشام كلها مسيحية ، وقد وضعت الكنيسة لاهوتها على أصول إغريقية رومانية . وإذا كنا لاحظنا عند النساطرة إنشاء المدارس اللاهوتية على سُنَنٍ مقتبسة من الأكاديميات الفلسفية كملزمة نصيبين فلنا نلاحظ ذلك أيضاً في الشام حيث أُسِّسَت منذ القرن الثالث الميلادي مدرسة في قيساريّة وأخرى في أنطاكية<sup>(٣)</sup> . ولما فُتِحَ باب الجدل في القرن الخامس الميلادي في طبيعة المسيح استعان المتجادلون بالفلسفة اليونانية ومنطقها ، حتى بدعوا آراءهم بالحجج والبراهين .

وإذن فالشام قبل الإسلام كانت غارقة في تأثيرات رومانية بيزنطية ، فلما فتحتها العرب واستقروا فيها تحولت إليهم هذه الترواات العقلية . يقول فون كريبمر : « وبهذا الطريق وحده يجب أن يُفسَّر التشابه البين الذي نلاحظه في مظاهر

(٢) أوليري ص ١٢٨ .

(١) أمراء غسان ص ٥٣ .

(٢) أوليري ص ١٤١ .

المسيحية البيزنطية الأماسية والتعاليم الإسلامية . وإن البحث في كنه الله وصفاته هو أول شيء له المقام الأول في كتابات كل من آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين عند العرب ، فأقدم علماء المسلمين يَشْفَعُونَ أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التي تدور حول القضاء والقدر والإرادة (١) .

ومعنى ذلك أن الشام ساعدت مساعلة فعالة في تكوين العقيدة الإسلامية لهذا العصر الأموي ، ومن أهم الذين ناقشوا في هذا الجانب وأعظمهم يوحنا دمشق الذي كان يكتب اليونانية ، وكان يلقب لفصاحته بدفءاق الذهب ، وكان في شبابه نديماً ليزيد بن معاوية ، وولى إدارة الشؤون المالية في دمشق لغير خليفة ، وله مؤلفات مختلفة ، منها محاوراة مع مسلم في ألوهية المسيح ونظرية حرية الإدارة ، وكتاب لأرشاد النصارى في جملهم مع المسلمين . ويرجع أنه ناقش كثيرين منهم في القلندر ، وأن مناقشاته تلك كانت تدور أحياناً في حضرة الخليفة . ولا شك أنه نقل إلى العرب في أثناء ذلك كثيراً من النزعات النصرانية والأفكار الإغريقية (٢) .

وكل الدلائل تدل على أن العرب في الشام كما قبلوا على يوحنا قبلوا على كل ما كان هناك من عناصر عقلية ، ولم يجعلوا حرجاً في ذلك ، بل لقد دفعوهم دفءاً إلى أن يترجموا لهم بعض المؤلفات اليونانية . وخالد بن يزيد بن معاوية خير من يصور لنا ذلك ، فقد تلمذ لراهب يسمى مَرِيَّانُس ، وأخذ عنه صنعة الطب والكيمياء (٣) ، ويقول ابن النديم عنه إنه : « عُنِيَ بإخراج كتب القدماء في الصنعة . . . وهو أول من تُرْجِمَ له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . وقد رأيت من كتبه كتاب الحرات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة (٤) » .

ولا شك في أن خالداً إنما هو رمز للحركة الكبيرة التي قامت في الشام وما شاع فيها من تبادل هذه السلعة العقلية : يعطى العرب شعرهم وقرآنهم وحديث رسولهم ،

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان (طبع

ديسلان) ٢٤٦/١ .

(٤) فهرست ابن النديم (طبع ليلسك)

ص ٣٥٤ .

(١) الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمثرات

الأجنبية (نشر دار الفكر العربي) ص ٦٦ .

(٢) انظر تاريخ العرب (مطبع) لتوليب

حتى (نشر دار الكشاف) ٣١٤/٢ .

ويأخذون الفلسفة اليونانية والأفكار المسيحية، ويتأثرون في أثناء ذلك بما كان شائعاً هناك من تشريع بيزنطى ومن نُظُم إدارية في الدولة ونظم حربية .

فالتأثير الرومانى الإغريقى فى الشام كان عنيفاً ، وكان من آثاره هذا التنظيم الحربى الذى نجده فى رسالة عبد الحميد الكاتب إلى ولّى عهد الخليفة الأموى الأخير : مروان بن محمد . وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ، ويترجم منها بعض رسائل لأرسطاطاليس<sup>(١)</sup> . وهذا كله يجعل الشام فى مكان عيسى من حيث وصل العرب بالحضارة الرومانية الإغريقية ، وهو وصل بدأ منذ الجاهلية ، ولكنه اتسع فى هذا العصر اتساعاً شديداً .

وقد لاحظنا أن العرب الذين كانوا فى الشام قديماً كان أكثرهم إن لم يكن كلهم من القحطانية ، وكان لهذا تأثيره على هذه البيئة من حيث شاعريتها ، فإن من يستعرض نصوص العصر الأموى لا يكاد يجد للشام نشاطاً يُذكر من حيث الشعر ، وأكبر الظن أن هذا يرجع إلى أن السكان هناك كان أكثرهم يمينيين ، اصطنعوا العربية الشمالية اصطناعاً ، فلم تؤهلهم لقول الشعر ونظمه ، ولذلك لا نجد لهم شعراء مشهورين فى هذا العصر سوى عدى بن الرقاع العاملى .

وفرق بعيد جداً بين نشاط الشعر فى العراق ونشاطه فى بيئة الشام ، ففى العراق نستطيع أن نعد أسماء شعراء ممتازين بالعشرات ، فصحف الشعر تُتلى فى كل مكان ، أما فى الشام فلا يكاد يظهر على المسرح شاعر ممتاز سوى عدى بن الرقاع ، ومع ذلك فهو لا يُعد شيئاً بالقياس إلى فعول العراق من مثل جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة والكُمَيْت وهلم جرا .

فبيئة الشام لم تكن بيئة شاعرة كما كانت بيئة العراق ، وأكثر ما كان يقال فيها من شعر كان يتعد عليها من الخارج . واتخذ ذلك صورتين : الأولى أن يفد الشعراء بشعرهم على دمشق يُنشدونه الخلفاء ، والثانية أن تحدث فى الشام حوادث تقتضى نظم الشعر كهذه الحوادث ، أو قل كهذه الحروب ، التى نشبت بين القبائل القيسية حين هاجرت هناك وبين القبائل اليمينية فى الشام . فقد اقترنت هذه

(١) الفهرست ص ١١٧ .

الحروب بشر كثير . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن أكثر هذا الشعر كان واقداً على الشام مع هذه القبائل القيسية مثل عامر وسليم التي وفدت هناك من بوادي نجد والحجاز ، واستقر كثير منها في قيسرين وفلسطين العليا . وسرعان ما تطورت الظروف وجاءت موقعة مَرَج رَاهِط ، واشتبكت الفئتان في حروب دامية ، واشتبك شعراؤهما في مفاخر ومثالب كثيرة .

ومع ذلك يمكن أن نعد هذا الشعر طارئاً ، لأنه أتى مع هذه القبائل القيسية . والحق أن الشام لا تقارَنُ بما كان في العراق من نشاط أدبي ونشاط في الشعر خاصة ، لهذا السبب الذي ذكرناه ، وهو أن كثرة أهلها كانوا عُميين أو لم يكونوا يُحَسِّنون لسان العربية الشمالية كما أحسنه أهلها ، فتأخروا عنهم في نظم الشعر ولم يستطيعوا أن يجاروهم فيه .

على أن هناك نشاطاً في الشعر حدث في هذه البيئة ، ولكنه لم يحدث عن طريق هذه القبائل اليمنية ، إنما حدث عن طريق الأسرة المُصَرِّية هناك ، وهي الأسرة الحاكمة من بني أمية ، فإن بعض أمراء هذه الأسرة انصرفوا إلى حياة اللهو والغناء التي سبق أن تحدثنا عنها في الحجاز ، وكان كل شيء من حولهم يؤهلهم لذلك ، فقد نعيموا بحياة مترفة غاية الترف وعاشوا في قصور باذخة ، وأحاطوا أنفسهم بكل ما يستطيعون من مظاهر الفخامة . ويخيل إلى الإنسان كأن الجوارح كلها أصبحت عطشاً خالصاً ، أو كأن البيئة أصبحت كلها حلوة وزينة<sup>(١)</sup> .

وقد ذهب هؤلاء الأمراء والخلفاء يستقلعون مغنى الحجاز ومغنياته ، فأهلوا بذلك الشام لأن تنتقل إليه هذه الحركة الغنائية التي سبق أن وصفناها في الحجاز ، وقد انتقل معها هذا الشعر الغنائي الذي كان ينظمه عمر بن أبي ربيعة والأخوص ومن إليهما من الشعراء في مكة والمدينة . وهناك أسماء خلفاء ثلاثة يتردد ذكرهم في هذا المجال ، وهم : يزيد بن معاوية ، وابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد ، فإن هؤلاء الخلفاء طلبوا الغناء الحجازي ، وفسحوا له في مجالسهم ، وعقلوا للمغنين والمغنيات الحفلات المختلفة .

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ليد أمير على (ترجمة رياض رافت) ص ١٦٨ وما بعدها .

وكان من آثار ذلك أن أخذت الشام تقلد الحجاز ، وتنقل عنه هذا الغناء الجليل وما ارتبط به من هذه النظرية التي سبق أن أشرنا إليها ، ولعلنا حينئذ بعض أسماء ، أشهرها أبو كامل الغزيريل مغنى الوليد بن يزيد .

وليس هذا كل ما يلاحظ على هذه الحركة ، فقد انتقل أيضاً هذا الفن الجديد من الغزل المطبوع بالطابع الغنائى التام . ونحن لا نصل إلى الوليد بن يزيد حتى نجد أنه ينقل من أثناء ذلك كله إلى أن يصبح مغنياً يحسن الإيقاع والضرب على الأدوات الموسيقية ، بل تنقل عنه أصوات تؤنثر في بيئات المغنين . وليس هذا فحسب ، فقد كان شاعراً غنائياً بالمعنى الكامل فشعره كله مقطوعات حب وضمير ، وشعره كله ألف من أجل الغناء . وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع .

ولعل في هذا ما يدل على أن الشام لم تعرف الشعر في هذا العصر الأموى إلا طارئاً ، إما على لسان هؤلاء الشعراء الوافدين الذين كانوا يمدحون الخلفاء في دمشق ، وإما تحت تأثير ظروف طارئة كهله الحروب التي شبت ناراها بين القيسية والبيحية منذ فتنة ابن الزبير ، أو على لسان هذه الأسرة القرشية المضربة من بني أمية . وهذا كله واضح الدلالة على أن بيئة الشام كانت متخلقة في هذا العصر ، من حيث الشعر ، عن بيئة العراق وبيئة الحجاز ، ومع ذلك فهناك بيئات إسلامية كانت أكثر تخلقاً .

## ٥

### بيئات أخرى

وهذه البيئات التي كان تخلفها أكثر من تخلف الشام هي : اليمن ، ومصر ، وبلاد المغرب ، والأندلس . أما اليمن فعروف أنها كانت أكثر تحضراً من الحجاز ونجد ، وقد قامت بها دول قديمة كسباً ومعين ، وأتت من بعدها الدولة الحميرية منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، ومن اسم هذه الدولة تسمى اللغة الجنوبية باسم اللغة الحميرية ، وهي تخالف العربية الشمالية في كثير من مفرداتها ووجوه اشتقاقها .

ومن أجل ذلك يكون من الطبيعي أن لا نجد في هذه البيئة العربية الجنوبية نشاطاً أدبياً لا في الشعر ولا في النثر، لسبب بسيط وهو أن أهلها لم يساهموا في الشعر الأموي كما أنهم لم يساهموا سابقاً في الشعر الجاهلي. فأهل اليمن، الذين استمروا فيها ولم يهاجروا، ظلوا يعيشون كما كانوا يعيشون في الجاهلية، أو ظلوا يُجْزَرون حياتهم على نحو ما كانوا يجزونها قديماً، وأيضاً فإنهم ظلوا يستخدمون غالباً اللغة الحميرية كأسلافهم السابقين.

ولا ريب في أن لغة قريش أو لغة القرآن الكريم أخذت تؤثر فيهم، ولكنه كان تأثيراً بطيئاً، فلم تظهر آثاره سريعاً في هذا العصر، إنما ظهرت في عصور متأخرة. ومن هنا كانت بيئة اليمن متخلفة في الشعر في أثناء هذا العصر الأموي، فليس لها نشاط فيه، إلا من هاجروا منها في الفتح، واختلطوا بعرب الشمال، واستخدموا لغتهم في التعبير عن خواطرمهم. ولكن هؤلاء المهاجرين يُعَدُّون منفصلين عن بيئتهم، فقد عاشوا في بيئات أخرى. والذي نسجله هنا أن بيئة اليمن نفسها لم تشارك مشاركة ذات قيمة في الشعر في أثناء عصر بني أمية، لأنه كان يقال في لغة تُعَدُّ غريبة بالقياس إليها، فطبيعي أن لا تُنظَّم فيه أو على الأقل أن لا تبرع فيه براعة من شأنها أن تُحدث لها فيه نشاطاً أدبياً يذكر.

وأما مصر التي وصفها هيرودوت بأنها هبة النيل، فقد كانت أعرق من اليمن في الحضارة، وقد شاركت في المدنية الإنسانية منذ بُنِيَ الأهرام، وعنها تلقَّت الأمم القديمة من فينيقيين وبابليين ويونان. وكما أعطت أخذت، فاتصلت بالحضارة اليونانية والرومانية، وشاركت مدرسة الإسكندرية في الفكر الإغريقي، وطوّرت فلسفته إلى الأفلاطونية.

فلما فتح العرب مصر كانت الثقافة الإغريقية الرومانية منتشرة فيها، وكانت اليونانية تُدرَّس في الإسكندرية، وكذلك كانت تدرس السريانية<sup>(١)</sup>. وهذا طبيعي لأن السريانية كانت لغة اللاهوت المسيحي وكانت مصر مسيحية، فانتشرت بأديرتها، ولقيت عناية من وهبائها.

(١) فتح العرب لمصر لبترل (طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ص ٨٤.

وكل ما سبق أن قلناه عن اتصال المسيحية في الشام والعراق بالثقافة الرومانية الإغريقية بَطَبَّقَتْ تطبيقاً على مصر ، بل لقد سبقت مصر الإقليمين السالفين بما أوجدت من الأفلاطونية الحديثة ، وانبرى علماء اللاهوت فيها يفيدون من الفلسفة اليونانية ، ويعلقون عليها ، ويشرحون ، كما انبرى معهم علماء الإسكندرية .

وظلت عناصر من هذه الثقافة في البيئة المصرية وأثرت في الأجيال التالية ، على الرغم من إغلاق مدرسة الإسكندرية ، فقد هجرها أساتذتها إلى أنطاكية في عهد عمر بن عبد العزيز ، ولكن على كل حال ظلت آثارهم ، وظلت عناصر من هذه الثقافة القديمة منتشرة في مصر بدليل ما عُرِفَتْ به في العصور التالية من كثرة الأطباء .

ونحن نعرف أن كثيراً من القبائل العربية هاجرت إلى مصر حين سمعت بخيراتها وثمارها ، ومع ذلك نلاحظ أن نشاطها الأدبي في هذا العصر الأموي كان محدوداً جداً ، فإذا عرفنا أن أكثر القبائل العربية التي هاجرت إليها كانت يمنية أمكننا أن نعرف لماذا تخلّفت في الأدب والشعر لهذا العصر ، فإن القبائل اليمنية حتى التي تركت مواطنها قبل الإسلام إلى الشمال لا تنبغ في الشعر العربي نبوغ القبائل الشمالية المصرية والقيسية .

والواقع أننا لا نجد في مصر شعراً يُذكر في هذا العصر إلا شعر الشعراء الوافدين إليها ، فقد زارها طائفة غير قليلة من الشعراء ، حينما كان عبد العزيز بن مروان والياً عليها من قبل أخيه عبد الملك ، إذ كان ممدّحاً كثير النوال جزيل العطاء ، فكان الشعراء يفدون عليه للمدح ، ومن وفد عليه كُثِيرٌ ونُصِيبَ وابن قيس الرُّقِيَّات وأبْنُ مَن بن خُرَيْم وعبد الله بن الحجاج التَّغْلِبِي وجَمِيل . ونجد في ( كتاب الولاة والقضاة ) للكندي و ( كتاب الأغاني ) نصوصاً كثيرة لهؤلاء الشعراء في مديح عبد العزيز .

فالشعر الذي ظهر في هذه البيئة لم يكن من صُنْعِها ، إنما كان وافداً عليها مع هؤلاء الشعراء ، وهو ليس شعراً مصرياً يمكن أن يُنسَبَ إليها . وإذا تصفحنا ( كتاب الولاة والقضاة ) للكندي ، وهو خير مرجع للشعر العربي في مصر في أثناء عصر الولاة ، لم نجد شاعراً مصرياً نابهاً في هذا العصر . وحقاً تمثل

الكندى ببعض أشعار لشعر من المصريين ، ولكنها أشعار ضعيفة ، ولا تعبر عن وجود نبتة فياض بمصر . وربما كان خير من يذكرهم ابن أبي زمرمة ، وكان معاصراً لعبد العزيز بن مروان ، ولكنه على كل حال شاعر متوسط إن لم يكن ضعيفاً ، فأجنته لا تكاد تنهض به في أفق الشعر العربي العام لهذا العصر .

ومعنى ذلك أن مصر في عصر بني أمية ليس لها نشاط يذكر في الشعر العربي ، لأن العرب الذين حملوا فيها لم يكونوا ذوي استعداد تام لأن يتفوقوا في هذا الشعر ، فقد كانوا يمينين ، ولم يكونوا ينظمون من الشعر إلا البيتين والثلاثة أو القطع القصيرة ، على نحو ما نجد في كتاب الولاة والقضاة . وأظن في ذلك ما يدل دلالة واضحة على هذا الضعف والتخلف .

وإذا تركنا مصر وولينا وجوهنا نحو بيئة المغرب وجدناها بيئة مترامية الأطراف إذ تمتد من مصر إلى المحيط الأطلسي بمحاذاة البحر المتوسط . وقد سكنها البربر منذ أقدم الأزمنة ، ونزل بها الفينيقيون في قرطاجنة بالقرب من تونس ، ثم استولى عليها الرومان ، وحاولوا أن ينشروا بها لغتهم ، كما حاولوا أن ينشروا بها المسيحية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفادوا بذلك بعيداً عن الساحل إلا في مناطق قليلة .

وقد استولى العرب على المغرب من يد بيزنطة ، إذ كان تابعاً لها حينئذ ، وكانت في شواطئه هذه العناصر الفينيقية والرومانية ، وأيضاً الإغريقية ، لأن العناصر الإغريقية ، كما هو معروف ، اختلطت بالعناصر الرومانية اختلاطاً واسعاً في حوض البحر المتوسط كله .

ونحن نلاحظ هنا ما لاحظناه في مصر من أن القبائل التي نزلت في بلاد المغرب كان أكثرها من اليمن ، فلم تكن من هذه القبائل الشاعرة : قبائل عدنان الشمالية . وإذا كنا قد لاحظنا أن شعراً طارئاً ظهر في مصر على ألسنة هؤلاء الشعراء الذين زاروها لمديح عبد العزيز بن مروان ، فإننا نلاحظ هنا أنه حتى هذا الشعر الطارئ لم يوجد في بلاد المغرب ، لأنه لم يوجد فيها الحاكم القوي كثير البذل والعطاء الذي يجذب إليه الشعراء من الحجاز ، أو نجد ، أو العراق .

فبلاد المغرب في عصر بني أمية أكثر تخلفاً من مصر في مجال الشعر والشعراء . وكذلك الشأن في الأندلس ، على الرغم من النخائر اللاتينية التي كانت

مباشرة فيها قبل الفتح، وما اختلط وامتزج بهذه الدخائل من عناصر فينيقية ويونانية، فقد كان للفينيقيين واليونان مستعمرات بها قبل الغزو الروماني واستيلاء روما عليها.

على كل حال كان في بلاد الأندلس عناصر عقلية وحضارية بثتها الحضارات التي مرت بها، وكان أهلها مسيحيين، وكانوا متأثرين تمام التأثر بروما اللاتينية. غير أن هذه البلاد لم تُسَخَّصْ في عصر بني أمية إلا فترة محدودة، فعلمية المزج العقلي والحضاري بينهم وبين العرب لم تجد الفرصة للتكامل حيث شذ. وإذا رحنا إلى القبائل العربية التي نزلتها وجدناها من نفس القبائل التي نزلت في مصر وبلاد المغرب، فهي غالباً قبائل يمنية. ومعنى ذلك أن الأندلس لم تكن نشيطة في الشعر العربي لهذا العصر، بل كانت متخلفة، لأن العرب الذين نزلوها أنفسهم كانوا متخلفين من حيث الشعر والشعراء.

وأظن أننا بعد هذه الجولة في الدولة الإسلامية نستطيع أن نحدد المواطن والبيئات الجغرافية النشيطة التي أنتجت الشعر العربي في العصر الأموي، وأن نعرف أي أنواع الشعر كان يسود في هذه المواطن والبيئات. فأما اليمن ومصر وبلاد المغرب والأندلس فكانت متخلفة ولم يكن لها أي خطَر في الشعر والمواطن والبيئات التي كان فيها شعرٌ يستحق الدرس حقاً هي الأربعة الأخرى: الحجاز ونجد والعراق والشام.

أما الحجاز فاختصت بنوع من الشعر الغنائي الكامل الذي كان يُصَنَّب بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية. وأما نجد فاختصت بنوع من الغزل العذري العفيف، كما اختصت بشعر يدور حول الشكوى من الخراج والصدقات وعسَف الولاة والسعاة. وأما العراق، فهي أهم بيئة نشط فيها الشعر، وقد اختصت بنوعين كبيرين منه، هما: الشعر السياسي والشعر القيسلي. أما الشعر السياسي فشعر الخوارج والشيعة ومن كان يقابلهما من أنصار الأمويين، إذ نجد لكل حزب من هذه الأحزاب شعراء الذين كانوا يناضلون عنه نضالاً عنيفاً. ولم ينقطع هذا النضال يوماً طوال العصر، إذ كانت أصوات هؤلاء الشعراء ترتفع في كل مكان في العراق، إما من قبيل الخوارج أو من قبيل الشيعة أو من قبل أنصار بني أمية. وأما الشعر

القبلي فشعر العصبيات والفخر والهجاء ، إذ اصطفت القبائل في البصرة والكوفة ، وأثيرت الأحساب والأنساب القديمة ، ونهض شعراء كل قبيلة يندجون عنها ويرمون خصومها بكل ما يستطيعون من حجارة قذف مدنية ، وضهام هجاء مُصنّية ، يريدون أن يقهروهم ويظهروا عليهم ويغفروهم . ويخيل إلى الإنسان كأن العراق تحول إلى ما يشبه بركاناً ثائراً ، فدائماً هذه الحُمم القبلية ، ودائماً أختها السياسية تصوب من كل مكان وإلى كل مكان .

أما الشام فكان لها نشاط في الشعر أيضاً لهذا العصر ، ولكنه لم يكن يأتي من داخلها ، فقد كان أكثر سكانها من اليمنية الذين لا يمارسون الشعر على نحو ما يمارسه العدنانيون والمصريون ، إنما كان يأتي من خارجها ، إما بسبب هؤلاء الشعراء الذين كانوا يتفدون على الخلفاء من الحجاز ونجد والعراق ينشدونهم مدائحهم ليأخذوا جوائزهم ، وإما بسبب القبائل القيسية من عامر وسليم التي هاجرت هناك بعد الفتح واشتركت مع القبائل اليمنية في معارك حربية وأخرى لسانية أداتها الشعر كما أسلفنا ، وإما بسبب هذه الأسرة القرشية الحاكمة من بني أمية التي أمعن أبناؤها في الترف ، وتفننوا في ضروب اللهر ، واتصلوا بفن الغناء والموسيقى الذي شاع في الحجاز . فكان ذلك كله سبباً في أن تحاول الشام أواخر هذا العصر أن تشارك مشاركة قوية في الشعر الغنائي ، الذي عُرف في الحجاز ، على نحو ما نجد عند الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وهكذا دائماً كانت الشام تنقل من الخارج ، فنشاط الشعر فيها لهذا العصر غالباً نشاط طارئ .

## الفصل الثاني

### تطور الشعر الأموى مع الحياة

١

#### الحياة الدينية

كان عرب الجاهلية فى أكثر أنحاء الجزيرة العربية وثنيين ماديين ، لا يهتمهم من الحياة سوى المُنْتَع الحسية ، فلما جاء الإسلام أضاء قلوبهم بمثالية روحية كريمة ، تقوم على نَبْذ الحياة الدنسة القديمة إلى حياة طاهرة جديدة ، كلها عبادة ، يتشَل إلى الله ، وتوصل إليه ، وبجاهدة للنفس ، حتى ترفض عَرَض الدنيا وتطلب ثواب الآخرة .

وقد حضَّ القرآن الكريم فى غير موضع على التقوى ، فقال جل شأنه : ( إنما يتقبل الله من المتقين ) كما حضَّ على ذكر الله وتسبيحه ، فقال جلَّ وعز : ( يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ) . وقال تعالى : ( إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكرُ الله أكبر ) .

وبجانب ذلك نجد دعوة إلى التوكل على الله حتى التوكل من مثل قوله تعالى : ( وعليه فليتوكل المتوكلون ) كما نجد دعوة إلى الزهد فى متاع الدنيا ومغانمها من مثل قوله عز وجل : ( فعند الله مغامٌ كثيرة ) . وصور الذكر الحكيم تصويراً رائعاً نعم الجنة التى أعدت للمتقين ، وعذاب النار التى أعدت للعاصين . وفى الوقت نفسه حثَّ القرآن الكريم فى غير موضع على الخلوص لله والاستسلام له والانتقاد إليه ، فهو ذو السلطان غير المهدود ، وهو أيضاً غفور رحيم : ( كتب على نفسه الرحمة ) ( ورَحِمْنِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ ) .

ودائماً نجد إشارات وتوجيهات إلى العمل الصالح وأن الفاترين برضوان الله هم : ( التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون

بالمعروف والنَّاهون عن المنكر ) وكذلك الفائزات ( مسلمات مؤمنات قانتات  
تائبات عابدات سائحات ) وكلمة سائحين وسائحات قد تُفيد الرحلة عن الدنيا  
ومُتَّعها .

وهذا كله صرَّف كثيرٌ من المسلمين الأولين إلى الزهد في حُطَام الدنيا  
وأكد لهم الحديث النبوي ذلك ، من مثل ما يُروى من أن رجلاً قال للنبي  
صلى الله عليه وسلم : « دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمَلْتُهُ أَحْبَبَنِي اللَّهُ وَأَحْبَبَنِي النَّاسُ » ،  
قال : ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس <sup>(١)</sup> .

فاندفع كثير من الصحابة في حياة ناسكة ، كلها تقوى ، وعبادة ، ورفق  
لزخرف الدنيا وتقشُّف ، وابتهاال إلى الله ، وتوكل عليه ، وانتظار لما عنده . ومن  
هؤلاء الصحابة مُعَاذُ بْنُ جَبَل ، وأبو بكر ، وعلى ، وعمر الذي كان يقول :  
اسْتَغْزِرُوا الدَّمْعَ بِالتَّذَكُّرِ <sup>(٢)</sup> . وكان ابنه عبد الله من كبار الزهاد ، ورسم ابن  
سعد لزهده في طبقاته صورة طريفة ، فقال : إنه كان يترك الحُصَّامَ يعلِّقُه من  
رقيق العيش ، وكان لا يلبس الخبز ، ولا يشرب في أقذاح مفضضة ولا من زجاج ،  
إنما كان يشرب في أقذاح من عِبدان <sup>(٣)</sup> . ومثله كان عبد الله بن عمرو بن العاص ،  
إذ يُجمع الرواة على أنه كان شديد المجاهدة لنفسه ، فكان يَتَقَضَّى اللَّيْلَ مُصَلِّياً  
والنهار صائماً <sup>(٤)</sup> .

ومن الصحابة الأولين الذين اشتهروا بالعبادة والزهد حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ،  
وأبو الدرداء الذي يُروى عنه في الزهد عبارات مأثورة من مثل قوله : « أَضْحَكُنِي  
ثَلَاثٌ وَأُبْكَانِي ثَلَاثٌ ، أَضْحَكُنِي مَوْتُ الدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ ، وَغَافِلٌ وَلَا يُغْفَلُ  
عَنْهُ ، وَضَاحِكٌ مِلَّةً فِيهِ ، وَلَا يَتَدَرَّى سَاحِطُ رَبِّهِ أَمْ رَاضٍ . وَأُبْكَانِي هَوْلُ  
الْمَطْلَعِ ، وَانْقِطَاعُ الْعَمَلِ ، وَمَوْقِفُ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ لَا يَدْرِي أَيُّامَرُّ بِي إِلَى الْجَنَّةِ أَمْ  
إِلَى النَّارِ » <sup>(٥)</sup> وكذلك كان سالم مولى أبي حذيفة الذي يقول فيه عمر : « إِنْ سَالِمًا  
كَانَ شَدِيدَ الْحَبْلِ لِلَّهِ » <sup>(٦)</sup> .

(١) ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ٩ وما بعدها .

(٢) بيان ١٥١/٣ .

(٣) بيان ١٥٠/٣ .

(١) البيان والتبيين ١٦٦/٣ .

(٢) نفس المصدر ١٤٩/٣ .

(٣) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد

ج ٤ ق ١ ص ١٠٥ وما بعدها .

وشهرة أبي ذرّ الغفاري في هذا الباب ذائعة ، فقد ثار على معاوية ، وهو وال بالشام لعثمان بن عفان ، حين رآه يستأثر بالفتى<sup>(١)</sup> ، ويبيح للناس ، تبعاً لسياسة عثمان ، أن يمتلكوا الضياع . وجادل معاوية في ذلك ، واحتج عليه بقوله تعالى : (والذين يكتزون الذهب والنفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) . واستمر في ثورته ، فرفع معاوية أمره إلى عثمان ، فرسم بإشخاصه إلى المدينة . فلما ذهب هناك ثار ثانية حين رأى بعض الصحابة يفتنون الدور والقصور ، فنفاه عثمان إلى قرية مجاورة للمدينة تسمى الربذة . ويروي عنه أنه قال : « فارت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوف من الجمعة إلى الجمعة مُدَّ ، ولا والله لا أزداد عليه حتى ألقاه » ، وكان يقول : « إنما مالك لك ، أو للجائحة ، أو للوارث ، فاعن ، ولا تكن أعجز الثلاثة<sup>(٢)</sup> » .

وعلى هذا النحو انتشرت موجة النسك في صدور كثير من الصحابة الذين رافقوا زاهد الأمة وعابدها الأول : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتشر معها كثير من المجاهدات والرياضات ، وخاصة في الصوم والصلاة<sup>(٣)</sup> : ووصف هذه الطائفة الحسن البصري فقال : « أدركت من صدور هذه الأمة قوماً كانوا إذا جئتهم الليل قياماً على أطرافهم ، يفتشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خلودهم ، يناجون مولاهم في فيكاك رقابهم<sup>(٤)</sup> » : ولا ريب في أن هذه الطائفة هي مقدمة لطوائف البكائين الذين نسمع بهم فيما بعد .

ولعل في ذلك كله ما يدل دلالة قاطعة على أن الزهد نشأ نشأة إسلامية خالصة ، فقد دعا إليه القرآن الكريم ودعت إليه السنة النبوية . على أننا لا نتقدم إلى عهد الفتوح حتى ندخل فيه عناصر أجنبية ، على رأسها عناصر مسيحية ، من تلك التي كانت في العراق والشام ومصر . وحركة الرهبنة في المسيحية وما يتصل بها من زهد معروفة ، وقد كان لها أثرها في هذه النزعة ، لا في وجودها ولا في تنشئتها ، ولكن في نموها من بعض الوجوه .

(٣) بيان ١٥٦/٣ .

(٤) بيان ١٣٦/٣ .

(١) الفقه : غنائم الحرب .

(٢) بيان ١٩١/٣ .

ولعل من الطريف أن نجد لعهد عثمان شخصاً يحترّم الزواج واللحم على نفسه ، وهو عامر بن عبد قيس ، زاهد البصرة وناسكها<sup>(١)</sup> . ونهج نهجه في عهد عمر بن عبد العزيز ناسك المدينة المشهور زياد<sup>(٢)</sup> بن أبي زياد أحد موالى بني عزم . وكان كثير من هؤلاء الزهاد يلتقّب بالراهب لكثرة عبادته وصلاته<sup>(٣)</sup> . وقد لقّب عبد الرحمن بن أبي عمّار الجُشَمي المكي بالقسّ لعبادته ، وكثرة تبتله إلى الله<sup>(٤)</sup> .

واستمرت صور المجاهدات والرياضات للنفس في أشكال مختلفة ، فكان بعضهم يكثر من الصلاة ، حتى ليصل ألف ركعة في اليوم<sup>(٥)</sup> ، واشتهر محمد بن طلحة ابن عبّيد الله بأنه كان يسجد فيعطيل في سجوده ، حتى إن العاصفیر لتسقط على ظهره تحسبه حائطاً<sup>(٦)</sup> . وفي طبقات ابن سعد أن معنّص بن يزيد العجلى أحد عبّاد الكوفة كان يخرج في جماعة إلى الحبّانة يتعبّدون<sup>(٧)</sup> . وكانت تزداد هذه المجاهدات حين يصنع بعضهم ذنباً يندم عليه ، فقد ارتكب أبو لبّابة معصية ، فربط نفسه إلى عمود في مسجد المدينة ، وبقي مدة على هذه الحال حتى ظنّ أن الله غفر له<sup>(٨)</sup> ، ويروى عن الزهري أن ذنباً فرط منه ، فهام على وجهه ، خوفاً من ربه<sup>(٩)</sup> .

ومن المجاهدات التي نقرأها كثيراً الحج إلى مكة لا على الإبل ، وإنما مشياً على الأقدام ، ويروى أن علي بن الحسين الملقّب بزين العابدين حجّ خمساً وعشرين حجّة راجلاً<sup>(١٠)</sup> وعلى هذه الشاكلة أخذ الزهد يتحول في كثير من الصور إلى ضروب مختلفة من المشقة وتعذيب النفس وإعانتها طلباً لما عند الله من الثواب ، وخوفاً مما أعدّه من العقاب .

وكل من يدرس هذه الموجة من الزهد ويتعقبها في الأقاليم الإسلامية في أثناء عصر بني أمية يستطيع أن يلاحظ في وضوح أن أهم إقليم انتشرت فيه هذه الموجة هو

- |                                              |                                                                 |
|----------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------|
| (١) أسد الغابة ٣ / ٨٨ .                      | (٦) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٢٣٨ / ٥ .                      |
| (٢) ابن سعد ٥ / ٢٢٥ .                        | (٧) ابن سعد ٦ / ١١١ .                                           |
| (٣) ابن سعد ٥ / ١٥٣ وانظر ج ٧ ق ١ ص ٧٣ .     | (٨) هذه الحادثة كانت على عهد الرسول ، انظر أسد الغابة ٥ / ٢٨٤ . |
| (٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٨ / ٣٣٤ .          | (٩) بيان ٣ / ١٦٨ .                                              |
| (٥) أغاني ١ / ٢٧٧ والبيان والتبيين ٣ / ١٢٩ . | (١٠) المقد الفريد ١ / ٣٦٦ .                                     |

إقليم العراق وقد تأثر فيها بعناصر أجنبية ، إذ نرى قِتَادَةَ أحدَ زهاده ينقل عن التوراة<sup>(١)</sup> كما نرى الشَّعْبِيَّ أحدَ عُبَادِهِ ينقل عن عيسى بن مريم عليه السلام<sup>(٢)</sup> وقد يكون ذلك لاتصال العراق بالرهبة المسيحية ، ومع ذلك فلم يكن أكثر صلة بها من الشام ومصر ، فلا بد من أسباب أخرى دفعت أهله إلى اعتناق هذا الزهد والمبالغة فيه . وأكبر الظن أن الحروب الداخلية الطويلة التي استمرت هناك طوال عصر بني أمية هي التي أعدت لذلك ، فإن بعض من خَسِرُوا هذه الحروب ولم يستطيعوا اقتناص الدنيا من أيدي الأمويين تحولوا إلى الزهد فيها ، ووضعوا أمانيتهم في الآخرة وما وعد الله به عباده المتقين . ولا ريب في أنه كان لظلم ولاية بني أمية وتصرفهم مع العراقيين أثر في ذلك ، ويكفي أن نعرف أن الحجاج قَتَلَ - فيما يقال - صَبْرًا وغيلة ، مائة ألف وعشرين<sup>(٣)</sup> . وغيره من ولاية العراق مثل خالد القَسْرِي ويوسف بن عمر لم يبلغوا في القتل مبلغه ، ولكنهم كانوا أيضًا قساة ظالمين . ولم يكن لدى الناس أمام هذا الظلم وتلك القسوة وما استولى على نفوسهم من فزع وخوف إلا أن يعتصموا بحسب الله وينصرفوا عن متاع الدنيا إلى متاع الآخرة .

ومعنى ذلك أن عوامل مختلفة هيأت لاتساع موجة الزهد في العراق . وإن من يقرأ الجاحظ في بيانه وهو يعدد أسماء زهاد الكوفة والبصرة ويطنل في تحذآدهم ويفتح الفصول الخاصة لذكورهم والنقل عنهم يُخَيِّلُ إليه أن زهاد العصر الأموي كلهم كانوا منبئين في العراق . ولا شك في أن الزهد كان له أصحابه في الحجاز ، كما كان له أصحابه في الشام ومصر ، ولكن العراق هي التي سَبَقَتْ فيه للأسباب التي ذكرناها ، فقد اندفع كثيرون هناك إلى العبادة والنسك ، وعُرف جمهورهم باسم القُرَّاء . والكلمة أخذت أولًا من قراءة القرآن ثم أصبحت تطلق على هؤلاء الذين أخلصوا أنفسهم لله ، فتقشفوا وتنسكوا وعاشوا معيشة زاهدة ، بل معيشة تقوم على المجاهدة ورياضة النفس .

(٢) ابن عبدربه ٢١/٢ وانظر الطبري ١١٢٣/٢

(١) بيان ١٠٤/١

(٢) بيان ٢٩٧/١

ومن أشهر زهاد الكوفة<sup>(١)</sup> علقمة بن قيس ويصفونه بأنه كان من الربانيين<sup>(٢)</sup> وابن أخيه الأسود بن يزيد ، ويقولون إنه كان صواماً قواماً<sup>(٣)</sup> ، وعمر بن عتبة ابن فرقد وكان من البكائيين<sup>(٤)</sup> ، والربيع بن خثيم ، ويقولون إنهم لم يسموه يذكر شيئاً قط من الدنيا<sup>(٥)</sup> ، وهمام بن الحارث النخعي وكان يقول : « اللهم اكفني من نوى بيسر ، واجعل سهري في طاعتك ، فكان لا ينام إلا هنيئته وهو قاعد<sup>(٦)</sup> ، وأويس القرني وكان من البكائيين ، وكان يتحرج أن يحدث أو يقص أو يفتي<sup>(٧)</sup> .

ومن أشهر قراء البصرة ونسأكها<sup>(٨)</sup> صلة بن أشيم ، وكان يصلي حتى لا يستطيع أن يأتي فراشه إلا زحفاً<sup>(٩)</sup> ، ومطرف بن عبد الله بن الشخير ، وكان يقول لأهل البصرة : « لا تنظروا إلى خفض عيشهم ( بنى أمية ) ولين لباسهم ، ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم ، وسوء منقلبهم<sup>(١٠)</sup> ، ومورق العجلى ، وكان يقول : « ضاحك معترف بنبيه خير من باك مدلل على ربه<sup>(١١)</sup> » ، وبكر بن عبد الله المزني ، وكان يقول : « الدنيا ما مضى منها فحلم ، وما بقى منها فأماني<sup>(١٢)</sup> » ، ويزيد بن أبان الرقاشي الواعظ البكاء ، ويروى أنه تمنى قوم في مجلسه ، وقالوا تمن ، فقال : « ليتنا لم نخلق ، وليتنا إذ متنا لم نبعث ، وليتنا إذ بعثنا لم نحاسب ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذب ، وليتنا إذ عذبنا لم نخلد<sup>(١٣)</sup> » .

وواضح من أقوال هؤلاء الزهاد والنسك أنهم لم يملثوا أجواءهم بعبادتهم وتشفهم فحسب ، بل ملأوها أيضاً بمواعظهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم . وقد اشتهر في المدينة أبو حازم الأعرج ومحمد بن كعب القرظي واعظ عمر بن عبد العزيز ، واشتهر في العراق الشعبي واعظ الكوفة .

( ٨ ) البيان ٣٦٣/١ ، ١٩٣/٣ .

( ٩ ) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٩٩ .

( ١٠ ) البيان ١٥٢/٣ .

( ١١ ) البيان ١٥٨/٣ .

( ١٢ ) البيان ١٥٢/٣ .

( ١٣ ) البيان ١٥٩/٣ .

( ١ ) انظر البيان ٣٦٣/١ ، ١٩٣/٣ .

( ٢ ) ابن سعد ٦١/٦ .

( ٣ ) البيان ١٥٩/٣ .

( ٤ ) ابن سعد ١٤٣/٦ .

( ٥ ) ابن سعد ١٢٧/٦ .

( ٦ ) ابن سعد ٨١/٦ .

( ٧ ) ابن سعد ١١٤/٦ .

وواعظ العراق غير مدافع الحسن البصري ، ومواعظه مشورة في البيان والتبيين ، وكلها تنمى على ابن آدم نسيانه لربه وآخرته ، وما أعد له الله من ثواب وعقاب . ويمس الإنسان في مواعظه دائماً بالرجفة والفرع من العذاب ، وكأنه يرى بعينه الجحيم ، وهو يخلط ذلك بالدعوة إلى الزهد في حطام الدنيا ، والتقرب إلى الله بالعبادة والنسك والمحبة . ويروى عنه أنه كان يقول : « ليس الإيمان بالتحلى ولا التمسى ، ولكن ما وقّر في القلوب وصدّفته الأعمال <sup>(١)</sup> » . ومن قوله أيضاً : « متقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة <sup>(٢)</sup> » .

ويظهر من نصوص هذا العصر أن فريقاً من زهاده كانوا يلبسون الملابس الخشنه وخاصة الصوف <sup>(٣)</sup> وكان ذلك لا يعجب الحسن ، فكان يقول : « أكنوا الكبر في قلوبهم ، وأظهروا التواضع في لباسهم <sup>(٤)</sup> » . وكان يقرأ القرآن ويبكى حتى يتحدّر الدمع على لحيته <sup>(٥)</sup> .

ولم تقف هذه الموجة عند الرجال بل تعدّتهم إلى النساء ، وقد عدّ منهم الملاحظ رابعة القيسية ، ومعاذة العدوية امرأة صليّة بن أشيم ، ومن نساء الخوارج البلتجاء وغزالة وقطام وحمادة وكحيلة ، ومن نساء الغالية ليلي الناعظية وصندوف وهند <sup>(٦)</sup> .

ولمّا استطردنا كل هذا الاستطراد في بيان هذه الموجة الدينية من الزهد والتعسف والنسك والتعب ، لننل في وضوح على أن شعراء عصر بني أمية نبثوا في جوجديد فيه روحية ومثالية ، وفيه إيمان بعالم آخر فوق حسيّهم وشعورهم ، وأن هناك علة نهائية تدبّر هذا الكون ، وتعتنو لها وجوه البشر ورقابهم .

وهذا كله طبع نفسيّة كثير من الشعراء في العصر الأموي بطوايع جديدة لم تكن مألوفة في العصر الجاهلي ، عصر الوثنية ، لسبب بسيط وهو أن الشعر تعبير

(١) البيان ١٤٤/٣ .

(٢) رسالة القشيري (طبع مصر سنة ١٣١٩هـ)

ص ٨٠ .

(٤) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٢٣ .

(٥) نفس المصدر ص ١٢٧ .

(٦) البيان ٣٦٤/١ .

(٣) ابن سعد ٢٤٨/٨ وكنك ج ٤ ق ١

النفس ، وهو يتأثر بكل ما يؤثر في النفس من ظروف طبيعية : مادية ، أو روحية معنوية .

فالشعر الأموي كُتِبَ في ظلال نفسية جديدة آمنت بربها ، واستشعرت حياة تقيّة صالحة ، فيها نسل وعادة ، وفيها تقوى وزهد . وليس معنى ذلك أن كل الشعراء كانوا ناسكين زاهدين ، وإنما معناه أن الحياة الروحية الجديدة لم تنفصل عن حياتهم الفنية ، بل أثرت في كثير من جوانبها وطورتها ، وظهر هذا التطور في صور مختلفة . ويكفي أن نتصفح ديوان شاعر كالفرزدق الذي اشتهر بفسقه واستهتاره لنعرف أنه لم ينفصل من الإسلام وأنه تأثر به ، فقد حضّر هو والحسن البصري جنازة زوجه النّوّار ، فقال له الحسن وهو بإزاء القبر : « ماذا أعددت لهذا المضجع ؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة ، فقال له الحسن هذا العمود فأين الطُّنُب ؟ فقال في الحال :

أخافُ وراء القبر إن لم يُعافني      أشدّ من القبر التهابًا وأضيّقًا  
إذا جاعني يوم القيامة قائدٌ      عَنيفٌ وسوّاقٌ يسوق الفرزدقا  
لقد خاب من أولاد دارم<sup>(١)</sup> من مشي      إلى النار مغلول القلادة مؤثقا  
يُقَاد إلى نار الجحيم مُسَرَّبَلًا      سرايلَ قِطْرانٍ لباسًا محرقًا<sup>(٢)</sup> .

فالفرزدق المستهتر لم يكن الإسلام بعيدًا عن نفسه ، بل كان يعمل في سريره . وسنرى حين ندرس ملابحه أنه كان يمدح بعناصر إسلامية كثيرة ، ويروى أنه قيّد نفسه ، وآلى أن لا ينزع القيد من رجله حتى يحفظ القرآن<sup>(٣)</sup> . ولعل من الطريف أن نجد في ديوانه قصيدة يهجو فيها إبليس ، ومن قوله فيها<sup>(٤)</sup> :

ألم تَرني عاهدتُ ربي وإنني      لين رِجاجٍ قائما ومقام  
على قَسَمٍ لا أَشتم الدهرَ مسلما      ولا خارجًا من في سوء كلام  
أطعمتُك يا إبليس سبعين حِجَّةً      فلما انتهى شَيْبتي وتمّ تَمَامي

عيسى الحلي ( ١ / ٦٥ ) .

( ٣ ) أمال المرتضى ١ / ٦٣ .

( ٤ ) الديوان ص ٧٦٩ .

( ١ ) هم قومه من تميم .  
( ٢ ) ديوان الفرزدق ( طبعة الصاوي ) ص ٥٧٧ ، وانظر أمال المرتضى ( طبعة مطبعة

مُلاقٍ لِأَيَّامِ الْمَتُونِ حِمَامِي  
أَبُو الْجَيْنِ إِبْلِيسُ بِغَيْرِ خِيَامِ  
يَكُونُ وَرَائِي مَرَّةً وَأَمَامِي  
سَيِّخُلِدُنِي فِي جَنَّةٍ وَسَلَامِ  
بِمِنْكَ مِنْ خُضْرِ الْبَحُورِ طَوَامِ<sup>(١)</sup>  
كَفَرَّةً طَوْدِي يَتَذَبُلُ وَشَمَامِ  
نَكَصْتُ وَلَمْ تَحْتَكِلْ لَهُ بِمَرَامِ  
بِأَنْعَمِ عَيْشٍ فِي بَيْوتِ رُخَامِ<sup>(٢)</sup>  
لَكُمْ أَوْ تُنْخِضُوا لِقُحُوحِ غَرَامِ  
وَكُنْتَ نَكُوصًا عِنْدَ كُلِّ ذِمَامِ  
وَزَوْجَتِهِ مِنْ خَيْرِ دَارِ مَقَامِ  
أَحَادِيثَ كَانُوا فِي ظِلَالِ غَمَامِ  
رِضَاهُ وَلَا يَقْتَادُنِي بِزِمَامِ  
إِلَيْهِ جَرُوحًا فَيْكَ ذَاتِ كَلَامِ

فَرَرْتُ إِلَى رَبِّي وَأَيَقَنْتُ أَنِّي  
أَلَا طَالَمَا قَدْ بَتُّ يَوْضَعُ نَاقِي  
يَظَلُّ بِمَنْشِي عَلَى الرَّحْلِ فَارِكًا  
يُشِيرُنِي أَنْ لَنْ أَمُوتَ وَأَنَّهُ  
فَقَلْتُ لَهُ هَلَا "أَخْبَيْتُكَ أَخْرَجْتَنِي  
رَمَيْتَ بِهِ فِي الْيَمِّ لَمَّا رَأَيْتَنِي  
فَلَمَّا تَلَقَى فَوْقَهُ الْمَوْجُ طَامِيًا  
أَلَمْ تَأْتِ أَهْلَ الْحِجْرِ ، وَالْحَجَرُ أَهْلُهُ  
فَقُلْتُ : اعْبُرُوا هَذِي اللَّقُوحَ فَإِنَّهَا  
فَلَمَّا أَنَاخَوْهَا تَبَيَّرَاتٍ مِنْهُمْ  
وَأَدَمٌ قَدْ أَخْرَجْتَهُ وَهُوَ سَاكِنٌ  
وَكَمْ مِنْ قُرُونٍ قَدْ أَطَاعُوكَ أَصْبَحُوا  
وَمَا أَنْتَ يَا إِبْلِيسُ بِالْمَرْءِ أَتْنِي  
سَاجِدُكَ مِنْ سَوَاتٍ مَا كُنْتَ سُقْتَنِي

وعلى هذا النمط يستمرل الفرزدق في هجاء إبليس معبراً عن نزعة دينية كانت  
تشمّل عليها نفسه ، ومستعيراً من القرآن الكريم بعض قصصه ليُحْكَمَ هذا الهجاء .  
وما من ريب في أننا كلما أنعمنا النظر في ديوان شاعر أموي وجدنا هذا الجانب  
الديني الجديد في صور مختلفة . وإذا كان الفرزدق على استهتاره ، الذي شهّره به ،  
يتأثر هذا التأثير بالإسلام في شعره فأولى ، فيه أن يكون تأثرهم أعمق وأحد ، وخاصة  
من عرفوا بالعفاف والتدين ، فخصمه جرير التقيّ العفيف نجد في شعره مظاهر  
كثيرة لتدينه وعفته ستعرض لها في غير هذا الموضع ، ويروى عنه أنه كان  
يبكي حين تمرّ به الجنائز ، ويقول : « أحرقتني هذه الجنائز » وله ، في زوجه  
أم حنّرة ، رثاء مشهور ، يقول فيه<sup>(٣)</sup> :

(١) لعله يشير إلى قصة فرعون وغرقه المشهورة  
في القرآن الكريم أو لعله يشير إلى قصة ابن نوح  
التي وردت في سورة هود ، آية ٤٣ وما بعدها .

(٢) الحجير : ديار حمود .  
(٣) ديوان جرير ( طبعة الصاوي ) ص ٢٠١

صَلَّى الملائكةُ الذين تُخْبِرُوا والطيبون عليك والأبسرارُ

وسرى حين نعرض للمناجحة أنها كانت تستمد من العناصر الإسلامية ، وكذلك كانت أهاجيه مع الأخطل المسيحي ، ومع الفرزدق الذي يرميه دائماً بالفسق والحجون .

ومعنى ذلك أن الحياة الدينية طَوَّرَت الشعر الأحموى وأثرت أثراً عميقاً في نفوس الشعراء ، وأصبح من غير الممكن أن ينظموا شعراً لا تتضح فيه عناصر هذه الحياة ، ومن أهم ما كان من ذلك أنهم أصبحوا لا يمدحون أحداً ولا يهجون أحداً إلا ووضعوا الصفات الدينية إيجاباً وسلباً في مدحهم وهجائهم . واستمع إلى كثير يمدح عمر عبدالعزيز<sup>(١)</sup> :

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| وصدقتَ بالفعل المقالَ مع الذي  | أتيتَ فأسمى راضياً كلَّ مسلمٍ |
| وقد لبستَ لبسَ الهندوك ثيابها  | تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومغصمٍ  |
| وتومضُ أحياناً بعين مريضة      | وتبسمُ عن مثل الجمعان المنظم  |
| فأعرضتَ عنها مشمئزاً كأنما     | سقتك مدوفاً من سمامٍ وعلنم    |
| تركت الذي يفتنى وإن كان مؤنفاً | وآثرتَ ما يبقى برأي مصممٍ     |
| وأضررتَ بالفاني وشمَّرتَ للذي  | أمامك في يومٍ من الشرِّ مظلم  |

فهو يمدح عمر بانصرافه عن الدنيا مع تعرضها له ، ويقول إنه زاهد في ملذاتها وثمارها الفانية ، لأنه يريد الثمرة الباقية من ربه ، يريد رضوانه وفردوسه . وغير الخلفاء من الولاة والعمال كان الشعراء يمدحونهم أيضاً بهذه العناصر الدينية وما يشبهها من مثل قول ابن قيس الرقييات في مصعب بن الزبير وإلى العراق لأخيه عبد الله<sup>(٢)</sup> :

|                            |                        |
|----------------------------|------------------------|
| إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من الآ | تجلتَ عن وجهه الظلماءُ |
| ملكه ملك قوةٍ ليس فيه      | جبروتٌ ولا به كبرياءُ  |

(٢) ديوان ابن قيس (طبع بيروت) ص ٩١ .

(١) ديوان كبير (طبع الجزائر) ١٢٣/٢ .

يَتَّقِي اللهُ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْ لَحَ مِنْ كَانَ هَمُّهُ الْإِنْقَاءُ  
فَهُوَ يَجْعَلُ مَصْعَبًا قَبَسًا مِنْ نَوْرِ اللهِ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ مَسْلَمٌ أَشَدُّ مَا يَكُونُ الْإِسْلَامُ  
فِيهِ تَقْوَى وَصَلَاحٌ ، وَحُكْمُهُ فِيهِ تَوَاضَعٌ وَاتِّقْيَادٌ لِلَّهِ .

وبصورة مبينة لهذه الصورة الدينية كان الشعراء يتهاجون ويهجون الناس ، إذ  
كان الهجاء بالدين أقْدَعَ صور الهجاء ، واستمع إلى قول الطِّرِمَاحِ يَهْجُو تَمِيمًا  
وَيَنْصُرُ قَوْمَهُ الْأَزْدَ<sup>(١)</sup> :

لَوْحَانٌ وَرَدُّ تَمِيمٍ ثُمَّ قِيلَ لَهَا حَوْضُ الرِّسُولِ عَلَيْهِ الْأَزْدُ لَمْ تَرْدِي  
أَوْ أَنْزَلَ اللهُ وَحْيًا أَنْ يُعْتَدَّ بِهَا إِنْ لَمْ تَعُدِّي لِقِتَالِ الْأَزْدِ لَمْ تَعُدِّي

فهو يقول إن تميمًا تهلَّعَ مِنَ الْأَزْدِ ، حَتَّى لَوْ كَانَ لَهَا وَرْدٌ إِلَى الْمَاءِ ،  
وَعَلِمَتْ أَنَّهَا تَرْدُ عَلَى حَوْضِ الرِّسُولِ ، ثُمَّ عَرَفَتْ أَنَّ هُنَاكَ الْأَزْدَ لَرَجَعَتْ إِلَى نَفْسِهَا ،  
يَقُودُهَا الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ ، وَأَقَامَتْ عَلَى الْعَطَشِ وَالظَّمَا . وَهُوَ بِذَلِكَ يَرْمِيهَا بِالْجَبْنِ وَضَعْفِ  
الْإِيمَانِ بِالْإِسْلَامِ وَصَاحِبِ رِسَالَتِهِ . ثُمَّ عَادَ فَذَكَرَ هَذَا الْفَزَعَ فِي صُورَةٍ  
أُخْرَى ، فَلَوْ أَنَّ وَحْيًا نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَفِيهِ بِأَمْرِ تَمِيمًا بِقِتَالِ الْأَزْدِ بَعْدَ  
نَكْوَصِهَا ، وَأَنَّهَا إِنْ لَمْ تَفْعَلْ حَقَّ عَلَيْهَا الْعَذَابُ ، لَوْ أَنَّ ذَلِكَ حَدَثَ مَا عَادَتْ إِلَى  
هَذَا الْقِتَالِ .

وعلى نحو ما أثير الإسلام في المديح والهجاء أثير في الغزل ، بل لعل تأثيره  
فيه كان أَوْسَعَ ، فَقَدْ ظَهَرَ فِي نَجْدٍ ضَرِبَ جَدِيدٍ مِنَ الْغَزْلِ الْعَذْرَى الطَّاهِرَةِ الْعَقِيفِ ،  
كَمَا تَسَرَّبَتْ إِلَى نَفُوسِ أَصْحَابِهِ فِي نَجْدٍ وَغَيْرِ نَجْدٍ غَيْرٌ قَلِيلٍ مِنَ الْمَشَاعِرِ الدِّينِيَّةِ  
لَا مِنْ حَيْثُ تَصْنِيفِ النُّفُوسِ مِنْ أَدْرَانِهَا ، بَلْ أَيْضًا مِنْ حَيْثُ الْأَلْفَاظِ وَالْأَسَالِيبِ ،  
فَقَدْ أَخَذُوا يَسْتَخْدِمُونَ بَعْضَ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَمَا يُوَثِّرُونَ فِي قُلُوبِ مَنْ  
يَجْهَلُونَ ، مِنْ مِثْلِ قَتْلِ النَّفْسِ الْحَرَمَةِ وَمِثْلِ الذَّنْبِ وَالظُّلْمِ وَالْغُفْرَانِ ، يَقُولُ ابْنُ  
أَبِي رَبِيعَةَ<sup>(٢)</sup> :

(١) ديوان الطرمح (نشر كرئكو) ص ١٤٥ . (٢) انظر الذَّيَّوَان ، القصيدة رقم ٣٤٣ .

ألا يا مَنْ أَحَبَّ بِكُلِّ نَفْسٍ وَمَنْ هُوَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ حَسْبِي  
ومن يظلم فَاغْفِرْهُ جَمِيعًا ومن هُوَ لَا يَهْمُ بِفَقْرِ ذَنْبِي

ويقول جميل<sup>(١)</sup>:

ألا تتقين الله فيمن قتلته فأَمْسِي إليكم خاشعًا بتضرع  
ويقول كثير<sup>(٢)</sup>:

ولا تَبْأَسَا أَنْ يَمْحُوَ اللَّهُ عَنْكُمَا ذَنْبًا إِذَا صَلَّيْتُمَا حَيْثُ صَلَّيْتُمَا

ويقول مجنون ليلي<sup>(٣)</sup>:

عفا الله عن ليلي الغداةَ فإِنهَا إِذَا وَكَيْتَ حُكْمًا عَلَى تَجَوُّرٍ

ونكرر مثل هذه الألفاظ عند الغزلين جميعًا

وعلى هذا النمط تطورت جوانب كثيرة من صور المديح والمجاء والغزل القديمة تحت تأثير الروحية الإسلامية الجديدة . وسرى حين نعرض للحياة السياسية أن شعراء الأحزاب المختلفة كانوا يهتمون اهتماماً شديداً في مدائحهم وأهاجيمهم بالعناصر الدينية ، وهذا كله طبيعي فقد تغيرت نفسية القوم تحت تأثير الإسلام وتغيَّرَ مثلهم الأعلى في الفضائل والأخلاق ، وكان التساك والوعاظ ما يزلون يؤثران فيهم وفي نفسياتهم . ولذلك كنا لا نبالغ إذا زعمنا أن كثيراً من صفحات الشعر الأموي طُبِعَ بطابع ديني ، واستمع إلى قول الطِّرِمَاح<sup>(٤)</sup>:

كُلُّ جِيٍّ مُسْتَكْمَلٌ عِدَّةُ الْعُمِّ رِ وَمُودٍ إِذَا انْقَضَى عَدَدُهُ  
عَجَبًا مَا عَجِبْتُ لِلْجَامِعِ الْمَا لَ يَبْأَسِي بِهِ وَبَرْتَقِيلُهُ  
وَيُضَيِّعُ الَّذِي يَصِيرُهُ اللَّهَ هُ إِلَيْهِ فَلَيْسَ يَعْتَقِدُهُ  
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْخَوَلُ ذَا الثَّرِ وَهُ خُلَائِيُّهُ وَلَا وَلَدُهُ  
يَوْمَ يُؤْتَى بِهِ وَخَصْمَاهُ وَسَطُ الدِّ جَنِّ وَالْإِنْسِ رَجُلُهُ وَبَدَنُهُ

(٣) الأغاثل (طبع دار الكتب المصرية) ٧٥/٢ .

(٤) ديوان الطرماح ص ١١٢ .

(١) انظر ديوان جميل (نشر مكتبة مصر) ص ١١٧ .

(٢) ديوان كثير ، القصيدة رقم ٤ .

خاشع الصوت ليس ينفعه ثم      م. أمانته ولا لَدَدُهُ  
 قل لباكي الأموات لا يَبْكُ للنا      من ولا يَسْتَنْبِغُ<sup>(١)</sup> به فتنه  
 إنما الناسُ مثلُ نابتة الزَّر      ع متى يَتَانِ<sup>(٢)</sup> يأتِ مُحْتَصِلُهُ

وهذه الأبيات أشبه ما تكون بموعظة من مواعظ الحسن البصري ، فهي تستمد من القرآن الكريم ، وما يتردد فيه من أن الناس لهم أجل محتوم ( لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) وإنهم ( لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ) ( يوم لا ينفع مال ولا بنون ) ( يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ) يوم يأتي الظالمون الذين خرجوا عن جادة الدين مصفدين ، لا تفهمهم أمانيتهم ، ولا ما كانوا يجادلون به عن أنفسهم ، ولا ما اختزنوه من أموالهم ، كأنما غرهم بالله الغرور . وهذه كلها صور مبثوثة في القرآن الكريم وكان الوعاظ يُبَدِّثُون فيها ويُحِيلُون ، والخطباء يتبعهم ، فينسجها شعراً زاجراً الأغنياء الذين يكتزون الذهب والفضة قائلين لهم : إنهم لن يفلحوا أبداً ، فإنهم يُضَيِّعُونَ ما أعطاهم الله من فضله ، فلا ينفقونه في وجهه الديني من الصلقات ، يحسبون ذلك خيراً لهم ( بل هو شرٌّ لهم سَيُطَوَّقُونَ ما بخلوا به يوم القيامة ) . وإنه لينهى الأبيات بفكرة الموت التي تتردد في الذكر الحكيم كثيراً من مثل قوله تعالى ( كل نفس ذائقة الموت ) ( وإلئك ميتٌ وإنهم ميتون ) . وفي كل مكان من شعر الشعراء نجد فكرة الموت وأن أحداً لا يخلد ، فالحياة الباقية هي الحياة الآخرة ، أما هذه الحياة الدنيا فلا ينبغي لأحد أن يتمسك بها لأنها فانية ، واستمع إلى هذا الشعر لقطري بن القُجاعة<sup>(٣)</sup> .

أقولُ لها وقد طارت شَمَاعاً      من الأبطال ويحك لن تُسراعي  
 فإنَّك لو سألت بقاءَ يومٍ      على الأجل الذي لك لن تُطاعِي  
 فصبراً في مجال الموتِ صبراً      فما نيلُ الخلود بمستطاعِ  
 ولا ثوبُ البقاء بثوبِ عزٍ      فيُطَوَّى عن أخِي الخنخِ البراعِ<sup>(٤)</sup>

(٣) ديوان الحامية لأن تمام (طبع صبيح) ١/٣٣ .

(٤) الخنخ : الدُّل ، البراع : الجبان .

(١) يستنغ : يتأدى ، والفند : الحق .

(٢) يأت : يبلغ .

سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حيٍّ فداعيه لأهل الأرض داعي

وواضح أن هذا الشعر الحماسي مطبوعٌ بطابع ديني لا نعرفه في الحماسة الجاهلية ، ففيه إيمان عميق بأن الدنيا زائلة ، وأن لا شيء باقٍ على وجهها ، وأنه قد كُتِبَ لكل شخص أجلٌ معلوم ، لا ينقص ولا يزيد .

وطبيعي أن هؤلاء الشعراء الأمويين الذين حفظوا القرآن الكريم وكانوا يتلونهُ كل يوم في صلاتهم ، ومن حولهم الوُعَّاطُ والقُصَّاصُ يعظونهم ، ويوجهونهم إلى ربهم ، ويلقون الفزع في قلوبهم من عذابه وعقابه ، لا بد أن يتأثروا بذلك في نفسياتهم وفي شعرهم على نحو ما نرى الآن عند الطرماح وقطري ، وكما يترأى عند وضَّاح اليمى في قوله<sup>(١)</sup> :

صَلِّ لَدَى الْعَرْشِ وَاتَّخِذْ قَدَمًا تُنْجِيكَ يَوْمَ الْعِيَارِ وَالزَّلَاقِلِ

وكان من هؤلاء الشعراء مَنْ يتصلون مباشرةً بالدين ، إذ كان منهم الفقهاء والوعَّاط ، مثل عُرْوَة بن لُذَيْنَةَ فقيه المدينة الذي يقول في بعض شعره<sup>(٢)</sup> :

نُرَاعُ إِذَا الْخَنَائِزُ قَابِلَتُنَا وَيَحْزُنُنَا بِكَاءُ الْبَاكِيَاتِ  
كَرْوَعَةٍ ثَلَاثَةٍ لِمُنَارٍ سَبْعٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتْ رَانِعَاتِ

وواضح أن عروة يؤثِّب هؤلاء الذين يُرَاعُونَ عند الموت ، ثم يلهون ويلعبون ، كأنهم لا يعقلون ولا يَعُون .

وهناك فكرة تكررت كثيراً في بيئات الزهاد والنسَّاك، وعَبَّرَوا عنها في صور مختلفة ، وهي تقوم على عدم التفكير في رزق غد ، لأن ذلك يكون معناه عدم التوكل على الله ، وفي الحديث الشريف « لو توكَّلتم على الله حتى توكَّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِمَاصاً وتروح بَطَاناً » وقد تتابع النسَّاك يأبون التفكير في الغد والرزق الآجل ، حتى ليقول سفيان بن عِيَيْنَةَ : « فِكْرُكَ فِي رِزْقِ غَدٍ يَكْتَسِبُ عَلَيْكَ خَطِيئَةً<sup>(٣)</sup> » . وَيُرْوَى عَنْ مَسْرُوقِ بْنِ الْأَجْدَعِ أَحَدِ زُهَّادِ الْكُوفَةِ وَوَعَّاطِهَا

(١) أغاني (طبع دار الكتب ٢٩٩/٦ . (٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدرآباد) ٨/٣ .

(٣) البيان ٢٠١/٣ والحيوان ٥٠٧/٦ .

أن زوجه قالت له يوماً : « ما أصبح لعلالك اليوم رزقٌ » ، فتبسم وقال :  
« والله ليأتينهم الله برزق<sup>(١)</sup> » ، وكان أُوَيْسُ الْقَرَنِيُّ يقول : « إن معرفة المؤمن  
بمحقوق الله لم تُبْقَ له فضة ولا ذهباً<sup>(٢)</sup> » . فكانوا يستنكفون أن يجمعوا مالا<sup>(٣)</sup>  
أو يفكروا في أجل رزقهم ، وصور ذلك كله شعراً بديعاً عروة بن أذينة ،  
إذ يقول<sup>(٤)</sup> :

لقد علمت وما الإشراف من خلقي      أن الذي هو رزق سوف يأتيني  
أسعى له فيعتنيني تطلبه      ولو قصدت أثنائي لا بعثيني  
كم قد أفلت وكم أتلقت من نشب      ومن معاريف رزق غير ممنون  
فما أشرت على يسر وما ضرعت      نفسي لخلعة عثر جاء يبسلوني<sup>(٥)</sup>  
خبي كرم ونفسي لا تحدني      أن الإله بلا رزق يخليني

فهو يعبر في وضوح عن فكرة التوكل على الله التي شاعت في بيئة الزهاد وما  
يتصل بها من الثقة بالله وطمأنينة النفس وقناعتها ، وترك كل تصرف لقضاء الله ،  
وهو لا يهتم بعسر ولا يسر ، ولا يفكر في هم الرزق أو في هم القدر ، بل يدع تدبير  
ذلك لصاحب التدبير . وقد تناقش ، في هذا العصر ، مالك بن دينار فقيه البصرة  
ومحمد بن وسيع الأزدي أحد نساكها في السعادة ، وهل تكون في زرع قطعة من  
الأرض والعيش من غلتها أو تكون في غير ذلك ؟ وذهب ابن وسيع إلى أن  
السعيد هو الذي يُفْطِر في الصباح ولا يدري ما يكون عشاءه ، وأيضا ذلك الذي  
يجد عشاءه ولا يدري ما يكون أكله في الصباح<sup>(٦)</sup> .

وكان الشعر في عصر بني أمية يستجيب لهذا كله وما شاع من وعظ الوعاظ  
وأقوال النساك ، وأنت لا تكاد تجد شاعراً إلا وقد أخذ في شعره من هذه الحياة  
بحظ يختلف قوة وضعفاً ، وحسب نفسيته وصلتها بالإسلام . ولعل من الطريف  
أن نعرف أن بعض الرُّجَّاز رأى أن يستهل بعض ما ينشئ من أراجيز بالحمد والثناء

(١) ابن سعد ٥٤/٦ . أشرت : بطون . نومت : دلت .

يلوني : يختبروني .

(٥) العينية : الرشيدة في الإسلام بحولته

(طبع دار الكاتب المصري) ص ١٣٥ .

(١) ابن سعد ٥٤/٦ .

(٢) ابن سعد ١١٤/٦ .

(٣) أمال المرتضى ٤٠٩/١ وأغان ١٠٦/٢١ .

والإشراف في البيت الأول : التطلع إلى ما فاتته من

أمور الدنيا ومكائنها .

على الله بدلاً من الوقوف القديم بالأطلال والبكاء على الديار ، فأبو النجم العجلى  
يبتلى أشهر أراجيزه بقوله : ( الحمد لله الوهب المجزّل ) بينما يبتلى العجاج أم  
أراجيزه بقوله : ( قد جبر الدين الإله فجبر ) ، وفي ديوانه أرجوزة يفتحها  
بقوله (١) :

الحمد لله الذى استقلت بإذنه السماء واطمأنت

ويستمر ، فيتحدث عن خلق السموات والأرض ، وما يكون من البعث  
والنشور ، ويتحول إلى ما يشبه الواعظ . وكثيراً ما يعتريه هذا التحول في شعره  
وأراجيزه ، وهو تحول لا ترتب في أنه كان أثر هذا الوعظ الدينى ، الذى كان  
يستمع إليه الشعراء في العراق .

ومن طريف ما يلاحظ في هذا الجانب أنه ظهرت في الشعر أدعية وابتهالات  
على نحو ما نجد عند الزهاد والنسك ، وهى أدعية وابتهالات فيها قرع من  
عذاب الله وعقابه ، وسكون إلى رحمته ومفرقه ، من مثل قول ذى الرمة (٢) :

يا رب قد أشرقت نفسى وقد علمتُ علماً يقيناً لقد أحصيت آثارى  
يا مخرج الروح من جسمى إذا احتضرت وفارج الكرب زحزحتى عن النار

ويمتلىء ديوان ذى الرمة بعناصر إسلامية كثيرة من ذكر الصلاة وتقصيرها  
في السفر ، وما يكون من التيسم وتلاوة القرآن في السحر وأثناء الليل ، من مثل  
قوله (٣) :

إذا انجلي البرقُ عنه قام مبتهلاً لله يستلوه بالنجم والطور

وأكبر الظن أن فيما قلنا من هذا كله ما يدل أوضح الدلالة على أن الشعر في  
عصر بنى أمية تطور بتطور الحياة الدينية ، فقد كانت هذه الحياة في مستقر نفوس  
الشعراء وأوعية أوهامهم وأحلامهم ، فانطلق كثيرون منهم يذعنون ذلك في شعرهم ،  
حتى لتحول قطع من نظمهم إلى عظات ، وابتهالات دينية .

(١) ديوان العجاج (طبع ليسك) ص ٥ .  
(٢) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريلج)  
(٣) نفس المصدر ص ٢٨١ .

## الحياة العقلية

كان الإسلام سبباً في أن خرج العرب من طور البداوة إلى طور الحضارة ، ومعروف أن الأمم في الدور الأول لا تحقق لنفسها نهضة فكرية ، فحياتها العقلية لا تزال تتحدّها أسوار السذاجة والطفولة . وقد نقل الإسلام العرب نقلة كبيرة ، فقد استول فيما استول عليه عند الأمم المفتوحة على جميع تراثها العقلي الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق ، فما هي إلا عَشِيَّةٌ أو ضُحَاها ، حتى أخذت سيول الثقافات الأجنبية التي كانت مبعوثه في العراق والشام ومصر تنحدر إلى مجرى النهر العربي وتحدث تطوراً هائلاً في حياة العرب العقلية .

وكان من آثار ذلك أن انبثقت في هذا العصر حركات تعليمية كثيرة ، على رأسها الحركة الدينية التي عُنيت بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث الشريف ، كما عُنيت بوضع قواعد الفقه الإسلامي الذي لم يقف به أصحابه عند أمور العبادات الدينية ، بل وسَّعوه حتى شمل كل فروع الحياة المدنية والسياسية . وكانت الأصول التي تَسْتَمَدُّ منها قواعد هذا الفقه هي القرآن والحديث وإجماع المسلمين ثم القياس . ومعنى ذلك أن الاستنتاج والرأي الشخصي احتسرا في الفقه الإسلامي منذ أول الأمر ، يشهد لذلك ما رُوِيَ عن الحسن البصري من أن شخصاً سأله عن بعض فتاويه : أبرأه أم سمعها ، فقال : « لا والله ما كل ما نُفِيتي به سمعناه <sup>(١)</sup> » .

وقد أخذت تُؤسَّسُ في كل بلدة كبيرة مدرسة فقهية ، فكان في مكة عيكرمة ، وعطاء وابن أبي مَلِيكة . وفي المدينة سالم ، ونافع ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعروة بن الزبير ، والزهري . وفي اليمن رجب ابن مُتَبِّه طائوس . وفي مصر الصَّابِجِي ، وأبو تميم ، ويزيد بن عبد الله البَرِّي . وفي الشام

شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ ، وَرَجَاءُ بْنُ حَبِيبَةَ الْكَنْدِيُّ ، وَهَانِيُّ بْنُ كَلْثُومٍ ، وَكَحْلُ بْنُ الْأَوْزَاعِيِّ . وَفِي خُرَاسَانَ عِظَاءُ بْنُ مُسْلِمٍ وَالضُّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ . وَفِي الْكُوفَةِ النَّخْعِيُّ وَالشَّعْبِيُّ ، وَشَرِيحُ بْنُ الْحَارِثِ الْقَاضِي ، وَصَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . وَفِي الْبَصْرَةِ الْحَسَنُ وَابْنُ سَيْرِينَ ، وَقَتَادَةُ ، وَإِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ ، وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ ، وَأَيُّوبُ السَّخْتِيَّانِيُّ .

وهؤلاء الفقهاء من عَرَبٍ وَمَوَالٍ أَخَذُوا يُشَرِّعُونَ لِلنَّاسِ أُمُورَ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ . وَكَانَ لِلْأَخْذِ بِأَصْلِ الْقِيَاسِ فِي الْفَتْوَى أَثَرٌ وَاسِعٌ فِي اخْتِلَافِهِمْ فِي مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ . وَاشْتَهَرَتْ بَيْتَةُ الْحِجَازِ بِغَلْبَةِ الْحَدِيثِ عَلَيْهَا ، كَمَا اشْتَهَرَتْ بَيْتَةُ الْعِرَاقِ بِغَلْبَةِ الْقِيَاسِ ، وَلِذَلِكَ نَبِغَ مِنْهُمْ مَنْ سَمِعُوا أَهْلَ الرَّأْيِ <sup>(١)</sup> . وَاخْتِلَافَاتُ كَثِيرَةٍ قَامَتْ بَيْنَ الْبَيْتَيْنِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَرْوَاحِ ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُحْدِثْ حَرَجًا ، فَقَدْ رَوَى عَنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ » وَعَنْ يَحْيَى ابْنِ سَعِيدٍ : « أَهْلُ الْعِلْمِ أَهْلُ تَوْسَعَةٍ ، وَمَا بَرَّحَ الْمُفْتُونَ يَخْتَلِفُونَ ، فَيُحْكَلُ هَذَا وَيُحْرَمَ هَذَا ، فَلَا يَعْيبُ هَذَا عَلَى هَذَا ، وَلَا هَذَا عَلَى هَذَا <sup>(٢)</sup> » .

وَكَانَ هَذَا الْاِخْتِلَافُ مَحْكَمًا لِلْعُقُولِ وَمَشْجَدًا لِلْأَفْكَارِ ، فَكَانَ هَؤُلَاءِ الْفُقَهَاءُ وَتَلَامِيذُهُمْ يَبْحَثُونَ فِي وَجْهِهِ وَأَسْبَابِهِ ، حَتَّى بَلَغَ مِنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَّانِيِّ أَنَّ قَالَ : « لَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ خَطَأَ مُعَلِّمِهِ حَتَّى يَسْمَعَ الْاِخْتِلَافَ <sup>(٣)</sup> » . وَكَانَ مِنْ آثَارِهِ أَنَّ بَعْضَ الْفُقَهَاءِ كَانَ يَتَحَرَّجُ فِي الْفَتْوَى ، فَقَدْ رَوَى عَنْ النَّخْعِيِّ أَنَّهُ كَانَ لَا يَقُولُ عَنْ شَيْءٍ إِنَّهُ حَرَامٌ مُطْلَقًا أَوْ حَلَالٌ مُطْلَقًا ، وَلَكِنْ يَقُولُ : إِنْ هَذَا يَتَكَرَّرُ فِي الصَّحَابَةِ وَذَلِكَ يَسْتَحْسِنُونَهُ <sup>(٤)</sup> . وَلَكِنْ أَمْثَالُ النَّخْعِيِّ كَانُوا قَلِيلِينَ ، وَكَانَتْ الْكَثْرَةُ تَذْهَبُ إِلَى الْحُكْمِ الْبَيِّنِ وَالْفَتْوَى الرَّاضِحَةِ . وَسَرْعَانَ مَا رَأَيْنَا الْفُقَهَاءَ يَتَحَاوَرُونَ فِيهَا بَيْنَهُمْ ، فَكَانَ الشَّعْبِيُّ يَجْلِسُ فِي مَجَالِسِهِ وَأَصْحَابُهُ يَنَظُرُونَ فِي الْفَقْهِ <sup>(٥)</sup> . وَلَمْ تَقَفْ هَذِهِ الْمَنَظَرَاتُ وَالْمَجَادَلَاتُ عِنْدَ بَيْتَةِ الْفُقَهَاءِ ، بَلْ انْتَقَلَتْ إِلَى مَجَالِسِ الْخُلَفَاءِ ، فَقَدْ رَوَى أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ جَمَعَ بَيْنَ قَتَادَةَ وَالزُّهْرِيِّ ، فَغَلِبَهُ

(٤) سنن الدارمي (طبعة دمشق) ٦٤/١

وانظر ابن سعد ٢٤٤/٦

(٥) بيان ٣٢٢/٢

(١) المعارف لابن قتيبة (طبعة وشتغلند)

ص ٢٤٨

(٢) المقيدة والشرعية في الإسلام ص ٢٨٣

(٣) بيان ٩٨/٢

قتادة<sup>(١)</sup>. وكانت هذه المجادلات تأخذ أحياناً شكل أسئلة ، رَوَى ابن سعد أن  
 إلياس بن معاوية حين قلم وأسطحاً جعلوا يقولون: قَدِمَ البَصْرِيُّ ، فأتاه  
 ابن شُبْرمة بمسائل قد أعدّها له ، فجلس بين يديه ، فقال : أتأذن لي أن أسألك ،  
 قال : ما أرتبُ بك حقاً ، استأذنتني ، إن كانت لا تُعْنِتُ القاتل ولا تؤذي  
 الجليسَ فَسَلْ ، فسأله عن بضع وسبعين مسألة ، فما اختلفا يومئذ إلا في ثلاث  
 مسائل أو أربع ، ردّه فيها إلياس إلى قوله : ثم قال : يا ابن شبرمة هل قرأت  
 القرآن ؟ قال : نعم من أوله إلى آخره ، قال : فهل قرأت : ( اليوم أكملت لكم  
 دينكم وأتممت عليكم نعمتي ) ؟ قال : نعم وما قبلها وما بعدها قال : فهل وجدته  
 يبيّن لكل شبرمة شيء ينظرون فيه ؟ فقال : لا ، فقال له إلياس : إن للنسك فروعا ،  
 فذكر الصوم والصلاة والحج والجهاد ، وقال إني لا أعلمك تعلقت من النسك بشيء  
 أحسن من شيء في يدك : النظر في الرأي<sup>(٢)</sup> . وواضح أن إلياساً جعل النظر في  
 المسائل الفقهية وفروع الدين فوق النسك والعبادة .

وما من ريب في أن هذا النظر الفقهي وما طُورِي فيه من حوار وجدل كان له  
 أثره الواسع في العقل العربي العام حينئذ ، فإن الناس ومعهم الشعراء كانوا يستمعون  
 إلى هذه المجادلات والمناظرات . ومن طريف ما رَوَى الرواة في هذا الصدد أن  
 الفرزدق كان يلزم حكمة الحسن البصري ، بينما كان جرير يلزم حلقة ابن سيرين<sup>(٣)</sup>  
 وحديث صاحب الأغاني أن رجلاً سأل الحسن البصري يوماً وعنده الفرزدق  
 عن البمين اللغو في الكلام من مثل لا والله ، فقال الفرزدق له : أو ما سمعت  
 ما قلتُ في ذلك ؟ فقال الحسن . ما كل ما قلت سمعوا فما قلت ؟ فقال : قلت :

ولستُ بمأخوذٍ بلغوٍ تقولُهُ إذا لم تحمّدْ عاقداتِ الزائمِ

ولم ينشَبْ أن جاء شخص آخر ، فسأل الحسن عن سبيّة الحرب المتزوجة  
 أتَحِلَّ لمن سبّاها ؟ ، فقال الفرزدق أيضاً : أو ما سمعت ما قلتُ في ذلك ؟  
 وأنشد :

(٢) ابن عدي ١٦٩/٣ .

(١) بيان ٢٤٣/١ .

(٢) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥٥ .

وَذَاتِ حَكِيلٍ أَنْكَحْتَنَا وَمَا حُنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَبْنِي بِهَا لَمْ تُطْلَقِ<sup>(١)</sup> ،  
وأظن في ذلك ما يدل أبلغ الدلالة على صلة الشاعر الأمور بكل ما كان  
يجرى في بيئات الفقهاء . والذي يهمنا حقاً أنه كان يطلع على وجوه الخلاف  
وكانت تدعم عقله وتغذي فكره .

وأخذت تتكون في هذا العصر وفي العراق خاصة بنور علم الحِجَلِ الذي  
شاع فيما بعد عند فقهاء الأحناف ؟ وهو علم يقوم على اتساع المخرج الذي يمكن  
أن يُخلَص من يقع في إشكال ديني ، وكان أهم جانب طُبِقَ فيه جانب الأيمان ،  
وقد أشار إليه جرير في بعض نقائضه ، فقال<sup>(٢)</sup> :

وَلَا خَبِيرٌ فِي مَالٍ عَلَيْهِ أَلِيَّةٌ وَلَا فِي يَمِينٍ غَيْرِ ذَاتِ مَخَارِمٍ

والألية : اليمين ، والمخارم : الطرق في الجبال ، ويريد بها جرير هنا الطرق  
التي يَمْضِي فيها التحليل والاستثناء . ويقول ذو الرمة في وصف سُرَّاه بالليل<sup>(٣)</sup> :

طَوَى طِيَّةً فَوْقَ الْكَرَى جَفَنَ عَيْنِهِ عَلَى رَهَبَاتٍ مِنْ جَنَّاتِ الْمُحَاذِرِ<sup>(٤)</sup>  
قَلِيلًا كَتَحْلِيلِ الْأُثْلَى ثُمَّ قَلَّصَتْ بِهِ شِيَمَةً رَوْعَاءُ تَقْلِيصَ طَائِرٍ<sup>(٥)</sup>

فهو يشبه إغفائه وانتباهه السريع في السفر بتحليل الأثلي جمع ألوة وهي  
اليمين . فالشعر لم يكن غائباً عن مجالس الفقهاء ، بل كان حاضراً ، وكان  
يقظاً لكل ما يصدر منهم ، وإذن فما كان في هذه المجالس من حجاج وجدل  
ومناظرات ، كل ذلك أخذ طريقه إلى عقول الشعراء . ويمكن أن نقرأ ما يروى في  
البيان والتبيين عن إياس بن معاوية ومدى ذكائه ومقدرته في الجدل والاحتجاج<sup>(٦)</sup>  
لنعرف إلى أي حد كان يؤثر هؤلاء الفقهاء فيمن حولهم من شعراء وغير شعراء .

(١) أغاني (طبع السامي) ١٩/١٤ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان) ص ٧٥٤ .

(٣) الديوان ص ٢٩٤ .

(٤) يقول ذو الرمة إنه أغض عينه على نوم قليل . وقوله من جنات المحاذير أي ما أجه صدره

من الخوف .

(٥) يقول ذو الرمة إن شيمته رائحة ، قلصت

به تقليص طائر أي ارتفعت ارتفاع الطائر في

سرعة ، يريد أنها قوية .

(٦) انظر البيان والتبيين ١/٩٨ وما بعدها .

وأخلت تظهر بجانب ذلك أبحاث في العقيدة ، وظهرت معها مقدمات علم الكلام . وكان من أهم المسائل التي عُرِضت للبحث مسألة الإيمان وهل من الضروري أن يُرْفَقَ بالعمل أو ليس ذلك من الضروري ؟ فالمسلم يعدُّ مؤمناً وإن جازَ عن طريق القصد ، وبذلك لا يكون هناك فرق بين مسلم ومسلم ، فالجميع من أهل القبلة ، وإن عصوا ، أو لم يؤدوا الفروض الدينية ! .

وذهبت تدعو هذه الدعوة فئةٌ سميت بالمرجئة ، وكان من أهم ما دعت إليه تركُ الحكم على مصير الناس إلى ربهم ، فعل وعثمان معاوية مؤمنون ، ولا نستطيع الحكم على أحدهم بخطأ ، وكذلك كل مسلم لا يصح أن نتعرض له بحكم على عمله ، فيكنى أن يكون مسلماً ، أما عمله فذلك لربه ، حتى ولو لم يصم ولم يصل فهو مسلم ولا يصح أن يُعْطَرَدَ من حظيرة الإسلام .

وبذلك كان أول مبادئ المرجئة إرجاء الحكم على المسلم وترك أمره لربه حتى لو أهمل الفروض الدينية ، بل حتى لو اقترف المعاصي والآثام . وكثرتهم تؤمن بالجبر وتمطيل حرية الإنسان أمام القدر . وكان منهم من يرى أن تُردَّ الخلافة إلى الأمة فلا تختص بها قريش سواء بيئها الأموي الحاكم أو البيت العلوي .

ومن هنا كان مذهب المرجئة مثاراً لمناظرات ومجادلات كثيرة في العراق ، وخاصة في الكوفة دار الشيعة ومستقرهم منذ على ، فكانوا ما يزالون يتحاورون معهم ويتناقشون ، يدل على ذلك ما رواه ابن سعد من أن رجلاً كان يأتي النخعي فيتعلم منه ، فيسمع قوماً يذكرون أمر على وعثمان ، فقال : أنا أعلم من هذا الرجل ، وأرى الناس مختلفين في أمر على وعثمان ، فسأل إبراهيم النخعي عن ذلك فقال ما أنا بسني ولا مرجئي<sup>(١)</sup> . والسني نسبة إلى عبد الله بن مسباً أحد غلاة الشيعة . وفي البيان والتبيين لبعض الشعراء<sup>(٢)</sup> .

إذا المرجئيُّ مرَّكٌ أن تراهُ يموت ببلائه من قبل موتهُ  
فجددٌ عنده ذِكْرِي على وصل على النبي وأهل بيته

ويظهر أن الجدل في الإرجاء اتسع ، فنحن نجد منتقلا إلى مجالس الخلفاء  
فقد روي أن عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة رحل إليه من الكوفة عوف بن  
عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ، ومعه أبو الصباح موسى بن أبي كثير  
وعمر بن حمزة ، فكلّموه في الإرجاء وناظروه ؛ فزعموا أنه واقفهم ولم يخالفهم في  
شيء منه <sup>(١)</sup>.

ونجد في هذا العصر شاعرا ثبت في شعره آراء المرجئة الجبرية ، ويوضح أصول  
العقيدة التي اعتنقوها ، وهو ثابت قطنة الذي نشأ في العراق ، ثم تقأب في  
حروب خراسان قائداً وأعمالاً من عمال الثغور ، واستمع إليه يقول <sup>(٢)</sup> :

نُرْجَى الأمور إذا كانت مشبهةً ونَصَلِقُ القول فيمن جَارَ أو عَنَدَا  
المسلمين على الإسلام كلهمُ والمُشْرِكُونَ أَشْتَوُوا دينهم قِدَاداً <sup>(٣)</sup>  
ولا أرى أن ذنباً بالغٌ أحداً مِ الناس شركاً إذا ما وحَلُوا الصمدا  
ما قضى الله من أمرٍ فليس له رَدٌّ وما يَقْضَى من شيءٍ يَكُنْ رَشَدٌ  
الحوارج مُخْطِئٌ في مقالته ولو تعَبَّدَ فيما قال واجتهدنا  
أما على وعثمانُ فإنهما عِبدان لم يُشْرِكَا بالله مذ عَبَدَا

وهذه وثيقة طريفة أودع فيها ثابت رأى المرجئة ، فهم لا يحكمون على الأمور  
المشبهة ، وهم في الوقت نفسه لا يُكفرون أحداً من المسلمين على نحو ما يصنع  
الحوارج إذ كفروا عامة المسلمين ، وزعموا أن دارهم دارُ حَرْبٍ ، فيجب أن  
يقاتلوا أو يتبعوهم على مذهبهم . ثم هم يرجئون الحكم على عثمان وصاحبه على ،  
فهم مُرجئة ، يرجئون الحكومة على الأعمال

وأشار ثابت في البيت الرابع من أبياته إلى مسألة أخرى لعبت دوراً  
طويلاً في تاريخ علم العقائد الإسلامي أو علم الكلام ، وهي مسألة الجبر  
والاختيار في إرادة الإنسان وأعماله . وقد التزم في هذه المسألة علم العقائد المسيحي <sup>(٤)</sup>

(١) ابن سعد ٢١٨/٦ .

(٢) انظر في ذلك الجساسة الإسلامية لفون

كريم ص ٦٦ وكذلك انظر تاريخ الفلسفة

في الإسلام لدى بور ص ٤٩ .

(٣) أغل (طبع الساسي) ٥٠/٦٣ .

(٤) أشتوا: فرقوا . قنذا: فرقاً مختلفة الأمواء .

بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف من آي ونصوص ، قد يُفهم منها الجبرُّ أو يفهم منها الاختيار . وواضح من بيت ثابت أنه من الجبريَّة وكل من المرجحة من لا يؤمن بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة أمام القدر . وبذلك فريقين : فريقاً جبريّاً وفريقاً قدريّاً . ومعروف أن القدرية هم الذين يجرعون الإرادة ، حتى يحمل الإنسان وزرَّ ما يرتكبه من أعمال . ويظهر أنهم أحسوا في الجبر لا دعوةً للاتكال والتهاون والركون إلى القدر فحسب ، بل أحسوا فيه دعوة سياسية مأكرة لبني أمية لأنه يفضي بالناس إلى أن يعتقدوا أن حكم بني أمية مهما ظلموا قدرٌ مقدور ، سبق لهم في أم الكتاب ، فلا داعي لنقدهم ولا للخروج عليهم .

ويمثل النزعة الجبريَّة في وضوح من خلفاء بني أمية عبد الملك بن مروان فإنه استقدم عمرو بن سعيد بن العاص حين ثار عليه في حِمص ، ليصالحه ثم غلبه وقتله ، ونادى في أصحابه : « إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ الذي لا يمكن تحجُّبه »<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت الكوفة قد عُرِفَتْ بمناقشاتهما ومناظراتها لهذا العصر في الإرجاء فإن البصرة عُرِفَتْ بمحاوولاتها ومجادلاتها في القدر . وزعيم القائلين فيها بالقدر غير منازع الحسن البصري ، ويُروى أن عطاء بن يسار ومعبداً الجهميَّ كانا يأتيانه فيقولان : « إن هؤلاء الملوك ( بني أمية ) على قدر الله فيقول كلب أعداء الله »<sup>(٢)</sup> . وفي دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة طريفة موجَّهة من الحسن البصري إلى عبد الملك يرد فيها على ما سأله عنه من قوله بالقدر ، وقد تحمَّس فيها الحسن تحمَّساً شديداً للمذهب القدر ، وأتى بكل ما يستلزمه من آي القرآن ونصوص الحديث . ويظهر أنه كان دائم الجدال في هذه المسألة بثبورها في مجالسه ، وبثبورها معه من يستمعون إليه ، فقد رُوِيَ عن أيوب السخيتاني أنه كان يقول : « نازلت الحسن في القدر غير مرة »<sup>(٣)</sup> .

وقد ظهر في مجالسه كثير من شُعَب القول بالقدر كشعبة العدل وأن الله

(١) الإمامة والسياسة (نشر المكتبة التجارية)

(٢) المعارف ص ٢٢٥ .

(٣) ابن سعد ج ٧ ص ١٢٢ .

لا يظلم أحداً ، ففى الذكر الحكيم ( إن الله لا يظلم مثقال ذرة ) . وهى فكرة تتصل مباشرة بحرية الإرادة وأن كل إنسان يُجْزَى حسب عمله ، وكان الحسن يؤمن بها<sup>(١)</sup> ، وبأصلها من فكرة الإرادة وحرية العمل . ولعل من الطريف أن نجد الحجاج حين يحتضر يُنشد هذا الشعر<sup>(٢)</sup> :

إنَّ ذَنْبِي وَزَنُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَظَنِّي بِخَالِقِي أَنْ يُحِبَّابِي  
فَلَنْ مِنْ بِالرِّضَا فَهَوُ ظَنِّي وَلَنْ مَرٌّ بِالْكِتَابِ عَسَلَابِي  
لَمْ يَكُنْ ذَاكَ مِنْهُ ظُلْمًا وَهَلْ يَظُّ لَمْ رَبُّ يُرْجَى لِحُسْنِ الْمَالِ  
وهنا شعر يتصل مباشرة بفكرة العدل على الله وأنه لا يظلم أحداً نقيراً . وكما ظهرت هذه المسألة فى مجالس الحسن ظهرت مسألة أخرى ، دلت على فكر دقيق ، وهى مسألة مرتكب الكبيرة الذى تكفَّره الخوارج ، فقد ذهب الحسن إلى أنه مؤمن فاسق ، وذهب تلميذه واصل إلى أنه فى منزلة بين المنزلتين ، أى منزلة بين الإيمان والكفر<sup>(٣)</sup> .

ويقول الرواة إن الحسن البصرى كان يجمع بين واصل وتلميذه له آخر هو عمرو ابن عبَّيد ليتناظرا فى هذه المسألة . وروى المرتضى فى أماليه إحدى مناظراتهم<sup>(٤)</sup> وهى تصور فى وضوح دقة الفكر التى وصل إليها الناس فى العصر الأموى .

ولم يكن الشعراء بمعزل عن هذا كله ، بل شاركوا فيه . فذو الرِّمَّة مثلاً كان على مذهب القدر وما يتصل به من فكرة العدل ، يشهد لذلك ما يروى من أنه اختصم فيه مع رؤيَّة الذى كان يرى رأى الجبرية ، فقال رؤيَّة : « والله ما فحَص طائر أفحوصاً<sup>(٥)</sup> » ولا تفرمَص سبع قرموصاً<sup>(٦)</sup> إلا بقضاء من الله وقدر ، فقال له ذو الرمة : والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حُلوبة عيَّال<sup>(٧)</sup> ضرائك<sup>(٨)</sup> ، فقال رؤيَّة : أفقدته أكلها ؟ هذا كذب على الذئب ثان ، فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على ربِّ الذئب<sup>(٩)</sup> .

(٥) أفحوص الطائر : مجثم الذى يقصده .

(٦) القرموص : مبيت السبع ، أو المكان يأوى إليه .

(٧) العيَّال : جمع عيَّل وهو ذو العيال .

(٨) الضرائك : جمع ضريك وهو الفقير .

(٩) أمال المرتضى ١٩/١ .

(١) أمال المرتضى ١٠٢/١ .

(٢) ذيل الأمالى والتوادر طبع ( دار الكتب

المصرية ) ص ١٧٢ .

(٣) الملل والنحل للشهرستان ( طبع لندن ) ص ٣٣ .

(٤) أمال المرتضى ١٦٥/١ وما بعدها .

وواضح أن ذا الرمة : يأخذ بمذهب القدرية بينما يأخذ رؤبة بمذهب الجبرية .  
وعن إسحق بن سويد أنه قال : « أنشدني ذو الرمة قوله :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألياب ما تفعل الحمر

فقلت له : هلا قلت فعولين ، فأجاب لو قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر كان خيراً لك » . يريد أن يعرفه أنه راغب عن فكرته في الجبر<sup>(١)</sup> .

فلو الرمة شاعر قدرى وكان يقابله في الكفة الثانية أو في الصف الثاني رؤبة وجميع شعراء بني أمية الذين كانوا يملحونهم وينالون جوائزهم ، فقد كانوا يرون سادتهم على مذهب الجبر ، فكانوا يتعمدون الاحتكام إليه في تقرير خلافة بني أمية إما عن عقيدة ثابتة وإما من أجل إرضائهم . وفي كل مكان من شعر جرير والفرزدق نجد اللجوء إلى الجبر في تقرير خلافة الأمويين وأن الله كتب ذلك ، ولا مفر منه ولا تبديل لكلماته ، يقول جرير<sup>(٢)</sup> :

قال « الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر

والأمثلة في ديوانه وديوان صاحبه الفرزدق أكثر من أن نذكر عليها بيت أو أبيات ، واستمع إلى أعشى بني تغلب يقول<sup>(٣)</sup> :

وإن أمير المؤمنين وجرحه لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وهو يشير بذلك في صراحة إلى أنه لا يصح لأحد أن يشكو من أمير المؤمنين ظلماً ، لأن ما يصدر عنه إنما هو بقدر من الله .

وعلى هذا النحو كان الشعراء في عصر بني أمية يُصنِّع شعرهم بكل ما يدور في بيئات الفقهاء وأصحاب الكلام ، بل رأينا منهم من كان يشترك في المناقشات الدائرة في هذه البيئات كما مرّ بين ذي الرمة ورؤبة ، فالجو كله كان جواً بحث ، وكان كل شاعر يعرض عقله ورأيه فيه . ويخيّل إلى الإنسان أنه لم تكن هناك مسألة من المسائل في هذا العصر إلا وتناقش فيها الناس في سلمهم وحريهم ، وفي

(٣) (أغانى طبع دارالكتب) ٢٨٢/١١ .

(١) أغانى طبع الساسى ١١٧/١٦ .

(٢) الديوان ص ٢٧٥ .

مساجدهم وطرقاتهم ، فالفقهاء يتناقشون ، والقدرية والجبرية يتجادلون ، والمرجئة والشيعة يتحاورون . وكذلك الحوارج يمدعون إلى المناقشة والمناظرة على نحو ما دعا الحرورية مطرف<sup>(١)</sup> بن عبد الله بن الشخير . وكانوا يتجادلون ويتناظرون أيضاً فيما بينهم ، مما دعا إلى كثرة الانقسام في صفوفهم ، حتى قال زيد بن جندب خطيب الأزارقة<sup>(٢)</sup> :

ما كان أغنى رجالاً ضلّ سعيهم<sup>١</sup> عن الجدال وأغناهم عن الخطب  
كنا أناساً على دين ففرقنا طول الجدال وخطب الجدل باللعب

فلم تكن في هذا العصر نحلة ولا فكرة إلا وكانت موضعاً لمناظرات ومجادلات شتى .

وقد انسابت هذه المجادلات والمناظرات في شعر الشعراء ، فكثر شعراء الفرق من شيعة وخوارج وأمويين ، وكثر شعراء الجبرية والمرجئة والقدرية ، واحتدم الحجاج والحوار بين هؤلاء الشعراء جميعاً ، حتى لنجد شاعراً يؤلف ديواناً في الاستدلال للهاشميين وبيت على خاصة ، وهو الكُمَيْت بن زيد ، فقد ألف ديوانه (الهاشميات) انتصاراً لزيد بن علي بن الحسين إمام الطائفة المعروفة بالزيدية ، وكان زيد تلميذاً<sup>(٣)</sup> لواصل بن عطاء ، ومعنى ذلك أنه كان من المعتزلة ، وكذلك جميع الزيدية . وإذن فالكميت أيضاً يُعَدُّ من المعتزلة .

والكميت من هذه الناحية شخصية طريفة لأنه من جهة يُعَدُّ من المعتزلة ومن جهة يعد من الشيعة ، وديوانه لذلك يصور الناحيتين ، ويكشف عن مدى ما أصاب التفكير الفنى في هذا العصر من تطور ، إذ نجد هذا التفكير يتحول إلى جدال وطرق استدلال لم تكن نألُفها في القديم ، فقد أصبح الشاعر يعتنق نظرية سياسية خاصة يؤمن بها ويجعلها محور شعره ، كما أصبح مثقفاً بطرق الجدال والحوار المعاصرة وهو يطبقها في شعره تطبيقاً ، ويخضع نفسه وفنه لأساليبها إخضاعاً

(٢) انظر الشهرستاني ص ١١٥ - ١١٦ .

(١) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٠٤ .

(٢) بيان ٤٢/١ .

وإذا كان الكميت في « هاشمياته » يتصل مباشرة بالمناظرات المعاصرة له في الشيعة وغيرهم ، فقد وُجد من ورثته من لم يحاولوا تأليف ديوان خاص في نِحْلَةٍ من النَحْل ، ومع ذلك تأثروا بهذه المناظرات في طرق تفكيرهم . ويمكن أن نرجع إلى نقائض جرير والفرزدق في قَبَسٍ ونَسِيمٍ لنعرف أن هذه النقائض لم تكن في حقيقة الأمر سوى مناظرات عَقَدَهَا الشاعران التميميان في عصبيات وأيام قديمة ، وقد أخذ كل منهما يحاول أن يتفوق على خصمه تماماً كما يصنع المتناظران في نحلة من النحل أو عقيدة من العقائد .

فالنقائض التي اشتهرت في تاريخ الشعر الأموي ليست إلاَّ مناظرات بالمعنى اللطيق لهذه الكلمة ، وسنعرض في الفصل التالي لصورتها ونشأتها . ونحن ننبِّه منذ الآن إلى أنها فنَّ أموي عَدَدُهُ وطَوَّرَتْهُ هذه البيئة الجدلِيَّة فيئة العراق وما انبثَّ فيها من طرق حوار واستدلال في كل شيء ، وهو حوار واستدلال لم يلبث أن اتصل به الفرزدق وجرير وتناول كل منهما قَبَسًا منه أَلْفًا على ضوءه هذه النقائض . وصرعان ما أقبل الأخطل يشاركهما في هذا الحوار أو قل هذه المناظرات وبعث فيها جانبًا جديدًا من المفاضلة بين قيس وتغلب . وكل ذلك يُرادُ به إلى التسليَّة وقطع أوقات الفراغ لقبائل العرب التي استقرت في العراق ، ولم يكن يراد به جدًّا ولا ما يشبه الجدل مما سنفصل فيه القول فيما بعد .

والحق أن عقلية الشاعر الأموي اختلفت تمام الاختلاف عن عقلية الشاعر القديم ، فقد ثَقِفَ أشياء لم يكن يَشْفُقُهَا الشاعر الجاهلي ، (يخضع في تفكيره لأشياء لم يكن يخضع لها الشاعر الجاهلي ، فأنتج (النقائض) و (هاشميات الكميت) من جهة وأنتج عمقًا وطرافة في التفكير الفنى نلاحظهما في معاني كثير من الأبيات من جهة أخرى .

ولعل أهم ما يلاحظ على تفكيره وعقليته وما طرأ عليهما من تطور أننا نحس عنده أنه أخذ يتناول حرفته تناولًا جديدًا ، عماده البحث والدرس اللذان أَلْفَسَهما في بيئات الفقهاء وأصحاب التفكير في العقيدة النيبية من إرجاء وقدَرٍ وجَبَرٍ وعدُلٍ ومترلة تتوسط مترلتين ، كما توسطت مترلة صاحب الكبيرة بين الكفر والإيمان عند واصل .

وارجع إلى ديوان الفرزدق فإنك تجد فيه قصيدة لامية يفتخر فيها بأنه وريث شعراء الجاهلية من مثل امرئ القيس وعنتمة والمهلهل وطرفة الأعشى والمرقس وبشر بن أبي خازم وعبيد وزهير، ويصف كل منهم وصفاً يدل على معرفته به ودراسته لشعره ، ويذكر ليبدأ فيقول<sup>(١)</sup> :

والجحرى وكان بشرٌ قبله لي من قصائده الكتاب المجلد  
فهو يصرح بأن لديه نسخة مكتوبة من ديوان لبيد . ولعل في ذلك ما يدل دلالة قاطعة على أن كتابة الشعراء كانت متداولة في هذا العصر ، ونحن لانستطيع أن نفهم ما يروى عن الفرزدق من أنه كان يأمر راويه حين يستمع إلى شعر فيستحسنه أن يضيفه إلى شعره<sup>(٢)</sup> إلا إذا كانت هناك نسخة مكتوبة من ديوانه ، حتى يضيف إليها الراوى الشعر الجديد .

قد يقال إن الشعراء كانوا أميين ولكن نصوصاً كثيرة تثبت أنهم كانوا كاتين فجزير كان كاتباً<sup>(٣)</sup> وكذلك عمر بن أبي ربيعة<sup>(٤)</sup> والأحوص<sup>(٥)</sup> وعدي<sup>(٦)</sup> بن الرقاع ، ويروى الجاحظ أن ذا الرمة كان يقول لعيسى بن عمر : « أكتب شعري ، فالكتاب أحب إلي من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام<sup>(٧)</sup> »

فشاعر العصر الأموي كان شاعراً كاتباً وكان يكتب شعره وشعر غيره كي يدرسه ويبحثه وينقل عنه حين يريد النقل ويحوره حين يريد التحوير . ولعل مما يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد الصلة شديدة بين معاني الشاعر الأموي والشاعر الجاهلي . وتعرض كتب النقد الأدبي عند العرب كثيراً لأبيات في الجاهلية أعاد الأمويون صياغتها فاستكملوا الصورة وأتموها ، أو بينوا الفكرة ووضحوها ، فن ذلك أن النابغة شبه ثور الوحش في التماعه بالسيف المجرد من الغمض إذ يقول<sup>(٨)</sup> :

(١) الديوان ص ٧٢١ .

(٢) الشعر والشعراء ( طبع ليدن ) ص ٣٩٢ .

(٣) الحيوان ٤١/١ .

(٤) الملققات الشعر ( طبع مطبعة الاستقامة ) ص ١٦٢ .

(٥) أغاني ٢٢/١٩ .

(٦) أغاني ( طبع دار الكتب ) ٣٢/٨ .

(٧) أغاني ٢٣٥/١ .

(٨) أغاني ٢٤٦/٤ وما بعدها .

من وحشٍ وجرةٍ موشى أكارعه طاولى المصير كسيف الصيفة على الفرد<sup>(١)</sup>  
فجاء من بعده الطيرمّاح ورأى أن يُبرز الصورة إبرازاً جديداً، فشبّه الثور  
وهو يبدو تارة ويختفي أخرى بسيف في يد شخص بمكان عال ، وهو يسله تارة  
ويغمله تارة ، فقال<sup>(٢)</sup> :

يَبْلُو وتُضمّره البلاد كأنه سَيْفٌ على شرفٍ يُسَلّ ويُغْمَدُ  
ومن ذلك أن زهيراً تعرّض للموت والحياة ، فقال إن المنايا تخبط على غير  
هُدى فمن تصبه يمت ، ومن تخطئه يعمر ويمتد به الأجل ، إذ يقول<sup>(٣)</sup> :

رَأَيْتُ المنايا خَطَّ عَشَوَاءَ من تُصِيبُ ثَمَنَهُ ومن تُخْطِيهِ يُعَمَّرُ فِيهِمْ  
فأتى من بعده أبو النّجم العجلى ، ورأى أن يعبر عن هذه الفكرة تعبيراً  
جديداً أو قل رأى أن يبسطها بسطاً ، وأن يكشفها كشفاً ، فقال<sup>(٤)</sup> :

إِنَّ الفَتَى يصبِحُ للأسقامِ كالغرض المنصوبِ للسهامِ  
أخطاه رامٍ وأصاب رامٍ

فالشاعر الأموى تعلّق بمعرفة المعاني الجاهلية ، وأخضعها للدرس المنظّم على  
نحو ما كان المحدثون والفقهاء وأصحاب الكلام في العقيدة الدينية يدرسون  
ويبحثون ، وقد أسعفته عقلية الجديلة ، التى بناها في هذا العصر وما انتمج فيها  
من طرق جدال وحوار ، على كل ما أراد من تحوير وتوليد في المعاني .

وربما كان أهم شيء رسب في الشعر الأموى عن هذه العقلية الجديلة أننا  
نجد الشعراء يتخصصون في موضوعات بعينها ، لا يتعلّونها إلى غيرها ، فعمربن  
ابن أبي ربيعة يذهب شعره في الغزل ، وذو الرمة يذهب شعره ، أو يكاد ، في  
وصف الصحراء ، وبرتقى الفرزدق وجرير ينفن الهجاء ويحدثان فيه النقائض المعروفة .  
ولا شك في أن هذا أثر من آثار العقلية العربية في العصر الأموى وما أصابها

(١) وجرة : موضع كثير الوحش . وأكارعه :

قوائمه ، وشبهاً : بياضها مع انتشار نقط سوداء

فيها . والمصير : الممى ، كفى به عن البطن .

الفرد : المنفرد .

(٢) الديوان ص ٩١ .

(٣) المملقات الشعر ص ٩٤ .

(٤) الحيوان ٥٠٩/٦ .

من تطور ، فقد أخذ الناس يعيشون في تحلل ونظريات معينة ، كمنظرية الحوارج ونظرية الشيعة ونظرية الجبر أو القدر ، يودعون فيها حياتهم كلها ولا يبعدونها إلى غيرها ، فتأثرهم الشعراء وحولوا موضوعات الشعر إلى ما يشبه النحلة من التحلل ، وعاشوا في الموضوع ، الذي اختاروه أو كادوا ، حياتهم كلها .

وليس هذا كل ما أحرزه الشعر في العصر الأموي عن طريق العقلية الجديدة وما شاع من بحث ودرس للمسائل وما كان من الصلة بين الشعراء وبين المحدثين والفقهاء والمتناظرين في الإرجاء والخبر والقدر . فهناك جانب تعليمي في هذا الشعر لم نتحدث عنه حتى الآن ، وذلك أن الناس أخذوا يتخصصون في اللغة العربية نفسها وما يتصل بها من الشعر والأيام ، ثم من نحوها ولغتها ، فوجدت طبقة من الأدباء المعلمين ، ولم يابث أن انتظم فيهم بعض الشعراء مثل الطرمّاح وكان مؤدّباً للصبيان في الكوفة والرّي<sup>(١)</sup> ومثل الكُسميت ، وكان أيضاً من المؤدّبين المعلمين<sup>(٢)</sup> .

والطريف أن وظيفة هؤلاء المعلمين وما يراد منهم من تثقيف الناشئة باللغة اضطرتهم إلى أن يؤلفوا كثيراً من شعرهم لهذه الغاية نفسها . ومن يرجع إلى ديوان الطرمّاح يستطيع أن يلاحظ في وضوح أن شعره يمكن أن يُقسّم قسمين : قسماً واضحاً فيه مديحٌ وهجاء ، وقسماً غير واضح فيه حديثٌ عن الصحراء وكل ما يتصل بها ، وهو شعر أريد به قبل كل شيء إلى تعليم اللغة بغرائبها وأوابدها .

وهذه ظاهرة جديدة لم تكن مألوفة في الشعر العربي قبل العصر الأموي عصر الدرس والتعليم ، فقد أخذ الشعر في بعض جوانبه أو قصائده يُعَبَّرُ لا عن حاجة وجدانية ، وإنما عن حاجة لغوية . على أن طبقة المقصّدين من أمثال الطرمّاح والكميت لم تبلغ في هذا الباب من التعاميم اللغوية ما بلغته طبقة الرُّجّاز من أمثال رؤبة ، فن يتعقب أخبارهم في كتب الأدب يلاحظ أن من أهم غاياتهم في شعرهم خدمة اللغة والمؤدّبين أو اللغويين القائمين عليها بما يمدونهم من الشواذ والشوارد بحيث أصبحت بعض أراجيزهم كأنها متون لغوية للحفظ والتسميع .

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن مدى ما أصاب التفكير الفني عند الشاعر

(١) البيان ٢/ ٢٢٢ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٣٦٨ .

الأموي من رقي وتطور ، فقد أخذ يلتحم هذا التفكير بكل ما كان في العصر من ثقافة فكرية أو عقلية . فالبناء الفنى للشعر لم تنفصل وحداته عن البناء العقلي العام بل قل إن هذا البناء أخذ يتشكل في أوضاع جديدة تحت تأثير الرقي الفكرى الذى أصاب العقيلة العربية .

## ٣

## الحياة السياسية

لم تكن الحياة السياسية في عصر بنى أمية حياة هادئة ، بل كانت حياة ثائرة ، إذ كان الأمويون يُعَدُّون في رأى كثير من الأمة الإسلامية غاصبين للخلافة ، والبلد الوحيد الذى كان هادئاً إلى حد ما هو الشام ، فقد وجدأهله من بنى أمية ورتة شرعيين لآل جفنة ، واستطاعوا عن طريقهم أن يحققوا ما لم يكونوا يحلمون به في القديم ، إذ أشرفوا وصادوا لا على العراق ، مركز المناذرة خصومهم في الجاهلية ، فحسب ، بل على العالم الإسلامى كله .

ولذا تركنا الشام إلى الحجاز والعراق وجدنا فيهما فتوراً من السخط على بنى أمية وحكومتهم ، وسرعان ما تكونت تحت تأثير هذا السخط أحزاب سياسية ثلاثة كانت تعارض بنى أمية وتخاصمهم وتدعو إلى الانتفاض عليهم ، وهى أحزاب الزُبَيْريين والحوارج والشيعة . وقد تألفت هذه الأحزاب حول فكرة الإمامة أو الخلافة ومن أضحى بها من المسلمين . أما حزب الزبيريين وهم أتباع عبد الله بن الزُبَيْر فكان يرى أن تعود الخلافة إلى الحجاز ، وأن يتولأها أحد أبناء الصحابة الأولين لا يزيد بن معاوية . بينما كان حزب الحوارج في العراق يرى أن تُرَدَّ الخلافة إلى العرب والمسلمين جميعاً ، ليؤلأوا عليهم أكفأهم وأجدرهم بها . وكان بجوارهم في العراق أيضاً حزب الشيعة وكان يرى أن تُرَدَّ الخلافة إلى بنى هاشم ، فهم بيت الرسول ، وهم أصحابها الحقيقيون .

وحزب الزبيريين في الحجاز هو أقصر هذه الأحزاب عُمرًا ، فقد ظهر مع

دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة بعد وفاة معاوية ، حتى إذا توفى يزيد أجابته الحجاز كلها ، كما أجابته مصر والعراق وبعض بلدان الشام . ولكن لا نكاد نمضى بعد ذلك حتى نجد مروان بن الحكم يظهر في الشام معه ككُلب والقبائل اليمنية ؛ فيقضى هناك على قبائل قيس في موقعة مَرَج رَاهِط المشهورة ، التي تُعَدُّ صِفِينًا ثانية ، ويصبح الشام خالصًا له ، ويستولى على مصر . ثم يتولى الخلافة من بعده ابنه عبد الملك ، فيقتل مصعب بن الزبير ، وإلى أخيه عبد الله على العراق ، ويُرسل الحجاج إلى ابن الزبير في مكة فيحاصره ثم يقتله . وبقتل عبد الله بن الزبير ينتهى هذا الحزب الذى استمر نحو ثمانى سنوات ؛ وهى مدة قليلة لا تكفى لتكوين نظرية سياسية ، أو بعبارة أدق لم تتكوّن فى أثنائها نظرية سياسية واضحة المعالم . ولذلك كان هذا الحزب أضعف الأحزاب فى هذا العصر من حيث تمثيل فكرته عند الشعراء ، وأكثر ما تكوّن حوله من شعر نجله فى حروب القيسية واليمينية فى الشام . وفى الجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذرى حفظٌ لا بأس به من هذا الشعر ، وهو ليس شعر حزب بالمعنى المفهوم ، وإنما هو هجاء وحماسة على نحو ما كان الشعر فى العصر الجاهلى .

وأهم شاعر اتصل بهذا الحزب واشتهر بزيريته هو ابن قيس الرقيّات ، فقد اتصل بمُصْعَب ؛ وتخصّص به حتى كاد يكون شاعره ، وله فيه مدائح كثيرة ، وقد ذهب يتغنى بزوجته سُكَيْنَةَ بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وما امتازتا به من جمال باهر ، وفى الوقت نفسه كان يتغزل غزلاً مُفْحَشًا بأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، يُريد أن يُسْقِطها من عليائها على سفح غزله الفاضح ، وفى شعره ثورة واضحة على عبد الملك وأصحابه من أهل الشام من مثل (١) :

كَيْفَ نَوَمَى عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا تَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةً شِعْوَاهُ  
تَذْهَلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدَى عَنْ بُرَاهِمَا (٢) الْعَقِيلَةَ الْعَلِوَاهُ

ولكننا قلنا نجد بعد ذلك فى ديوانه شيئاً واضحاً عن حقيقة هذا الحزب وأسس

(٢) البى : الخلائيل ، والعقيلة والطراحناء :  
الصيغة الكريمة .

(١) الديوان ص ٩٥ وانظر الأغانى (طبع)  
دار الكتب ٧٨/٥ .

دعوته ، وأكبر الظن أننا لا نعدو الحقيقة حين نزعم أن هذا الحزب لم تتكوّن له نظرية سياسية قوية الدعام .

وإذا كانت نظرية الزبيريين لم تأخذ فرصة واسعة كى تدعم جوانبها السياسية فإن حزب الخوارج والشيعه أتيح لكل منهما أن يدعم نظريته فى الخلافة وأن يسندّها بالأدلة البينة لسبب بسيط ، وهو أنهما لم يكونا حزبين عارضين فى تاريخ هذا العصر كحزب الزبيريين ، بل كانا حزبين ثابتين مستقرين .

ومن يتعقب الحوادث يستطيع أن يلاحظ ظهور حزب الخوارج منذ مقتل عثمان ، فالذين ثاروا عليه من أهل العراق وشاركوا فى قتله يمكن أن نعلم مقدمات هذا الحزب وبدوره الأولى ، وهى بدور اكتنفت بعد مقتل عثمان والبيعة لعلى بن أبى طالب ، حتى إذا رضى بالتحكيم هبوا فى وجهه ، كما هبوا سابقاً فى وجه عثمان ، وكفّروه كما كفّروا سلفه ، محتجين بمثل قوله تعالى : ( فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى إلى أمر الله ) وقوله جلّ وعز : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) وقالوا لا حكم إلا لله ، وكأنهم أرادوا أن يردوا الدين والدولة إلى الله ، واعتزلوا علياً إلى حرّوراء بقرب الكوفة وكأنهم أرادوا أن يهاجروا عن الجماعة الضالة على نحو ما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة <sup>(١)</sup> .

وسمّوا الخوارج لأنهم خرجوا على إمامهم الذى بايعوه ، وهو على ، وقيل بل هم الذين سمّوا أنفسهم هذا الاسم من قوله تعالى : ( ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يلزمه الموت ، فقد وقع أجره على الله ) . وسمّوا أنفسهم الشّراة أيضاً من قوله عز وجل : ( ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله ) ويسمون الحرّورية نسبة إلى حرّوراء التى اعتزلوا فيها علياً وجيشه أولاً .

وأساس مبادئهم جميعاً أن لا تُقصر الخلافة على قريش ، فالخلافة ليست حقاً لقريش بل هى حق لله ، وينبغى أن يتولاها خير المسلمين تقوى وزهداً وورعاً ولولم يكن قريشياً بل لو كان عبداً حبشياً . وقد خرجوا على المسلمين واعتبروا دارهم دار حرب فيجب أن يجهلهم ، واستمروا فى هذا الجهاد طوال عصر

بنى أمة . وكانوا بالمرصاد دائماً لمن يولونهم عليهم من أنفسهم ، بحيث إذا عدلوا عن الحادثة راجعهم ، فإن رجحوا تركهم وإلا عزلهم ، شأنهم سابقاً مع عثمان وعلى . وما يلاحظ عليهم أنهم كانوا سرعان ما يختلفون ويفترقون ، ولما اتفقوا على إمام ، ولذلك تعددت فِرقة هم ، وأهمها أربعة : الأزارقة ، والنجدات ، والصفريّة ، والإباضية .

والأزارقة هم أتباع نافع بن الأزرق ثم قطري بن الفُجاءة . ومن أهم مراكزهم البطائح بالقرب من البصرة . وقد استولوا على فارس وكرمان ودوخوا عبيد الله بن زياد وإلى معاوية وابنه يزيد ، واستمروا حتى أرسل إليهم مصعب بن الزبير المهلب ، فما زال يحاربهم حتى ظفر بهم في عهد الحجاج . أما النجدات فهم أتباع نجدة بن عامر الحنقي ، وكان مسرح نشاطهم اليمامة وحضرموت والبحرين ، ورواهم الحجاج بعمر بن عبيد الله بن معتمر فهزمهم وقضى عليهم قضاءً مبرماً . وأما الصفريّة فهم أتباع زياد بن الأصغر ، وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة ، واشتبكوا مع الحجاج في حروب كثيرة ، ومن قوادم شبيب الشيباني الذي حارب الحجاج طويلاً ، وشوّذب الذي ثار في عهد عمر ابن عبد العزيز ، والضحاك بن قيس الذي ثار في الأيام الأخيرة لبني أمة . وأما الإباضية فهم أتباع عبد الله بن إياض التميمي ، وكان مسرح نشاطهم حضرموت واليمن ، ومن أهم قوادم أبو حمزة الذي استولى على المدينة ومكة وخطب في الأخيرة خطبته المشهورة<sup>(١)</sup> ، ولم تلبث جنود مروان بن محمد أن قتله .

وإذا كنا لم نجد للزبيريين شعراء يمثلون نظريتهم فإن شعراء الخوارج كثيرون كثرة مفرطة ، وتمتلئ كتب الأدب بأشعارهم ومقطعاتهم ، وهي تسيل حماسة وبطولة ومن أهم ما يميزهم حقاً أنهم كانوا حزباً فدايياً ، فكل منهم يقبل على الموت وكأنه طلبته أو أمنيته ، وقد بلغ من شدة إيمانهم بمنهجهم ونظريتهم أن دوخت فئات قليلة منهم جمعوا غفيرة للأمويين وولاتهم في العراق . وما يروى

في طرابلس والجزائر وعمان وزنجبار .

(١) انظر البيان والبيان ١٢٢/٢ والإباضية لا يزالون موحدين إلى اليوم ، وهم منشرون

من ذلك أن أبا بلال نخرج في أربعين بالأهواز لعهد عبيد الله بن زياد ، فرماه بجيش مؤلف من ألفي رجل ، فثبت الأربعةون وفرّ الألفان ، وفي ذلك يقول أحد شعرائهم<sup>(١)</sup> :

ألفاً مؤمنٌ منكمُ زعمتمُ ويقتلهم بآسك<sup>(٢)</sup> أربعونا  
كذبتمُ ليسَ ذاكُ كما زعمتمُ ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا  
همُ الفئةُ القليلةُ قد علمتمُ على الفئةِ الكثيرةِ ينصرونَا

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : ( يا أيها النبي حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ) ، وقوله عزَّ وجل : ( كَمِ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ) .

ويمتاز شعر هذا الحزب القُدَّاثي بأنه ينفذ إلى القلوب نفوذاً ، فهو شعر يصلح عن عقيدة وإيمان بالغ بهذه العقيدة ، إذ آمن كل خارجي أنه يدافع عن حقوق الله والإسلام ، وأنه إن لم يخرج حَقَّتْ عليه اللعنة بل حَقَّتْ عليه النار ، ومن هنا يقول الطرماح<sup>(٣)</sup> :

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاعَ له      إن لم أفرَّ فَوَزَّةٌ تُنَجِّي من النارِ  
والتارُ لم يَنجُ من روعاتها أحدٌ      إلا المنيبُ بقلبِ المخلصِ الشَّارِي

فهو يرى الظلام مطبقاً عليه من كل جانب إلا أن يفوز بهذا النور الذي يراه عند الشَّرَاة أو الخوارج ، والذي يرجو أن يظفر به حتى ينجو من روعات النار ، وكأنه يعتقد أن النار أعدت لمن لا يخرج ، ويترك فئات المسلمين الضالة في رأيه ! وقد ذهب يُشيد بالخوارج إشادة بالغة في مثل قوله<sup>(٤)</sup> :

للهِ درُ الشَّرَاةِ لأنهمُ      إذا الكَرَى مال بالطلأ<sup>(٥)</sup> أرقوا  
يُرجعونُ الحنينَ آوَةً      وإن علا ساعةً بهم شهبوا  
خوفاً تبيت القلوبُ واجفةً      تكاد عنها الصلور تنفكُ

(١) طبري (طبع أوربا) ١٨٧/٢ .

(٢) آسك : موضع همدان .

(٣) الديوان ص ١٤٩ .

(٤) الديوان ص ١٥٧ .

(٥) الطلا : جمع طلية وهي أصل العتيق .

كَيْفَ أَرْجَى الْحَيَاةَ بَعْلَهُمْ وَقَدْ مَضَى مَوْثِقُهُ فَاَنْطَلَقُوا  
قَوْمٌ شِيْحَاحٌ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ بِالْفَوْزِ مِمَّا يُخَافُ قَدْ وَثِقُوا

وهذه صورة رائعة للخوارج ، إذ نرى الطرماح بصورهم مسهلّين يتلون آيات الله ، ويشهقون في تلاوتها كلما مروا على آية كريمة بها ذكرٌ لعذاب ، فالقلوب تيبّت واجفة من خوف ربها حتى لتكاد الصدور تشقّق عنها ، وهم يموتون مستشهدين في هذه العقيدة التي عرّفوا بها ، وإنهم ليسترخصون أرواحهم في سبيلها واثقين من فوزهم برضوان ربهم وجنّانه ، وإن الطرماح ليتمنى أن تكون خاتمته كخاتمتهم ، واستمع إليه يقول (١) :

أَذَا الْعَرْشُ إِنْ حَانَتْ وَفَاقَى فَلَا تَكُنْ عَلَى شَرَجٍ (٢) يُعَلِّسِي بِخُضْرِ الْمَطَارِفِ  
وَلَكِنْ أَحْنِ يَدِي سَعِيدًا بَعْضِيَّةَ يَصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَائِفِ  
عَصَائِبُ مِنْ شَتَّى يُؤَلَّفُ بَيْنَهُمْ هُدَى اللَّهِ نَزَّادِينَ عِنْدَ الْمَوَاقِفِ  
فَوَارِسُ مِنْ شِيْبَانِ أَلْفٍ بَيْنَهُمْ تَقَى اللَّهُ نَزَّالِينَ عِنْدَ التَّرَاحِفِ  
إِذَا فَارَقُوا دُنْيَاهُمْ فَارَقُوا الْأَذَى وَصَارُوا إِلَى مَوْعِدٍ مَا فِي الْمَصَاحِفِ  
فَأَقْتُلْ قَعَصًا ثُمَّ يَرْمِي بِأَعْظَمِي كَضِفَتْ الْخَلَا بَيْنَ الرِّيَاحِ الْعَوَاصِفِ  
وَيَصْبِحُ لَحْمِي بَيْنَ طَيْرٍ مَقِيلُهُ دَوَيْنَ السَّمَاءِ فِي نُسُورٍ عَوَاكِفِ

فهو يدعو ربه أن يكسب له الشهادة في معترك الحرب وأن لا يموت حتف أنفه ، فيحمل في نعش على أكف الرجال . إنه يريد أن يموت كإخوانه من شيبان ، وهم الذين تتألف منهم أكثر طائفة الصُفَرِيَّة ، فهو صُفَرِيٌّ ، وهو بشنى على أصحابه ويصفهم بالتقوى ، وأن هدى الله ألف بينهم . ويقول إنهم يستعذبون الموت في سبيل عقيدتهم ، وإن كلامهم ليتمنى أمنية الطرماح أن يُقتل قَعَصًا ، أى يقتل في مكانه بالسيوف ، وأن يرمى بأعظمه كضفت الخلا أو قبضة الكلا ؛ فتفتره الرياح ، أو تنحط إليه طير السماء ، حتى تم له التضحية في سبيل عقيدته .

وهكذا شعر الخوارج في هذا العصر شعر يعبر عن فدائية خالصة ، فهو كله

بطولة ، وحماسة . واستبسال في سبيل العقيدة ، وإقبال على حياض الموت الزؤام دون خوف أو وجل ، بل في رضا وطمأنينة واستبشار بفران الله ! . وما أظننا نبعد في وصفنا لهم بأنهم كانوا فدائيين ؛ فقد باعوا أنفسهم حقا في تحقيق فكرتهم ، وطلب كل منهم أن لا يموت في فراشه بل يموت قعصا بالرماح ، وتخطفه الطير والسباع كما يقول الطرماح .

وشعر الخوارج كله يذهب هذا المنهج من الحماسة ، وهي حماسة دينية ؛ فقد آمنوا بعقيدتهم واعتقدوا خطأ أن المسلمين ضلوا سواء السبيل ، أما هم فعل المصراط المستقيم الذي تريده العناية الإلهية ! وهم يريدون أن يلوا المسلمين إليهم ، ولذلك يحاربونهم مستبسلين ، وكل منهم يريد أن يموت شهيدا في ساحة هذا الجهاد الديني الذي وهبوا أنفسهم له .

وكان يقابل حزب الخوارج في العراق حزب الشيعة ، وهو لا يقل أهمية عنه ، بل لعله أبعد منه خطرا في تاريخ الأمة الإسلامية . ويمكن أن نجد بلورا هذا الحزب منذ أفضت الخلافة إلى أبي بكر وعمر ؛ فإن الحوادث التي وقعت بعد ذلك وانتهت بقتل عثمان تدل على أن بني هاشم كانوا يطمحون إلى الخلافة ، وأيضا فإن الناس حين سخطوا على عثمان أخذ كثير منهم يبحثون سرا عن خليفة جديد ، وكان علي أحد من اتجهت إليه الأنظار ، بل لقد أخذت تتكون له بطانة ، وهي التي سميت فيما بعد بالشيعة .

ومعنى ذلك أن الشيعة أخذوا في الظهور بشكل واضح قبل أن يقتتل عثمان ، فلما قُتل أسرعوا إلى على وبايعوه بالخلافة . ومن حيثئذ تكون هذا الحزب تكتوتا سياسيا ، وكان من أهم مبادئه أن يختار على للخلافة بصفته من بني هاشم الذين ينبغي أن تكون الخلافة خالصة لهم من دون الناس ، فهم آل الرسول ، وهم لذلك أولى الناس وأحقهم بخلافته .

ولما انتقل على إلى العراق واتخذ الكوفة حاضرة له كان من الطبيعي بعد ذلك أن تصبح حاضرة هذا الحزب ، وقد أخذ يشايه هناك كثير من أهل العراق بحكم أنه إمامهم ، ثم بحكم أنه نقل دولته إليهم ، فقد جعل الدولة العربية كلها دولتهم ،

ولذلك كان اسم على بعد قتلته وتحول الخلافة إلى الشام يرمز إلى دولتهم المفقودة<sup>(١)</sup>. وقد وجد الموالى في العراق من التَّبَط والفرس وغيرهما في ظل علي ما لم يحققه لهم الأمويون ، إذ كان ينهب إلى المساواة بينهم وبين العرب في الحقوق . فكان هذا كله سبباً في أن تصبح العراق وأن تصبح الكوفة بنوع خاص مركز التشيع لعل وآله .

ونستطيع بذلك أن نفهم كثرة الثورات في العراق في أثناء هذا العصر ، فأهله لم يكونوا من هوى بنى أمية بل كانوا مغاضبين لهم ، وكانوا يشعرون مع أول ثائر ، وقد ثاروا مراراً على الحجاج ، وثورة عبد الرحمن بن الأشعث عليه مشهورة ، وفي أوائل القرن الثاني للهجرة ثار يزيد بن المهلب . وهي ثورات تدل على أن أهل العراق لم يكونوا راضين عن بنى أمية ، وكانوا ينتهزون أى فرصة للخروج عليهم . ولم تقم الشيعة في العراق ثورة منظمة في أثناء هذا العصر إلا ما كان من ثورة المختار الثقفى لعهده مصعب بن الزبير ، وسرعان ما قُصِيَ عليه وانتهت هذه الثورة . واتجه الشيعة منذ مقتل المختار إلى الدعوة السرية . والمتعقب لحركاتهم في عصر بنى أمية يفاجأ مفاجأة بمحركة أبى مسلم في خراسان ودعوته هناك ونجاح هذه الدعوة ، مما يدل دلالة صريحة على أن خراسان كانت قد أصبحت مركزاً مهماً من مراكز الدعوة الشيعية ، ولكن كيف انتقل التشيع هناك ؟ يقول قلهوزن إن زياداً والحجاج هما اللذان نقلاه هناك فإنهما دأبا على إرسال الجيوش العراقية إلى خراسان ، وبعثا معها بالعناصر المشاغبة في الكوفة والبصرة ، فأعداً بذلك لدخول التشيع هناك وانتشاره<sup>(٢)</sup>.

وأساس عقائد الشيعة الإمامة وأنها من حقوق البيت النبوى ، وقد ذهبوا إلى أن إمامة على نص عليها الرسول عليه السلام ، فقد أوصى له ، ومن هنا تأتى عقيدة الرصية التى يدين بها الشيعة جميعاً ، كما يدينون بأن أئمتهم يمتازون بصفات روحية كثيرة ، فهم معصومون ، وعلمهم من العلم كل ما يحتاج إليه الناس في دينهم ودنياهم . وفي خطاب موجه من هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر الثقفى وإلى

(٢) كتاب قلهوزن ص ٤٩٩ .

(١) انظر كتاب قلهوزن السابق ص ٩٦ .

على العراق : « أما بعد فقد علمت بحال أهل الكوفة في حبهم أهل هذا البيت ووضعهم لإياهم في غير مواضعهم ، لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ، ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحكومهم عليهم ما هو كائن<sup>(١)</sup> » .

ومن عقائد الشيعة التي لعبت دوراً مهماً في هذا العصر عقيدة المهديّ ، وهو الإمام الذي ينقذ العالم مما فيه من شرور وآثام . وكان زعماءهم يُشيعون دائماً أن هذا المهديّ أو المخلص سيأتي ، ويُخْرِجُ الناس مما هم فيه من ظلام وعذاب . وساعد على شيوع ذلك ما اتصفت به العقيدة الشيعية من سرية ، وهي سرية جَرَّتْ في أعقابها عقيدة النقيّة ، أو المندارة ، وأن من حق الشيعة أن يخفي تشيعه .

وأخذت تدخل في التشيع آراء وأفكار غالية . وعبد الله بن سبأ أهم شخص أدخل ذلك ، وكان يهودياً من اليمن أسلم ، واشترك في الثورة على عثمان وكان يتنقل في الأمصار الإسلامية ويؤلب الناس عليه ، وكان يزعم أن في عليّ جزءاً إلهياً ، وكأنه يتأثر ما عند النصاري من فكرة اتحاد اللاهوت بالناسوت . وهو أول من قال برجعة عليّ ، وأنه لم يمِتْ ، وكأنه يتأثر في ذلك بما عند اليهود من أن النبي إيليا قد رُفِعَ إلى السماء ، وأنه لا بد أن يعود إلى الأرض في آخر الزمان لإقامة العدل والحق . وكان يزعم أن عليّاً يحيى في السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه<sup>(٢)</sup> .

ولعل في آراء ابن سبأ ما يشير إلى أن عناصر أجنبية أخذت تدخل في التشيع ، حتى ليزعم بعض الباحثين أن غلاة الشيعة بنّوا في التشيع مع مر الزمن كثيراً من دياناتهم الأولى ، فدخلت فيه عناصر من اليهودية والنصرانية كما عند ابن سبأ ، ودخلت فيه عناصر من الزرادشتية والمناوية الفارسيّتين ومن البوذية الهندية<sup>(٣)</sup> .

ونحن لا يهمنا هنا البحث في عقيدة الشيعة من حيث هي ، وإنما يهمنا صلتها بالشعر في عصر بني أمية . ومن المعروف أن الشيعة كالحوارج تتعدد فِرَقَهم ، وهناك فرقتان اشتهرتا في هذا العصر واتضحتا في شعر الشعراء ، إحداهما غالية وهي

(١) الترجمة العربية) ص ١٢١ والعقيدة والشرية

في الإسلام بلوله تسير ص ١٧٤ وما بعدها .

(١) طبى ١٦٨٢/٢ .

(٢) الشهرستاني ص ١٣٢ .

(٣) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات

فرقة الكيسانية ، والثانية معتدلة ، وهى فرقة الزيدية .

أما فرقة الكيسانية فزعيمها المختار التقي الذى ثار فى العراق ، وعلا شأنه ، حتى قضى عليه مصعب بن الزبير . ولم يكن يدعو لأحد من أبناء فاطمة إنما كان يدعو لمحمد بن الحنفية من على ، وكان يزعم أنه هو الذى أوصى له أبوه من بعده . ويظهر أنه رأى أن أبناء فاطمة لا يرتضون الغلو فيهم ، فقد أنكر الحسن رجعة أبيه<sup>(١)</sup> ، وأنكر بعض أبناء الحسين فكرة الوصية<sup>(٢)</sup> ، فعدل إلى ابن الحنفية وتبع ابن سبأ فى كثير مما زعمه . وكان يميل إلى الشيعة ، فادعى أنه يوحى إليه ، واتخذ كرسيًا قديمًا غشاه بالديباج ، فكان يضعه فى مقعدة جيوشه ، ويقول لأنصاره : قاتلوا عليه فهو منكم بمنزلة التابوت فى بنى إسرائيل ، وكان يرسل حمامات بيضاء على جيوشه فى أثناء القتال ، ويزعم أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء ، وفى ذلك يقول سرقة البارقي<sup>(٣)</sup> :

ألا أبلغ أبا إسحق أنى رأيت البلق دهنًا مضمتات  
كفرت بوحىكم وجعلت نذرًا على قتالكم حتى المات

ويقول أعشى همدان<sup>(٤)</sup> :

شهدت عليكم أنكم سبئية وإنى بكم يا شرطة الشرك عارف  
وأقسم ما كرسيكم بسكينة وإن كان قد لقت عليه اللغائف

وشاعر هذه الفرقة المشهور كثير ، ويقول أبو الفرج فيه : « كان غالبًا فى التشيع يذهب مذهب الكيسانية ، ويقول بالرجعة والتناسخ » . وفى ديوانه مدائح كثيرة فى ابن الحنفية ، وفيه يقول<sup>(٥)</sup> :

وصى النبی المصطفى وابن عمه وفكأك أغلال وقاضى مغامر

ويقول<sup>(٦)</sup> :

هو المهدي خبركاه كعب أخو الأحبار فى الحقب الأول

(٤) طبى ٧٠٤/٢

(٥) الديوان ٢٢٨/١

(٦) الديوان ٢٧٥/١

(١) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٦

(٢) ابن سعد ١٥٨/٥ وكذلك ٢٣٩/٥

(٣) طبى ٦٦٥/٢

وكان يعتقد في الترجمة أشد اعتقاد ، فلما نوفي ابن الحنفية لم يؤمن بوفاته ،  
 وذهب ينادى في الناس <sup>(١)</sup> :

ألا إن الأئمة من قريش  
 على الثلاثة من بنيهم  
 فسيط سبط إيمان وير <sup>(٢)</sup>  
 وسيط لا تراه العين حتى  
 تغيب لا يرى عنهم زماناً  
 ولاية الحق أربعة سواء  
 هم الأسباط ليس بهم خفاء  
 وسبط غيبته كربلاء <sup>(٣)</sup>  
 يقود الخيل يقودها اللواء  
 برضوى عنه غسل وماء

فهو يؤمن بغيبة ابن الحنفية في جبل رضوى ، وأنه لم يمض ، بل هو يمضي  
 الفترة المعروفة عند غالبية الشيعة بالوقوف ، ثم يرجع ومعه الخيل يقلمها اللواء .  
 وهكذا نجد في ديوان كثير هذه الصفحة الحديدية التي تعبّر عن عقيدة الكيسانية ،  
 وكل ما يتصل بها من غلو وإغراق في الغلو .

وإذا كانت فرقة الكيسانية غالبية على هذا النحو فإن فرقة الزيدية كانت  
 معتدلة ، وإمامها زيد بن علي بن الحسين ، الذي خرج على هشام بن عبد الملك  
 بالكوفة فقتل وصلب . ويسوق زيد وشيعته الإمامة في أولاد علي من فاطمة فقط ،  
 وهم لا يستبعدون على الإمام صفات روحية تفصله عن البشر ، فكل ما يصفونه به العلم  
 والزهّد والسخاء والشجاعة . وقد أجازوا إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، فكان  
 زيد لا يترأ من أبي بكر وعمر ، بل كان يرى أن ولايتهما صارت رشداً وهدياً لبيعة  
 علي لهما ورضاه بهما <sup>(٤)</sup> . وقد تتلمذ زيد لواصل فاقببس منه الاعتزال ، كما مر في  
 غير هذا الموضع ، وبذلك غلب الاعتزال على أصحابه

وشاعر الزيدية المشهور الكُميت بن زيد الأسدي ، وفي شعره ثورة شديدة  
 على الأمويين ، يتأثر فيها إمامه زيداً الذي ثار فعلاً عليهم وقتلوه ، واستمع إليه  
 يقول <sup>(٥)</sup> :

خمسة وعشرين ميلاً إلى الشمال الغربي من الكوفة .  
 (٤) الشهرستاني ص ١١٥ .  
 (٥) البيان والتهجين ٣/٣٦٥ .

(١) الديوان ١٨٦/٢ والأغانى ( طبع دار  
 الكتب ) ١٤/٩ .  
 (٢) يزيد الحسن بن علي .  
 (٣) يزيد الحسين الذي قتل في كربلاء على يد

قُلْ لِبَنِي أُمِيَّةٍ حَيْثُ حَكَمُوا وَإِنْ خِفْتِ الْمُهَنْدَ وَالْقَطِيعَا (١)  
أَجَاعَ اللَّهُ مِنْ أَشْبَعْتُمُوهُ وَأَشْبَعُ مِنْ بَجُورِكُمْ أَجْمَعَا  
بِمَرْضَى السِّيَاسَةِ هَاشِمِيٌّ يَكُونُ حَيًّا (٢) لِأُمِّهِ رَبِّيعَا

وستحدث عنه حديثاً مفصلاً في موضع آخر ، فقد ألف في مذهبه الزيدى ديواناً خاصاً يُعْرَفُ باسم ( الهاشميات ) وهو أقدم وثيقة بين أيدينا عن هذا المذهب فيه كل ما آمن به زيد ودعا إليه ، وقد طُبع بطابع الحجاج والجدال في الدفاع عن حقوق آل البيت ، واصطبغ بصبغة عقلية جلمت صاحبه من اعتزاله واتصاله بمناقشات القدر والجبر وأن منزلة صاحب الكبيرة بين منزلتين وما إلى ذلك .

لم نتكلم حتى الآن عن حزب بنى أمية ، وهو حزب الدولة والحكومة ، وكان يتلمج فيه أهل الشام وكثير من أهل البلدان الأخرى ، فهو حزب السواد الأعظم وكان لهذا الحزب الدائلون عنه والمدافعون الذين يدفَعون خصومه من الزبيريين والخوارج والشيعة ، بل الذين يغالبون في هذا الدفاع وذلك الدؤد . فقد انقسم الناس أو قل انقسمت الأمة قسمين ، إذا أغضينا النظر عن الزبيريين فقد كان حزبهم عارضاً وكذلك عن الخوارج ، فقد خرجوا على جمهور الأمة . أما عامة الناس فكانوا على قسمين : قسم مع بنى هاشم وهو الشيعة ، وقسم مع الأمويين وكانوا يُضَفِّون عليهم من صفات الإمامة ما يُضَفِّيه الشيعة على أئمتهم ، وإلى ذلك يشير ابن الحنفية إذ يقول : « أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أئداداً من دون الله نحن وبنو عُمَارة هؤلاء يعني بنى أمية (٣) » .

فهذا الحزب الأموى كان يرفع من شأن خلفاء بنى أمية ، وينزلهم منزلة عليا ، فهم خلفاء الله ورسوله في أرضه ، وطاعتهم واجبة ، ونُصْرَتُهُمْ حَتْمَةٌ . ونجد هذه النزعة واضحة في خطب ولاة بنى أمية وقوادهم ، ومن أطرف ما يصورها خطبة زياد حين ولاة معاوية على البصرة ، وهي الخطبة الموسومة بالبشراء ، فقد جاء فيها : « أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم سامةً وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله

الذي أعطانا ، ونلود عنكم بفتنة الله الذي خولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفتنتنا بمناصحتكم لنا . . . وادعوا الله بالصالح لأمتكم ، فإنهم سامتكم المؤذون ، وكهفكم الذي إليه تأوون<sup>(١)</sup> .

وواضح أن زياداً يقول في صراحة إن معاوية ولا متخلفاء الله في الأرض ، فهم يسوسون الناس بسلطانه ، ويلودون عنهم بفتنة ، أو هم بعبارة أخرى أصحاب الحق الإلهي في هذه السياسة وتلك الحكومة التي يحكمون بها الناس . ويرى الرواة أن مسلم بن عقبة ، قائد أهل الشام في حربهم لأهل المدينة حين ثاروا على يزيد بن معاوية ، خطب في جيشه وهو على أبواب المدينة فقال : « يا أهل الشام أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يلغوا به عن دينهم ، وأن يعزوا به نصر إمامهم<sup>(٢)</sup> » . وقد حارب أشياخ عبید الله بن زياد الحسين ومن معه على أساس أنهم مرقوا من الدين ، وخرجوا على طاعة الإمام<sup>(٣)</sup> .

وتدل النصوص التاريخية في هذا العصر على أن بني أمية إنما قتلوا الحسين وزيد بن علي صاحب مذهب الزيدية لأنهما خالفا الإمام وطالبا بالخلافة . أما بعد ذلك فكان الأمويون يعاملون الهاشميين معاملة حسنة<sup>(٤)</sup> ، وكذلك كان ولائهم بحرمونهم إن لم يخرجوا أو يدعوا إلى الثورة .

على كل حال كانت صورة الخليفة الأموي في رأى حزبه صورة مقدسة ، لها جلالتها وخطرها ، فهو الإمام الذي تجب طاعته لأن طاعته من طاعة الله ، وطاعة خصومه من طاعة الشيطان ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما رواه الطبري من أنه لما توفي يزيد بن معاوية ودعا ابن الزبير لنفسه قام حسان بن مالك بالأردن فقال : « يا أهل الأردن ، ما شاهدتكم على ابن الزبير وعلى قتل أهل الحرّة ؟ قالوا نشهد أن ابن الزبير منافق وأن قتلنا أهل الحرّة في النار ، قال :

(١) البيان والتبيين ٢/٦٤ .

(٢) طبري ٢/٤١٤ وانظر كذلك طبري

٢/٤١٥ ، ٢/٤٢٥ .

(٣) طبري ٢/٢٤٢ .

(٤) انظر Lammen, Etudes sur le

Règne du Calife Omayyade Mo'awia

Ier, p. 154.

فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاككم بالحرّة ؟ قالوا : نشهد أن يزيد على الحق وأن قتلانا في الجنة<sup>(١)</sup> .

وهكذا كان ولاية بنى أمية وقادتهم وأنصارهم يدعون لهم دعوة تشبه دعوة الشيعة لأنتمهم . وقد تبهم الشعراء يدعون في شعرهم نفس الدعوة ، ويخيّل إلى الإنسان أنه لم تكن هناك بللة ولا قبيلة إلا فيها شعراء لهم نزعة أموية . ففي مكة نجد أبا العباس الأعمى ، وفي المدينة نجد الأحوص ، وفي الكوفة نجد عبد الله بن الزبير الأسدي ، وفي البصرة نجد جريراً والفرزدق ، وفي الجزيرة نجد الأخطل والقسطامي وأعشى تغلب ، وفي الشام نجد عدي بن الرقاع العاملي .

ومن الخطأ أن نحاول عدّ شعراء بنى أمية ، فهم أكثر من أن يُلَمَّ بهم إحصاء ، فقد بلغوا عشرات إن لم يكونوا مئات ، وتكتظ كتب الأدب العربي بهم وبأشعارهم ، وليس هذا ما يهمنا إنما تهنا الصورة التي صاغوا فيها مدائحهم للأمويين . ومن يرجع إلى ما قيل فيهم من أشعار يرى رأي العين أن هذه الصورة لَوْنَتْ بعناصر دينية على نحو ما رأينا عند الخوارج والشيعة ، فقد كان شعراؤهم يقررون دائماً حقهم وأفضليتهم في إرث النبوة ، وأنهم أولى قريش بهذا الإرث ، وأخذوا يُبدّلون ويعيدون في أن الله اختارهم لخلقهم ، واستمع إلى الأحوص يقول في الوليد بن عبد الملك<sup>(٢)</sup> :

تخيّرَ ربُّ العباد لخلقِهِ وليّاً وكان الله بالناس أعلماً  
فهو ثبت له أن الله عز وجل اصطفاه لخلقهِ ، وأنه وكل إليه شئونهم يُدبّرُها  
كما يشاء ، وانظر في هذه الأبيات يملح بها عدي بن الرقاع الوليد بن عبد الملك ،  
فيقول<sup>(٣)</sup> :

|                               |                                 |
|-------------------------------|---------------------------------|
| صلى الذي الصلوات الطيّباتُ له | والمؤمنون إذا ما جمّعوا الأجمعا |
| على الذي سبق الأقوامَ ضاحيةً  | بالأجر والحمد حتى صاحبه مَعَا   |
| هو الذي جمّع الرحمنُ أمته     | على يديهِ وكانوا قبله شيعا      |
| إنّ الوليد أمير المؤمنين له   | ملكٌ عليه أعانَ اللهُ فارفعاً   |

(١) طبري ٤٦٩/٢ .

(٢) أغاني ٢٩٨/١ .

(٣) أغاني ٢٩٩/١ .

فأنت تراه يسمو بالوليد إلى شأور بعيد من التقديس على نحو ما يسمو الشيعة بأئمتهم ، وتأمل في البيت الأول والثاني وما يصوغ عدس من الدعاء ، فهو يدعو الله أن يصلّي على إمامه الوليد ، ويدعو المسلمين كذلك أن يصلّوا عليه في صلواتهم وجمعتهم ، فقد جمع الله الأمة على يديه ، وأعانها ليرتفع بها إلى كل ما يريد لها من خير .

وعلى هذه الشاكلة كان شعراء بني أمية يتخلّون في مباحثهم ، ونرى في موضع آخر كيف كان جرير خاصة من بين شعراء العراق ، يتخلّون في مديحه لعبد الملك وأولاده ، وكيف كان يصفّي عليهم كل ما يصفّيه الشيعة على أئمتهم من صفات روحية . ولم يقف الشعراء في هذه الصورة من المديح عند الحلفاء فحسب ، بل ذهبوا يصفّونها على ولاتهم وقوادهم ، واستمع إلى حارثة بن بدر القُدّاني يقول في زياد بن أبيه <sup>(١)</sup> :

فأنت إمامٌ معدّلةٌ وقصدٌ وحزْمٌ حين تحضركُ الأمورُ  
أحكوك خليفةً الله ابن حَرْبٍ وأنت وزيره نعمَ الوزيرُ  
بأمر الله منصورٌ مُعانٌ إذا جارَ الرعيّةُ لا تجورُ  
وكنّت حياً وجئت على زمانٍ خبيثٍ ظاهرٍ فيه شرورُ  
فلما قام سيفُ الله فيهم زيادٌ قامَ أبلجٌ مستنيرُ

فأنت تراه يدعو معاوية خليفة الله ، ثم يُسبّخ على زياد من الصفات الدينية ما يسبّخه الشيعة على أصحابهم ، فهو إمام عادل ينصره الله ويُعينه ، حتى يصفّي العراق مما فيها من شرور ، وإنه ليلقبه أخيراً بأنه سيف الله الذي أرسله إلى العراق رَحْمَةً بعباده . وفي صورة مماثلة لهذه الصورة كان الشعراء يمدحون الحجاج ، فالعُدَيْل بن الفَرَسْخ العِجْلِيّ يقول فيه <sup>(٢)</sup> :

بَنَى قُبَّةَ الإسلامِ حتى كأنما هَدَى الناسَ من بعد الضلالِ رسولُ  
خليلُ أمير المؤمنين وصفهُ نكل إمامٍ مُصْطَفَى وخليلُ

(١) طبري ٢/٧٨ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٤٥ والأفان (طبع الساسي) ٢٠/١٤ .

فهو ينعت أمير المؤمنين بأنه إمام ، وينعت الحجاج بأنه خيله وسيفه ، وهو سيف يصول بعون الله ، فيهدى الناس من بعد الضلال ، ويبني قبة الإسلام سامقة تطاول عنان السماء . واستمع إلى أعشى همدان يقول في الحجاج بعد فضائه على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث التي استعصت عليه طويلاً<sup>(١)</sup> :

أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُنْتَمَ فُورَهُ      وَيَطْوَءَ نَارَ الْقَاسِقِينَ فَتُخْضَمَا  
وَيُسْتَرْ ذُلًّا بِالْمِرَاقِ وَأَهْلُهُ      لِمَا تَقْضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمَوْكِنَا  
وَمَا أَحْلَثُوا مِنْ بَدْعٍ وَعَظِيمَةٍ      مِنَ الْقَوْلِ لَمْ تَصْغِدْ إِلَى اللَّهِ مَصْغِدًا  
فَقَتْلَامٌ قَتَلَى ضَلَالٍ وَفَتَنَةٍ      وَحَيْثُمُ أَمْسَى ذَلِيلًا مُطَرَّدَا  
وَمَا زِلَحَ الْحَجَّاجُ إِلَّا رَأَيْتَهُ      مُعَانًا مُلَقًى لِلْقَتْرِحِ مُعَسَّودَا

وطلع الأبيات يستعيره الأعشى من قوله تعالى : (وَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيمَ نوره) وقد وصف جيش ابن الأشعث بأنه جيش فاسقين وأهل بغي ويدع وضلال وفتنه في الدين ، ولملك كانت عاقبتهم الوبال والخسران المبين ، وإنه ليصلح الحجاج بأنه معان من الله يؤيده دائماً بنصره .

وفي صورة تشبه هذه الصورة كان الشعراء يمدحون قواد بني أمية ، سواه منهم من عمل في حروب الخوارج الداخلية ، ومن عمل في الحروب الخارجية ، في خراسان وغير خراسان ، واستمع إلى كعب الأشقر يقول في المهلب في أثناء انتصاراته على الأزارقة في كيرمان<sup>(٢)</sup> .

لَوْلَا الْمَهْلَبُ لِلْجَيْشِ الَّذِي وَرَدُوا      أَنْهَارَ كِرْمَانَ بَعْدَ اللَّهِ مَا صَدَرُوا  
إِنَّا اعْتَصَمْنَا بِحَبْلِ اللَّهِ إِذْ جَعَلُوا      بِالْمُحْكَمَاتِ وَلَمْ نَكْفُرْ كَمَا كَفَرُوا  
جَلَرُوا عَنِ الْقَصْدِ وَالْإِسْلَامِ وَاتَّبَعُوا      دِينًا يَخَالِفُ مَا جَاءَتْ بِهِ النَّذُرُ

فكعب يرى الخوارج بما يرمون به المسلمين من العلول عن محجة الدين ، بل إنه ليكفرهم ، فقد جعلوا بمحكم القرآن الكريم ، وهو يشير بملك إلى قوله عز وجل : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هنَّ أمُّ الكتاب)

فالحوارج كفروا - في رأى كعب - بهذه الآيات المحكمات التى تدعو إلى طاعة الله والرسول وأولى الأمر من المسلمين .

وأظن أنه قد اتضح الآن أن الشعر في عصر بنى أمية تطور تحت تأثير السياسة ، فإن الشعراء توزعوا على الأحزاب ، وأدخلوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديده . وكان حزب الأمويين أكثر نفراً ، وكان يليه حزباً الشيعة والحوارج . أما حزب الزيبريين فكان أقل الأحزاب شعراً وشعراء . وكان هذا الشعر السيامى يُصنَّع بصيغة دينية ، لأنه في الواقع كان يتصل مباشرة بفكرة إمامة المسلمين وخلافتهم ، فطبيعى أن يصب في الدين وأن تسيل منه أشعة إلى قصائده ونماذجه .

### الحياة الاجتماعية

لعل أول ما نلاحظه في هذا الصدد أن الحجاز والشام تميزتا في هذا العصر بضروب من اللهو لم تُعْنَ بها البيئات الأخرى عنايتهما ، وكان على رأس هذه الضروب فن الغناء كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع .

فقد تكونت ، في الحجاز تحت تأثير الترف وفراغ كثير من الشباب للهو ، نظرية غناء شارك فيها العرب والموالى ، ولم تلبث هذه النظرية أن انتقلت إلى الشام ، إذ كان هناك اتصال دائم بين مغنى الحجاز ومغنياته وبلاط الخلفاء .

ويخيل لمن يتصفح كتاب الأغاني أنه لم يعد للناس في مكة والمدينة في أثناء هذا العصر من عمل سوى السماع للغناء حتى العبيد والفقهاء كانوا يثابرونه . ويروى أن مالكا صاحب المذهب المعروف حاول في أول أمره أن يكون غنياً<sup>(١)</sup> ، واشتهر عطاء وابن جرير من فقهاء مكة بإقبالهما على سماع المغنين<sup>(٢)</sup> .

(١) أغاني ٤/٢٢٢ .

(٢) أغاني ١/٢٥٧ وانظر ١/٣١٦ .

ولم يلبث خلفاء بني أمية - إذ استثنينا معاوية - أن طلبوا هؤلاء المغنين ،  
وبالغ في ذلك يزيد بن عبد الملك ، فكان يرسل في طلب المغنين والمغنيات من  
الحجاز ، واشترى مغنيتين مشهورتين : إحداهما بأربعة آلاف دينار وهي حبابة <sup>(١)</sup> ،  
والثانية بعشرين ألفاً وهي سلامة القيس <sup>(٢)</sup> . ونشأ ابنه الوليد على مثاله فكان  
بلاطه يكتظ بالمغنين من مثل معبد ، ويحيى قيسل ، والهندلي ، والأبججر ،  
وأبى كامل الغزيلي .

وإذا رجعنا نبحث في شعر الحجاز والشام لهذا العصر وجدناه في أكثره يؤلف  
لهؤلاء المغنين ، فهو شعر غنائى بالمعنى الكامل ، إذ هو يعبر عن أحوال وجدانية ،  
فمظمه يدور حول قصة الحب ، ثم هو يؤلف ليُغنى فعلاً ، وهذا هو معنى  
انكساره من الناحية الغنائية .

وستطيع أن ترجع إلى شعر عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيبات والعربجي  
في مكة ، والأخوص في المدينة ، والوليد بن يزيد في دمشق ، لترى أن شعرهم جميعاً  
يعبر عن ذوق جديد وحضارة جديدة ، فهو شعر قيل تحت تأثير ترف لم يكن  
للعرب في الجاهلية عهد به ، فقد بنى العرب ، كما قلنا في غير هذا الموضع ،  
القصور ، واكتظت قصورهم بالجواري الأجنبية من كل لون ، وأتُرف ذوقهم  
وأُتُرف شعورهم ، وعاش المولى في خلعتهم ، وقاموا لهم على فن الغناء الذي كانوا  
يحبهون ، فأحكموه إحكاماً دقيقاً .

ومن هنا كان كل من يقرأ شعر هؤلاء الشعراء يحس بفوارق شديدة بينهم  
وبين آبائهم في الجاهلية ، فهم من إحساس جديد ، إحساس مترف عاش أصحابه  
عيشة متحضرة ، لا تتصل بشظف العيش ولا بخشونة الحياة ، وأقرأ شعرهم الذي  
يرويه صاحب الأغاني ، فستجده شعراً خفيفاً يطير عن الأفواه طياراً ليمتلق  
بالقلوب والآذان . وهو شعر كان يذهب كله في تصوير قصة الحب الحديثة في  
الحجاز والشام ، حب هذا الشاب المترف الذي أصبح قوام حياته التهالك على المرأة

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٤٣/٨ .

(١) أغاني (طبع الساسي) ١٤٩/١٣ .

واظهار كل تفان فيها وكل رقة شعور .

ونستطيع أن نجمل خصائصه في أنه شعرُ شبابٍ مُدُنٍ يسرقونه للمرأة ، وعلى الأخص المرأة التي يجلسونها في دور الغناء . وكان كل منهم يحاول أن يسبق صاحبه في تصوير شعوره ودقة التعبير عنه . وَفُتِنَتِ المغنياتُ بهذا الشعر الذي يُشيد بهن ويحكي حسنهن ومفاتنهن . والأحوصُ خير مثال يصور لنا ذلك ، فقد كان يعشق أكثر المغنيات في دار جميلة ، وهي أكبرُ دارٍ للغناء في المدينة ، بل في الحجاز كله في أثناء هذا العصر . وقلما تظهر مغنية في هذه الدار لا يكون له معها شعر ، وعشق ، وحب ، وهو القائل <sup>(١)</sup> :

إذا أنت لم تعشّقْ ولم تدرِ ما الهوى      فكُن حَجَرًا من يابس الصَّخْرِ جَلَدًا  
فالحياة في رأي الأحوص ليست إلا العشق والهوى . وقد تحول إلى كل مغنية في بلده يحاول أن يشرب معها كأس الحب صافية ، وتغنى في شعره غناءً حاراً بهذه الكأس وما أصاب منها . وارجعُ إلى أخباره في الأغاني فستجده يعشق حباّبة وسلاماً اللتين اشتراهما فيما بعد يزيد بن عبد الملك ، كما يعشق مغنية أخرى تسمى عَقِيلَةَ ، وراية تسمى الذَّلْفَاءَ ، وفيها يقول <sup>(٢)</sup> :

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ هَتَّى | فَلَيْدَ عَنِّي مَنْ يَلُومُ |
| أَحْسَنُ النَّاسِ جَمِيعًا   | حِينَ تَمْشِي وَتَقُومُ      |
| حَبَّبَ الذَّلْفَاءُ عِنْدِي | مَنْطَقُ مِنْهَا رَحِيمُ     |
| أَصِيلُ الْحَبْلِ لَتَرْضَى  | وَهَيَّ لِلْحَبْلِ صَرُومُ   |
| حُبُّهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ | مُسْتَكْنٌ لَا يَرِيمُ       |

فهو يحبها في جميع أحوالها حين تمشي وتقوم ، وحين تغنى وتكف عن الغناء ، وحين تصله وتكف عن الوصل . فحبها مرض لا يستطيع الإفلات منه ، فهو مستقر في قلبه وفؤاده ، والذلفاء تارة تقبل عليه فتقبل عليه الدنيا ، وتدبر تارة ، فلا تزيد إلا هياماً بها وولاًها .

وليس من ريب في أن هذا الشعر يعبر عن ذوق جديد ، فالقدماء لم يكونوا

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٠٠/٨ .

(١) أغاني (طبع الماسي) ١٥١/١٣ .

يتهاكون على المرأة هذا التهاك الذى يتهاككه الأصوص ، لسبب بسيط ، وهو أنهم لم يكونوا مترفين ترف الأصوص وزملائه . وكانوا قلما أفردوا لها مقطوعات ، إنما كانوا يذكرونها غالباً فى مُفْتَتَح قصائدهم ، ثم يركزونها إلى الموضوع الأساسى الذى يريدهونه من مديح أو فخر أو تحو ذلك . أما الأصوص وأقرانه ، فقد أفردوا لها هذه المقطوعات وأنشأوها من أجلها لإنشاء ، وبذلك تحوّل الشعر العربى فى الحجاز والشام هذا العصر من قصائد إلى مقطوعات ، تُقال فى المرأة لتعبر عن أحداث ووقائع وجدانية حاضرة . فلم يعد الشبان ينشلون هذا الشعر الجزل الفخم الذى كان يُنشد حسان بن ثابت وغيره فى سوق عكاظ ، بل أصبحوا ينشلون هذا الشعر السهل المتهاكت الذى يُقال ليُغنى فى دور اللهو والغناء ، يُغنى فيه طوئسٌ وسائبٌ وخائرٌ ومحبّدٌ وابن مسججٌ وابن سريجٍ والغريص ، كما يغنى فيه جميلةٌ وحبابةٌ وسلامةٌ وعقيلةٌ والذئفاء . وكل هؤلاء أجانب على العرب والعربية . فلا بد للشاعر أن ينزل بأساليب شعره إلى اللغة اليومية ، حتى يرضى ذوقهم . ونفس الصورة التى كان يذاع بها هذا الشعر ، وهى صورة الغناء ، جعلت أصحابه يميلون إلى الأساليب الشائعة حتى يرضوا ذوق المستمعين .

لم يعد الشعر العربى فى الحجاز والشام يؤلّف فى أثناء هذا العصر بالصورة القديمة ، إنما أصبح يؤلّف بصورة جديدة ، فهو من حيث أسلوبه يميل الشعراء به إلى سهولة مفرطة ، وهو من حيث موضوعه أصبح يختص بالحب وأحلامه ووقائمه المعاصرة ، وهو من حيث كَيْتِه أصبح مقطوعات لا تزيد عن عشرة أبيات إلا فى القليل النادر . وليس هذا كل ما يميزه ، فقد كان هؤلاء المغنون والمغنيات يتناولون بعض أبياته بالإصلاح والتهذيب فيضعون كلمة مكان أخرى ، أو شطراً مكان آخر ، وقد يزيلون بعض الأبيات . ويتضح هذا من المقابلة بين ديوان ابن أبى ربيعة وكتاب الأغاني فى المقطوعات التى غُنّيت من شعره ، إذ نجد اختلافاً كبيراً .

فهذا اللون الجليل من الشعر لم يكن فناً مستقلاً بنفسه ، بل كان فناً معتمداً على فن آخر هو الغناء وقد أخذ الغناء يؤثر فيه بصور مختلفة ، تارة عن طريق

تهذيب المغنين فيه ، وتارة عن طريق فترضهم ألحانهم على الشعراء ، وكانوا يدخلون ألحاناً أجنبية كثيرة<sup>(١)</sup> ، وكانوا يطلبون إلى الشعراء ، من حين لآخر ، قطعاً من أوزان خاصة ، حتى يُغَنُّوا فيها<sup>(٢)</sup> .

فشاعر المدينة ومكة ودمشق في هذا العصر لم يكن حرّاً ، بل كان مقيداً بنظرية الغناء الجديدة التي وضعت حينئذ ورغبة أصحابها في بعض الألحان والأنغام التي قد تحتاج في الشعر إلى جهّز ومدّ في بعض الحروف وهمّس وتقصير في الحروف الأخرى ، وهو ما تعود العروضيون أن يسموه بالزحافات . ولا نشك في أن كثيراً من زحافات الشعر في هذا العصر أُريد بها تلبية حاجة مُغَنِّن من المغنين أو مغنية من المغنيات .

وكنك الشان في الأوزان نفسها فقد مال شعراء الحجاز والشام في هذا العصر إلى الأوزان الخفيفة من مثل الوافر والهرّج والمُتقارب والرّمل والسريع والمخفّف . وقد ينظمون في الأوزان الطويلة ولكنهم يعملون إلى تجزئتها . وشيء من ذلك كان موجوداً في العصر الجاهلي ، ولكن نلاحظ في هذا العصر الكثرة ، وأن الشعراء كما هجروا الأساليب الجزلة حاولوا أن يهجروا الأوزان المعقّدة . كل ذلك ليصيبوا هوى المغنين والمغنيات ، حتى يتيحوا لهم الفرصة كي يصبّوا في الشعر كل ما يريدون من ألحان وأنغام .

وعلى هذا النحو كان الشعر في الحجاز والشام هذا العصر يدور غالباً حول قصة الحب ، فهو شعر يكاد يذهب كله في الغزل . وكان هذا الغزل يؤلّف في لغة يومية مشتقة من لغة الناس الجارية ، ليس فيها بُعد ولا إغراب ، ولا لفظ ناب ، فقد كُتِبَ تحت ذوق متحضر جديد ، وتنادت به أصوات أجنبية من المغنين والمغنيات ، وعاش كثير من أصحابه أو كل أصحابه في مرافقتهم وملازمة دورهم وآلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فكان لذلك كله آثار مختلفة في هذا الغزل ، تناولت أساليبه ، وألفاظه ، وأوزانه .

(٢) أغاني ٢٣٧/٢ وما بسما .

(١) انظر الأغاني ٢٥٠/١ ، ٣٧٨ وكنك

وهذه الطبقة المرفقة التي أنتجت حياتها الاجتماعية هذا الغزل الجليد كان يقابلها في الكفة الثانية من العرب طبقة عامة اتخذ أدبها شعرها صوراً مخالفة . فنحن إذا ما تركنا الحجاز والشام ومدنهما الكبيرة إلى نجد وجلنا العرب هناك يعيشون ، كما كان آباؤهم في الجاهلية ، معيشة فيها شتَلفٌ وحرمان ، وقد مسح عليها الدين الجليد بروجة أحدثت سمواً في النفوس ، وسمواً في الشعر نفسه . وشاع في هذه البيئة الغزل ، ولكنه تميّز فيها تميزاً واضحاً عن غزل مكة والمدينة ، فقد كان الناس فيهما — كما قلنا — مترفين وعرفوا فنوناً من الحضارة المادية التي دخلت عندهم من فارس والروم ، فكان في شعرهم لذلك شيء من الحرية والإباحية . أما في البادية فكان الغزل عفيفاً ، لأن العرب هناك لم يعرفوا الترف ولا أفسدتهم الحضارة ، وقد رقي الإسلام نفوسهم وصفّاها ، فكان طبيعياً أن لا يكون غزلهم إباحياً صريحاً ، بل يكون غزلاً متسامياً ، فيه ثبُلٌ ، وفيه حرمان ، وفيه طهارة ، وارتفاع عن الحس والمادة .

ونقص لنا الرواة دائماً أن العاشق من هؤلاء النجديين سواء كان من بني عذرة أو من بني عامر أو من غيرها من القبائل كان يُصَنعُ من لقاء صاحبه ، بل كانت تحرّم عليه تحريماً حين يشكّون باسمها ويتغنى بحبها . وكأن ذلك في رأيهم هو سبب هذه العقلة التي يحسّها من يقرأ غزلهم ، فهو غزل مضطرب في قلوبهم أبداً ، ظاهراً أبداً ، متلهف على لقاء المحبوبة تلهفاً لا يزال بنفوسهم حتى يجتوا جنوناً أو يهلكوا هلاكاً دون أن يتنهجوا بوصول أو يسئلوا بقرب ، وهم يتنون لهذا الحرمان ويبكون ويتضجعون .

وفي رأينا أن هذه العقلة التي فسر بها الرواة هنا الحب العنري الظاهر المحروم إنما هي عقلة اصطنعوها اصطناعاً ، فإن الإسلام لا يحرم زواج الحب لمحبوته ، وما كان العرب ليقبموا سنة لا يعرفها الإسلام ولا جاء بها .

وتصور هذا الحب العنري أتم تصوير الأشعارُ المنشورة في ترجمة مجنون ليل العامري بكتاب الأغاني ، فإنها تقص هذا الحب اليائس الذي لا يستطيع الحب فيه أن يلتقي صاحبه وينعم طرفة بمرحباها الرائع على نحو ما نرى في مثل قوله :  
وأحيسُ عنك النفسَ والنفسُ صَبَّةٌ      بذكرائكِ والمَحَشَى إليكِ قريبُ

وقوله :

أقول لأصحابي هي الشمسُ ضوءها قريبٌ ولكن في تناولها بُعدُ

وقوله :

وأصبتُ من ليلي الغداةَ كناظرٍ مع الصُّبحِ في أعقابِ نَجْمٍ مُغرَّبٍ

وقوله :

يسمُوني المجنونَ حينَ يَرَوْنِي نَعَمَ لي من ليلي الغداةَ جنونُ

ورواه هذه الابيات اسعار كثيرة تصف كيف ملك جمال ليلي منه حِسَّة وعقله وقلبه منذ أن كانا صبيين يرعيان الأغنام ، يقول :

تعلقتُ ليلي وهي ذات تمامٍ لم يَبْدُ للأثواب من ثديها حَجَمُ  
صغيرين نَرَعَى البَهْمَ يا ليت أننا إلى اليوم لم نَكْبِرْ ولم تكبر البَهْمُ

وما يزال يصور لوعته من حبها وينكيها بكاء كله تفجع وحسرة ويأس قاتل من لقائها ، على نحو ما نرى في مثل قوله :

نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ لِيَ اللَّيْلُ شَاقَتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ  
أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمَنَى وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ  
لَقَدْ ثَبَتَ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ

وقوله :

تَمُرُّ اللَّيَالِي وَالشُّهُورُ وَتَنْقَضِي وَجُكُّ لَا يَزْدَادُ إِلَّا تَوَادِيَا  
أَعْدُ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَقَدْ عَشْتُ دَهْرًا لَا أَعْدُ اللَّيَالِيَا  
وَأَنْتِ الَّتِي إِنْ شِئْتَ أَشَقِيتِ عَيْشِي وَإِنْ شِئْتَ - بَعْدَ اللَّهِ - أَنْعَمْتَ بِالِيَا  
أَمْضِرُوبَةً لَيْلَتِي عَلَى أَنْ أَزُورَهَا وَتَتَّخِذُ ذَنْبًا لَهَا أَنْ تَرَانِيَا  
هِيَ السَّحَرُ إِلَّا أَنْ السَّحَرُ رُفِيَّةٌ وَلَئِنْ لَا أَلْقَى لَهَا الدَّهْرَ رَاقِيَا

وقوله :

وداع دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى فَهَيَّجَ أَشْجَانُ الْفَوَادِ وَمَا يَدْرِي  
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى خَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا أَطَارَ بَلِيلِي طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي  
وَيَخْتَلِطُ عَقْلُهُ وَبِهِمْ فِي الْبَرِيَّةِ مَعَ الرَّحْشِ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُ ،  
وَيَلْقَاهُ النَّاسُ صَدْفَةً ، فَلَا يَحْدِثُهُمْ إِلَّا عَنَ لَيْلَى وَعَن جَنُونِهِ فِي خَبِيئَةٍ :

وإني لمجنونٌ بليلي موكلٌ ولستُ عزوفًا عن هواها ولا جلتدًا  
إذا ذكرتُ ليلي بكيتُ صبايةً لتذكارها حتى يبُلُّ البُكَاءُ الخدًّا  
ويرى صورتها في كل ما حوله من أماكن ودرج وظباء ووحش ومن بدور  
وشمس ، ويتغنى بكل ما يهب على ديارها من رياح صبا وغير صبا ، وبكل  
ما يراه من سحب وسيول وبرق وأزهار وحُمول ، وما كان يشجبه شيء كنوح  
الحمام ، فقد كان يذرى دموعه إذ رآه شديداً . وما يزال في ذلك حتى يهلك  
عشقاً وجباً .

ولا تظن أن مجنون ليلي شخصية حقيقية ، فقد كان الرواة القدماء أنفسهم  
ينكرونها ، كما حدثنا صاحب الأغاني في ترجمته ، بل كان العرب أنفسهم ينكرونها  
ويقولون إن المجانين كثير ، وكأنما اتخذهم النجديون رمزاً يضيفون إليه هذا الغزل  
العلري العفيف الذي كان يجري على ألسنتهم . ومعنى ذلك أن هذا الغزل الذي  
نقرؤه في الأغاني والذي يضاف إلى مجنون ليلي وأضرابه مثل قيس بن ذريح وعروة  
ابن حزام ليس من عمل شاعر بعينه ، وإنما هو من عمل هذه الجماعة النجدية في  
عصر بني أمية يشترك فيه كثيرون مجهولون لم يكن يعينهم في قليل ولا كثير أن  
تُحرف أسماءهم ويشتبهوا في الناس .

أما لعل في هذا ما يلفتنا إلى أن هذا الغزل العلري العفيف الذي شاع حينذاك  
إنما كان ضرباً من الأدب الشعبي المبكر في اللغة العربية فأصحابه مجهولون . وقد  
صحبته أقاصيص كثيرة ، فلم يكن شعراً خالصاً ، بل كان شعراً ونثراً ، وكان  
النثر والشعر أو كان القصص والشعر يدوران على ألسنة النجديين هذا الدوران الذي  
نعرفه للأدب الشعبي ، إذ يجري على كل لسان . وحقاً كان بين هؤلاء العلريين  
من أثبتهم التاريخ مثل جميل صاحب بشينة وكثير صاحب عزّة ، ولكن ما نهب  
إليهما وإلى أضرابهما شعراً أو قصصاً لا يقاس من حيث الروعة إلى ما نُسب إلى

الأشخاص الأسطوريين من مثل مجنون ليل وقيس بن ذريح صاحب لُبْنَى وعروة بن حزام صاحب عَقْرَاء .

وهذا الغزل العلوى أو العفيف الذى شاع فى نجد وبوادر الحجاز كان يرافقه شعر آخر يقال فى تخاصم القوم على المياه والمراعى ، وقد يتحول إلى هجاء على نحو ما كان شأنهم فى الجاهلية ، ولكن على العموم كان نشاط الشعر ضيقاً فى هذا المجال . وإذا تركنا نجداً إلى العراق ومدينتيه الكيرتين البصرة والكوفة اللتين اخطلها عمر هناك وجدنا العرب اللذين نزلوا يشتغلون طوال هذا العصر بالحروب والفتوح ، حروب الخوارج وفتوح خراسان والهند . فلم يكونوا آمنين مستقرين بل كانوا دائماً على أهبة القتال والاشتراك فى البعث التى يرسلها زياد والحجاج وخالد القسرى لتعقب الخوارج أو فتح مدن الترك فى خراسان وما وراء النهر .

ومن أهم ما يلاحظ فى تكوين الكوفة والبصرة أنه لم يتم للعرب فيها اندماج تام ينسوّن فيه حياتهم القديمة ، فقد نزلوا فيها قبائل ، كل قبيلة لها منازلها ، فكانت تقيم مثلاً تنزل فى جانب ، وهكذا أسد وبكر والأزد وهلم جرّاً . فمن هله الناحية لم يتم تكوين الكوفة والبصرة مدينتين كاملتين ، لكل منهما فرديتها وتمازج أهلها بل استمر سكانهما يشعرون أنهم قبائل ، وإن عاشوا فى المدن ، وخلمهم الأعاجم .

ومن هنا غلب على الحياة فى البلدين طابع الحياة الجاهلية . وإذا كانت المدينة فى الحجاز مثلاً اشتهرت بدار جميلة حيث المغنون والمغنيات فإن البصرة اشتهرت بالصيربند ، كما اشتهرت الكوفة بالكُنَاسة ، وهما سوقان عامتان على نحو ما كانت سوق عكاظ فى الجاهلية .

وذاع صيت الصيربند خاصة فى هذا العصر حيث كانت تتحلّق القبائل حول شعرائها ، فلجرب حلقته ، وللفرزق حلقته <sup>(١)</sup> ، ويؤمّ الناس هاتين الحلقتين وغيرهما من الحلقات <sup>(٢)</sup> التى كانت تنعقد هناك كل يوم ، ليستمعوا إلى ما ينشد الشعراء ، وخاصة فى العصبية القبلية .

(٢) أغنى (طبع دار الكتب) ١٢/٥ ،

١٥٢/١٠ و(طبعة السامى) ١١٢/١٦-١١٤

(١) أغنى (طبع دار الكتب) ٢٩/٨ ،

٧٧/٨ .

وكانت هذه العصبيات هي كل حياة القوم الاجتماعية وما يتصل بها من هو  
وعبت ، فقد أمضوا أوقاتهم هناك يُشِيرُونها ويتحدّثون فيها ، ويعقبون بأحاديثهم  
ما كان منها في الجاهلية وما اتصل منها في الإسلام ، وكأنما ذهبت أدراج الرياح  
وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في العرب وما دعا إليه من نبذ التفاخر والتكاثر من  
مثل قوله في خطبة حجة الوداع :

« أيها الناس ! إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ،  
كلكم لآدم وادم من تراب » .

وليس من شك في أن هذا مثلٌ أعلى أرادته الإسلام للعرب ، حتى تجتمع  
كلمتهم ولكنهم لم يكادوا يطمثون بعد فتوح أبي بكر وعمر وعثمان ، حتى عادوا  
إلى دَعْوَى الجاهلية ، وإلى منازعاتهم العصبية . وعَمِلَ على تَأجِيج نار هذه  
العصبية ما كان من تحارب القبائل في صِيفين وقيل صِيفَيْن في موقعه الجَمَل ،  
فاشتعل ما كان خَبِيئاً في قلوبهم ، وعادوا إلى التنابد بالأنقاب والفخر بالآباء .  
وفي الظاهر كان على معاوية يقتتلان ، وفي الباطن كانت القبائل تتكئَل حسب  
خصوماتها الجاهلية ، فعَاوِيَة معه قُضَاعَة وكُتَيْبُ البِشِيتَان ومعه تَخْلِب ، وعلى  
معه قَتَيْسٌ ، ومعاوية معه قريش ، وعلى معه الأنصار .

ويُفَرِّغ أهل الكوفة والبصرة من حرب صِيفين أو حرب على ومعاوية ، لِيُشْعِلُوا  
نار هذه العصبيات ، وليتخلّفوا لِهَوَمٍ وَلعِبَةٍ . وسرعان ما أخذت شكل فخر  
وهجاء في نطاق لعل العصر الجاهلي لم يظفر به ، فقد كان شعراء القبائل في الجاهلية  
يتفاخرون ويتهاجّون ومنازلم بعبدة ، أما اليوم فهم مصطفون بعضهم أمام بعض ،  
وكل قبيلة تستحث شعراءها ، ليرموا خصومها بهذه السهام اللاذعة . وبذلك أخذ  
الهجاء في العصر الأموي شكلاً أعنف من شكله في العصر الجاهلي ، فقد  
اصطَفَت القبائل جماعها في حلقات بالمِرْبَد والكُنَاسَة ، والناس يقبلون  
على هذه الحلقات للفرجة وكل قبيلة تحاول أن تخرج من شاعرها أحد ما في  
جَعْبَتِهِ من سهام ، حتى تَرِيش بها القبائل التي عادتْهَا قديمًا ، ولا تزال  
نعادها حديثًا .

وكان هذا الهجاء هو الشغل الشاغل للطبقة الفارغة من العرب في العراق حين يهدأون فلا ينتفضون على اللولة ولا يخرجون في حرب ولا بعوث ، فزى الناس يتجمعون في الكنانسة والمربد ليتلو لهم شعراؤهم هذه الصحف المثيرة ، صحف مفاخرهم ومبازل خصومهم ، وهم من حولهم يصفقون ويصفقون .

وقد طالت المسافة بيننا وبين من عاشوا في العراق في أثناء هذا العصر الأموي ، وأصبحنا لا نعرف الآن معرفة دقيقة ما كان لهذه الحصومات وما صاحبها من فخر وهجاء من تأثير في نفوس القوم ، ولكن من يتابع تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام يراهم يخشون بأس الشعراء خشية شديدة . ويوضح ذلك من بعض الوجوه ما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدأ حسان بن ثابت يهجو قريشاً فقد قال له : « لهذا أشدُّ عليهم من وقع النبل »<sup>(١)</sup> وقصة الحطيبنة مع الزبير بن بذر مشهورة ، فقد هجاه ، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب ، فحبسه ، ثم عفا عنه بعد شعر كثير ، يستعطفه فيه على أطلاقه<sup>(٢)</sup> .

ويظهر أن هذا الهجاء طبع رُكِبَ في العرب ، فإن الإنسان لا يسمع بشريف من أشرافهم في الجاهلية والإسلام إلا وقد سكت الشعراء عليه نبال هجائهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق منه ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه . ومن طلب عيباً وجده ، فإن لم يجد عيباً وجده بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ، ويحمله عنه ، ولذلك هُجِيَ حِصْنُ بن حذيفة ، وهُجِيَ زُرَّارة بن عدس ، وهُجِيَ عبد الله بن جُدعان وهُجِيَ حَاجِبُ بن زُرَّارة »<sup>(٣)</sup> .

فالجاحظ يقرر أن الهجاء كان شيئاً عاماً عند العرب وأن بيتاً شريفاً لم يَسْخُلْ منه فهو قصاصُ الشرف في نفوس الأعداء للقبيلة ، وهو سبيل الظلم لها . إن انتصرت عليهم في حرب أو سبقتهم في فضل . وقد ذهب يقرر في وضوح أن القبيلة الشريفة يكون فيها خيرٌ كثيرٌ وشرٌ كثير ، وبذلك تكون معرضاً للهجاء .

(٣) الحيوان ٩٣/٢ .

(١) أغاني ١٤٣/٤ .

(٢) أغاني ١٧٩/٢ وما بعدها .

أما القبيلة الوضيعة فلا تذكر بخير ولا شر ، وتدخل في غمار الناس ، فحل أهلها محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسد الأكفاء . واسترسل يعدد القبائل الشريفة في العرب فقال : « القبائل المتقدمة الميلاد التي في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شر » وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ، ومثل فزارة ومرة وثعلبة ، ومثل عبس وعبد الله بن غطفان ، ثم غنى وباهلة . . . والشرف والخطر في عبس وذبيان ، والمبتلى والملقى والمهروم والمظلوم مثل باهلة وغنى مما لقيتا من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهما آلة للمدارج الأقدام ينكب فيها كل ساع ، ويعثر بها كل ماش . . حتى صار من لا خير فيه ولا شر عنده أحسن حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم وثور وعكل وتيم ومزينة ، ففي عكل وتيم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور . وقد سلمت ثور إلا من الشيء اليسير ، مما لا يرويه إلا العلماء ، ثم حلت البلية وركد الشر والتحقف المهجاء على عكل وتيم . وقد شعثوا بين مزينة شيئاً . وقد نالوا من ضبة مع ما في ضبة من الحصال الشريفة . . . وكذلك بكتعبر قد ابتليت وظلمت وبخست مع ما فيها من الفرسان والشعراء ، ومن الزهاد ومن الفقهاء ، ومن القضاة والولاة ، ومن نوادر الرجال إسلاميين وجاهليين . وقد سلمت كعب بن عمرو ، فإنه لم ينلها من المهجاء إلا الخمش والنتف . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع المهجاء<sup>(١)</sup> .

وبالحاظ يستعرض في هذه الفقرة البديعة ما كان بين العرب في العصرين الجاهلي والأموي من هجاء استطارت نيرانه . وقد استمرت هذه النيران في العراق بالمرتبدة والكناسة ، فكل شاعر لقبيلة من هذه القبائل التي عدها الباحث يستحدث حجراً كبيراً يقذف به خصومها ، وينهض له خصم من القبيلة ، فيرد حجراً إلى رأسه ورأس قبيلته .

وهكذا احتدمت هناك العصبية ، وهي عصبية كانت تقوم بين الأصول والجرائم الكبيرة من العرب ، كما تقوم بين الفروع والشعب الصغيرة ، فمضّر تضعف من اليمن ، وتستر هاتان العصبيتان الكبيرتان بين المضرة واليمنية ، ثم

تنقسم مضر أقساماً أهمها تميم وقيس وربيعة وفرعيها : بكر وتغلب . وكل قسم من هذه الأقسام ينقسم إلى شعب وفصون ، وقد تطاحت الشعب والفصون القيسية بأقوى وأعنف مما تطاحت الشعب والفصون في الأقسام الأخرى .

وعلى هذا النحو كان لكل قبيلة ، بل لكل بطن من قبيلة في البصرة والكوفة شعراء ينافحون عنه في هذه الحرب السانية الداخلية التي أُشْرِعت فيها أسنة الشعر ، وترأى فيها الشعراء من كل جانب بالنبال والسهم . وفي الأغاني صور من ذلك كثيرة ، فمُساوِر العَبْسِيِّ يتهاجى مع المَرَّار الفَقَّحَسِيِّ الأَسَدِيِّ<sup>(١)</sup> ، وابن مَيَّادة الذبياني يتهاجى مع الحكم الخُضْرِيِّ الحارِثِيِّ<sup>(٢)</sup> ، ويتهاجى زياد الأعجم مولى عبد القيس مع كعب الأشقر<sup>(٣)</sup> ، ومع المغيرة بن حَبْنَاء التميمي<sup>(٤)</sup> .

ونفذ في أثناء ذلك جرير والفرزدق من جهة وجريز أيضاً والأنخل من جهة ثانية إلى أهاج كانت تُلقَى في مسرح المِرْبَد ، وكانت تأخذ شكل لُعبة طريقة يتجمع الناس لمشاهدتها والفرجة عليها . وميت هذه الأهاجى بالنقائض ، وسنعرض لها في الفصل التالى ونكشف عما فيها من جديد ، فقد استطاعوا أن يحولوا فن الهجاء الجاهلى إلى فن النقائض الأموى ، واتخذوه ليلوا به هذه الجماعة الفارغة في العراق .

وكان يعيش مع هذه الطبقة العامة من العرب والطبقة الأرستقراطية السابقة طبقة "ثالثة" من الأجانب ، وهم الموالى . وكانوا كثيرين في المدن الإسلامية كثرة ظاهرة ، إذ كانوا يبلغون في الكوفة والبصرة نحو نصف السكان .

وكثير من هؤلاء الموالى كان من أسرى العرب في الحروب وبغائرها ، وقد عاشوا معهم ، لحدمتهم ، فالعرب إذاً كانوا سادتهم ، وكانوا يشعرون دائماً بهذه السيادة عليهم ، فهم أتباعهم وقد قاموا لهم على الزراعة والصناعة والحِرَف وسميهم المختلفة .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٧/١٤  
٣٩٣/١٥  
(٤) أغاني ٩٩/١٣

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٣١٨/١٠  
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٣/٢  
وما يبعث .

وعلى الرغم من أن الإسلام دعا إلى نزع الفوارق بين الطبقات في الأمة ، فقال جلّ شأنه : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : « ليس لعربي على عجمي فضلٌ إلا بالتقوى » . على الرغم من ذلك نرى العرب في العصر الأموي ينظرون إلى هؤلاء الموالى نظرة السادة إلى العبيد . ففي حوادث ثورة المختار الثقفي حين ثار في الكوفة ودعاً لابن الحنفية وثار معه الموالى ثم هزمهم مصعب بن نهض معه من أهل البصرة سُخْطاً على المختار لأنه سوى بين هؤلاء الموالى وبين عرب الكوفة في الحقوق ، في هذه الحوادث نجد الطبري يروي عن الشعبي أنه قال : « دخلت البصرة ، فوجدت إلى حكمة فيها الأحنف ابن قيس ، فقال لي بعض القوم : من أنت ؟ قلت : رجل من أهل الكوفة ، قال : أنتم موالٍ لنا ، قلت : وكيف ؟ قال : قد أنقذناكم من أيدي عبيدكم ، من أصحاب المختار (١) » .

فالعرب في عصر بني أمية رفضوا نظرية الإسلام التي تدعو إلى التسوية بين الشعوب والقبائل ، ونظر نفر منهم إلى الموالى نظرة السيد إلى عبده ، وقد أقاموهم على خدمتهم في السلم . أما في الحرب فيلاحظ قلّه وزن أنهم كانوا يأخذونهم معهم إذا حاربوا ، ولكنهم كانوا لا يركبون الخيل مثلهم ، إنما يجاربون بين أيديهم رجالة ، ويقول إن ذلك يذكر بالفرسان وخدمهم في العصور الوسطى (٢) ، ولكن لعل ذلك حدث لأنهم لم يكونوا فعلاً أهل فرسية وخيل .

وفي العقد الفريد فصل يصور فيه ابن عبد ربه معاملة العرب للموالى . كان كثير مما رواه مبائلاً فيه ونراه يقول : « قدّم نافع بن جبّير بن مطعم رجلاً من الموالى يصلّي به ، فقالوا له في ذلك ، فقال إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه ، ويقال إن نافع بن جبّير هذا كان إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشي ، قال وأقواماه ، وإذا قالوا عراقي ، قال وأبلدتاه ، وإذا قالوا موثلي ،

وانظر الطبري ٢/٧٢١ .

(١) طبري ٢/٦٨٤ .

(٢) كتاب قلّه وزن السابق ص ٢٤٦

قال : هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء . وكانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى . وكانوا لا يكتنهم بالكُنَى ولا يدعونهم إلا بالاسماء والألقاب ، ولا يمشون في الصفوة معهم ، ولا يتقدمونهم في الموكب ، وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وإن أطعموا المولى لسيته وفضله وعلمه أجلسوه في طريق الحُبَّاز ، لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب . ولا يدعونهم يُصَلُّون على الجنائز إذا حضر أحد العرب . وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها ، وإنما يخاطبها إلى مولاها فإن رضى زوج ، وإلا ردَّ ، فإن زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فُسخ الزواج . . . . ورُوِيَ أن عامر بن عبد القيس في نسكه وزهده وتقشفه وإخباته وعبادته كلَّه حُمرَّان مولى عثمان بن عفان عند عبد الله ابن عامر صاحب العراق في تشييعه على عثمان وطعنه عليه ، فأنكر ذلك ، فقال له حمران : لا كثر الله فينا مثلك ، فقال له عامر : بل كثر الله فينا مثلك ، فتبيل له : أيدعو عليك ، وتدعو له ؟ قال : نعم يكسحون طرقتنا ، ويخزرون خفافنا ، ويحكون ثيابنا<sup>(١)</sup> .

ولا نشك في أن في هذه الأخبار والروايات كثيراً من المبالغة، ولكن من الحق أن الموالي كانوا طبقة ثالثة في المجتمع العربي في أثناء هذا العصر ، ومن المؤكد أنهم أدوا دوراً عظيماً حيث بذلوا خدمة الدين والثقافة الإسلامية ، فكان أكثرُ حَسَنَةِ العلم والدين منهم ، وكذلك كان منهم شعراء اشتهروا في هذا العصر مثل زياد الأعجم ومولى عبد القيس وأبي العباس الأعمى الشاعر المكي مولى بني الدُّثَّيل ، وبزيد بن ضبة مولى ثقيف ، وقد خسرَ جَتَ أسرة يُسَارَ النُّسائي في المدينة غير شاعر .

وإذا أخذنا نبحث شعر هؤلاء الموالي وجدنا أكثره يذهب في المديح . وهذا طبيعي فتنزلتهم متأخرة في الحياة ، وهم في حاجة إلى المال ، فلزموا الخلفاء والأمراء والأجواد المشهورين يمدحونهم ، لينالوا عطاياهم .

وقد لُوِّنَ شعرُ نفر منهم بنزعة شعوبية ، جاءت من موقف العرب لزاءهم ومحاولتهم إذلالهم فكان ذلك سبباً لثورة نفسية كَبَتُوهَا ، أو كَبَتَهَا معظمهم ، وأفصح عنها بعضهم من حين إلى حين . فالمصدر لا بد له أن ينتقش . وأهمُّ

شاعر اشتهر بهذه النزعة في العصر الأموي إسماعيل بن يسار النسائي ، وقد ترجم له أبو الفرج ترجمة طريفة في الأغاني ، وروى طرفاً من شعره الشعبي ، فن ذلك قوله <sup>(١)</sup> :

رُبَّ خَالٍ مَتَوَجِّجٍ لِي وَعَمٍّ      مَاجِدٍ مُجْتَنِدِي كَرِيمِ النَّصَابِ  
إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَوَارِصُ بِالْقُرِّ      مِنْ مِضَاهَاةٍ رَفْعَةِ الْأَنْسَابِ  
فَاتَرَكَى الْفَخْرَ يَا أَمَامَ عَلَيْنَا      وَاتَرَكَى الْجَوْرَ وَانْطَلَقَ بِالنَّصَابِ  
وَاسْأَلِي إِنْ جَلَّهْتَ عَنَّا وَعَنْكُمْ      كَيْفَ كُنَّا فِي مَالِ الْأَحْقَابِ  
إِذْ نُرَبِّي بِنَاتِنَا وَتَدُسُّو      نَ سَفَاهَاً بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ

وهذه نزعة شعوبية واضحة ، فإسماعيل لا يحاول أن يفخر بالفرس فقط ، بل يحاول أن يضعهم فوق العرب ، إذ يرجع إلى التاريخ القديم في الجاهلية ، وما كان العرب فيه من فوضى ، وما كان لقومه من ملوك متوَجِّجين . ونراه يشير إلى ما كان عليه العرب من غِلَظ وجفوة ، إذ كانوا يَثْلُون بِنَاتِهِمْ .

ويظهر أن إسماعيل لم يكن يُخْتَقِ هذه الشعوبية ، فقد رَوَى صاحب الأغاني أنه دخل على هشام بن عبد الملك في خلافته وهو بالرُّصَافَةِ جالسٌ على بِرْكَةِ مَاءٍ في قصره ، فاستنشهده ، وهو يظن أنه يُنْشِدُهُ مَدِيحاً لَهُ ، فَأَنشَدَهُ قَصِيدَةً لَهُ يفخر فيها بالعجم ، حتى انتهى إلى قوله :

إِنِّي وَجَدْتُكَ مَا عُدِي بِذِي خَوَرٍ      عِنْدَ الْحِفَافِ وَلَا حَوَاضِي بِمَهْلُومِ  
أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْدِي لَا يُفَاسُّ بِهِ      وَلِي لِسَانٌ كَحَدِّ السِّيفِ مَسْمُومِ  
أَحْيَيْتَنِي بِمَجْدِ أَقْوَامٍ ذَوِي حَسَبٍ      مِنْ كُلِّ قَرْنٍ بِتَاجِ الْمُلْكِ مَعْنُومِ  
جَحَاجِعِ سَادَةٍ بُلُجٍ مَرَازِبَةٍ      جُرْدٍ عِتَاقٍ مَسَامِيحٍ مَطَاعِمِ  
مِنْ مِثْلِ كِسْرَى وَسَابُورِ الْجُنُودِ مَعَا      وَالْهَرْمُزَانِ لِفَخْرِ أَوْ لِنَعْظِمِ  
أَسَدُ الْكُتَابِ يَوْمَ الرُّوْعِ إِنْ زَحَفُوا      وَهُمْ أَذَلُّوا مُلُوكَ التَّرِكِ وَالرُّومِ

فغضب هشام وقال : « أعلیٰ تفخر وإيای تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ » ثم أمر أن يرموه في الماء ، فرموه وغطَّوه ، حتى كادت نفسه

تخرج ، ثم أمر بإخراجه ، ونفاه من وقته إلى الحجاز<sup>(١)</sup> . وطبيعى أن يضرب  
وُحُرْمَ وَيُطْرَدَ في هذا العصر الذى كانت الدولة تتعصب فيه لكل ما هو  
عربى ، كما كانت تحارب كل نزعة ترى إلى الغُصِّ من شأن العرب وحطهم  
ورفع غيرهم عليهم ، وإنما اتسعت الشعبوية أو هذه القومية العنصرية في العصر  
العباسى حين ضَعُفَ شأنُ العرب وقَوَّى شأنُ الفرس ، وارتفع نجمهم .

ولعل في كل ما تقدم ما يدل في وضوح على أن الشعر في هذا العصر الأموى  
تطوّر مع تطور حياة العرب الاجتماعية وما كان فيها من طبقات ، بعضها فوق  
بعض . فالملأى وموقف العرب منهم وشعوبيتهم ، والعرب وعصبياتهم وما انطوى  
فيها من فخروهجاء ، وقريش وترفها وغناؤها وغزلها ، كل ذلك مُصَوَّرٌ في الشعر  
الأموى أروع تصوير .

## ٥

### الحياة الاقتصادية

من أهم العوامل في تكوين نفسية الفرد حياته الاقتصادية ، فالذين ينعمون  
بالراحة ، ويتوفّر لهم نعيم الدنيا شأنهم في شعرهم غير شأن الذين حُرِمُوا هذه  
الراحة وذلك النعيم بسبب اختلاف المؤثرات المادية الواقعة على نفسياتهم .

فهؤلاء المترفون من قريش الذين تحدثنا عنهم في الحياة الاجتماعية كان  
شعرهم صدى حياتهم المرفهة وثمرة مباشرة لما نعموا به . وكان يقابلهم في الصحراء  
رجال لم ينعموا بدنياهم نعيمهم ، فاصطبغ غزلهم بصبغة حزينة ، وكأنهم يستملكون  
من متعين للحرمان ، ولا شك في أنه دخلت في شعرهم تأثيرات روحية من الإسلام ،  
ولكن لا شك أيضاً في أنه كان للتأثيرات الاقتصادية نتائج مهمة في نفوسهم ، فما  
حياة الفرد التى نشاهدها في أغلب صورها إلاملامة بينه وبين الطاقة الاقتصادية  
التي يستطيعها ، والتي يعيش ويتحرّك داخلها ، فهى التى ترسم له خطوط هذه  
الحياة ومباهجها أو متاعها .

ونحن إذا تأملنا في ظواهر الحياة لهذا العصر الأموى وجدنا الجانب الاقتصادى

(١) أغنى ٤٢٢/٤ وما بعدها .

يتغلغل في ضمير كل ظاهرة منها حتى الاتجاهات الروحية في الأفراد يمكن أن تعلل من بعض جوانبها بعامل اقتصادية ، وإذا كان المال والترف هما اللذان أثرا في نهاية هذا العصر الوليد بن يزيد شاعر الحمريات ، فما لا شك فيه أن البؤس والفقر يدفعان في كثير من الأحوال إلى الكسب ، وقد ينتهيان بالإنسان إلى الزهد في متاع الدنيا والتعلق بالنسك والعبادة .

ونَدَّعُ الجانب الروحي إلى الجانب السياسي فهل من شك في أن كثيراً من تبعوا الأمويين ، ونظموا شعرهم فيهم ، إنما تبعوهم حباً في أموالهم وطلباً لدنياهم ؟ . ونفس الذين خاصموهم من زُبَيْرِين وخوارج وشيعة إنما كانوا يخاصمونهم - في أغلب الظن - حباً لما في أيديهم من مال ودُنْيَا يريدون أن يتحولوا إليهم . ففي الظاهر أحزابٌ سياسية ، وفي الباطن دوافعٌ ومحركات اقتصادية .

فالعامل الاقتصادي كان له أثره العميق في حياة الناس والشعراء في أثناء هذا العصر كما هو دائماً في كل عصر ، ويستطيع الإنسان أن يلاحظ أثره في جميع جوانب الشعر الأموي ، حتى في الشعر الحماسي الذي كان يُنظَّم في الفتح والجهاد في سبيل الله ، فإنه لم يَحُلْ هو الآخر من أثر مادي اقتصادي ، فهذا نَهَارُ بْنُ تَوْسِعَةَ يقول في رثاء المهلب قائد الجيوش في خُرَاسَان<sup>(١)</sup> :

أَلَا ذَهَبَ الْغَزْوُ الْمُقَرَّبُ لِيَلْغَنِي وَمَاتَ النَّدَى وَالْجُودُ بَعْدَ الْمُهَلَّبِ

وليس معنى ذلك أن العرب لم يفتحوا الفتوح إلا من أجل المال وجمع الثروات ، فقد كان الدين لا يزال غَضّاً في نفوسهم ، ولا تزال النزعة الروحية أقوى فيهم من النزعة المادية ، ولكن المادة على كل حال كان لها تأثير قليل أو كبير فيهم .

ونحن لا نستطيع أن نَفْصِلَ في هذا العصر أية جانب من جوانب الحياة عن المادة ، فهي تتعق في كل شيء . وما لا ريب فيه أنها أصبحت أقوى أثراً وأبعد عملاً في حياة العرب في أثناء هذا العصر مما كانت عليه في حياتهم الجاهلية ، فقد خرجوا إلى المدن واتسعت بهم ضرورات الحياة . وفرق بين رجل البادية ورجل المدينة في المطالب اليومية لحياته وبعيسته .

ومن أهم ما يلاحظ في هذا الصدد من تَغْيِيرٍ أن شعر الحماسة القديم لم يعد اللون الغالب في الشعر العربي ، فقد تطورت الحياة واختلفت ، اختلف مصبها واختلف منبعها ، وأصبح المديحُ أهم لونٍ بارز في لوحة الشعر لسبب بسيط هو اتساع ضرورات الحياة العربية الجديدة .

وكانت دمشق وأموالها مفرجَ الشعراء من أقصى البوادي إلى أقصى الخواضر ، فهم يَشْدُون إليها الرُّحال من الحجاز والعراق ، يستمحبون خلفاءها بهذه الطرائف من مدائحهم ، ويعودون من عندهم بجرّ الحقائق قد ملأوها بالعطايا الجزيلة . ومن خير ما يصور ذلك قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان على لسان زوجته أم حنزة<sup>(١)</sup> :

تعزّت أم حنزة ثم قالت رأيت الواردين ذوى لقاح<sup>(٢)</sup>  
تعلّل<sup>(٣)</sup> وهى ساغبة بنبها بأنفاس من الشيم القراح<sup>(٤)</sup>  
ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح  
أغشنى يسا فداك أبى وأمى بسبب منك إنك ذو ازدياح<sup>(٥)</sup>  
مأشكر إن رددت على ريشى وأنبت القواديم فى جناحي

فهو يعلن على لسان زوجته حاجته الملحة إلى المال . ويروى الرواة أن عبد الملك قال له هل تُرويهما مائة لقحة ؟ وأمر له بها وبثانية من الرعاء<sup>(٥)</sup> . ومثل هذا العطاء هو الذى كان يسيل له لعاب الشعراء ، فكانوا يقفون فى صفوف بنى أمية . ومن كان منهم معارضاً كان يجره مال بنى أمية جرّاً ، فابن قيس الرقيات وكُثَيِّر والطَّرِمَّاح لم يكونوا يجلدون بئساً فى مدح بنى أمية ، ما دام مدحهم يملأ حجورهم بالمال .

وعلى هذه الشاكلة ولنفس السبب تعلق الشعراء بمدح ولاية بنى أمية ، فكان جرير شاعر الحجاج قبل أن يكون شاعر عبد الملك . وكان زياد بن أبيه ، وابنه عبيد الله ، وبشر بن مروان ، وخالد القسرى ، يصلون الشعراء ويسمّون عليهم

(١) الديوان ص ٩٧ .  
(٢) القحاح : جمع لقحة ، وهى الناقة الحلوب .  
(٣) تعلل : تشغل وتلهى ، الشيم : البارء ،  
(٤) القراح : الصاق .  
(٥) أنفاس : العطاء  
(٥) أغلى ٩٨/٨

عطاياهم ، وفيهم وفي أمثالهم يقول ذو الرمة<sup>(١)</sup> :

وما كان مالى من تراث ورثته ولا دية كانت ولا كسب مائتم  
ولكن عطاء الله من كل رحلة إلى كل محبوب السراة في خضرم<sup>(٢)</sup>

فإن الرمة وغير ذى الرمة من الشعراء كانوا يشرون من عطاء الولاة . وقد امتلأت دواوين هذا العصر بمدائحهم ، واشتهر بعضهم بلزومه لوالٍ خاص . وبنفس الصورة كانوا يلزمون القواد ، وقد أشادوا بإشادة رائعة بالمهلب قائد الجيوش الأموية ضد الترك في خراسان ، كما أشادوا بأبنائه وخاصة يزيد . وكان المهالبة في دولة بني أمية ، كما كان البرامكة في دولة بني العباس ، مضرب المثل في الجود والكرم ، وفيهم يقول بكثير بن الأخنَس<sup>(٣)</sup> :

نزلت على آل المهلب شاتياً فقيراً بعيد الدار في سنة محل  
فا زال بي لطافتهم وافتقارهم وإكرامهم حتى حسبتهم أهلي

وقال في كلمة له أخرى<sup>(٤)</sup> :

وقد كنت شيخاً ذا تجارب جمة فأصبحت فيهم كالصبي المدلل

وفي كل مكان من مدائح هؤلاء الشعراء للقواد والولاة والخلفاء نجد إشادة بالكرم . والتغنى بالكرم قديم منذ الجاهلية ، ولكنه أخذ يتسع في هذا العصر بحكم ضرورات الحياة العربية ، وما كانت تستلزمه من مال .

وإذا كانت الجاهلية قد اشتهرت بحاتم الطائي الذي ضربت الأمثال بكرمه وجوده فإن عصر بني أمية أخذ يكثر فيه هؤلاء الأجواد الكرماء ، وقد رقتهم الفتوح والغزوات بما يشامون من الأموال ، فأغلقوها على الشعراء ، يطلبون حُسْنَ الذكر والأحدثة . وفي (المجبر) لابن حبيب ثبت طريف بأجواد العرب في الإسلام<sup>(٥)</sup> . وأول ما يلاحظ على هذا الثبت كثرة الأجواد في الإسلام بالقياس إلى

(٤) بيان ٢٣٤/٣ .

(٥) المجبر لابن حبيب (طبع حيدرآباد)

ص ١٤٦ .

(١) الديوان ص ٦٣٣ .

(٢) الخضرم : الكثير الخير .

(٣) بيان ٢٣٣/٣ .

الجاهلية ، وهذا طبيعي لكثرة الأموال التي صبّت في حجور القوم من جهة ، واتساع ضرورات الحياة على الناس من جهة ثانية . ومن هؤلاء الأجواد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أشهر أجواد الحجاز في عصره ، وقد استنفد مديحه كثيراً من شعر ابن قيس الرقسات ، وفيه يقول (١) :

أَتَيْنَاكَ نُثْنِي بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ      عَلَيْكَ كَمَا يُثْنِي عَلَى الرَّوضِ جَارُهَا  
وَعِنْدِي مِمَّا خَوَّلَ اللَّهُ هَجْمَةً      عَطَاؤُكَ مِنْهَا شَوَّلُهَا وَعِشَارُهَا (٢)  
إِذَا مَتَّ لَمْ يَوْصَلْ صَدِيقٌ لَمْ تَقْسُمْ      طَرِيقٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْتَ مَنَارُهَا

ومن هؤلاء الأجواد أيضاً عَتَّابُ بْنُ وَرْقَاءَ الرِّيَّاحِي ، وأسماء بن خارجة ، وطلحة الطلحات ، وعِكْرِمَةُ الْفَيَّاض ، وفيه يقول الأنخل (٣) :

وَإِذَا عَدَدْتُ بِهِ رَجَالًا لَمْ تَجِدْ      فَيَنْصُ الْفُرَاتِ كَرَّاشِحِ الْأَوْشَالِ

ومنهم عمر بن عبيد الله بن مَعْمَرِ التَّيْمِي ، ومحمد بن عُمَيْرِ بْنِ عَطَّارِ الدِّمَشْقِيِّ ، وزكريا بن طلحة الفَيَّاض ، وقد تخصص بملحه الأقيشر (٤) الأسلى .

وأسماء هؤلاء الأجواد الممدحين تلور دوراتاً واسعة في شعر هذا العصر الأموي ، فقد كانوا ينثرون أموالهم يميناً وشمالاً ، فسرعان ما يقصدهم الشعراء ويتخصص فريق منهم بجواد معين على نحو ما تخصص الأقيشر بزكريا ابن طلحة .

وإذا كان شعراء هذا العصر قد ملحو الأجواد لجودهم فإنهم ذموا البخلاء لبخلهم . وهذا كله معناه ارتفاع شأن المال في نفوسهم . ولعل من الطريف أننا نجد في هذا العصر بنداً مُمَوَّن بالفقر ، فالغنى مَجْدُ الأجداد ، ومن لا يحوزه عُدْ ذليلاً ، ومن هنا يقول جرير في قوم يلمُّهم (٥) :

(١) أغاني ٨٠/٥ .  
(٢) المجمة من الإبل : أولها أربعمائة وتزيد ،  
والشيل : التي أتت عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر ،  
والشار : التي مضى لحملها عشرة أشهر .  
(٣) أغاني ٣٢٠/٨ .  
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٤٥٥/١١ .  
(٥) الديوان ص ٢٦٤ .

يُحَالِفُهُمْ فَقَرُّ قَسِيمٌ وَذِلَّةٌ وَبَشَرُ الْخَلِيفَانِ الْمَذَلَّةُ وَالْفَقْرُ  
فَالْفَقْرُ أَصْبَحَ عَيْبًا شَدِيدًا مِنْ عَيْبِ الْمُجْتَمَعِ ، وَأَصْبَحَ الشُّعْرَاءُ يَتَهَاجُونَ بِهِ ،  
وَكَأَنَّهُمْ يَرُونَ فِيهِ مَجْمَعَ الْعَيْبِ ، فَنَ قَلَّ مَا لَهُ حِينَئِذٍ قَلَّ حَمْدُهُ ، وَصَغُرَتْ  
دُنْيَاهُ ، وَصَغُرَ شَرَفُهُ .

وَأَخَذَتْ تَظْهَرُ فِي بَعْضِ الْعَرَبِ آفَةٌ جَدِيدَةٌ لَمْ يُعْرِفُوا بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،  
فَإِنْ ضَرُورَاتُ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ فِي الْمَدَنِ جَعَلَتْ قَوْمًا يَتَحَرَّصُونَ عَلَى مَالِهِمْ ، فَتَعْرِضُ  
لَهُمُ الشُّعْرَاءُ بِهَجْوِهِمْ ، فَلَمْ يَنْصَرِفُوا عَنْ عَادَتِهِمْ ، بَلْ رَأَيْنَاهُمْ يَأْخُذُونَ مَوْقِفًا مُقَابِلًا ،  
فَيَمْلَحُونَ الْبُخْلَ وَيَذْمُونَ الْكِرْمَ . وَمِنْ أَشْتَهَرَ فِي هَذَا الْإِتِّجَاهِ حُمَيْدُ الْأَرْقَطِ ،  
وَلَهُ أَهَاجٌ مَقْدَعَةٌ فِي الْأَضْيَافِ <sup>(١)</sup> . وَأَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ وَتُرُوَّى عَنْهُ أَقَاصِيصُ كَثِيرَةٌ  
تُصَوِّرُ بُخْلَهُ ، وَكَيْفَ كَانَ يُعْلَنُ ، وَيَدْعُو لَهُ ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ ، وَمِنْ  
قَوْلِهِ فِيهِ <sup>(٢)</sup> :

يَلُومُونِي فِي الْبُخْلِ جَهْلًا وَضَلَّةً وَلِلْبُخْلِ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ بُخِيلٍ

وَإِذَا كَانَ الْمَالُ قَدْ كَوَّنَ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ مِنَ الْبُخْلَاءِ الْأَشْعَاءِ فَإِنَّهُ كَوَّنَ جَمَاعَةً  
أُخْرَى مِنَ الصَّعَالِكِ الَّذِينَ يَتَخَلَّوْنَ لِظَهَارِ الْفَقْرِ وَالتَّصَعُّكِ وَسِيلَتَهُمْ إِلَى طَلَبِ الْمَالِ  
مِنَ الْأَجْوَادِ . وَمِنْ أَشْهَرِ مَنْ احْتَرَفُوا هَذِهِ الْوَسِيلَةَ الْحَكَمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْكُوفِيُّ <sup>(٣)</sup> ،  
وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرَوَّى لَهُ قَوْلُهُ <sup>(٤)</sup> :

يَا أَبَا طَلْحَةَ الْجَوَادَ أَغْشَيْتَنِي بِسَجَالٍ مِنْ سَيِّئِكَ الْمَقْسُومِ  
أُحْيَى نَفْسِي فَدَتُّكَ نَفْسِي فَإِذَا مُفْلِسٌ قَدْ عَلِمْتَ ذَاكَ عَدِيمٌ

وَهُوَ عَلَى هَذَا النُّحُوِّ فِي شَعْرِهِ يَتَصَعُّكُ ، وَيَصِفُ مَا فِي دَارِهِ مِنْ حَشَرَاتٍ  
وَجُرُذَانٍ ، وَكَيْفَ بَسَنَى الْعَنْكَبُوتَ فِيهَا بَيْتَهُ لِيُظْهِرَ بُؤْسَهُ وَفَقْرَهُ ، وَيُضْحِكُ

(١) الكتب) ج ٢ ص ٤٠٤ .

(٢) الحيوان ٢٩٧/٥ .

(٣) الإكاف : البرذعة . وهو باله كوين لغة في هو .

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٢٣ .

(٢) ابن عبد ربه ٣/٣٢٨ .

(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبع دار

مدحوه ، وكأنه كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهرُوا في القرن الرابع للهجرة<sup>(١)</sup>.

وهكذا لوَّنت المادةُ الشعرَ في عصرِ بنى أمية ألوانًا مختلفة ، وأكثرُ هذه الألوان جاء من تطور حياة القوم الجديدة في المدينة واختلافها عن حياة آبائهم في الجاهلية ، وما اتصل بهذه الحياة الجديدة من ضرورات العيش . وفي كتب الأدب قطعٌ تشتمل على حوار طريف بين الشعراء وزوجاتهم عن المال الذى يملكونه ، واستمع إلى أعشى همدان يقول<sup>(٢)</sup> :

قالت ثَعَاتِى عِرْمِى وتَسألنى أينَ الدراهمُ عَنَّا والدنانيرُ  
فقلتُ أنفقتُها واللهُ يَخْلِفُهَا والدهرُ ذو مِرَّةٍ عُسْرٌ وميسورُ  
إن يرزقِ اللهُ أعدائى فقد رَزَقَتْ من قبلهم في مراعيها الخنازيرُ  
قالتُ فِرَزْقُكَ رزقٌ غير مُتَمَعٍ وما لديك من الخيراتِ قِطْمِيرُ  
وقد رَضِيتَ بأن تَحْبِىأ على رَمَقٍ يومًا فيومًا كما تَحْبِىأ العصافيرُ

وكان العرب في الجاهلية يستطيعون أن يحبوا حياة العصافير هذه التى تشير إليها زوجُ أعشى همدان يغنون خِمَاصًا ويروحون بِطَانًا ، يطلبون رزقهم أحيانًا ، ويقع لهم رزقهم من غير طلب أحيانًا ، أما اليوم في عصر بنى أمية فلا يستطيع شخص أن يحصل على قوته بدون طلبه واحتياله في الطلب ، فلما أن يغدو خَمِصًا جائعًا ويروح خَمِصًا جائعًا ، ولما أن يغدو شَبَعًا بطينًا ويروح شَبَعًا بطينًا ، فليس هناك توسط ، وليس هناك رزق يأتي من حيث لا يَحْتَسِب الشخص ، والحياة لا تَرَحِمُ ، أو قل إن حياة المدن لا ترحم ، فلما أن تجد المال فتعيش ناعمًا هادئ البال ، ولما أن لا تجده فتعيش شقيًا محرومًا .

ومن هنا ارتفع صوت المال في القصيدة الأموية ، واحتلَّ جوانب غير قليلة منها ، فقد كان أساسيًا في حياة الناس ، فطبعى أن يكون أساسيًا في فنههم وشعرهم . أليس دعامة هامة من دعائم الحياة ؟ فلم لا يكون دعامة هامة من دعائم البناء الفنى ؟ إنه يستقر في قاع الحياة وقاع الشعر ، لأن الشعر إنما هو تعبير عن الحياة .

ولم يُعَبِّرَ الشعر الأموي عن المال والمادة والحياة الاقتصادية من الوجهة العامة فحسب، وإنما عبّر أيضاً عن النظم الاقتصادية الموضوعية، وكان قد دخلها اضطراب كثير في هذا العصر، فمن جهة كثرت الإقطاعات للولاة والعمال وزعماء العرب<sup>(١)</sup> ومن جهة فُرض على الناس كثير من الضرائب الاستثنائية، وكان الولاة يَشْفَقُونَ في ذلك، فتارة تُفَرِّضُ باسم أجور عُمَالِ الحراج، وتارة تفرض باسم نفقات العقود وسك النقود وغير ذلك<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال هذه الضرائب الاستثنائية كان ينفذ الولاة إلى جمع الأموال والثروات ويكنى لتصور ما كانوا يجدهونه لأنفسهم أن تعرف أن الحجاج حين صرف المهلب عن الأهواز إلى خراسان كان عليه لبيت المال ألف ألف درهم<sup>(٣)</sup>. ولا عَزَل يزيد بن المهلب عن خراسان كان عليه لبيت المال ستة آلاف ألف درهم<sup>(٤)</sup>، وفي بعض الروايات أن شخصاً يسمى مُقاتل بن مِسْمَعٍ وَلى سِجِسْتَانَ، فأثابه الناس، فأعطاهم الأموال، فلما قدم البصرة بسط الناس له أرديتهم، فثنى عليها وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون. وقد بلغ راتب خالد القسري نحو عشرين ألف ألف درهم؛ بينما كان ما يأخذه لنفسه يزيد على مائة ألف ألف. ولا ولي يوسف بن عمر الثقفي بعده حجه هو وثلاثمائة وخمسين من عماله وموظفيه، واستخرج منهم سبعين ألف ألف<sup>(٥)</sup>.

ويظهر أن هذه الحال بدأها العمال وولاة الحراج في عصر مُبَكَّر فنحن نجد شاعراً في عهد عمر بن الخطاب يسمى يزيد بن الصَّحِق، يُرْسِلُ إليه بشكوى من الولاة، وخاصة القائمين على الحراج، وفيها يقول<sup>(٦)</sup>:

نُؤَبُّ إِذَا آبَا وَنَغَزَوْا إِذَا غَزَوْا      فَأَنْتَ لَهُمْ وَفَرٌّ وَلَسْنَا أُولَى وَفَرٍ  
إِذَا التَّاجِرُ الدَّارِيُّ جَاءَ بِفَارَةٍ      مِنَ الْمَسْكِ رَاحَتْ فِي مَفَارِقِهِمْ تَجَرِي<sup>(٧)</sup>  
فهو يلاحظ عليهم ثراءً حادثاً، بل يلاحظ عليهم ترفاً، لا يجده لغيرهم

(١) في فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٦١

وما بعدها فصل طريف عن إقطاعات البصرة وما أعطى منها لزعماء العرب وولاة العراق.

(٢) انظر الطبري ١٣٦٦/٢ وما بعدها.

(٣) طبري ١٠٣٤/٢.

(٤) طبري ١٢١٣/٢.

(٥) ياقوت ٣٥٥/٢ وكذلك ٣٨٨/٢.

(٦) فتوح البلدان ص ٣٨٤.

(٧) القارة: نافلة المسك.

من عامة الناس . وإذا تقدمنا إلى العصر الأموي اتسعت هذه الظاهرة ظاهرة ثراء الولاية وعمال الخراج مما يجمعون من الأموال . وفي ديوان جرير والفرزدق وغيرهما من شعراء هذا العصر شكوى كثيرة من جباة الخراج وما يتبعون من عسف وظلم في استخراج المال من الناس . ونجد شاعراً يسمى أنس بن أبي أناس يقول لحارثة ابن بدر الغداني صاحب زياد بن أبيه حين ولي على سرق ، وهي إحدى كور الأهواز<sup>(١)</sup> :

أحارٍ بن بَدْرِ قد وليت إمارَةً      فكُنْ جَرْدًا فيها تخونُ وتَسْرِقُ  
وباهٍ تميمًا بالغِنَى إنَّ الغِنَى      لسانًا به المِرَّة الهَيُوبَةُ ينطقُ  
ولا تَحْقِرَنَّ يا حارثيًّا أَصْبَتَهُ      فحفظك من مُلْكِ العِراقين سُرُقُ

وكأنما أصبحت الولاية على الكور والمدن في رأى الناس الثراء وجمع الأموال حتى يصبح المرء غنيًا ، فلغنى كما يقول الشاعر لسان يغطى على عيوب الإنسان ! ويروى أن حارثة سمع هذا الشعر فقال : لا يتعمى عليه الرشد ، وكأنه رأى في قوله هُدًى أراد به . . . وهناك وثيقة طريفة عن عمال العراق وأصحاب الخراج في عصر ابن الزبير ، وما نقصوا الناس من ثمرات ، فقد كتب ابن همام السلولى أحد الشعراء شكوى طويلة فيهم إلى ابن الزبير ، وهي تتجربى على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

يا ابنَ الزبير أمير المؤمنين ألم      بيلغك ما فَعَلَ الْعُمَالُ بِالْعَمَلِ  
باعوا التَّجَارَ طعامَ الأرض واقتسموا      صُلْبَ الخِراجِ شِجَاحًا قِسمَةَ النَّفْلِ  
وفيك طالبُ حقٍّ ذو مرانِيَةٍ      جَكَدُ الْقَوَى لَيْسَ بِالوَانِيِ وَلَا الْوَكَلِ  
اشدُّ دُيُوبِكَ بِزَيْدٍ إِنْ ظَفَرَتْ بِهِ      وَاشْفِ الْأَرَامِلَ مِنْ دُحْرُوجَةِ الْجُمُعِ<sup>(٣)</sup>  
إِنَّا مُتَبِئِينَ بِضَبِّ مَنْ بَنَى خَلْفَ<sup>(٤)</sup>      يَرَى الْخِلْيَانَةَ شَرِبَ الْمَاءَ بِالْعَمَلِ  
خَلَدَ الْمُصَيِّفِ<sup>(٥)</sup> فَانْتَفَ رِيْشَ تَاهُضِهِ      حَتَّى يَنْوَمَ بِشَرٍّ بَعْدَ مُقْتَبِلِ

ولد الكوفة لابن الزبير ثم ماله . وزيد : مولى  
لكتاب بن ورقاء وكان خازن دحرورية الجمل .  
(٤) هو دحرورية الجمل السابق .  
(٥) الصيفير : عبد الله بن أبي حنيفة  
والى المدائن .

(١) الشعر والشعراء ص ٤٦٢ وانظر الحيوان

١١٦/٣ .

(٢) الجزء الخامس من أنساب الأشراف  
(طبعة بيت المقدس) ص ١٩١ وما بعدها .  
(٣) دحرورية الجمل : عامر بن سمعد الذي

لا غَمَزَ فيها ولكن جَمَّةُ السُّبُلِ  
بِسْرَةَ الأرض بين السهل والجبل  
ومن عَذَرَتْ فلا تعذر بني قُفْلٍ <sup>(١)</sup>  
إلى الخبيص عن الصَّحْنَاءِ <sup>(٢)</sup> والبصير  
كن غزاةً سَتَبْنِي <sup>(٣)</sup> غير مُجْتَمِلِ  
مستهِوئاً بِغِنَاءِ القَبِيئَةِ الْفُضْلِ <sup>(٤)</sup>  
فزال مهرانٌ مذموماً ولم يَزَلِ  
قبل السَّيِّعِ فقد أجْزَى على مهلِ  
لكل أَرْزَقٍ من هَمْدَانٍ مكْتَمِلِ  
أُنْثِيَتْ عامَلُهم <sup>(٥)</sup> قدراح ذا ثِقَلِ  
من المتاع قيامُ الليل بالطَّوْلِ  
بعضُ المَنَالَةِ إن ترفقُ بها تَنَلِ  
بَكْرٌ عليه غداةُ الرُّوعِ واللَّوْهَلِ  
إن نال شيئاً بذاك الخائف الوَجِلِ  
إذا تجاوزتَ عن أعماله الأوَّلِ  
واحمل خيانةً مسعودٍ <sup>(٦)</sup> على جَمَلِ

وما أمانةُ عَتَّابٍ <sup>(١)</sup> بِسَالَةِ  
وقيسٍ <sup>(٢)</sup> كَنْدَةَ قَدْ طالت إمارتهُ  
وتخذ حُجْبِيْرًا <sup>(٣)</sup> فَاتْبِعَهُ محاسبةُ  
ما رابني منهمُ إلا ارتفاعهمُ  
وما غلامٌ على أرضٍ مسالمةٍ  
يُجْبِي إِلَيْهِ خَرَجُ الأرضِ مُتَكِنًا  
والوالي <sup>(٤)</sup> الذي مهرانٌ <sup>(٥)</sup> أَمْرُهُ  
وَدَوْنُكَ ابنُ أَبِي عَشٍ <sup>(٦)</sup> وصاحبه <sup>(٧)</sup>  
لا تَجْمَلَنَّ [مال] بيت المال ما كَلَّةُ  
ومنقذُ بن طريفٍ من بني أَسَدٍ  
وما أَخْبَنِيْسٍ <sup>(٨)</sup> جُعْفِيٌّ بِمَانِعِهِ  
وآخران من العمَّالِ عندهما  
محمدٌ <sup>(٩)</sup> بن عُمَيْرٍ والذي كَذَبَتْ <sup>(١٠)</sup>  
وما فَرَاتٌ <sup>(١١)</sup> وإن قيل امرؤ ورعٌ  
والحارثيُّ <sup>(١٢)</sup> سِرْضِيٌّ أن تقاسمه  
وَادْعُ الْإِفَارِغِ فَاقْرَعْهُمْ بِدَاهِيَةِ

- الوالي في عداد المال .  
(١٠) كان ابن أبي عيش هذا والياً على الدينور .  
(١١) هو عبدالرحمن بن سعيد بن قيس المصفاي .  
(١٢) يريد نعم بن دجاجة ، وكان على  
أسفل الفرات .  
(١٣) هو زحر بن قيس ، وقيل هو محمد بن  
أبي سبرة وكان على جوصي .  
(١٤) يريد محمد بن عير بن عطارد أحد  
أجواد العراق المشهورين .  
(١٥) هو يزيد بن روم .  
(١٦) يريد فرات بن زحر ، قتله المختار  
يوم السبيح .  
(١٧) يريد السري بن قاص وكان على نهاوند .  
(١٨) مسعود هذا من بني أسد .

- (١) هو عتاب بن ورقاء الرياحي الجواد  
المشهور .  
(٢) يريد قيس بن يزيد بن عمرو بن  
شراحيل الكندي .  
(٣) يريد حجير بن حجار بن الحر ، كان  
على الزوابي .  
(٤) بنو قفل : من تيم بن ثعلبة وكانوا على  
صفقات بكر .  
(٥) الصحنة : طعام يخط من صدر السمك .  
(٦) دسئلي : كورة كبيرة في فارس بين  
الري وهمدان .  
(٧) القينة الفضل : التي تلبس ثوباً واحداً  
كأنها مبتذلة .  
(٨) يريد سعيد بن حرمة بن الكاهل الوالي .  
(٩) مهران : مولد لزياد وهو الذي جبل

كانوا أتونا رجالا ، لا ركاب لهم  
 لن يعتبك ولا يحل همتهم  
 فأصبحوا اليوم أهل الخيل والإبل  
 ضرب السياط وشد بعد في الحجل<sup>(١)</sup>  
 إن السياط إذا عصت غواربهم  
 أبدوا ذخائر من مال ومن حبل  
 ويخيل إلى الإنسان أن ابن همام لم يترك واليا من الولاة الزيريين المهمين في  
 العراق إلا حشده في هذا الثبت ، فهؤلاء العمال جميعا لا يؤفون الأمانة حقها إلا  
 غصبا واحتيالا على اقتطاع أموال الناس .

وكما شككا ابن همام من عمال الخراج شكوا من عمال الصدقات ، فقد شكوا  
 من بني قنقل اللذين كانوا على صلقات بكر بن وائل . وفي كتب الأدب نصوص  
 كثيرة يشكو فيها بدو نجد من المشرفين على صدقاتهم . وهناك وثيقة مهمة  
 قدمها الراعي الشاعر المعروف إلى عبد الملك بن مروان ، وضمنتها شكوى مرة ،  
 وقد كتبها بلسان قومه من بني نمير ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة  
 أنظف الرحمن إنا معشر  
 عرب نرى لله في أموالنا  
 إن السعاة عصوك يوم أمرتهم  
 أخذوا العريف فقطعوا حيزومة  
 حتى إذا لم يتركوا لعظامه  
 جاءوا بصكتهم وأحذب أسارت  
 أخذوا حمولته وأصبح قاعدا  
 يدعو أمير المؤمنين ودونه  
 كهذه أهد كسر الرماة جناحه  
 أنظف الرحمن إن عشيرتي  
 تشكو إليك مصلته وعويلا  
 حنفاء نسجد بكرة وأصيلا  
 حق الزكاة مترلا تنزيلا  
 وأتوا دواهي لو دلمت وغولا  
 بالأصبحية قائما مظلولا<sup>(٣)</sup>  
 لحننا ولا لفؤاده معقولا  
 منه السياط براءة إجنفلا<sup>(٤)</sup>  
 لا يستطيع عن الديار حويلا<sup>(٥)</sup>  
 خرق تجر به الرياح ذبولا<sup>(٦)</sup>  
 يدعو بقارعة الطريق هديلا  
 أمسى سوامهم عزيزين فلوللا<sup>(٧)</sup>

الأحذب : العريف . أسارت : أبقت ، البراعة :  
 الجبان ، وكذلك الإجليل .  
 (٥) الحسولة : ما يحمل عليه من الدواب ،  
 حويلا : تحويلا .  
 (٦) الخرق : القفلة .  
 (٧) السوام : الإبل ترمى . عزيز : متفرقة  
 مر مرطا .

(١) الحجل : جمع حجل وهو القيد .  
 (٢) انظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد  
 القرشي (طبع المطبعة الرمانية) ص ٣٥٥  
 وقد أصلحت النص في غير موضع .  
 (٣) العريف : شيخ القبيلة . الحيزوم :  
 الوسط ، الأصمية : السياط .  
 (٤) الصك : الصحيفة الخاصة بالصلقات ،

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَسْتَنْعُوا  
 قَطَعُوا الْيَمَامَةَ يُطْرَدُونَ كَانَهُمْ  
 يَحْدُونَ حُدُبًا مَائِلًا أَشْرَافُهَا  
 شَهْرَى ربيعٍ مَا تَنُوقُ لِبَنُوهُمْ  
 وَأَتَاهُمْ بِحِجْيٍ فَشَدَّ عَلَيْهِمْ  
 كَتُوبًا تَرْكَنُ فِيهِمْ ذَا عِبَلَةٍ  
 إِنْ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا  
 أَنْتَ الْخَلِيفَةُ عَدْلُهُ وَنَوَالُهُ  
 فَادْفَعْ مَظَالِمَ عِيَلَتِ أَبْنَاءَنَا  
 فَزَى عَطِيَّةً ذَاكَ إِنْ أُعْطِيَنِيهِ  
 فالراعي يستغيث ويستنجد بعبد الملك من عمال الصدقات وما يصبئون على  
 قومه من أسواط العذاب ، فهذا العريف نكلوا به شر تنكيل ، فقطعوا حيزومه ؛  
 وأخذوا ناقته التي تحمله ، وبقى لا يملك شروى نكير ، وهو مُلقى هناك كهدهد  
 كُسِرَ جناحه ، يصيح ويصرخ ، ولا يجد من يرق له غير هؤلاء الظالمين من  
 عمال الصدقات . ويقول الراعي إنا حنفاء نسجد بكثرة وأصيلا ، ونضع  
 حق الزكاة لأنه منزل في القرآن الكريم تنزيلا ، إلا أن قحطنا عظيما أصابنا ،  
 ومع ذلك فيحجي وأصحابه يتشددون فيفرضون علينا صدقات ثقيلة لا نستطيع أداءها .  
 والقطعة في مجموعها صرّاخ وشكوى وعويل .

وإذا كان هذا يحدث في نجد وبين البدو من العرب فما كان يحدث في  
 ريف العراق من العسف والظلم في جمع الخراج كان أشد وأحد ، ويمكن أن  
 الموالى اضطروا إزاء ذلك أن يهاجروا من الريف إلى المدن ، مما جعل الخراج  
 يسقط في عهد الحجاج من ١٢٠ ألف إلى ٢٥ ألف ألف (٨) .

- (١) الماعون : الزكاة .  
 (٢) الحذب : الإبل ، الأشراف : الأمسة .  
 المقربة : الطريق في الجبل . الرميل : القطيع .  
 يريد أنها من ضعفها تنقطع وهي مائة .  
 (٣) القيون : الناقة ذات اللبن . الذبيل :  
 الياض .  
 (٤) العقد : ما كتبه عليهم من الصدقات .  
 (٥) العيلة : الفقر .  
 (٦) الفتيل ما يكون في شق النواة ، يريد  
 أنهم لم يفعلوا شيئا .  
 (٧) ميلت : من التميل ، وهو سوء الغذاء .  
 القلو : الضور .  
 (٨) تاريخ الخلفاء ٢/ ٣٤٩ .

فيظهر أن هذه الهجرة زادت ، ففزع عمال الخراج إلى الحجاج ، حتى يرجع الموالي إلى ربهم ، فرسم بأن من كان له أصل في قرية يجب أن يخرج إليها ، يقول الطبري : « فخرج الناس وعسكروا ، وجعلوا يبكون وينادون : يا محمداه ! يا محمداه ! وجعلوا لا يلثرون إلى أين يذهبون<sup>(١)</sup> » ، وتذهب الروايات إلى أن الحجاج أمر برؤس أيديهم حتى لا يعودوا إلى المدن أبداً<sup>(٢)</sup> .

ولا شك في أن هذه المعاملة القاسية كانت سبباً في كثرة الثورات في العراق ، فكلمنا ثار ثائر هناك مثل عبد الرحمن بن الأشعث أو يزيد بن المهلب وجدنا العراقيين يتجمعون حوله ، وخاصة هؤلاء الموالي المظلومين فيما يؤدون من خراج وضرائب استثنائية . فلما ولي عمر بن عبد العزيز أواخر القرن الأول للهجرة وقف هذا كله سواء في العراق أو في خراسان أو في غيرها من البلدان الإسلامية . وكان مما كتبه إلى عامله في خراسان هذه الجملة الماثورة : « إن الله بغث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ، ولم يبعث جايئاً<sup>(٣)</sup> » . وكتب إلى عامله في الكوفة أن يلغى الضرائب الاستثنائية ، وأن لا يأخذ إلا الخراج ، فقوام الدين العدل والإحسان<sup>(٤)</sup> .

ومع ذلك فيظهر أن عمال عمر بن عبد العزيز أنفسهم لم يستطيعوا أن يسيروا على منهاجه الذي رسمه ، وكان ما وضعه العمال السابقون من شدة وظلم كان لا يزال عالقاً في نفوسهم ، أو على الأقل في نفوس بعضهم ، فنحن نجد طائفة من الشعراء ترفع صُحُفاً إلى عمر بن عبد العزيز تشكو فيها من عماله ، فهذا كعب الأشقر يقول له<sup>(٥)</sup> :

إن كنت تحفظ ما يملك فلاناً      عمال أرضك بالبلاد ذئاب  
لن يستجيبوا للذي تدعو له      حتى تجلّد باليوسف رقاب  
ويروى الرواة أن شاعراً تعرض له وهو على المنبر ، فقال<sup>(٦)</sup> :

(٤) طبري ١٣٦٦/٢ .  
(٥) البيان والبيان ٣٥٨/٣ .  
(٦) البيان ٣٥٩/٣ .

(١) طبري ١١٢٢/٢ .  
(٢) الحيوان ١٦٥/٧ .  
(٣) طبري ١٣٥٤/٢ .

إِنَّ الَّذِينَ بَعَثَ فِي أَقْطَارِهَا نَبَذُوا كِتَابَكَ وَأَسْتَحِيلَ الْمُحَرَّمَ  
 طُلُسُ الثِّيَابِ عَلَى مَنَابِرِ أَرْضِنَا كُلِّ يَجُورُ وَكُلُّهُمْ يَنْظِلُ<sup>(١)</sup>  
 وَأُرِدْتُ أَنْ يَكُنِيَ الْأَمَانَةُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَهَبَّاتِ الْأَمِينِ الْمُسْلِمُ

فكعب وصاحبه جميعاً يائسان من أن وصايا عمر الجديدة سينفذها هؤلاء العمال  
 الذين وصلتهم فعلاً وصاياهم ، فاستغشوا ثيابهم ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ،  
 أو قل إن بعضاً منهم صنع ذلك ، وأصرّ على أن يستمر في الطريق القديم ، كما  
 يحدثنا الشاعر الثاني الذي اعترض عمر على المنبر ، وقال إن عماله نبذوا كتابه .  
 وتعاملوا على الجور ، وإن اليأس القاتل ليلبغ منه ، فيقول لعمر إنه لا يوجد عادل  
 في رعبتك يستطيع أن يحتمل هذه الأمانة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن وضوحاً لا لبس فيه أن الشعر في عصر بني أمية  
 مثل الحياة الاقتصادية من جميع أطرافها وما أصابها من تطور ، فهو من جهة  
 صور نظم الدولة الاقتصادية وما اعتور تطبيقها من خلل واضطراب ، وهو من  
 جهة ثانية صور ضرورة المال في حياة العرب الجديدة ، وهي ضرورة - كما مر  
 بنا - اتسع تأثيرها في محيط الشعر وخطوطه واتجاهاته .

(١) طلس الثياب : يراد أن ثيابهم غير نظيفة .

## الفصل الثالث

### التجديد في المديح والهجاء

١

#### مديح الأخطل والفرزدق وجرير

إنما اخترنا هؤلاء الشعراء الثلاثة لتصوير ما أصاب المديح عندهم من تطور وتجديد ، وسنختارهم فيما بعد لتصوير ما أصاب الهجاء هو الآخر من تطور وتجديد ، لأن نقاد العصر العباسي وأدباءه اتفقوا على أنهم أشعر أهل العصر الأموي ، فهم الطبقة الأولى من الشعراء الأمويين ، وهم فحول الشعر العربي حيثئذ وأقطابه الكبرى <sup>(١)</sup> . وما يزال النقاد والأدباء المحدثون يعتنقون هذا الرأي ويؤمنون به ، ولذلك رأينا أن نقرر ما أصاب الفرعين الكبيرين في شجرة الشعر العربي ، فرعى المديح والهجاء ، من تحوير وتغيير في شعرهم خاصة ، لأنهم خير من يمثل العصر ، ولأنهم دفعوا فنَّ الشعر حقاً إلى التعبير عن طاقات جديدة ، وقد ذهب شعرهم - أو كاد - في تدبيج قصيلتي المديح والهجاء .

أما الأخطل فن تغلب ، وهي قبيلة كبيرة ، كانت تنزل في الجزيرة ، وتمتد عشائرها ويطونها جنوباً حتى الحيرة ، وغرباً حتى حدود الشام ، وشمالاً شرقاً حتى أذربيجان <sup>(٢)</sup> . وقد تسربت إليها المسيحية في العصر الجاهلي . وظلت على مسيحيتها في العصر الأموي إلا طائفة قليلة دخلت في الإسلام . ونراها في الفترة الأولى من الفتوح الإسلامية تقف في صفوف الفرس والروم فيتصدى لها

Le Chantre des Omiades (Paris.) p. 3.

وانظر أيضاً الأغاني (طبع الساسي) ٩٣/١٠ ،

٥٨/١١ ، ١٤٧/١٣ ، ١٢٢/٢٠ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٤/٨ - ٥ ،

٢٨٢/٨ و ٩٠/١٠ .

(٢) انظر في منزلت تغلب Lammen.

خالد بن الوليد ، وَيُسَكِّلُ بِهَا وَيُمَرِّقُهَا شَرًّا مُسَرِّقٌ<sup>(١)</sup> ، فَتَضَطَّرُّ إِلَى  
الاعتراف بسلطان الخلافة الإسلامية ، ويذهب وفدٌ منها إلى عمر بن الخطاب ،  
فيعاملهم معاملة حسنة ، ويقبل ألا يدفعوا جزية الأجانب من غير العرب ،  
إنما يدفعون صدقة المسلمين من العرب على أن لا يَنْصُرُوا أعداء الإسلام<sup>(٢)</sup> .

وتتقدم فتجد تغلب في صفين ، وقد شهرت سيفها مع معاوية وقبائل  
الشام اليمينية في وجهه على<sup>٣</sup> وأصحابه . وظلت بعد ذلك موالية لبني أمية ، فنحن  
نجدها في صفوف يزيد بن معاوية في موقعة الحرّة التي اصطلت ناراها الخارجون  
عليه من أهل المدينة ، كما نجدها في صفوف مبروان بن الحَكَم في موقعة مَرَجٍ  
رَاهِطٍ التي اندحرت فيها القبائل القيسية .

وفي هذه القبيلة نبت الأخطل ، واسمه غياث بن غوث ، وهو من بني  
جُثَم بن بكر أحد فروع القبيلة المهمة . ولنا نعرف متى ولّد بالضبط ، ويظهر  
أنه ولد حول سنة ٢٠ للهجرة ، وكانت ولادته في الحيرة كما يذكر صاحب الأغاني<sup>(٤)</sup>  
والنصوص المتصلة بنشأة الأخطل قليلة ، وهناك رواية تذهب إلى أن زوج  
أبيه كانت تُصَبِّقُ عليه ، فكانا يتشاجران<sup>(٥)</sup> ، ويقال إنها هي التي لقّبت به  
دَوْبَلًا ، والوبل الحمار الصغير . أما الأخطل وهو اللقب الذي عُرف به ،  
ومعناه السفه ، فيقال إن الذي لقّبه به كَعْب بن جَعْفَل أحد شعراء عشيرته ،  
ليما رأى فيه من شرّ ، إذ كان كثير الوقوع في أعراض الناس<sup>(٦)</sup> .

ويتضح هذا الخلق فيما يروى عن اتصاله بيزيد بن معاوية وهجائه الأنصار  
إرضاءً له ، فقد كان الأنصار مغاضين لبني أمية منذ الحوادث التي قُتل فيها  
عثمان ، إذ قُتل بين ظهائرهم ولم يدافعوا عنه ، ثم بايعوا علياً وذهبوا معه إلى  
صفين لحرب معاوية وأنصاره<sup>(٧)</sup> ، ولما دار الزمن دورته وأصبح معاوية هو الخليفة  
كان يعدّهم قتلته عثمان وأعداءه<sup>(٨)</sup> .

في الماش .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٠١/٨ .

(٥) أغاني ٢٨٠/٨ .

(٦) مروج الذهب للمسعودي ٣١٠/٤ .

والمقبول ٢٠٦/٢ وما بعدها .

(٧) الطبري ٩٢/٢ .

(١) طبري ٢٠٦٢/١ وما بعدها ، ٢٠٧٢/١ .

وفتح البلدان للبلاذري ص ١١٠ .

(٢) طبري ٢٤٨٢/١ ، والبلاذري ص ٧٥ .

والكاظم لابن الأثير (طبع أوروبا) ٤١٠/٢ .

(٣) أغاني (طبع السامي) ١٦٢/٧ وانظر

الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٢/٨ والتعليق

وعلى هذا النحو لم يكن الأنصار من هوى معاوية وبيت بنى أمية ، وقد  
أغمدوا سيوفهم بعد موقعة صفين ، ولكنهم لم يُغمدوا ألسنتهم ، فإن شعراءهم  
أدخلوا يهجون شعراء بنى أمية ، وطار الشر في المدينة بين عبد الرحمن بن حسان  
ابن ثابت وعبد الرحمن بن الحكم أخى مروان بن الحكم فتهاجيا هجاءً مرّاً<sup>(١)</sup> .  
وكان ابنُ حسان يتعرض لنساء بنى أمية ، فيتغزل بهن لغرض الإزراء عليهن .  
ومن تغزل بها منهن رَمْلَةٌ بنت معاوية ، فغضب أخوها يزيد ، ودعا الشعراء  
إلى هجاء ابن حسان وأهله من الأنصار فكلهم أبى أن يهجو من آووا رسول الله  
ونصروه . وكان ممن دعاهم إلى ذلك كعب بن جُعيل التغلبي ، وكان مسلماً ،  
فقال له : « أرادتى أنت إلى الإشرار بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصروا رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى أدلك على غلام منّا نصرانى ، كأن لسانه  
لسانُ ثورٍ ، يعنى الأخطل » فدعاه يزيد ، وليّاه الأخطل<sup>(٢)</sup> ، فنظم فى هجاء  
الأنصار وشاعره عبد الرحمن بن حسان قصيدة دوت فى العالم الإسلامى ،  
يقول فيها :

ذهبت قريشٌ بالمكارم والعُلا      واللومُ نحتَ عائمِ الأنصارِ  
قدروا المعاليَ لستُمُ من أهلها      وخلوا مساحيقكمُ بنى النجَّارِ

ومن حينئذ أصبح الأخطل شاعر بنى أمية يعيش فى بلاطهم وفى ظلالهم .  
وقد اتخله يزيد نديماً له ، فكان يرافقه ويلزمه حتى فى الحج إلى البيت الحرام<sup>(٣)</sup> .  
وفى ديوانه قصائد مختلفة فى مديحه ومديح أخيه عبد الله وابنه خالد ، واستمع إليه  
يقول فى يزيد<sup>(٤)</sup> :

أما يزيدُ فلانى لستُ ناسيةُ      حتى يُغيببني فى الرّمسِ مَلْحُودُ  
جزاك ربك عن مُستقرّدٍ وحَدٍ      فقهٌ عن أهله - مُرمٌ وتَشْرِيدُ  
جزاءَ يوسفَ إحساناً ومَغْفِرَةً      أو مثل ما جُرّئى هرونُ ودَاودُ

ص ٣١٤ .

(٢) أخطل (طبع دار الكتب) ٢٠١/٨ .

(٤) الديوان ص ١٤٧ .

(١) أخطل (طبع السامى) ١٤٧/١٣

وما يملها .

(٢) أخطل ١٤٧/١٣ وما يملها ، ١١٨/١٤

وما يملها ، والديوان (طبعة سنة ١٨٩١ م)

أو مثلاً ما نَالَ نوحٌ في سَفِينَتِهِ إِذْ اسْتَجَابَ لنوحٍ وَهُوَ مَنْجُودٌ<sup>(١)</sup>  
أعطاهُ من لَدُنْهُ الدنيا وأَسْكَنَهُ في جَنَّةٍ نَعْمَةٍ فيها وتخليدٌ

وواضح في أسماء الرسل الذين ذكرهم الأخطل أنه كان متقفاً ثقافة دينية ، وهذا طبيعي لأنه مسيحي ، وقد كان على مذهب اليعاقبة ، وفي ديوانه وأخباره ما يدل على أنه كان ابنًا باراً للكنيسة<sup>(٢)</sup>.

وليس هذا ما يلفتنا وحده في مدائح الأخطل في أثناء خلافة معاوية وابنه يزيد ، فنحن نلاحظ أيضاً أنه كان يضمن مدائحه انتصار معاوية في صفين ، كما يضمنها الفكرة التي كان يروج لها معاوية والأمويون من حوله ، وهي فكرة أن الله اصطفاهم للأمة ، واستمع إليه يقول<sup>(٣)</sup> :

تَمَّتْ جُدُودُهُمْ وَاللَّهُ فَضَّلَهُمْ وَجَدْتُ قَوْمَ سِوَاهُمْ خَامِلٌ نَكَدٌ  
ويومَ صفينَ والأبصارُ خاشعةٌ أمدُّهُمْ إِذْ دَعَا سَمْنَ رَبِّهِمْ مَدَدٌ  
وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ لَا يُوَارِثُهُمْ بَيْتٌ إِذْ أَعْدَتِ الْأَحْسَابُ وَالْعَدَدُ

واستمرّ يوقع على قيثارته هذه النغمات التي كان يستجها البيت الأموي ، وهو توقيع ثبته في نفسه وأكدّه أن قومه كان هوام مع بني أمية ، فأنجر معهم ، وانساق في تبارهم .

ولما تطورت الظروف بعد وفاة يزيد ، ودعا ابن الزبير لنفسه بالخلافة ، انضمت تغلب إلى صفوف مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك ، حتى إذا اجتمعت الأمة على الأخير برزَ نَجْمُ الأخطل في بلاطه على الرغم من نصرانيته فكان يَجِيءُ وعليه جُبَّةٌ خَزْ خَزْ وحِرْزٌ خَزْ ، في عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحبته خَمَراً ، حتى يخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن<sup>(٤)</sup> .

ديوانه إشارات إلى صلبانهم (الديوان ص ٣٠٩)

وأقسام بأيمان مسيحية (الديوان ص ٧٨٠/٧١).

(٣) الديوان ص ١٧٢ وقد دعا يزيد بابن

الإمام . انظر الديوان ص ٢٣٦ .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٩/٨ .

(١) منجود : مفرد .

(٢) انظر الفصل الخامس بدين الأخطل في

كتاب لانس الآف الذكر ص ١٤ وما بعدها

وانظر ترجمة الأخطل الملحقه بديوانه ص ٣٣٦

وما بعدها . وانظر الأغاني (طبع دار الكتب)

٣٠٩/٨ ، ٣١٠/٨ ، ٣١٣/٨ . وفي

ولكى نفهم موقف عبد الملك من الأخطل وتقريبه له حتى ليتخذها شاعره الرسمي لا بد أن نلاحظ العنصر السياسى فى المسألة ، فالأخطل لم يحفظ بكل هذا التقدير لتجويده الفنى فى شعره ومديحه فحسب ، بل لعله إنما احتفظ به لما كان لقومه على عبد الملك وخلافته من أياذ بىضاء . وكان عبد الملك يرمز برضاه على الأخطل إلى رضاه على تغلب المسيحية وعلى مسيحي الشام عامة <sup>(١)</sup> .

ومعنى ذلك أن الأخطل كان له مركز سياسى فى قصر عبد الملك بجانب مركزه الأدبى فى الشعر والمديح ، وإذا قلنا إنه كان سفير تغلب عند عبد الملك لم نجهد وعلى ضوء هذه السفارة نستطيع أن نفهم كثيراً من الحوادث التى تتصل به من جهة ، وبعبء الملك من جهة ثانية ، فقد كان يكرمه ويُنزله منزلة رفيعة ، حتى بلغ الأمر بالرواة أن زعموا أنه كان يشقُّ إليه الصفوف ، والصلبُ مدلى من عنقه ، ولحيته تنظر خمرًا . وهناك حادثان رواهما أبو الفرج الأصفهاني تدلان فى وضوح على مكانته فى البلاط الأموى وأنه كان حقاً سفيراً لقومه فيه . والحادثان جميعاً تتصلان بالحروب التى اندلعت نيرانها بعد موقعة مَرَجٍ راهط بين القيسيين بقيادة الجَحَاف بن حكيم وزُفَر بن الحارث وبين تغلب قوم الأخطل . أما الأولى فتتصل بالجحاف إذ نزل مع بعض وجوه قيس على عبد الملك بعد قصائه على ابن الزبير ، وكان القتل استحرَّ فى تغلب والقبائل القيسية ، وأراد عبد الملك أن يصلح بين الفئتين ، وإذا بالأخطل يدخل ، فيشد :

ألا سائل الجَحَاف هل هوَ ناثِرٌ بقتلى أُصَيِّتٍ من مُلَيْمٍ وعامرٍ

فى قصيدة طويلة . وكأنه يريد أن يستغلَّ عبد الملك ليثور ضد قيس ، ويثار منها لحروبها ضد تغلب حليفته . فوثب الجحاف مغضباً ، وحشد جموع قيس ، وأغار بها على تغلب وهى آمنة ، فأوقع بها وقعة البشُر المعروفة التى قتل فيها نساءها ، وبقرَ بطون حواملها <sup>(٢)</sup> ، وفيها يقول الأخطل <sup>(٣)</sup> :

لقد أوقعَ الجَحَافَ بالبِشُرِ وقعةً إلى الله منها المُشْكَى والمُعوَّلُ

(١) مطول لثعلب حنّ، ٣١٤/٢ .

(٢) أغاني (طبع السامى) ٥٥/١١ .

(٣) الديوان ص ١٠ .

(١) من المسيحيين الذين كانوا مقرّبين إلى هذا الملك يومنا القسطنطين وكان يقبض بيديه على زمام الشئون المالية . انظر تاريخ العرب

وهذه هي الحادثة الأولى التي تتصل بسفارة الأخطل لقومه لدى عبد الملك ، أما الحادثة الثانية فحادثة زُقَر بن الحارث زعيم قَبَس في الجزيرة ، فإن عبد الملك جذبته إليه ، وأجلسه معه على سرير تكريماً له ، ففضبت تغلب ، وثارَت نائرة سفيرها ، فدخل على عبد الملك منفيّاً مُحَنَقاً ، وقال له : أَتُجْلِس هذا معك على السرير وهو القاتل بالأمس :

وقد يَنْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الشَّرَى وَتَبْقَى حَرَازَاتُ النُّفُوسِ كما هيَا فقبض عبد الملك رجله ، ودفع بها في صدر زُقَر ، فانقلب عن السرير ، ووقف يناشد عبد الملك العهد الذي أعطاه (١) .

والأخطل إذا كان فشل في سفارته الأولى ، فقد نجح في سفارته الثانية ، وقد عبَّرت قصائده في عبد الملك عن هذه السفارة في أتم معانيها وأجلاها ، إذ لم يحد شاعراً بمدح البيت الأموي كما كان الشأن في عصر معاوية ويزيد ، بل أصبح سفيراً لقومه بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معان .

ومن هنا كانت قصيدة الأخطل في عصر عبد الملك ، وتقصد قصيدة المديح ، شَرَكَةً بين عبد الملك وبين قوم الأخطل من تغلب ، فهو بمدحه ويتعرض لانتصاراته وهو بمدح قومه أو بعبارة أخرى يفخر بهم ، ويتعرض لما قدموه لعبد الملك . وزاء يخلص من ذلك إلى حروبهم مع قَبَس ، فيهجوها هجاءً مُراً . وبذلك تنوعت قصيدة المديح عند الأخطل في عصر سفارته لعبد الملك ، ففيها مديح وفخر وهجاء ، وعادة يقدم لذلك بالغزل ووصف رحلته بالصحراء ، وقد يتعرض للخمر ، فيصفها ويصف تأثيرها وبجالسها .

وخبر قصيدة توضح ذلك قصيدة (خَفَّ القَطِين) فقد طارت شهرتها وطبقت الآفاق في عصر الأخطل وبعد عصر الأخطل . وزاء يبدؤها بوصف رحلة صاحبتها في الصحراء على نحو ما صنع زهير في مملّته ، ويحاول التميز منه والتجليد ، فيسترد إلى وصف الخمر ، واستمع إليه يقول (٢) :

خَفَّ القَطِينُ فراحوا منك أوبسكروا وأزعجتهم نوى (٣) في صرفيها غير

دار الكتب ١١/٦٤ .

(٢) نوى : نية .

(١) أفان ( طبع دار الكتب ) ٢٩٦/٨ .

(٢) الديوان ص ٩٨ وانظر الأفان ( طبع )

كَأَنِّي شَارِبٌ يَوْمَ اسْتَبِيدَ بِهِمْ      مِنْ قَرَقَفٍ ضَمِنَتْهَا حِمْنُ أُوجَدَرُ<sup>(١)</sup>  
جَادَتْ بِهِمْ مِنْ فَوَاتِ الْقَارِ مَتَرَعَةً      كَلَفَاءُ بِنَحْتٍ عَنْ خُرْطُومِهَا السَّدَرُ<sup>(٢)</sup>

فهو يستلرد على هذا النحو إلى وصف الخمر ، حتى إذا أرضى حاسته الفنية من ذلك رجع إلى وصف رحلة صاحبه مع أهلها .

والخمر في مدائح الأخطل لون يتميز به من جرير والفرزدق ، فقد كان الإسلام بمنعها أن يخوضا في هذا الموضوع ، أما الأخطل فإن مسيحته لم تقف حائلا بينه وبين ذلك ، وقد عُرِفَ بحبه للخمر ومعاقرته لها ، ويفض كتاب الأغاني بروايات وأخبار تصور هذه الناحية عنده<sup>(٣)</sup> ، ومن يرجع إلى ديوانه يجد الخمر تحتل جانبا واضحا فيه ، ومن طريف قوله فيها<sup>(٤)</sup> :

وَكَأْسٍ مِثْلَ عَيْنِ الدِّيكِ صِرْفٍ      تُنَحِّي الشَّارِبِينَ طَا الْعُقُولَا  
إِذَا شَرِبَ الْفَقِي مِنْهَا ثَلَاثًا      بَغِيرِ الْمَاءِ حَاوِلَ أَنْ يَطْوِلَا

ويقول في وصف الشرب يوم يتناولون الخمر<sup>(٥)</sup> :

رَاكِعُوا وَهُمْ يَحْسِبُونَ الْأَرْضَ فِي قُلُوكِ      إِنْ صُرُّعُوا وَقَتِ الرَّاحَاتِ وَالرُّكْبُ

والذي يتعقب الأخطل في هذا الموضوع لا يشك في أنه كان يحاول الإطراف في الفكرة والصورة ، حتى تروقا سامعية .

على كل حال تمتاز قصيدة (خف القطلين) بأننا نجد في أولها خمرًا ، وكان الأخطل يريد بذلك أن يُجَدِّدَ وأن يَبْدُ "معاصريه من المسلمين أمثال الفرزدق وجرير الذين لا يستطيعون أن يعرضوا لها في مدائح الخلفاء . وبجانب هذه الخمر نجد وصف رحلة صاحبه وأهلها في الصحراء ، وهو يفصل ذلك ، وما يزال في هذا التفصيل حتى ينتقل إلى مديح عبد الملك فيقول :

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٩/٨ ،

٢٩٤/٨ ، ٢٩٩/٨ ، ٣١٧/٨ ، ٣٢٣/٩ ،

(٤) الديوان ص ٣٧١ وأغاني ٢٩٦/٨ .

(٥) أغاني (طبع دار الكتب) ٨٨/٩ .

(١) القرقف : الخمر ، وجدر : بلد بالشام .

(٢) ذات القار : غاية الخمر المطلوبة

بالقار ، والكلفاء : التي في لونها كلف وهو

السواد في صفرة ، والمدر : الطين ، وينحت

من خرطومها : ينفخ عن لها .

أَظْفَرَهُ اللَّهُ فَلْيَبْهِنِي ۖ لَهُ الْظَفَرُ  
خليفة الله يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ  
في حافتيه وفي أوساطه العُشْرُ (١)  
فوق الجأجي ۖ من آذيه غُدْرُ (٢)  
منها أكافيفُ فيها دُونُهُ زَوْرُ (٣)  
ولا بأجنهرَ منه حين يُجَنْهَرُ  
لوقعة كائن فيها له جَزَرُ (٤)  
ما إن رأى مثلهم حين ۖ ولا بشرُ  
مُسَوِّمٌ فوقه الرّاياتُ والقَتَرُ (٥)  
وبالشّويّة لم يُنبِضْ بها وتَرُ (٦)  
ويستقيم الذي في خدّه صَعَرُ  
كانت له نَقْمَةٌ فيهم ومُدْخَرُ  
ما إن يُوَازِي بِأَعْلَى نَبْثِهَا الشَّجَرُ (٧)  
أهل الرّبابِ وأهل الفَخْرِ إن فَخَرُوا (٨)  
إذا أَلَمَتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا  
كان لهم مَخْرَجٌ منها ومُعْتَصِرُ (٩)  
لا جَدَّ إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدُ مُحْتَقِرُ  
وأعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا ۖ إِذَا قَدَرُوا (١٠)

إلى إمام تُغَادِينَا فَوَاضِلُهُ  
الحائِضُ الغَمَرُ والمِمْسُونِ طَائِرُهُ  
وما الفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ  
وزَعَزَعَتْهُ رِيّاحُ الصَّيْفِ واضْطَرَبَتْ  
مُسْحَنَفَرٌ من جبال الروم بِسَحْرُهُ  
يومًا بأجودَ منه حين تَسْأَلُهُ  
مُفْتَرِشٌ كافتراش اللَّيْثِ كَلْكَلُهُ  
مُقَدِّمًا مائتي ألفٍ لَمَنْزِلَةِ  
يَغْشَى القناطرَ يَبْنِيهَا وَيَهْدِمُهَا  
حتى يكونَ لهم بالطفِ مَلْحَمَةٌ  
وتسعينَ لأقسامٍ ضَلالَتُهُمْ  
ثم استقلَّ بِأَنْقَالِ الْمِسْراقِ وَقَدْ  
في نَبْعَةٍ من قريشٍ يَعْصِبُونَ بِهَا  
تَعَلَّوْا الْهَضَابَ وَحَلَّتْوا فِي أَرْوَمِهَا  
حُشْدٌ عَلَى الْحَقِّ عَيَّافُو الْبَحْثِ أَنْفُ  
وإن تَدَجَّتْ عَلَى الْآفَاقِ مُظْلِمَةٌ  
أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جَدًّا يُنْصَرُّونَ بِهِ  
شُمُسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ كَلْهُمُ

وواضح أن الأخطل يستهل مدبجه عبد الملك بخلافته على المسلمين ، وإمامته  
لهم ، وهو في ذلك لا يفتقر في شيء عن شعراء المسلمين حين يمدحون الخليفة .

- (٦) الطف : موضع بالقرب من الكوفة كذا  
الثوية : لم ينبض بها وتر : لم يرم بها نيل .  
(٧) النبع : أجود الشجر ، يصبرون بها :  
يلتزمونها .  
(٨) الرباب : الفضل والملة .  
(٩) تدجت : أظلمت ، معتصر : ملجأ .  
(١٠) شمس : جمع شمس وهو الرجل  
المر في عداوته .

- (١) القوارب : الأمواج ، والعشر : شجر .  
(٢) زعزعت : حركته ، الجأجي : جمع  
جج وهو الصدر . والآي : الموج ، وغدر :  
جمع غدير .  
(٣) مسحنفر : سريع . أكافيف الجبل :  
حروفه الناتئة في أوضاعه ، زور : ميل .  
(٤) الكلكل : الصدر . الجزر : قطع  
العم ناكلها السباع .  
(٥) مسوم : معلم . القتر : الفاء .

وقد انتقل بمدح خُلُقته ، فاستعار صورة قديمة نجدها عند النابغة في مديحه للنعمان  
إذ يقول في دليته (١) :

وما الفُراتُ إذا هبَّ الرياحُ لهُ      تَحْمِي أَوَاذِيهِ الْعَيْرَيْنِ بِالزَّبَدِ (٢)  
بِمُدِّهِ كُلُّ وَادٍ مُتَرَعٍّ لَجِبِ      فِيهِ رُكَّامٌ مِنَ الْبَنَابُوتِ وَالْخَضَدِ (٣)  
يَظُلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَأُحُ مُعْتَصِمًا      بِالْخَيْزُرَانَةِ بَعْدَ الْإَيْنِ وَالنَّجْدِ (٤)  
يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ سَيِّبَ نَافِلَةً      لَا يَحُولُ عِطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ

غير أن من يقرن هذه الصورة الجاهلية إلى صورة الأخطل الجليدة يلاحظ ما قلناه في غير هذا الموضع من أن الشاعر كان ينظر في الشعر الجاهلي ويستعير منه كثيراً من الصور ، ولم يكن يقف في ذلك عند حد التقليد ، بل كان يحاول التحوير في الصور والتجديد فيها فنوناً من التحوير والتجديد . فهذا الأخطل يأخذ من النابغة صورته التي صور بها جُودَ النعمان ، إذ شبهه بالفُرات حين يعلو فيضانه ويشد ، فيجرف ما يلقاه في طريقه من نبات وأشجار ، ولا يكتفى بذلك ، بل يحاول أن يُحدث في الصورة طرافة جديدة ، وهي طرافة يستمدّها أولاً من التفصيل في صورة فيضان الفرات ، وتعقبه وهو يسقط من جبال الروم في انحدار شديد تتدافع معه السيول والأمواج تلافعاً ، ويستمدّها ثانياً من المقارنة نفسها ، فالنابغة يكتفى في المقارنة بين النعمان والفرات بالجود ، أما الأخطل فيمدّها المقارنة إلى الجهازة والروعة ، فعبد الملك لا يشبه الفرات فقط في جوده ، بل يشبهه أيضاً في جسامته وروعته وفخامته . وهنا هو معنى أن الشاعر الأموي كان يطلب التجديد في شعره .

واستمرّ في قراءة الأخطل فتجده بمدح عبد الملك قائداً لجيشه التي ساقها لحرب مصعب بن الزبير في العراق ، وما كان من بنيائه في طريقه للقناطر وهدمها ، ويصوّر كيف قضى على خصمه هناك . ثم ينتقل فيمدح عبد الملك في أسرته ،

(١) الخيزرانة : سكان السفينة ، الأين : الإهمل ، النجد : الفرق التي يصيب الإهمل .

(١) المملكات النشر من ١٦٩ .

(٢) تميمي : تحلب ، الأواذي : الأمواج ،

العيرين : الشاطين .

(٣) البنوت والخضد : ضربان من النبات .

فيسبغ عليها كل ما يعتزُّ به العربي في أرومته وبيته من أخلاق وصفات ، وهي أخلاق وصفات أعدت ، في رأيه ، بنى أمة ليسودوا الناس ، فهو يصفهم بالحلم والأنفة ومحبة الحق والصبر حين يراد الصبر والبَطْش بالعدو حين يراد البَطْش ، هذا إلى الرأي السديد الذي ينير المشاكل المظلمة ، والحظ الذي حياهم الله به ، حظ الخلافة وملك الدولة العربية .

ولم نأت بكل الأبيات التي مدح بها الأخطل في هذه القصيدة عبد الملك ، إنما أتينا بطائفة منها لتبين أن الأخطل في مدحه لعبد الملك كان يحاول جاهدًا أن يجدد المديح في الشعر العربي تجديدًا يتلاءم مع عصره ، وقد لمسنا هذا التجديد في الصورة التي اقتبسها من النابغة . وليست المسألة في رأينا مسألة صورة مفردة ، فإن من يتأمل هذا المديح يلاحظ أنه اختلف في صورته العامة عن مديح الشعراء في الجاهلية ، لسبب طبيعي ، هو أننا أصبحنا بإزاء موقف في الحياة يختلف عما كان عليه الشأن قديمًا ، فقد أصبح للعرب دولة أو عبارة أدق خلافة ، وأصبح لهم جيش منظم . ومن هنا اختلف موقف الشاعر الأموي عن زميله الشاعر الجاهلي ، حتى لو كان مسيحيًا كالأخطل ، فإننا نراه يمدح عبد الملك الخليفة ، ثم يمدح عبد الملك نفسه في خلقه وشخصيته ، ثم يمدح عبد الملك القائد ، ثم يمدح عبد الملك سليل الأسرة الأموية .

وكثير من هذه الجوانب أوجدته الحياة العربية الجديدة ، فكان طبيعيًا أن يغير الشعراء المتأزبون في قصيدة المديح على أضوائها أو في ظلالها . وهو ليس تغييرًا كليًا ، ولكنه على كل حال محاولة لتجديد وتنويع في المديح واستغلال لكل ما يمكن ، حتى يأتي الشاعر بشيء طريف يستهوي الخليفة والناس من حوله . ومن غير شك نجح الأخطل في قصيدته هذه حتى ليُروى أنه حين أنشدها عبد الملك قال له : « وَيَحْكُ يَا أخطل أتريد أن أكب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ، فقال الأخطل : أكفى بقول أمير المؤمنين ، فأمر عبد الملك له بجفنة كانت بين يديه ، فسلت دراهم ، وألقى عليه خلعًا ، وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب (١) » .

وَيُعَدُّ عَصْرُ عَبْدِ الْمَلِكِ خَيْرَ عَصُورِ الْأَخْطَلِ وَأَبْهَجَهَا فِي نَفْسِهِ ، فَقَدْ خَصَّهُ بِعَظَمَتِهِ ، وَاتَّخَذَهُ سَمِيرًا وَصَدِيقًا ، فَقَرَّتْ عَيْنُ الْأَخْطَلِ وَقَرَّتْ نَفْسُهُ ، وَصَوَّرَ ذَلِكَ فِي مَدَائِحِ بَدِيعَةٍ عَلَى نَحْوِ مَا صَوَّرَهُ فِي (نَحْفِ الْقَطَّاعِينَ) . وَقَدْ أَخَذَ يَرُدُّ مَا كَانَ يَرُدُّهُ شُعْرَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ اخْتِيَارِ بَنِي أُمَيَّةَ لِلأُمَّةِ وَأَنَّهُمْ أَصْلَحُهَا ، فَقَدْ اصْطَفَاهُمْ اللَّهُ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ ، وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ يَقُولُ <sup>(١)</sup> :

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ      بِأَبْيَضٍ لَا عَارِيَ الْخِيَوَانَ وَلَا جَدْبٍ  
وَلَكِنْ رَأَى اللَّهُ مَوْضِعَ حَقِّهَا      عَلَى رَغْمِ أَعْدَائِهِ وَصَدَادَةِ كُذْبٍ  
وَيَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ ثَانِيَةٍ <sup>(٢)</sup> :

أَحْيَا إِلَاهُ لَنَا الْإِمَامَ فَإِنَّهُ      خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ، لِلدُّنُوبِ غَفُورُ  
نُورُ أَضْيَاءِ لَنَا الْبِلَادَ وَقَدْ دَجَّتْ      ظُلُمٌ تَكَادُ بِهَا الْهَيْدَاءُ تُجْجَرُ

أَلَيْسَ هَذَا كُلُّهُ جَدِيدًا فِي قَصِيدَةِ الْمَدِيحِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ اخْتَلَفَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِالْقِيَاسِ إِلَى صَوَرَتِهَا الْقَدِيمَةِ لِاخْتِلَافِ الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَوْ قَلَّ لِتَطَوُّرِهَا وَمَا حَدَثَ فِيهَا مِنْ انْقِلَابٍ سِوَا مَنْ حَيْثُ نَظَامُ الدُّوَلَةِ أَوْ مِنْ حَيْثُ تَصَوُّرُ النَّاسِ لِلْخِلَافَةِ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ . وَكَانَ الشَّاعِرُ الْأُمَوِيُّ مَا يَزَالُ يَطْلُبُ التَّجْدِيدَ وَالتَّخْيِيرَ فِي الْإِطَارِ الْقَدِيمِ لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْأَخْطَلِ ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَكْثَرِ الشُّعْرَاءِ مَحَافِظَةً فِي هَذَا الْعَصْرِ ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَغْيِرَ فِي هَذَا الْإِطَارِ ، وَلَا يَقُولُ إِنَّهُ هَدَمَهُ ، وَلَكِنْ يَقُولُ إِنَّهُ حَاوَلَ أَنْ يَجْدِدَ فِيهِ ، حَتَّى يَتْلَاهُمُ مَعَ الْعَصْرِ ، فَعَمِدَ إِلَى التَّوْلِيدِ فِي الصُّورِ الْقَدِيمَةِ كَمَا فِي صُورَةِ الْفُرَاتِ . كَمَا عَمِدَ إِلَى التَّنْوِيعِ فِي مَعَانِي الْمَدِيحِ نَفْسَهُ عَلَى نَحْوِ مَا رَأَيْنَا فِي مَدِيحِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

وَنَحْنُ لَا نَتْرَكُ عَصْرَ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى عَصْرِ ابْنِهِ الْوَلِيدِ حَتَّى نَهْمُرَ بِأَنْ بَهْجَةِ الْأَخْطَلِ بِحُكْمِ بَنِي أُمَيَّةَ تَكَادُ تَخْفِضُ فِي نَفْسِهِ ، فَقَدْ كَانَ الْوَلِيدُ يَتَعَصَّبُ ضِدَّ الْمَسِيحِيِّينَ ، وَقَدْ حَوَّلَ كَنِيسَةَ يَوْحَنَّا فِي دِمَشْقَ إِلَى الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ الْمَشْهُورِ ، وَعَذَّبَ أَحَدَ زُعَمَاءِ تَغْلِبَ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَرَفُضَهُ <sup>(٣)</sup> . وَطَبِيعِي أَنْ يَبَاعِدَ

(٢) أَخَذَ (طَبْعُ دَارِ الْكُتُبِ) ٢٨٢/١١ .

(١) الدِّهَوَانُ ص ٢١ .

(٢) الدِّهَوَانُ ص ٧٤ .

ذلك بين الأخطل وبين القصر الأموى بدمشق ، وأن يتعلمه فيه شعراء آخرون مثل عدي بن الرقاع العاملي الذي أصبح شاعر الوليد الرسمى<sup>(١)</sup> ، وأنزوى الأخطل وأنزوت معه سفارته لتغلب .

ومن يرجع إلى مدائحه في الوليد يجدها ضعيفة فاترة ، ليس فيها روح ولا ما يشبه الروح إنما فيها ألوان خفيفة من الحزن لإبعاد الوليد له عن القصر ولعاملته القاسية للمسيحين<sup>(٢)</sup> . على أن الأيام لم تطل بالأخطل ، إذ توفي أثناء السنوات الأولى من خلافة الوليد . يدل على ذلك من بعض الوجوه قلة الشعر الذي ملحه به ، فإن ديوانه لا يحوى من شعره فيه سوى أربع قصائد ، ولو أن حياته طالت في عهده لأكثر من ملحه .

وإذا تركنا الأخطل إلى صاحبيه الفرزدق وجريز وجدناهما يتنبئان في شجرة كبيرة ، هي شجرة تميم ، وكانت تشغل هذه الشجرة الجزء الأكبر من شرق الجزيرة ، إذ كانت أغصانها وفروعها تمتد من البحرين واليمامة وفيافي الدهناء جنوباً إلى شواطئ الفرات شمالاً ، وتتوغل على طول هذا الخط في نجد . وجعلها ذلك تجاور قبائل كثيرة ، فقد كانت تجاور في الجنوب عبدة القيس وبني حنيفة ، وكانت تجاور في الشمال أسدًا وبكرًا وتغلب ، بينما كانت تجاور في الغرب قبائل كلها قيسية ، وأهمها غطفان وباهلة .

وتميم إلى أن تكون مجموعة قبائل أقرب منها إلى أن تكون قبيلة واحدة ، فقد كانت تفرع فروعاً كثيرة ، وكل فرع يُعَدُّ قبيلة قائمة بنفسها ، وأحياناً بتضخم الفرع فيصبح مجموعة من القبائل . ومن أهم فروعها بنو الهجيم وبنو مازن وبنو منقر وبنو عطاردة وبنو أنف الناقة وبنو دأريم ، ومن يربوع عُدانة ورياح وتغلب وكليب قبيلة جرير ، ومن دأريم بنو قحيم وبنو نهشل وبنو مجاشع قوم الفرزدق .

(٢) انظر الديوان ص ٢٣٢ .

(١) أغل (طبع دار الكتب) ٣٠٧/٩ .

وقد دخلت تميم في الإسلام بعد فتح مكة ، ولما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم ارتدّ أكثرها وتابعوا مُتَنَبِّئَةً هِيَ سَجَّاح ، فذهب إليهم خالد بن الوليد بجموعه ، واستطاع أن يردّهم إلى الإسلام . ولما توجه خالد وتوجه المسلمون إلى الفتوح شاركت تميم في حروب الفرس والروم ، واستمرت على ذلك طوال عصر بني أمية ، وفي ذلك يقول الفرزدق <sup>(١)</sup> :

فتحنا بإذن الله كلَّ مدينةٍ من الهندِ أو بابٍ من الرومِ مُغْلَقٍ

وكانت تميم في الجاهلية وثنية إلا نفرًا قليلًا منها اتخذوا النصرانية دينهم . وفي قُضْرَع من أهم فروعها هو فرع دارم ولِدَ الفرزدق لأسرة أرسقراطية من بني مجاشع ، إذ كان جدّه صَعَصَعَة أحد سادة العرب وأشرفها في الجاهلية ، وذاع صيته لمكرمة كان يقوم بها ، وهي اقتداء البنات من آبائهن بالمال حتى لا يَشِدَّ وهن ، ولذلك لُقِّبَ بمحبي الموهودات <sup>(٢)</sup> ، وفيه يقول الفرزدق <sup>(٣)</sup> :

أبي أحمدُ الغَيْثِيْنِ صَعَصَعَةُ الَّذِي مَنَى تُخْلِفَ الْجُوزَاءُ وَالنَّجْمُ يُنْطَرِ  
أَجَارَ بَنَاتِ الْوَاهِدِيْنَ وَمَنْ يُجِيرُ عَلَى الْفَقْرِ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْفَرٍ

وكان أبوه غالب على مثال جدّه ، فهو أحد سادة بني تميم وأصحاب الشرف في الإسلام ، وكان كريمًا مفرطًا ، ويؤثر عنه حادثان يدلان على أنه كان بحرًا فيأصًا من بحار العرب . أما الحادث الأول فلخصه أن ثلاثة نفر من قبيلة كَلَب تراهنوا على أن يختاروا من تميم ويكرّموا شخصًا ليسألوهم ، فأيتهم أعطى ولم يسألهم عن نسبهم مَنْ هُمْ ؟ كان أفضلهم ، واختار كل منهم شخصًا ، ووقع اختيارهم على عُمَيْر بن السليك الشَّيْبَانِي وَطَلْبَة بن قَيْس بن عاصم المِنْقَرِي وغالب بن صَعَصَعَة الْمُجَاشِعِي ، وذهبوا أولاً إلى عُمَيْر ، فسألوه مائة ناقة ، فسألهم مَنْ أَنْتُمْ ، فانصرفوا عنه إلى طَلْبَة ، فصنع صَبِيْعَة ، فولّوا وجوههم نحو غالب فأعطاهم ما سألوا ، ولم يسألهم مَنْ هُمْ ؟ فساروا ليلة ، ثم ردّوا ما أخذوه ، وأخذ صاحبُ الرّهْن <sup>(٤)</sup> . وفي ذلك يقول الفرزدق <sup>(٥)</sup> :

(١) أغاني ١٩/٥ .

(٢) أغاني ١٩/٥ والديوان ص ٧٥٩ .

(٣) ديوان الفرزدق ص ٥٧٧ .

(٤) أغاني (طبع الناصي) ١٩/٢ وما بعدها .

(٥) الديوان ص ٤٧٧ .

وَإِذَا نَادَيْتَ كَتَبَ عَلَى النَّاسِ أَيُّهُمْ  
عَلَى نَقَرٍ هُمْ مِنْ نِزَارٍ ذَوِي الْعَلَاءِ  
فَلَمْ يَجْعَلْ عَنْ أَصَابِهِمْ غَيْرُ غَالِبٍ  
أَحَقُّ بِتَاجِ الْمَاجِدِ الْمُتَكْرِمِ  
وَأَهْلِ الْجَرَائِمِ الَّتِي لَمْ تُهْدَمْ  
جَرَى يَمْنَانِي كُلِّ أَيْضٍ خِضْرِمِ

وأما الحادث الثاني فملخصه أن بني بَرْبُوع وبني دارم أصابهم سَنَةٌ ،  
فَانْتَجَعُوا بِلَادَ كَتْلَبَ ، ولما حَكَمُوا هُنَاكَ بِأَدْرِ غَالِبَ ، فَفَقَرَ لِلنَّاسِ نَاقَةً ،  
وَأَطْعَمَهُمْ إِيَّاهَا ، فَصَنَعَ صَنِيعَهُ سُوْحَيْمُ بْنُ وَكَيْلِ الْيَرْبُوعِي ، فَتَحَرَّ نَاقَةً لِلنَّاسِ .  
فَقِيلَ لَغَالِبَ : إِنَّهُ يُنَافِسُكَ ، فَقَالَ : كَلَّا ! وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ كَرِيمٌ ، وَسَانْظُرْ ذَلِكَ ،  
وَنَحَرَّ اثْنَتَيْنِ مِنْ نَوْقِهِ ، فَصَنَعَ مِثْلَهُ صُنْعُهُ ، فَتَحَرَّ عَشْرًا فَتَحَرَّ سُوْحَيْمُ  
عَشْرًا ، حَيْثُ نَحَرَ إِيَّاهُ كُلَّهُمَا ، وَيُقَالُ كَانَتْ مَائَةٌ ، وَيُقَالُ كَانَتْ أَرْبَعُمِائَةٍ (١) ،  
وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَكَانٍ يُسَمَّى صَوَّعَرَ ، كَرَرَهُ الْفَرَزْدَقُ فِي شِعْرِهِ ، وَافْتَخَرَهُ  
كَثِيرًا (٢) .

وَكَانَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ مِنْ ضَبَّةٍ مِنْ أَسْرَةٍ شَرِيفَةٍ مِنْ أَسْرَافِهَا ، وَتُسَمَّى لَيْسَنَةً ،  
وَهِيَ أُمْتُ الْعَلَاءِ بْنِ قَرْظَةَ ، وَكَانَ شَاعِرًا ، وَيُرْوَى أَنَّ الْفَرَزْدَقَ كَانَ يَقُولُ :  
أَتَانِي الشَّعْرُ مِنْ قَبْلِ خَالِي (٣) . وَكَثِيرٌ مِنْ فَخْرِ الْفَرَزْدَقِ مَقْسَمٌ بَيْنَ آبَائِهِ وَأَخْوَالِهِ ،  
وَكُنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ هَجَاءِ جَرِيرَ لَهُ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَتَلَفَّعُ بِأَرْدِيَةِ الشَّرَفِ مِنْ قَبْلِ  
آبَائِهِ وَأَخْوَالِهِ جَمِيعًا .

وَلَسْنَا نَعْرِفُ شَيْئًا وَاضِحًا عَنْ نَشَأِ الْفَرَزْدَقِ إِلَّا مَا يُؤَثِّرُ عَنْهُ مِنْ أَنَّهُ قَالَ :  
كَنتُ أَجِيدُ الْهَجَاءَ فِي أَيَّامِ عُمَانَ (٤) . وَلَعَلَّ فِي ذَلِكَ مَا يُؤَكِّدُ أَنَّهُ وَلِدٌ فِي خِلَاقَةِ عَمْرِ بْنِ  
الْخَطَّابِ . وَيُقَالُ إِنَّ أَبَاهُ غَالِبًا قَدَّمَهُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ نَزَلَ الْبَصْرَةَ ، وَقَالَ  
لَهُ إِنَّ ابْنِي هَذَا مِنْ شِعْرَاءِ مُضَرٍّ فَأُجَابَهُ : عَلَّمَهُ الْقُرْآنُ (٥) . وَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ  
فِي نَفْسِ الْفَرَزْدَقِ حَتَّى كَثُرَ شَرُّهُ ، فَاعْتَرَلَ النَّاسَ ، فَمَا يُقَالُ ، وَقَبِدَ نَفْسَهُ لِحَفَظِ  
أَيِّ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ .

عَلَى كُلِّ حَالٍ نَشَأَ الْفَرَزْدَقُ وَشَبَّ فِي هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْأُرْسُطَرَاطِيَّةِ الَّتِي تَعْتَرُّ بِنَفْسِهَا

(٣) الشَّعْرُ وَالشِّعْرَاءُ ص ٢٩٦ .

(٤) أَفْكَانُ ١٩/٦ ، ٤٨/١٩ .

(٥) أَفْكَانُ ١٩/٦ .

(١) أَفْكَانُ ١٩/٥ وَالْمُتَالِفُ (طَبْعُ لَيْدِن)

ص ٤١٤ وَمِثْلُهُمَا .

(٢) الْمُتَالِفُ ص ٤١٣ - ٤١٨ .

وبكرمها وجودها ، فطبعته بطوايعها ، وأنجته على غيرارها . ولعلَّ مما يظور ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه باع بعض إبل له في عهد زياد بن أبيه ، فلما أمسك بالمال في حِجْزِهِ عَيَّرَهُ بعضُ الناس أنه يبيع لإبله ويكْتَنِزُ أثمانها ، وكان أبوه يَحْقِرُهَا ، فثَرَّ ثَمَنُ الإبل ، وألقى كل ما معه على الناس حتى ثابه وعمامته<sup>(١)</sup> ، ليتسبب في بيته ويتشبه بأبائه !

وهذا كرم فيه تهوُّرٌ وعدم مبالاة ، واحتذاء على أخلاق الجاهلية . ويتصل بذلك أنه كان يُجِيرُ الناس ، ويجبر خاصة على قَبْرِ أبيه ، على نحو ما كانوا يصنعون في الجاهلية<sup>(٢)</sup> . ولا توفى صديقه يَشْرُ بن مروان ، وكان والياً على العراق لأخيه عبد الملك ، عَقَرَ فَرْسِيَهُ على قبره<sup>(٣)</sup> ، وتلك سُنَّةٌ جاهلية أيضاً .

ولعل في هذا كله ما يدل على أن الفرزدق كان شديد الصلة بالأخلاق الجاهلية . ويدخل في هذا الجانب عنده ما اشتهر به من فسق<sup>(٤)</sup> . وليس معنى ذلك أنه كان ينسلخ عن الإسلام جملة ، فقد مرَّ بنا في غير هذا الموضع أنه كان يتأثر بالإسلام ، وكان هذا التأثير يظهر في صور مختلفة .

على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تأثيره بالإسلام ، فقد كانت نفسه تتأثر في عمق بالعادات والطباع الجاهلية . ومن هنا يأتي تهوُّره في كرمه واعتداده بأبائه وما كان لهم من أمجاد . وارجع إلى ديوانه فستجد أكثره يدخل في باب الفخر بالأباء والأجداد والأصحاب والأنساب في عشيرته بل في تسميائها كلها ، حتى ليصبح بوقها المدوى في هذا العصر .

وديوان الفرزدق في حقيقته ، يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه وتمجيداً غالباً لهم ، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب ، قيلت في مدحهم والفخر بهم فخراً لا تجف مادته في نفسه ، إذ كان يستمد من معين لا ينضب ، وكأنه يتخفف من بحر تمدُّه أنحر ، فهو لسان قبيلته ، ومُحِبُّ الفخر بها ما تزال تمنع شعراً على هذا اللسان الرطب برائع القول وجزله .

وأكبر الظن أننا نستطيع الآن أن نفهم كثرة المعارك اللسانية التي خاض

(١) الديوان ص ٢٦٨ .

(٢) أغل ١٩/١٩ وما بعدها .

(٣) طبري ٢/٩٥ .

(٤) الديوان ص ٧٥٧ .

الفرزدق غمارها ، فكل قبيلة تعدت طَوْرَها وخاصت تميماً خاصتها في ديوانه . ومن هنا لم يكن اللونُ الصارخ في ديوانه المديح كما كان شأن الأخطل . وأيضاً فهناك ظاهرة مهمة في شعره ، وهي أن الشخص الواحد نجد له عنده مديحاً كما نجد له هجاء . وتفسير ذلك أنه كان يهاجى القبائل اليمنية والقيسية ومن يعبر عنهما من الشعراء ، فكان إذا تولّى على العراق يَمَسِّي مثل يزيد بن المهلب وخالد القسري مدحه ، فإن لم يكن والياً ، أو عُزِل ، هَجَّاه . وكذلك كان شأنه مع الولاة من قيس مثل الحجاج وعمر بن هُبَيْرَةَ الفزاري .

فمديح الفرزدق لولاة العراق من اليمن وقيس لم يكن صادراً عن نفسه ، بل كان منافقاً فيه وهذه ظاهرة نفسية مهمة في ديوانه لم تكن موجودة في الجاهلية ، لأن القبيلة لم تكن تُضْطَرُّ إلى الخضوع لمسلطان وال من خصومها أو منافسيها ولم يكن يضطر شعراؤها إلى هذا اللون من ألوان النفاق السياسي لأرباب السلطان .

وليس هذا فحسب هو الشيء الجديد ، الذي يلفتنا في مديح الفرزدق لولاة العراق ، فنحن إذا أخذنا نتأمل في مديحه وجدناه يختلف عن المديح القديم ، لسبب طبيعي ، هو أن الفرزدق مُسْلِم ، بمدح ولاة خليفة الله في أرضه ، وهم كما يقومون على ولاية الناس يقضون بالعدل وينشرون الأمن ، يقومون أيضاً بمحاربة الثاثرين . وكل ذلك مائل في ديوان الفرزدق ، فالحياة العربية اختلفت ، واختلف معها شعر المديح الذي يصورها . وفرق بين أن يمدح الشاعر الجاهلي سيد القبيلة ، وأن يمدح الشاعر الأموي والي العراق المُسْلِم الذي يتصف بصفات دينية هي صفات الإسلام ، واستمع إلى الفرزدق يمدح الحجاج<sup>(١)</sup> :

ولم أرَ كالحجاج عَوْنًا على الثَقَى  
سيف به لله تَضْرِبُ مَنْ عَصَى  
شهِتَ من الدَّاءِ العِراقَ فلم تَدَعْ  
وكنّا بأرضِ يا بن يوسف لم يكن  
وما تُبْتَغَى الحاجاتُ عندك بالرُّشا  
وما الناسُ إلا في سَبِيلين ، منهما

ولا طالباً يوماً طَرِيدَةً تابل<sup>(٢)</sup>  
على قَصَرِ<sup>(٣)</sup> الأعناقِ فوق الكواهل  
به ريبةٌ بعد اصطفاقِ الزلازل  
يُبالي بها ما يَرْتَشِي كلُّ عامل  
ولا تُقْتَضَى إلا بما في الرِّسائل  
سَبِيلٌ لحقٍّ أو سَبِيلٌ لباطل

(٢) القصر : أصل المتق .

(١) الديوان ص ٦٩٥ .

(٢) تابل : من التبل وهو الثَّار .

ومن المؤكد أن هذه معان لم تكن تخطر ببال المقصدين للمديح في الجاهلية ، فلم يكونوا يمدحون بالشقى ، ولا كانوا يصفون ممدوحهم بأنهم سيوف الله ، ولا كانوا يذكرون الرشوة ، ولا الحق والباطل . وقد استرسل الفرزدق في هذه القصيدة يصف كيف قضى الحجاج على ثورة اندلعت في العراق . وكل ذلك جديد في قصيدة المديح العربية .

وأظننا الآن نستطيع أن نفهم كيف أن هذه القصيدة تطوّرت عند الشعراء المسلمين أكثر مما تطوّرت عند المسيحيين من أمثال الأخطل ، لسبب طبيعي ، هو اعتقاد الشاعر المسلم بالتمثيلية الجديدة التي جاء بها دينه ، فوضعها نصب عينيه في مديحه ، وأخذ يثبت المملوحة الصفات التي يريد بها الإسلام . ومن هنا كانت قصيدة المديح عند الأخطل ، على الرغم من أنه نوع فيها وحاول أن يجعلها ، أكثر محافظة واتصالاً بالقديم من قصيدة الفرزدق وغيره من الشعراء المسلمين في هذا العصر .

وبهما يكن فإن قصيدة المديح لم تعد تجرى على النمط القديم أو الأسلوب القديم ، لأن الحياة اختلفت وانتقل العرب إلى أقاليم جديدة . وأسّسوا دولة دينية ، تمتنق مثالية جديدة ، وأيضاً فإن انطباعات الحياة الخارجية اختلفت ، فلم يكن في العصر الجاهلي ثائرون على القبيلة يحاربونها من ذات نفسها . أما في هذا العصر فتحن بصدد حياة جديدة ، فيها أخلاقية تستمد من الإيمان بالله ورؤسله والعمل الصالح ، وفيها دولة يريد القائمون عليها أن يعمّ العدل وأن يستتبّ الأمن وأن تجتمع الأمة على كلمة واحدة ، ومع ذلك فهناك ثائرون وخوارج كثيرون . وليس هذا فحسب ، فإن وإلى العراق عليه ، بجانب حرّبه للخوارج والثائرين ، أن يبعث بجيوشه إلى خراسان ، فالفتح الإسلامي لا يزال قائماً . وكل ذلك نجد ماثلاً في قصيدة الفرزدق حين يمدح الحجاج أو يمدح غيره من ولاة العراق .

وإذا تركنا هؤلاء الولاة إلى الخلفاء نريد أن نعرف كيف كان يمدحهم الفرزدق ، كان أول ما نلاحظه عليه أن ديوانه ليس فيه مديح لمعاوية ولا لابنه يزيد . وأغلب الظن أن الفرزدق لم يمدحهما ، لأنه كان يحمل نفساً متمردة ، كانت تخضع

للسلطان القريب كسلطان الحجاج فتَضَطَّرَ إلى مديحه ، أما السلطان البعيد فلم تكن تخضع له ولا كان يهملها في شيء ، بل إننا نجد في ديوانه قطعة يتهدّد فيها معاوية ويتوعّده حين حبسَ جائزة أعطاهها لعمه الحُتّات ، إذ تَوَفَّى قبل مبارحته الشام ، فرأى معاوية أن يستردها<sup>(١)</sup> . وفي أخباره أن زياد بن أبيه اضْطُرَّ إلى مطاردته حين سمع بنثره الأموال التي باع بها إبله في المربد وأيضاً فإنه رآه يهجو بني فُقيّم هجاء قبيحاً ، فطلبه ، وعلم الفرزدق ، فقرّ منه إلى سعيد بن العاص وإلى معاوية على المدينة ، وفي ذلك يقول<sup>(٢)</sup> :

أَلَا مَنْ مَبْلَغٍ عَنِ زِيَادٍ      مُغْلَغَلَةٌ يَخْبُ بِهَا الْبَرِيدُ  
بَأْنِي قَدْ فَرَرْتُ إِلَى سَعِيدٍ      وَلَا يُسْتَطَاعُ مَا يَحْصِي سَعِيدُ  
فَرَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ لَيْثٍ هِزْبَرٍ      تَعَادَى عَنْ فَرَيْسَةَ الْأَسَدُ

واستمرّ الفرزدق في الحجاز منذ تعقّبه زياد سنة خمسين للهجرة<sup>(٣)</sup> حتى توفي سنة أربع وخمسين .

ولما تطورت الأمور بعد موت معاوية وابنه يزيد وأصبح العراق كله لابن الزبير وقف الفرزدق بعيداً عنه وعن شيعته . وحدث أن زوجه النوار بلّحت إلى ابن الزبير في مكة تريد أن يُسَرِّحَهَا مِنْهُ<sup>(٤)</sup> ، فبعثها نفسه هناك حيث حاول أن يَقِفَ بينها وبين غايتها ، واتخذ حمزة زُلْفَى إلى أبيه عبد الله ، بينما اتخذت النوارُ خَوَلَةَ بنت منظور زوجه زُلْفَى إليه ، واستجاب عبد الله لزوجها ، فانقلب الفرزدق بفخر عليه ، ويُعرِّض به من مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

أَمَّا بَنُوهُ فَلَمْ تُقْبَلْ شَفَاعَتُهُمْ      وَشَفَعَتْ بِنْتُ مَنْظُورٍ بِنَ زَبَانَا  
لَيْسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُؤْتَرِّراً      مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْيَانَا

وقوله<sup>(٦)</sup> :

أَعْبَدَ اللَّهُ مَهْلاً عَنْ أَذَانِي      فَكَيْفَى لَا الضَّعِيفُ وَلَا السَّوْمُ

(١) الديوان ص ٥٦ .  
(٢) أغاني ٣١/١٩ ما بعدها .  
(٣) طبري ١٠٧/٢ .  
(٤) أغاني ٣٢٧/٩ .  
(٥) أغاني ٣٢٨/٩ .  
(٦) الكلب (٣٢٦/٩) وما بعدها وأغاني (طبع)

(١) الديوان ص ٥٦ .  
(٢) أغاني ٣١/١٩ .  
(٣) طبري ١٠٧/٢ .  
(٤) انظر قصتها في الأغاني (طبع دار

ولسكنى صفاء لم تؤبس<sup>١</sup> تنزل الطير عنها والعصوم<sup>(١)</sup>

واشتعلت الحرب - فيما يظهر - بينه وبين ابن الزبير وولاته في العراق وأنصاره من قبس هنالك . يدل على ذلك أكبر الدلالة أنه بدأ حيثن يدخل في معارك الهجاء مع معاصره جرير الذي كان يقف في صف ابن الزبير وولاته وقيس الضالعة معه . وله قصيدة فيه وفي القبايع ( الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ) وإلى البصرة لابن الزبير حيثن ، يقول فيها للقبايع<sup>(٢)</sup> :

وقبلك ما أعيبت كاسر عينه زياداً فلم تقدر على حائله  
فأقسمت لا آتية سبعين حجة ولو كسرت عشق القبايع وكاهله  
وبين أن هذا تمرد واضح على العهد الجليل عهد الزبيريين . ولعل ذلك هو الذي أتاح لانمقاد الصلة والصداقة بينه وبين بشر بن مروان حين أصبح والياً على العراق من قبل أخيه عبد الملك . وسرعان ما توفى بشر وأقبل الحجاج القيسى فاضطر إلى مديحه ليتقي يده وشره ، وفي أثناء ذلك كان يمدح عبد الملك ، ولكنه لم يتحول إليه نهائياً بعامل ما فطرت عليه نفسه من تمرد .

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أنه حاول أن يقف في صف عبد العزيز ابن مروان حين أراد عبد الملك أن يخلعه من ولاية العهد ويولى ابنه الوليد مكانه ، ففي ديوانه قصيدة يمدحه بها ، أو بعبارة أدق يرثيه بها حين علم بوفاته<sup>(٣)</sup> ، وكان حيثن في الشام . ولا نستطيع أن نفهم وجوده في الشام ، وهو لا يقدر على عبد الملك ، إلا على أنه كان يريد مصر وزيارة عبد العزيز ، فعجل الموت إليه ، وحال دون رغبة الفرزدق ، ولا ريب في أن رغبته هذه عرفت لعبد الملك وابنه الوليد ، فاستمر بعيداً عن القصر .

ولما حاول الوليد أن يخلع سليمان أخاه عن ولاية العهد ويجعلها لابنه عبد العزيز ودعا إلى ذلك الحجاج وأنصاره في العراق ظل الفرزدق بعيداً بسبب هذه النفسية المتسرعة فيه ، بل لعله دعا إلى سليمان بعد وفاة الحجاج ، فقد توفي قبل الوليد . وولى الأمر سليمان فقرأ به منه ، وحيثن يصبح الفرزدق شاعراً أموياً بالمعنى

(١) تكسر . العصوم : الطلبة .

(٢) الديوان من ٧٣٩ ، وانظر الديان

١٩٦/١ .

(٣) الديوان من ٢٢٥ .

الدقيق لهذه الكلمة ، إذ نراه يَحْطِبُ في حَبْلِ الأمويين ويصبح داعية من دُعائهم وقد سجَّل في شعره هذا التحول الذي صار إليه في عهد سليمان ، إذ يقول له من شعر (١) :

تركتُ بني حَرْبٍ وكانوا أئمةً      ومروا أن لا آتية والمتخيراً  
أباك وقد كان الوليدُ أَرادني      ليفعلَ غيراً أو ليؤمنَ أوجراً (٢)  
فا كنتُ عن نفسي لأرحلَ طائفاً      إلى الشام حتى كنتُ أنتَ المؤمراً

فهو يعلن إلى سليمان أنه لم يَفِدْ على خليفة أموي قبله ، وأنه أصبح شاعره الذي يَلْهَجُ بذكره والثناء عليه ، بل الذي يدعو له ويتغنى باسمه ومآثره ، وقد ذهب يُشيد به وبآبائه على نحو ما نجد في قوله (٣) :

ومن عبد شمس أنت سادسُ سِتَّةٍ      خلائفَ كانوا منهمُ العَمُّ والأبُ  
نهداةً ومهديين عُمانُ منهمُ      ومروانُ وابنُ الأبطحِين المطيبُ

وتقدم في غير هذا الموضع أن كلمة المهدي لعبت عند الشيعة دوراً واسعاً ، والآن يَقتَرِضُها الفرزدق وأمثاله من شعراء بني أمية ليخلعوها على الخلفاء الأمويين ، وقد اقترضوا معها كثيراً من الصفات التي كان يقررها الشيعة في أئمتهم . واستمع إلى الفرزدق يقول في سليمان (٤) :

أنتَ الذي نعت الكتابُ لنا      في ناطقِ التَّسْوِرةِ والزُّبُرِ  
كم كان من قسٍ يُخَبِّرُنَا      بخلافةِ المهديِّ أو حَبِرِ  
جعلَ الإلهُ لنا خِلافَتَهُ      برءَ القُرُوحِ وعِصْمَةَ الجَبِرِ  
كم حلَّ عِنا عَدْلُ سُنَّتِهِ      من مَغْرَمِ ثِقَلٍ ومن لَاصِرِ

وهذه نفس نعمة الشيعة في وصف أئمتهم وما يُسَبِّغون عليهم من صفات وعلامات قُدْسِيَّةٍ ، ولأنه ليشيد باصطفاء الله سليمانَ لولاية المسلمين ، ويترغِّض لحكمه وما امتاز به من عَدْلٍ وإحياء للسنة النبوية .

(٣) الديوان ص ٨٨ .

(٤) الديوان ص ٣٢٧ .

(١) الديوان ص ٢٤٠ .

(٢) الأوجر : الخائف .

واستمر الفرزدق بعد سليمان يَنْزِعَ إلى خلفاء بني أمية في دمشق ، ولكن كانت تعاوده نزعة التمرد من حين إلى حين ، فتحن نجله في عهد يزيد بن عبد الملك يُشَبِّطُ الناس عن الخروج لقتال يزيد بن المهلب حين ثار على بني أمية (١) ومع ذلك نراه يمدح يزيد بن عبد الملك ، ويغلو في مديحه على نحو ما نرى في قوله (٢) :

ولو كان بَعْدَ المصطفى من عباده      نَبِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ لَأَمْرٍ الْعِزَامُ  
لَكُنْتَ الَّذِي يَخْتَارُهُ اللَّهُ بَعْدَهُ      لِحَمْلِ الْأَمَانَاتِ الثَّقَالِ الْعِظَامِ  
ورثمُ خَلِيلَ اللَّهِ كُلِّ خِزَانَةٍ      وَكُلِّ كِتَابٍ بِالنُّبُوَّةِ قَامِ  
وَحَبْلُكَ حَبْلُ اللَّهِ مَنْ يَحْتَصِمُ بِهِ      إِذَا نَالَهُ يَأْخُذُ بِهِ حَبْلٌ سَالِمِ

وأظن أنه قد انضح الآن وضوحاً لا لبس فيه أن قصيدة المديح تطورت عند الفرزدق ودخلها جديد كثير بحكم أن الخلفاء كانوا يقومون على دعوة الإسلام ، وكان يُطَلَّبُ فيهم أن يكونوا القدوة المثل للمسلم ، فابرى الفرزدق يمدحهم من هذا الجانب كما ابرى يتحدث عن حكمهم الصالح ، وفي أثناء ذلك نراه يعرض للثائرين عليهم ، فيهجوهم .

وظل الفرزدق يردّد هذه النعمات في مديح يزيد ومديح هشام بن عبد الملك ، غير أن الأمور فسدت بينه وبين الأخير ، إذ ولّى على العراق خالد القسري ، وكان مشهوراً بعصبية الشديدة للشمسية على المضمرية ، واضطهد تيمماً وولاتها في خراسان ، وقتل نفراً منها ، فعرض له الفرزدق بالهجاء ، وهجا معه سيده هشاماً وقال فيه بيت المشهور (٣) :

يَقْلَبُ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ لَخَلِيفَةٍ      مَشْوَهَةً حَوْلَاءَ بَادٍ عِيوبُهَا

وحبه خالد ، فتحول إلى مديحه ومديح سيده حتى يخلصاه من سجنه . وفي ديوانه مدائح كثيرة في هشام ، ولكنها فاترة ، وليس فيها عاطفة . وما لبث أن وافاه القمل في سنة أربع عشرة ومائة (٤) ، فاستراح من هذا التمرد الهائل الذي

(١) الديوان ص ٥١٦ .

(٢) الديوان ص ٨٢٩ .

(٣) الديوان ص ٥١ .

(٤) أغل ١٩ / ٤٥ .

اشتملت عليه نفسه : والذي لم يكن يستطيع أن يخلص منه ، أو ينفك عنه ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

ولم يكن الفرزدق الشاعر التميمي الفذ وحده في هذا العصر ، فقد كان يزاحمه زينافه في إمارة الشعر بتميم والعراق عامة ابن عمه جرير الذي وُلِدَ بالهامة ثم ارتحل إلى البصرة<sup>(١)</sup> . وكان جرير من كُتَيْب أحد غصون يَرْبُوع ، وهو غصن كانت أوراقه جافة وأليافه يابسة إلى حد ما ، فلم تكن له نُضْرَةٌ غُصْن دارم ومُجاشع قوم الفرزدق ولا اخضرار أوراقه ، فجاشع كانت في اللروة العليا من تميم ، أما كليب فكانت في السَّفْح والطبقة الدنيا ، ويعبر المؤرخون لجرير عن ذلك ، فيقولون إن قومه كانوا يرعون الغنم والحُمير<sup>(٢)</sup> فهم ليسوا أهل إبل ويُخِيل . وكان جرير يعترف بذلك ، بل كان يفخر به ، فقد كان يرى نفسه زهرة جميلة نبتت في تربة ليس من شأنها أن تُنْبِت الزهر . روى الرواة أن شخصاً سأله مَنْ أشعر الناس ؟ فقال له : قُمُ حَتَّى أَعْرِفَكَ الجواب ، فأخذ بيده ، وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عَنَزاً له فادخلها ، وجعل يَحْصُ ضَرَعَهَا ، فصاح به : اخرج يا أبت ، فخرج شيخ دَمِيم رَثُ الهيئة ، وقد سأل لَبْنُ الْعَنَزِ على لحية ، فقال ألا ترى هذا ؟ قال نعم ، قال أوتعرفه ؟ قال لا ، قال هذا أبنى ! أفتلربى لِمَ كان يشرب من ضَرَعِ الْعَنَزِ ؟ قال الرجل : لا ، فقال جرير : عفاة أن يُسْمَعَ صَوْتُ الْحَلْبِ ، فَيُطْلَبَ منه لَبْنٌ<sup>(٣)</sup> .

لم يكن عطية أبو جرير مثل غالب أبي الفرزدق في سؤدده وشرفه ، إذ كان من طبقة أخرى . ومعنى ذلك أن جريراً لم يكن له من الشرف والسيادة ما يعتز به أمام سيادة الفرزدق وشرفه . ولكن ذلك إن كان قد فاته في النسب فإنه لم يفته في الشعر والفن ، إذ استطاع أن يصل إلى مرتبة رفيعة فيهما لا تقل عن مرتبة الفرزدق صاحب الحسب والنسب الرفيع .

وعلى كل حال ، فإن هذه النشأة المتواضعة لجرير ، جعلت نفسيته تتخالف نفسية الفرزدق من وجوه كثيرة ، فلم يكن يعتز بأبائه وبقبيلته اعتزاز الفرزدق

(٢) أفك (طبع دار الكتب) ٤٩/٨ .

(١) الشراء من ٢٨٦ .

(٢) انظر القافض من ٢٨٠ ، ٦٠٤ .

بآبائه وقبيلته . ولعل ذلك ما هيأه لأن يعيش حياته مجاهداً عن قيس ضد الأخطل وضد الفرزدق ونعيم ، وقد ترجع أسباب ذلك إلى أموال كانت نصيباً في حجره من قيس لا إلى زُبَيْرِيَّة قيس وزبير بنه فحسب . يدل على ذلك أننا نجد الفرزدق يُعَيِّرُهُ بما يُصِيب من قيس في نقائضه معه <sup>(١)</sup> .

ومهما يكن السبب أو الأسباب فإننا لا نستطيع أن نفهم وقوفه في صف قيس إلا على أنه لم يكن يحس إحساس الفرزدق بقومه ، ولذلك رضى أن يقف في صفوف خصومهم ، ولعل من الغريب أن نجده يمدح الأعاجم ، فيقول <sup>(٢)</sup> :

وَيَجْمَعُنَا وَالْغُرَّ أَوْلَادَ سَارَةِ أَبٍ لَا نَبَالِي بَعْدَهُ مِنْ تَعْدَرَا

ومديح الأعاجم في هذا العصر كان يعدُّ كبيرة من الكبائر ، ولكنها نفسية جرير التي لم تكن تستشعر العصبية العربية ولا العصبية القبلية على نحو ما يستشعرهما الناس والشعراء في عصره . ومن هنا لم يجد بأساً أن يعيش حياته يتغنّى باسم قيس وما أثرها في الجاهلية والإسلام .

وليس هذا كل ما يلاحظ على اختلاف نفسية الشاعرين ، فنحن نلاحظ أيضاً أن صلة الفرزدق بآبائه واعتداده بأرستقراطيته وأجماده ، كل ذلك جعله لا يتأثر بالإسلام تأثراً عميقاً على نحو ما تأثر جرير به ، فبينما يُعرف هو بِفِسْقِهِ يُعرف جرير بعفافه <sup>(٣)</sup> . ويروى الرواة أنه رأى جريراً مُحَرِّماً ، فقال والله لأفلسن عليه حجة ، ثم جاءه مستقبلاً له ، وقال :

وإِنَّكَ لَأَقْرَبُ بِالْمَشَاعِرِ مِنْ مَنِي فَخَاراً فَخَبَّرَنِي بِمَنْ أَنْتَ فَاخْرُ

فقال جرير : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ أَيْبُكَ وَلَمْ يُجِبْهُ <sup>(٤)</sup> . وفي ذلك دلالة واضحة على اختلاف النفسيتين وأن الإسلام كان يعمق نفسية جرير بأكثر مما يعمق نفسية الفرزدق .

كانت نفسية جرير هَيِّئَةً لَيِّنَةً ، فيها تواضع وفيها استكانة ، فلم يكن فيها هذا العنف الذي اشتملت عليه نفسية الفرزدق ولا هذا التمرد الذي صورناه ،

(٢) أغاني ٥/٨ .

(٤) البيان ١٨١/٢ .

(١) النقائض ص ٣٧٧ .

(٢) أغاني ٦٥/٨ وما بعدها .

بسبب تعمق الإسلام فيه من جهة ، وبسبب التواضع في نشأته وأسرته من جهة ثانية . وإذا كان قد مدح الأعاجم وعاش بمدح قيساً ، فأولى به أن يمدح أولى الأمر من بني أمية .

وأول خليفة أموي وقَدَّ عليه يزيدُ بن معلوية ، فقد روى عنه أنه قال : « وفدت إلى يزيد وأنا شاب ، فاستؤذن لي في جملة الشعراء . . . فدخلت ، وأنشدته ، وأخذت الجائزة معهم ، فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة<sup>(١)</sup> » . وليس في ديوان جرير شعرٌ في مديح يزيد ، فلما أن يكون ما نظم فيه ضاع ، أو تكون هذه الرواية غير صحيحة .

ولما تبعت العراءُ ابنَ الزبير رأيتاه يحطِّبُ في حبَّيل ولاته وعلى رأسهم القُبَّاع ، كما أخذ يحطب في جبل قَيْسٍ مما جعله يصطدم بأبن عمه الفرزدق كما أشرنا إلى ذلك مراراً . وانتطح الإعلان التميميان واستمرَّ على ذلك إلى آخر أيامهما . وقد ظلَّ في نقائضه مع الفرزدق يذكر قومه للزُّبير بن العوّام ، فإن قاتله كان من مجاشع<sup>(٢)</sup> . وربما كان من الأدلة على زبيريته في هذه الفترة أن نجد بِشْرَ بن مروان حين يُوكَلَّى على العراق بعد القضاء على ابن الزبير يبعده عنه ، ويدعو الشعراء إلى هجائه ، وكأنه يراه شاعر خصومه<sup>(٣)</sup> .

وسرعان ما دخل جرير فيما دخل فيه أهل العراق ، فمدح بشراً<sup>(٤)</sup> ، ولما ولي العراق الحجاج الثقفي القيسى قرَّبه منه حتى أصبح شاعراً الرسمى غير مدافع ولا منازع ، وليس من ريب في أن وقوفه مع قيس كان سبباً مهماً في رضا الحجاج عليه وجذبه إليه .

ومن يقرأ شعره في الحجاج يكبر من شخصيته ، والحق أن الحجاج شوهه الرواة في العصر العباسي إرضاء للعلويين والعباسيين جميعاً ، وطبعاً كانت فيه قصوة ولكنها كانت قصوة ضرورية ، وإن من يقرأ وصف جرير له ليعرف أنه كان يتَّبع سياسة حازمة رشيدة ، واستمع إليه يقول في ملحه<sup>(٥)</sup> :

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري ١٦٨/٥ .

(٥) الديوان ص ٩٠ .

(١) أغاني ٣٦/٨ .

(٢) انظر الديوان (طبعة المصاوي) ص ٣٣٨ ، ٤٧ .

(٣) أغاني ١٨/٨ وكذلك ٣١٥/٨ .

مَنْ سَدَّ مَطْلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْ      أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحِجَّاجِ  
 إِنَّ ابْنَ يَوْفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا      ماضٍ الْبَصِيرَةَ وَاضِحُ الْمِنْهَاجِ  
 ماضٍ عَلَى الْفَعْمَرَاتِ يُنْضِي هِمَّهُ      وَاللَّيْلُ مُخْتَلِفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي  
 مَنَعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمْ سُبُلَ الْهُدَى      وَاللُّصَّ نَكَلَهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ  
 وَلَقَدْ كَسَّرَتْ سِنَانُ كُلِّ مُنَافِقٍ      وَلَقَدْ مَنَعَتْ حَقَائِبُ الْحِجَّاجِ

فهو يصفه بالشجاعة ونفاذ البصيرة ووضوح المنهج واختراق عزيمته للشدائد ، وانطلاقه في الأمور . ويعطف على سياسته فيبينُ رشدًا وما أفاءت على الناس ، فقد منع الرشوة وأمن الطرق من اللصوص ، وأصبح الحجاج لا يخافون على حقائبهم نهبًا ولا سلبًا . وبذلك قضى الحجاج على كل فساد في العراق سواء كان ماديًا أو معنويًا ، فإن يده امتدت أيضًا إلى الفساد النفسي وإلى هذه الآفة التي تسمى النفاق ، فبالجتها في أصحابها وقضت على أفاعيها ومومها . وعلى هذه الشاكلة يصور جرير في مدائحه للحجاج مياسة قوية ، تقوم على اتباع سبل الهدى ، واستمع إليه يقول (١) :

وَسِنْتَانِ فِي الْحِجَّاجِ لَا تَرَكُ ظَالِمٌ      سَوِيًّا وَلَا عِنْدَ الْمُرَاشَاةِ نَازِلٌ  
 قَدِمْتَ عَلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ      غَالِفُ دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَخَاذِلُ  
 فَكُنْتُ لِمَنْ لَا يُبْرِي الدِّينَ قَلْبُهُ      شَفَاءٌ وَخَفَّ الْمُدْهِنُ الْمُتَنَاقِلُ

وكان هذا الشعر يصل إلى أذن عبد الملك ، فكان يغبط الحجاج على شاعره ويتمنى أن لو صار إليه ، وعرف الحجاج ذلك ، فأرسل إليه به مع ابنه محمد ، ولما مثل بين يديه أنشده قصيدته التي يقول فيها بيته المشهور :

الَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا      وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٌ رَاحِ  
 وأعجب به عبد الملك ، وأعطاه مائة ناقة وثمانية من الرعاء (٢) ، وذكر ذلك جرير في شعره (٣) ، ومن حينئذ أصبح شاعر بني أمية : عبد الملك وأبنائه ، يتشبع لهم ، ويدعو دعوتهم ، وينفخ مع أنصارهم في بوقهم بكل ما أوتى من حَوْلٍ فَنَسَى وَقْعَهُ .

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(١) الديوان ص ٤٤١ .  
 (٢) أغاني ١٦/٨ وما بعدها .

وأمرية جرير من هذه الناحية أقوى من أمرية الفرزدق ، فقد كان الفرزدق ، متدراً ، ولم يتصل ببني أمية ولم يصبح شاعراً حقاً لهم إلا منذ سليمان . أما جرير فلم يكن متدراً ، بل كان فيه ضراعة ، أعدته ليحاق بعبد الملك منذ أول الأمر . ولم تكده نفسه يد عبد الملك حتى تحول داعية له ولأبنائه في العراق ، بل في العالم الإسلامي كله ، فقد كان شعره يتدبّع في كل مكان ، وأخذ يُسبّغ عليهم جميعاً كل ما أسبغه الشيعة على أئمتهم ، واستمع إليه يقول في عبد الملك<sup>(١)</sup> :

|                              |                                       |
|------------------------------|---------------------------------------|
| لولا الخليفة والقرآن يقرّوه  | ما قام للناس أحكام ولا جمع            |
| أنت الأمين أمين الله لا مسرف | فيا وليت ولا هيابة ورع <sup>(٢)</sup> |
| أنت المبارك يهتدي الله شيعته | إذا تفرقت الأهواء والشيع              |
| فكل أدري على يمن أمرت به     | فينا مطاع ومهما قلت يستمع             |
| يا آل مروان إن الله فضلكم    | فضلاً عظيماً على من دينه البِدع       |

فبعد الملك عمود الدين ، ولولاه ما انعقدت أحكام الإسلام ولا انعقدت صلواته ، فهو أمين الله في أرضه وعلى عبادته ، وهذا القرآن يقرّوه ، وهذه أوامره تستمد كلها منه ، وهي كلها أوامر يُمنّ بآتيها الناس عن طاعة ورضاً . ويقول جرير إن هذا فضل عظيم اختص به الله سبحانه آل مروان ، ورفعهم به درجات فوق الناس من خوارج وشيعة وغيرهما ممن يبتدعون البِدع في الدين ، فهم أهل الكتاب والسنة ، وخصومهم أهل البدعة والإلحاد . وهذه كلها عناصر دينية يمدح بها جرير عبد الملك ، وكأنه شيعي يمدح إماماً شيعياً . واستمع إليه يقول في عبد الملك من قصيدة أخرى<sup>(٣)</sup> :

الله طوّقك الخلافة والهدى      والله ليس لما قضى تبديل

وفي هذا البيت إشارة إلى فكرة المهدي من جهة وإشارة إلى مذهب الجبرية من جهة ثانية ، فكل شيء بقضاء وقدر ، ولا سبيل إلى التبديل والتغيير في أي شيء . وكان بنو أمية ، كما أسلفنا ، يذيعون هذا المبدأ ، حتى ينصرف الناس عن

(٣) الديوان ص ٤٧٤ .

(١) الديوان ص ٣٥٥ .

(٢) الورع هنا : الجبان .

التفكير في خلافتهم ومحاولة تبديلها أو صرّفها عنهم ، فافقه جلّ وعزّ شاء أن يكونوا هم خلفاء رسوله ، ولا رادّ لمشيئته ، ونجد هذه الفكرة متشرة في شعر جرير ووليده لم ، وكأنه يريد أن يقرّها تقريراً . واستمع إليه يقول هذه الفكرة في الوليد<sup>(١)</sup> :

إنّ الوليدَ هو الإمامُ المصطفى      بالنّصرِ هُزّ لواءُهُ والمُغْنَمِ  
ذو العرشِ قدّر أن تكونَ خليفته      مُلْكَتَ فاعلٍ على المنايرِ واسلم

فهو يقول في الوليد ما قاله في أبيه من أن خلافته قدّر مقلود ، قدّره العليّ العظيم صاحب العرش والأمر الذي تصدر عنه أعمالنا في الكون صدور الضوء عن الشمس ، فلا يمكن ردّها ، لأنها تصدر بقضاء نافذ محتوم .

وعلى هذه الشاكلة كان جرير يدعو في مدائمه للأمويين إلى هذا الجنب في القضاء ، فخلافتهم قدّر مقلود منذ الأزل<sup>(٢)</sup> . وكذلك أوامره وسياستهم وكل ما يصدر عنهم ، حتى ما قد يكون من سفك دماء ، فأعمال الإنسان تُحكّم بقوة إلهية خارجة عن سلطانه ، وهي قوة أعطى الله صوّبلحانها لبني أمية ، فهم خلفاء الله ورسوله في الأرض وعلى العباد يُنقلّون مشيئته وإراداته ، وليس للعباد إلا أن يرضوا عنهم ، ويتصدّعوا بمشيئتهم ، لأنها تستمد من مشيئة الله ! ويكرّر جرير دائماً هذه النعمة في شعره كما يكرّر معها نعمة تفضيل الله لبني أمية على الناس إذ اختارهم للخلافة ، وأيضاً يكرّر صفات الكرم والعدالة والاقتداء بالكتاب والسنة ، فهم المادون المهديين الذين يتبعونهم وأنصارهم سبيل الرشاد . واستمع إليه يقول في سليمان<sup>(٣)</sup> :

سليمانُ المباركُ قد علّمهُ      هو المَهْدِيُّ قد وَضَحَ السَّبِيلُ  
أَجَرَتْ من المظالمِ كلَّ نفسٍ      وأدبَتْ الذي عَهْدَ الرُّسُولِ  
صَفَتْ لك بيعةٌ بشبّاتِ عَهْدٍ      فوزنَ العدلِ أصبحَ لا يَمِيلُ

فهو يصفه بالعدل وردّ المظالم عن الناس كما يصفه بأنه مهدي مبارك ، من اتبعه سلك سبيل المهدي ، ومن تركه سلك طريق الضلال . وحاول سليمان أن يصرف

(٣) الديوان ص ٤٣٢ .

(١) الديوان ص ٤٩٢ .

(٢) انظر الديوان ص ٢٧٥ .

ولاية العهد إلى ابنه أيوب ، فصرَّح جرير بقول فيه <sup>(١)</sup> :

إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي تُرَجِّى نَوَافِلَهُ      بَعْدَ الْإِمَامِ وَلِيَّ الْعَهْدِ أَيُّوبُ  
اللَّهُ أَعْطَاكُمْ مِنْ عَلَيْهِ بِكُمْ      حُكْمًا وَمَا بَعْدَ حُكْمِ اللَّهِ تَعْقِيبُ  
أَنْتَ الْخَلِيفَةُ لِلرَّحْمَنِ يَتَعَرَّفُهُ      أَهْلُ الزُّبُورِ فِي التَّوْرَةِ مَكْتُوبُ

وكان جرير يستجيب دائماً لمثل هذه الرغبة حين يريد خليفة أن يصرف ولاية العهد دون أخيه لابنه ، صنَّع ذلك مع عبد الملك حين أراد أن يحوّل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، وصنَّع ذلك مع الوليد حين أراد أن يترك سليمان إلى ابنه عبد العزيز ، وهو الآن يصنعه مع سليمان حين أراد أن يصرف ولاية العهد عن أخيه يزيد إلى ابنه أيوب ، وقد رأى أخيراً أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز .

وهنا لا يهمنا بصدد ما نتحدث عنه من أن جريراً عُنِيَ في مدائحه للأمويين بأن يدعو لهم على نحو ما يدعو شعراء الشيعة لأئمتهم . وشعره من هذه الناحية طريف طرافة ممتازة ، إذ يطلعون على بعض الطرق التي كان يتخذها الأمويون ضد خصومهم ، فهم يسلكون إلى الدعوة لمذهباً عقلياً عُرِفَ في عصرهم ، هو مذهب النجيرية ، وينادونهم وشعراؤهم ، وعلى رأسهم جرير ، في التامس به . وليس هذا فحسب ، بل يصفون أنفسهم ، بل قُلْ يصفهم شعراؤهم بكل الصفات القدسية التي يُسَبِّغُها الشيعة على أئمتهم . ولا فارق مطلقاً بين هذا الشعر الذي رويناه لجرير وشعر الكميّات مثلاً في الهاشمين . واستمع إلى جرير يقول في يزيد بن عبد الملك <sup>(٢)</sup> :

زَانَ الْمَنَابِرَ وَاخْتَالَتْ بِمُحْتَجَبٍ      مُشَبَّهٌ بِكِتَابِ اللَّهِ مَنْصُورٍ

ولا يملُ جرير تكرار هذه النخمة في مدائحه لبني أمية لأنها في الواقع النظرية التي كانوا يحكمون على أساسها ، وقد أمتعنا في وصفهم بصفات جليلة كالعدل والهدى والأمانة والإمامة والسَّير على منهاج الكتاب والسنة . ومن حين إلى حين يعرض لخصومهم وأنهم ضلوا سواء السبيل ، ومن هنا انتشرت في شعره المقارنة بين

الثائرين على الأمويين وقوم نوح وهود وثمود من مثل قوله في يزيد بن المهلب حين ثار وقتله الأمويون<sup>(١)</sup> :

أَلْهُ الْمُهَلَّبِ فَرَطُوا فِي دِينِهِمْ وَطَغَوْا كَمَا فَحَلَّتْ ثُمُودُ فَبَارُوا

فهو يعدُّهم خارجين على الدين مارقين منه لثورتهم على حَفَظَتِهِ وَحَرَسَتِهِ ، كما يعدُّهم طاغين باغين كما بَغَتْ ثُمُودُ وطغت ، فأذاقها الله عاقبة طغيانها جزاءً وَفَاقًا . وقرأ في ديوان جرير ما استطعت فإنك ستجد دائماً هذه الصورة في مديح بني أمية تُكْرَّرُ ألوانها وأصباغها سواء في عبد الملك وأبنائه أو في عمر بن عبد العزيز ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

أَنْتَ الْمُبَارَكُ وَالْمُهْدَى سِيرَتُهُ تَعْصِي الْهَوَى وَتَقُومُ اللَّيْلُ بِالسُّورِ

وآخر خليفة اتصل به جرير هو هشام بن عبد الملك ، وعنده نجد نفس الصورة ، ونفس الصفات السامية ، من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

إِلَى الْمُهْدَى نَفَزْنَا إِنْ فَرَعْنَا وَنَسْتَمَقِي بِغُرَّتِهِ الْقِمَامَا  
وَحَبْلُ اللَّهِ تَعْصِيكُمْ قَوَاهُ فَلَا نَسْخَشِي لِعُرْوَتِهِ انْفِصَامَا  
رَضِينَا بِالْخَلِيفَةِ حِينَ كُنَّا لَهُ تَبَعًا وَكَانَ لَنَا إِمَامَا  
تَبَاثَرَتِ الْبِلَادُ لَكُمْ بِحُكْمِهِ أَقَامَ لَنَا الْفَرَائِضَ وَاسْتَقَامَا

فهشام هو المهدي الذي يفزع إليه الناس ، وقد أقامه الله عليهم ووكل له شئونهم ، وهي وكالة قديمة بين الله جل وعز وآبائه ، فحبَلُ اللَّهِ تَعْصِيكُمْ قَوَاهُ ، فلا يُسْخَشِي انتقاضه ولا انتكائه . وهذا الإمام الجديد هشام يطبق في حكمه حدود الشريعة الإسلامية ، وينشر العدل في ربوع بلاده .

وفي كل مكان من شعر جرير نجد هذا الصوت في مديح خلفاء بني أمية ، بل في مديح أبنائهم أيضاً على نحو ما رأينا في مديحه لأبيوب بن سليمان . وفي ديوانه قصيدة في مديح معاوية بن هشام ، وهو يلهج فيها بنفس الأفكار والآراء ، وقد

(٢) الديوان ص ٥٥٥ .

(١) الديوان ص ٢١٩ .

(٢) الديوان ص ٢٧٥ .

تعرض فيها لثائر ثار على هشام ، قتله يوسف بن عمر الثَّقَفِيُّ وبدد جموعه وهو  
وال على اليمن . وذهب جرير يصور ذلك وكيف أن من يعصى الخليفة يتبع  
سبيل الضلال ، ويذيقه الله ومن معه نكال عمله يجنود لا يراهم الناس ، يقاتلون  
مع جند الخليفة ، وهم ملائكته الذين يسبحون بحمده ، ونراه يقول في القصيدة (١) :

إِنَّا حَمِيدُنَا الَّذِي يَشْتَقِي خَلِيفَتَهُ  
مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ فِي الدِّينِ صَدَّادٍ

وهكذا خصوم بني أمية دائماً أهل بدع وضلال في الدين ، أما بنو أمية  
وأتباعهم فهم أهل الهدى والسيرة القويمة ، لم رضوان ربهم في الدنيا والآخرة .  
وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن أن جريراً كان متشيعاً لبني أمية على نحو ما  
كان ينشئ كثير لابن الحنفية والكُحَيْتِ لزيد بن علي بن الحسين ، فهو شاعر  
الدولة ، والدولة عنده نحلة لا تنقل عن نحلة الشيعة وما يشبهها . ومن هنا ذهب بمجدد  
بني أمية تمجيد صاحب النحلة الذي يدافع عن عقيدة لاهن فكرة طارئة ، وهي عقيدة  
كما رأينا تقوم على أن الله فضلهم وخصهم بالكرامة ، إذ اصطفاهم خلفاء على الأمة  
الإسلامية وثبتهم بكتابه وقضائه ، وقد التزموا فرائضه وسنة رسوله ، فهم الأئمة  
المهادون المهديون الذين يجب على المسلمين طاعتهم ، ومن عصاهم أو خرج عليهم  
يُعدّ مبتدعاً في الدين يصد عن سبيل الله إلى سبيل الشيطان .

وفي رأينا أن هذه الصورة التي يثبت خطوطها وألوانها جرير في ديوانه لخلفاء  
بني أمية ينبغي أن ينظر فيها المؤرخون حين يؤرخون لهم ، وخاصة أن تاريخهم  
كُتِبَ في العصر العباسي ، ودخل فيه تعصب شديد عليهم .

وشعر جرير من هذه الناحية يعد وثيقة تاريخية طريفة لمعرفة حقيقة هؤلاء  
الخلفاء ومدى ما يُلصِّقه به خصومهم من نقذ وتجريح . وينبغي أيضاً أن يحذر  
المؤرخ هذه الوثيقة الأموية لأن الشعر بُنِيَ على المبالغة ، ولكن على كل حال  
وجود هذه الوثيقة أو الوثائق بين يديه تجعله يسير في بحثه على هدى . فن كلام  
الأنصار والخصوم يستطيع أن يكشف الحقيقة .

ونرى من ذلك كله أن جريراً كان شاعراً أمويّاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ،

فهو صفيتهم التي يليقون فيها دعوتهم ، من إيمان بالقضاء النافذ ، ومن اصطفاء الله لهم ، ومن علم وسيرهم على المحجة والطريق الواضحة . وهو أيضاً لسان حالم في كل ما ينتوون من أمر وبصمومون من عزم . وظل هذا دأبه حتى توفى ، وكانت وفاته بعد الفرزدق بستة أشهر .

وكان إلى ذلك يمدح ولاية العراق العامين والخاصين من مثل أصحاب الشرطة والقائمين على الخراج . وفي ديوانه مدائح كثيرة لعبد العزيز بن مروان وربما كان قد زاره في مصر ، وفيه أيضاً مديح كثير للمهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة ، وله يقول<sup>(١)</sup> :

لَقَلْبَعَتَ الْمُهَاجِرِ أَهْلُ عَدَلٍ      بِمَهْدٍ تَطْمَئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ

فهو يضمّن مديح الولاة مديح ساداتهم من بني أمية الذين استخلفوهم على الأمة . وقد نوع كثيراً في مدائحهم ، تارة يمدحهم بسيرتهم العادلة أو بكرمهم الفياض ، وتارة يمدحهم بشجاعتهم وحسن قيادتهم للجيش وتأمينهم للطرق من اللصوص .

وشعر جرير من هذه الناحية خصّب ، فهو يقتلر على مديح الولاة ومن يتصل بهم من القواد ، كما يقتلر على مديح الخلفاء والأمراء . ولا نرتاب في أن كثيراً من المعاني التي مدح بها عبد الملك وأبناءه وعمر بن عبد العزيز والحجاج وأقرانه أصبحت كأنها نجوم قطبية ثابتة في تاريخ قصيدة المديح العربية ، إذ استغلها من بعده شعراء العصر العباسي من مثل بشّار وأبي نوّاس والبُحْثَرِي وأبي تمام .

ولعل في هذا كله ما يلفتنا إلى أن الحديد في قصيدة المديح الإسلامية لم ينتظر إلى العصر العباسي حتى يوجد ، بل أخذ يوجد منذ هذا العصر الأموي عند جرير وأمثاله ، ممن ضمّنوا قصيدة المديح معاني إسلامية جديدة لم يكن يفكر فيها شاعر العصر الجاهلي ، لسبب بسيط ، وهو أنه كان وثنيّاً ، ولم يكن هناك دولة ، ولا خلافة ولا إمامة ، ولا كتاب ، ولا سنة ، ولا نخلة شيعية ، أو أموية .

## تحول الهجاء عند الأخطل والفرزدق وجريير إلى نقائص

تحدثنا في الفصل السابق عن اندلاع نار المعصيات بين القبائل في عصر بني أمية ، وأشرنا إلى أن الهجاء سَعَرَ الشعراء والقبائل ، حتى ليوشك قارئ الشعر الأموي أن يظن أنه كان أهم موضوع يجلب إليه الشعراء وخاصة في العراق ، حيث تكتلت القبائل في البصرة والكوفة ، وتقابلت القبائل البَحْثِيَّة مع القبائل المضَرِّيَّة . ونظرت كل قبيلة في نفسها وفيما كان بينها وبين غيرها قديماً من أيام وحروب ، واستحال ذلك كله شعراً ، - أو بعبارة أخرى استحال هجاء ، فكل شاعر لقبيلة يحاول جاهداً أن يرى القبيلة القديمة ، التي تصادف أن نافست قبيلته في الجاهلية ، بسهم من سهام الهجاء ، أو قل بمحجر من حجارة القذف . ويستشيط شاعر القبيلة المعادية غضباً ، فراه يبحث هو الآخر عن سهم مُصْنَمٍ أو حجر مُدْمٍ ، ليرد كَيْدَ صاحبه في نحرة أو في رأسه .

والهجاء قديم في الشعر العربي منذ الجاهلية ، وقد أوجدته المنافسات القبليَّة على مياه الغُدْران والمراعي ، كما أوجدته الحروب المستمرة بين القبائل وبطونها وغصونها ، فكانوا يقتلون ، وكانوا يتهاجون هجاء مرّاً . ولما جاء الإسلام ، وحاربت المدينة تحت لواء الرسول مكة ، تقاذف حَسَّان بن ثابت وكَعْب ابن مالك وعبد الله بن رَوَاحَة مع عبد الله بن الزُّبَيْرِ وأبي سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب وضرار بن الخطاب قصائد هجاء ، نظموها في ظلال الأيام والحروب التي نشبت بين البلدين مثل يوم بَدْر ويوم أحد وغزوة الخَنْدَق . وفي هذا كله ، سواء في العصر الجاهلي أو في أيام الرسول ، كان الهجاء فنّاً غير معقّد ، إذ كان يقف الشاعر عند أفكار عامة من الجبن والقعود عن الثأر والبخل ونحو ذلك ، وقد أضاف شعراء الرسول وخاصة عبد الله بن رَوَاحَة الحديث عن الإيمان والكفر ، وكذلك صنع أحياناً حسان بن ثابت .

ونحن نلاحظ في كل هذه الصور من الهجاء التي سبقت عصر بني أمية أنها

كانت في أكثرها صوراً بسيطة ، فالشعراء لا يتقبلون دائماً بأن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية أو بعبارة أخرى من نفس الألحان والنغمات التي صاغ فيها الخصوم شعرهم وهجاءهم .

ثم هم لا يقبلون على ذلك إقبال المحترف الذي يتَّهَبُ حياته لمهنة يُمَارِسُهَا ، إنما هم يقبلون على ذلك من حين إلى حين ، وفي الفترة بعد الفترة ، يعبرون عن رغبات قَبَلِيَّةٍ ، أو رغبات لجماعة ، ولكنها رغبات مُقَبَّلَةٌ بحروب وأيام . وقد نجد هجاءً فردياً لا يتقيد بأيام ولا بحروب ، ولكن هذا لا يهمنا ، إنما يهمنا الهجاء المتبادل الذي كان يأخذ شكل حَرْبٍ لسانية بين القبائل بجانب الحرب الحقيقية .

فهذا الهجاء المتبادل لم ينظم ولم تُعْطِ الحياةُ الفرصة لتنظيمه ، إذ كانت القبائل متباعدة ، وخاصةً هذه التي تتقاتل ، وكان الشعراء لذلك لا تنتظم بينهم هذه الحرب اللسانية . ومن هنا كنا لا نعرُّ بهذا اللون من الشعر إلا قليلاً ، وعقب الأيام والحروب فوراً كلُّ يوم وكل حرب نجد قطعاً متبادلة بين الفئتين المتقاتلتين ، ثم تُزَمُّ الألسنة كما تُزَمُّ السيوف ، وكأن شيئاً لم يحدث ، فقد هدأت ربيع الحرب ، وهدأت معها العواصف اللسانية .

ومعنى ذلك أن العرب قبل عصر بني أمية لم يعرفوا هجاءً منظماً ، يستمر يومياً استمراراً متصلاً ، على نحو ما يستمر في عصرنا لإخراج الصحف اليومية ، إنما عرفوا هجاءً متقطعاً ، يظهر من حين إلى حين ، تبعاً لنشوب حروب وأيام بينهم . فلما جاء العصر الأموي واستقرت القبائل في مدينتي البصرة والكوفة وعادت العصبية جنداً عتياً رأينا هذه القبائل تجتمع وتحتشد في المِرْبَد والكُنَاسَة حول الشعراء ، يستمعون منهم إلى ما ينشدونه في الهجاء ، وكأنهم وجدوا في ذلك لهُوّاً لهم وتَسْلِيَةً .

حينئذ يتحول فن الهجاء من فن وقفي متقطع إلى فن دائم مستمر ، فالقبائل مصفوفة في البلدتين ، والشعراء متراصون في المِرْبَد والكُنَاسَة ، والناس يتحلقون حولهم لاستماع ما يأتون به ، بعضهم من قبائلهم ، وبعضهم من قبائل أخرى ، جاءوا للفرجة والتسلية وقطع الفراغ الهائل الذي لم يكن يعرفه العربي في الجاهلية

إلا قليلا ، إذ كان مشغولا بالبحث عما يُقيم به أودّه . أما اليوم فقد كَفَّتْهُ  
الفتوح والغزوات ودواوين الحكومة والدولة مثونة ذلك ، فذهب يبحث عن شيء  
يلهو به ، ويقطع أوقات فراغه ، وقام له شعراء البلديين بما ابتغى ، إذ حوّلوا  
المصيرَ بَدَ والكُنْاسَة إلى ما يُشْبِهُ مَسْرَحِينَ كَبِيرِينَ ، يظهر عليهما يومياً شعراء  
مختلفون يلعبون لعبةَ الهجاء اللطيفة التي كانت تروّع العرب في جاهليتهم قديماً ،  
ولا تزال تروّعهم حديثاً .

وفي العادة كان الجمهور يتحرك من شاعر إلى شاعر ، وخاصة حين يحاول  
شاعر أن يرد على مارسيّ به شاعرٌ قبيلته ، فيشتد الحماس عند القبيلة وعند الجمهور  
المحتشد ، ويشتد الصغير والتصفيق ، ويتجمع الناس من كل مكان ، لينظروا ما  
هو صانعٌ بخصمه .

وأظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن الهجاء تحول تحت تأثير هذا التطور في حياة  
العرب إلى فن جديد ، وهو فنٌ لا نشك في أن له بنوراً قديمة ، ولكنه أصبح الآن  
شيئاً آخر . أما من حيث الغاية ، فقد أصبح يُراد به إلى اللهو لا إلى الجِدِّ كما  
كان الشأن في القديم ، وأما من حيث الصورة فقد أخذ يختلف وجوها كثيرة من  
الاختلاف إذ أصبح ينشد يومياً ، وأصبح الشعراء يحترفونه احترافاً .

وهذا أهم فرق بين الهجاء في القديم وفي الحديث أو في العصر الجاهلي والعصر  
الأموي ، فالشاعر الجاهلي لم يكن يهجو ليضحك جمهوراً ، و ليقطع له أوقات  
فراغه ، ولم يكن بهجواً أمام خصومه مباشرة ، ولم يكن يتحشّرَف الهجاء على هذا  
النحو الذي نجده في عصر بني أمية .

وتخيّرُ مثلَ بِصَوْرُ ذلك جريرٌ وصاحبه الأخطل والفرزدق ، فإن الهجاء  
تحول عندهم كما نقول الآن إلى حرفة وخاصة بين الأول والأخير ، فإنهما كانا  
يعيشان في البصرة ، وكانا يختلفان إلى المربد ، فينشدان الناس هناك أهاجيهما ،  
ويستثيران في أثناء ذلك حماس الجماهير ، وما يزال كل منهما يحاول أن يبلغ من  
استثارتهما كل مبلغ .

فالغرض الأساسي من الهجاء تحول إلى الرغبة في إعجاب الجماهير من الخصوم  
وغير الخصوم . وهذا معنى ما نقوله من أن الهجاء أصبح حرفة أو مهنة ، فالشاعر

يريد به أن يتفوق على خصمه عند الجماهير المحتشدة في السربد أو في الكناسة ، ولم يعد كل همه أن يرضى قبيلته ، بل لعله لم يعد يفكر فيها ، إلا باعتبارها جزءاً في الجماهير المتجمعة من حوله .

وحتى أن الشاعر كان يتكلم باسم قبيلته ، وكان يدافع عنها ، وكانت تتحمس له ، وتحتشد حوله ، ولكنها لم تكن كل غايته من هجائه ، إنما كانت كل غايته أن ينال رضا الجمهور المجتمع في المسرح ، وأن يثبت تفوقه على خصمه ، وأنه أرسخ منه قدمًا في فن الهجاء والشعر عامة .

وأظننا نستطيع الآن أن نفهم كيف أن جريراً لم يقف في السربد دائماً للدفاع عن قومه من تميم ، إنما وقف في الغالب للدفاع عن قيس ضد الفرزدق شاعر تميم وضد الأخطل شاعر تغلب . فهذا الموقف لا يمكن حله إلا على أساس أن نظرية الهجاء القديمة أصابها تحول واسع ، فإذا بنا نجد شاعراً غير قيس يقف حياته للدفاع عن قيس ، ويؤلف مع صاحبيه ديوانين ضخمين بسميان ( نقائض جرير والأخطل ) و ( نقائض جرير والفرزدق ) .

وليس عندنا قبل هؤلاء الشعراء الثلاثة دواوين للهجاء بهذا المعنى الذي نجده عندهم ، لأن الهجاء لم يصبح فناً مستمراً يحترقه الشاعر احترافاً ، ويرتد نفسه رصداً لمسرح كبير يؤمّه يومياً ، ويؤمّه الناس ، ليستمعوا إلى ما أحدث من طرائف جديدة .

من أجل ذلك كنا نزعّم أن الهجاء تحول عند الشعراء الثلاثة إلى فن جديد أو إلى لون جديد ، ولا بأس أن نسمي هذا اللون باسم النقائض ، وهو نفس الاسم الذي اختاره له القدماء . إلا أننا نرى أن نصلح به على ما كان من هجائهم خاصة .

أما الهجاء الذي سبقهم فلا نسميه نقائض ، إلا على ضرب من التجوّز ، أو على أنه كان بُدُوراً لهذا اللون الجديد الذي نقرؤه عند الأخطل والفرزدق وجرير . وليس هذا كل ما يلاحظ في هجائهم بالقياس إلى الهجاء القديم ، فنحن نلاحظ أيضاً أن الهجاء خرج من المعاني الأولية البسيطة إلى معانٍ معقّدة عتّدتها الظروف السياسية المعاصرة ، كما عتّدتها الظروف العقلية والدينية الجديدة ، بحيث أصبحت

النقائض وكأنها مناظرات أدبية طريفة .

ويمكن ملاحظة هذا التطور في نقائض جرير الأول مع غسان والبيث فهمي في أكثرها أراجيز ومقطوعات ، ثم هي ضحلة المعاني ، فليس فيها عمق ، وليس فيها تعقيد ، وليس فيها الأيام الكثيرة التي نجد فيها بعد عند جرير ، وليس فيها اتصال بظروف الحياة السياسية الجديدة ، ولا بالظروف الدينية والعقلية ، إنما فيها القُربُ والبساطة . وهي في ذلك تشبه الأهاجي القديمة . فإذا تقدمنا بعد ذلك وجدنا جريراً يسوق نقائض من طراز جديد ، فيها دفاعٌ عن قيس ، وفيها اتصال عميق بماضى القبائل العربية وأجدادها ، وفيها اتصال عميق بالظروف السياسية المعاصرة ، وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً فيها تعبير الشعر عن كل ما حصل عليه العرب حينئذ من ذخائر عقلية وروحية .

ومن أجل ذلك كنا نزعم أن جريراً وصاحبيه حولوا صورة المهجاء القديمة إلى صورة جديدة ، هي صورة النقائض كما سماها لم القدماء . وسنحاول أن نكشف عن ذلك كشفاً واضحاً فيما يلي من حديثنا .

### ٣

#### نقائض جرير والأخطل

الحوادث هي التي وضعت جريراً هذا الوضع من الأخطل فإنه أخذ صف قيس ، كما أسلفنا ، في أثناء حكم الزبيديين للعراق ، فتمردَّض له الأخطل بهجوه ويهجو قيساً معه . ومعروف أن قيساً كانت تناصر ابن الزبير وتؤازره ضد الأمويين . ونجسم عن ذلك أن نشبت طائفة من الحووب بينها وبين أنصار بني أمية في الشام من تغلب ، وكتلب وأخواتها من القبائل اليمنية هناك . وما لبثت كفة اليمنيين وتغلب أن رجحت ، فإن قيساً اندحرت في موقعة مَرَج رَاحِط .

فالظروف السياسية في هذا العصر وضعت قيساً في صفوف المعارضة من بني أمية كما وضعت تغلب في صفوف أنصارهم . ومعنى ذلك أن قيساً وتغلب كانا

على طرفي قبيص في السيادة ، ولم يكن هذا كل ما بينهما ، فإن قيساً كانت تنزل قبل الإسلام في نجد وبلاد الحجاز وتمتد شرقاً حتى تشرف على منازل تميم وبكر ، وكانت تغلب تنزل في الموصل وتمتد بطونها وعشائرها من الحيرة وشواطئ الفرات إلى بادية الشام . فلما جاء الإسلام خرجت قبائل قيس للجهاد والفتح ، فقتل كثير منها في الشام وامتدت بعض غصونها وفروعها إلى منازل تغلب في الموصل وحوض الفرات .

فكان بين قيس وتغلب تراحم في المنازل وتضارب على العيش والمكان ، ومعنى ذلك أنهما كانتا على طرفي قبيص في مصالحهما الاقتصادية كما كانتا على طرفي قبيص في مصالحهما السياسية ، وهذا الجانب الاقتصادي هو الذي جعل تغلب تنتهز الفرصة في موقعة مرج راحط ، وتنضم إلى القبائل اليمنية ضد قيس ، حتى تُخْرِجَهَا من بلادها إذا دارت عليها اللوثر .

ودارت اللوثر على قيس في هذه الموقعة ، وعانت من جرائها كارثة شديدة ، لم تستعبدوها من قبل ، وقد رجعت إلى نفسها ، فرأت أن تُنظِّم غارات ومواقع للانتقام من تغلب وموقفها في موقعة مرج راحط ، فتجمعت جماهيرها في الموصل تحت قيادة زعيمها زُفَر بن الحارث الكلبي وإمرة عُثَيْر بن الحُجَاب السُّلَمي ، وأخذت تُغَيِّر على كَتَلَب من جهة وتَغْلِب من جهة ثانية . وصَلَّيَت تغلب نيران هذه الغارات التي كان ينظمها عُثَيْر ، فتارة يهجم عليها في الحابور ، وتارة بجانب الرُّثَار . وقد أفاض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري في الحديث عن هذه الغارات وأيامها ، من مثل يوم الحَشَّاشْكَ ، ويوم البِشْر ، كما أفاض في الأشعار التي تُنظِّمَتْ فيها .

وعلى نحو ما استلَّ رجال قيس وتغلب السيوف في هذه المعارك الحربية استلَّ شعراؤهما قصائد المجد في معارك لسانية ، فكان الأخطل وغيره من شعراء تغلب ينظمون أهاجي مقلدة في قيس ، وكان شعراء قيس يردون عليهم بأشعار يرمون بها في حورهم . وكان في العراق شاعرٌ ناصِرٌ قيساً بحكم ثُعبنة النقاظ الجديلة ، ولم يكن قيسياً ، وإنما كان تميمياً ، وهو جرير ، فكان طبعاً أن يصطدم الأخطل شاعر تغلب به ، وإن كان الرواة يطلون ذلك بعلم شخصية ، فابن سلام يروى

أنه لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدِرْ إلى العراق حتى نسمع منهما ، وتأتيني بخبرهما ، فلقيهما ، فاستمع ، ثم أتى أباه ، فقال : جرير يتخرف من بحر ، والفرزدق يتنحّت من صخر ، فقال الأخطل : فجرير أشعرهما ، ثم قال :

إِنِّي قَضَيْتُ قَضَاءَ غَيْرِ ذِي جَنَفٍ لَمَّا سَمِعْتُ وَلَمَّا جَافَى الْخَبَرَ  
أَنَّ الْفَرَزْدَقَ قَدْ شَالَ نَعَامَتَهُ وَعَضَهُ حَيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ذَكَرُ

ثم قدم الأخطل الكوفة على بشر بن مروان فبعث إليه محمد بن عُمَيْر بن عَطَّارْد (وكان صهرًا للفرزدق) بدواهم وحُمْلَان وكُمُوءة وخمر ، ويقال إن الذي بعث إليه بهذا شَبَّة بن عِقَال المجاشعي ، وقال للأخطل : فَضَّلْ شَاعِرَنَا عَلَيْهِ وَبَّهْ ، فقال الأخطل :

اِخْسَاءٌ إِلَيْكَ كَلِيبٌ إِنْ مُجَاشَعًا  
قَوْمٌ إِذَا خَطَرَتْ عَلَيْكَ قُرُوءُهُمْ  
وَأَبَا الْفَوَارِسِ نَهْشَلًا أَخَوَانِ  
جَعْلُوكَ بَيْنَ كَلَاكِلٍ وَجِرَّانٍ <sup>(١)</sup>  
رَجَّحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ  
وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ

فقال جرير :

يَا إِذَا الْعَبَايَةَ إِنْ بَشْرًا قَدْ قَضَى أَنْ لَا تَجُوزَ حُكُومَةُ النَّشْوَانِ <sup>(٢)</sup>

ويروى ابن سلام في موضع آخر : أن الفرزدق والأخطل وجريراً اجتمعوا عند بشر بن مروان ، وكان يُغَرِّى بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق وجرير ، فقال : أعفني أيها الأمير ، فقال : احكم بينهما ، فاستعفى بجهده ، فأبى إلا أن يقول ، فقال : هذا حكم مشثوم ، الفرزدق يتنحّت من صخر وجرير يتخرف من بحر . فلم يَرْضَ بذلك جرير ، وكان سبب المجامع بينهما ، فقال جرير :

ص ١٠٧ وانظر نقائض جرير والفرزدق  
ص ٨٧١ وما بعدها .

(١) القروم : الفحول . الكلاكل :

الصور : الحران : صفحة المتق .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام (طبع أوربا)

ياذا العباية إن بشرأ قد قضى أن لا تجوزَ حكومةُ النشوان  
فدعوا الحكومةَ لسمُ من أهلها إن الحكومةَ في بني شيان

ثم استطارا في الهجاء (١).

والروايتان جميعاً تعودان بنشوب معارك الهجاء أو مناظرات الهجاء بين الأنخل  
وجرير إلى هذا الحكم الذي حكم به الأنخل على جرير منحاذاً إلى الفرزدق بمحضرة  
بشر بن مروان أوفى أثناء زيارته له . غير أننا نزع من هذه النقائض أنما استطارت بين  
الشاعرين بحكم موقف جرير في صف قيس . وقد تكون حادثة بشر صليحة ،  
ولكن ينبغي أن لا نجعلها كل الأسباب في اندفاع الشاعرين إلى التهاجي ، فواءها  
سب أعق في موقف الشاعرين لهذا العصر من الخصومات القبلية ، إذ كان الأنخل  
لسان قومه تغلب ، بينما اتخذت قيس في الميريد جريراً لسانها ، فكان من  
الضروري أن يصطلم اللسانان المبران عن الطرفين ، سواء حاج ذلك بشر في نفس  
الأنخل أو لم يتهجه . وإن نفس وقوف بشر مع الفرزدق ضد جرير ، إنما يرجع  
إلى موقف جرير مع الزبيرين ومع القيسين خصوم بني أمية . ومهما يكن فقد  
اصطلم شاعر تغلب بشاعر قيس فتخللا في هذه المعارك التي أنتجت لنا هذه  
النقائض الطريفة بين الأنخل التغلبي المسيحي وبين جرير القيسي الهوي المسلم .

وإذا أخذنا ننظر إلى هذه النقائض التي بقيت بين أيدينا من عمل الشاعرين  
والتي جمعها أبو تمام لاحظنا ترواً أنها قصائد ضخمة ، استنفدت جهداً غير قليل  
من الشاعرين ، وهي من حيث الشكل تتألف من قصيدتين قصيدتين ، فالوحدة في  
ديوان النقائض سواء بين الأنخل وجرير أو بين الفرزدق وجرير قصيدتان . وفي  
العادة ينظم أحد الشاعرين المتناقضين قصيدة من وزن خاص وقافية خاصة ، ثم  
يأتي زميله فينقض القصيدة بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية ، وكأنه يريد أن  
يثبت تفوقه عليه من حيث الموسيقى والصياغة الفنية بجانب تفوقه عليه من حيث  
الفخر والهجاء . ونراه في أثناء صنعه لتقيضته يتعرض لمعانى زميله فيردها أو يرد عليها  
معنى معنى ، يحاول أن ينقضها ، وأن يجعلها أنكاثاً من بعد قوة .

وليس هذا كل ما يلاحظ على فن النقيضة لهذا العصر ، فنحن نلاحظ أيضاً أن الشاعر في النقيضة لا يعبر قبل كل شيء عن نفسه كما في بعض القصائد القديمة ( انظر المعلقات مثلاً ) وإنما يعبر عن قبيلة يتحدث باسمها ، يذكر مفاخرها وأمجادها ثم يعدّد مساوئ خصومها ومثالبهم .

وأيضاً فإننا نلاحظ أن القبيلة كانت تتخذ شاعراً يعبر عنها ، وليس من الضروري أن يكون منها كما هو شأن جرير بالقياس إلى قيس ، ولذلك كنا نزعّم أن نقائض جرير والأخطل فن جديد لم يسبق إليه الشعراء في الجاهلية ، إذ كان كل شاعر يتحدث باسم قبيلته ، أما في هذا العصر فإن الشاعر قد يتحدث باسم قبيلة أخرى ، ولا مانع مطلقاً من أن يضطره ذلك إلى أن يقف ضد قومه وقبيلته نفسها كما حدث بين جرير والفرزدق مما سنعرض له فيما بعد . وبذلك يصبح الشاعر وكأنه صحيفة مؤجرة لهذه القبيلة

ويشعر كل من يستعرض الحركات الدينية والعقلية وما كان من مناظرات بين العلماء في هذا العصر أن النقائض ، سواء نقائض جرير والأخطل أو نقائض جرير والفرزدق ، إنما كانت قبل كل شيء صدّى لهذه المناظرات التي مسّت كل جانب في الحياة الدينية والعقلية ، على نحو ما تحدثنا عن ذلك في غير هذا الموضع .

وكان جريراً حينئذٍ انساق في مناظراته مع الأخطل أو مع الفرزدق إنما كان يقلد هؤلاء العلماء حين يأخذ واحد منهم في الدفاع عن فكرة معينة كفكرة الجبر أو القدر أو الإرجاء ، وكفكرة التشيع أو الأموية أو الزبيرية ، وكهذه المناقشات التي لا تنتهي في مسائل الفقه والتشريع ، مما كان يراه جرير كل يوم في المسجد الجامع بالبصرة ، وفي المربد وفي الطرقات ، وفي مجالس الناس ، ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم كيف أن جريراً التميمي كان يأخذ صف قيس الهخامة لقبيلته ، وكيف كان يعيش للنضال عنها ، فقد تحولت المسألة عنده إلى فكرة أو ما يشبه العقيدة ، أو قل إنه كان يسلي نفسه وبالجمهور من حوله بهذه المحاور .

فالجزء الذي ألفت فيه نقائض جرير والأخطل وكذلك نقائض جرير والفرزدق كان جزءاً جديداً فيه مناظرات العلماء ومناقشاتهم ومحاوراتهم ، وفيه هذا الوضع غير المألوف ، وهو أن شاعراً عربياً يدافع عن قبيلة أخرى غير قبيلته ، ثم فيه هذا

المسرح الكبير مسرح الميربند الذى يتجمع فيه سكان البصرة للفرجة على لعبة  
التقااض . وحقاً وجدت أهاج بين الشعراء فى العصر الجاهلى وفى أوائل الإسلام  
ولكنها لم تؤلف فى هذا الجو العلى الجليل ، ولم يكن الشاعر يأخذ فيها صقاً آخر  
غير قبيلته . ومن هنا كتبنا تفصيل هذه الأهاجى الجليلة باسمها الذى وضعه  
الرواة لها وهو اسم التقااض ، ونزعم أن هذه التقااض جليلة فى تاريخ الشعر العربى  
فقد تحول المهجاء القديم إلى مناظرات من نوع يوشك أن يعتقد ، وأن يختلف فى كثير  
من جوانبه عن صورته القديمة ، بل قل إنه تعقد ، واختلف فعلاً ، واتخذ صورة مغايرة .  
والواقع أنه تكونت فى العقل العربى فى أثناء هذا العصر الأموى قشرة من الثقافة  
أتاحت له أن يتغوى ضرورياً من التفوق فى كل فن عاجله من فنون الشعر ، فهذا  
المهجاء القديم استطاع هذا العصر أن يعدنا فيه بديوانين جليلين لاهج العربيه بهما .  
وأول ما نلاحظ فى ديوان جرير والأخطل أن التقااض تطول طويلاً شديداً ،  
فليست أهاجيهما مقطوعات ، وليست قصائد قصيرة كأكثر الأهاجى القديمة ،  
ولأنما هى قصائد طويلة ، وكثيراً ما تُسرف فى الطول .

وهو طول سعى به الشاعران إلى غاية يريدان فيها أن يلاثما بين هذا الفن  
وما أصاب العقل العربى من تطور ونهوض . فلم تعد المسألة مسألة هجاء عاجل ، بل  
أصبحت مسألة هجاء معتقد ، يقوم على البحث والدرس فى تاريخ القبائل .  
وارجع إلى أى نقيضين لجرير والأخطل فستراهما بمحاولان بكل ما يستطيعان أن  
يتشققا بتاريخ قبس وتغلب ، وأن يعرفا إلى كل ما لهما من أجداد فى الجاهلية أو  
نقااض ومثالب . فهذا الأخطل يُلم بتاريخ تغلب وقومه وحروبها القديمة مع القبائل  
الأخرى وخاصة ما اتصل بقيس ، حتى يتغمز قناتها الغمز الذى يريد به الهجاء .  
وهذا جرير يلم بتاريخ قيس التى يدافع عنها وبمخروبها فى الجاهلية ، وخاصة ما  
اتصل بتغلب ، حتى يسدّد إلى الأخطل ما يريد من سهام الهجاء . وفى أثناء ذلك  
يُعبدّ كل منهما تاريخ القبيلة التى يتحدث باسمها ، ومفاخرها عامة ، وما كان  
لها من انتصارات فى الجاهلية على القبائل الأخرى . ويضيف الأخطل إلى ذلك  
درساً آخر لقبيلة جرير : كُليّيب ، ومثالبها ، حتى يرى جريراً بكل ما يريد  
من حجارة القذف .

وكل هذه موضوعات واسعة للبحث والدرس ، فجرير والأخطل كل منهما كان يدرس تاريخ هذه القبائل التي يتحدثان عنها ويتناظران أو يتحاوران فيها ، ليحيطا علماً بكل ما يتصل بها ، وليستطيعا الهجوم عليها إن كانا هاجمين ، والدفاع إن كانا مدافعين .

وهذه ظاهرة مهمة في النقائص ، فهي قصائد تحتاج ثقافة واسعة بتاريخ القبائل العربية في الجاهلية . هي هجاء من ناحية ، وهي تاريخ من ناحية ثانية ، والشاعر يتخف نفسه أعنى ما يكون التخف بهذا التاريخ . ومن هنا كانت نقائص جرير والأخطل من أهم المراجع لمن يريدون درّس تغليب وقيس ومن اتصل بهما من القبائل ، فهي وثائق تاريخية ، وقيمتها من هذه الناحية بعيدة الخطر .

ويتصل بهذه الظاهرة التاريخية في النقائص بين جرير والأخطل ظاهرة أخرى يمكن أن نسميها ظاهرة سياسية ، إذ نجد كل منهما حين يهجو خصمه يلاحظ السياسة القائمة في الدولة العربية ، وما يتصل بها من ظروف طارئة لم تكن معروفة في القديم ، لسبب بسيط ، وهو أن الدولة العربية لم تكن قامت ولا عرفت .

ومعنى ذلك أن كلا منهما كان يحاول أن يلائم في نقيضته بين هذا التاريخ الذي يرويه عن القبائل في الجاهلية وبين الظروف السياسية الحديثة ، فالأخطل حين يهجو قيساً يفكر في موقفها من الأمويين ويَسْجُرُهُ ذلك جسراً إلى أن يجعل نقيضته في أكثر الأحيان شراكة بين تغلب وعبد الملك من جهة ، وبين قيس خصوم تغلب وعبد الملك من جهة ثانية ، ومن هنا يدخل في النقيضة قسم خاص بمدبج الحليفة .

وبهذه الطريقة أصبحت النقيضة لا تحوى فخراً وهجاء فحسب كما كان الشأن في القديم ، بل أخذت في بعض قصائدها على الأقل تحوى مدبجاً وسياسة عصرية . ويقدم الشاعر لذلك كله بيبكاء الأطلال ووصف رحلته في الصحراء ، وقد يضيف الأخطل نعتاً للخمر ، وبذلك تشتمل بعض نقائضه على جُل فنون الشعر التي عُرِفَتْ حينئذ .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا عدَّ جرير والأخطل شاعرين كبيرين في هذا العصر ، فقد نهضا بهذا الفن الجديد ، وكان فنّاً صعباً ، إذ كان معقداً هذا التعقيد . لم بعد الهجاء بيتين أو أبياتاً قليلة تُسَبَّ بها قبيلة أخرى ، بل أصبح

فصائل طويلة تعتمد في طولها على درّس عميق للحياة الجاهلية وما كان بين القبائل العربية فيها من خصومات ، كما تعتمد على حوس الحياة الإسلامية الحديثة وما طرأ عليها من ظروف سياسية . وكل ذلك يُتناول تناول للتناظرين في المسائل العلمية ، فكل يحاول أن يقدم حججه وأدلة من التاريخ مستلهمًا الحياة السياسية في عصره . وكان الأخطل المسيحي حين يمدح عبد الملك خليفة المسلمين يلاحظ هذه الخلاقة في الناس ويبحث في حديثه عنه - كما أسلفنا - اصطفاء الله له واختياره لإمامة الأمة . على أن الجانب المسيحي فيه جعل جريرًا بهجوه كثيرًا بمسيحيته ، وما يؤديه قومه من صدقة ، أو كما يسميها جرير ، جزية . وإنه ليند دائمًا بملتهم ، وينتهكم على صلبانهم وقد يسهم مار سرجيس ، كما ينتهكم على طعامهم وماياكلون من خنازير ، وما يتناولون من خمر ، وهذا كله مبثوث في هجائه لمن مثل قوله (١) :

أفبالصليب ومار سرجيس تنقّي  
شهباء ذات كئاب جُمهوراً

وقوله (٢) :

إنّ النبوة والخلاقة والهدى  
خالقتم سبيل النبوة فاحضعوا

رغم لتغلب في الحياة طويلاً  
بجزر الخليفة والدليل ذليل

وقوله (٣) :

رجس يكون إذا صكوا أذانهم  
والمقرعون على الخنزير ميسرهم

قرع النواقيس لا يدرون ما السور  
يشس الجزور وبش القوم إذ يسروا

جاء الرسول بلدين الحق فاتكثروا  
وهل يضيّر رسول الله أن كفتروا

وعلى هذه الشاكلة كان بهجوه دائماً بدينه وبما تؤدي تغلب من صدقة ، أو كما يقول جزية (٤) ، وقد أكثر من تعييره بأنه وقومه من رعاة الخنزير وأنهم لا يقامرون على الإبل كما تقامر العرب ، وإنما يقامرون على الخنازير وفي أثناء ذلك يكثر من هجائهم بشرب الخمر .

(٤) لاشك أن تعير تغلب بالجزية فيمبالغة ، فقد مر في أول هذا الفصل أن عمر رضي الله عنه تغلب الصدقة التي يؤديها العرب من المسلمين ، لا الجزية التي كان يؤديها الأجانب .

(١) نقائض جرير والأخطل (طبع الآباء السوميين) ص ١٢٥ .  
(٢) النقائض ص ١٨٤ وما بعدها .  
(٣) النقائض ص ١٧٢ وما بعدها .

وهكذا كانت النقيضة تتألف من عناصر قديمة تتصل بهذا الحس التاريخي بكل ما للعرب في جاهليتهم من حروب ومآثر ، كما تتألف من عناصر جديدة تتصل بهذا الحس الحاضر بكل ما يتصل بالدولة الحديثة من ظروف سياسية أو دينية . وكان الشاعر ما يزال يتصدّر عن هذين الحسيّن ، حتى يثبت تفوقه ، وأنه السابق المُجَلّى في المناظرة .

ولم يحتكم الأخطل جرير إلى ذلك فحسب ، بل احتكما أيضاً إلى الإقذاع في الهجاء ومحاولة السخرية وإضحاك الجماهير ، حتى يُسقط كل منهما قبيلة صاحبه سقوطاً لا تقوم من بعده بما يلبسها من الخزي والعار . واعتدّاً في هذا العمل بنقص الصفات التي يبجلها العرب من كرم ووفاء وغيرهما . ولكل منهما أبيات طارت شهرتها في العالم العربي ، فمن ذلك قول الأخطل في إحدى نقائضه <sup>(١)</sup> :  
 قومٌ إذا استنج الأضيافُ كَلَبَهُمْ  
 قالوا لأَمَّهُمْ بُولُ على النَّارِ  
 وواضح أن الأخطل لم يكتف في هذا البيت بوصف كَلَبٍ باللؤم والدناءة وابتذال الناس ، بل جعل نارهم أيضاً حقيرة ضئيلة تطفئها الكمية القليلة من الماء . وفي هذا سخرية بالغة ، وهي سخرية استحدثها جرير والأخطل ، والفرزدق من ورائهما ، في هذا الفن الإسلامي : فن النقائض .

وكان جرير هو الآخر يحاول أن يلبس الأخطل وقومه أقبح الهجاء وأشدّه لَدْعاً ونهكاً ، فتممّد دائماً أن يهجو نساء تغلب وأن يهتك أعراضهن وأن يرميهن بأنواع الفحش ، فإذا عدل عن ذلك فإلى دين تغلب ومسيحياتها ، وكذلك إلى أخلاقها وخصالها من مثل بيته المشهور :

والغلبى إذا تَنَحَّجَ لِلْقِرَى حَكَ اسْتَهْ وَمَثَلُ الْأَمْثَالِ

وهي صورة قبيحة كصورة الأخطل السابقة ، ولكنها مضحكة ، وتحمل كل ما أراده من سخرية بصاحبه وبقبلته . وما من شك في أن مثل هذا البيت وبيت الأخطل السابق إنما كان يراد به إلى التهليل واستثارة الجماهير وكسب إعجابها وتصفيقها مع الشاعر وأنصاره من القبيلة التي يتحدث باسمها .

وأظن أنه قد اتضحت الآن المواد التي تألفت منها نقائض جرير والأخطل ، فهي تألفت من مفاخر قديمة وعلى رأسها الأبيام ، كما تألفت من مثالب قديمة وعلى رأسها الأبيام أيضاً . وهي بجانب ذلك تألفت من مواد حديثة تنصل بالظروف السياسية وبمناصر الإسلام . وهذا كله يُمزج بسخرية لاذعة بالقبيلة ، وهي سخرية تمس أخلاقها ونحسها . ومن هنا تنوعت النقيضة وتنوعت معانيها . وكان الشاعر يقبل على نقيضة خصمه وكأنه يقبل على مناظرة ، فهو ينظر في كل أدلتها ، ويسوق أمامها ما ينقضها نقضاً ، ويهدمها هدماً . ويشعر الإنسان شعوراً واضحاً حين يقرأ في نقائض الأخطل وجرير أن كلا منهما كان يقرأ قصيدة خصمه متأنياً متمهلاً ، متبيناً كل معنى على حدة ، ثم ينظم قصيدته ، وكان كل بيت فيها يرد على بيت مقابل في القصيدة الأولى . ولأنشك في أنهما ولّتا معاني كثيرة في أثناء قيامهما بهذا العمل الفني المعقد ، وهو توليد كان ثمرة للرق العقلي الذي أحرزته الفكر العربي في عصر بني أمية .

#### ٤

### نقائض جرير والفرزدق

يمتاز هذا الديوان الثاني للنقائض من الديوان السابق ديوان جرير والأخطل من وجوه كثيرة ، فقد استغرق مدة أطول في تأليفه ، إذ انتهى جرير والأخطل من صنع نقائضهما معاً بوفاة ثانيهما في عصر الوليد بن عبد الملك حول سنة ٩١ للهجرة . أما ديوان جرير والفرزدق فقد ظلا يُؤكّفان فيه وفي نقائضه حتى توفياً لعهد هشام بن عبد الملك في سنة ١١٤ للهجرة . فبين الانتهاء من الديوانين نحو عشرين عاماً .

وعلى نحو ما انتهت نقائض جرير والفرزدق متأخرة على نقائض جرير والأخطل بدأت متقدمة ، فبينما بدأت الأخيرة منذ ولاية بشر بن مروان سنة ٧٣ للهجرة على العراق لأخيه عبد الملك نجد الأولى تبدأ ، كما أسلفنا ، منذ ولاية أبي خالد الحارث

ابن عبد الله بن أبي ربيعة ( القبايع ) على البصرة ( ٦٥ - ٦٧ هـ ) لابن الزبير ،  
فنحن نرى جريراً وصاحبه يذكران هذا الولى فى نقائضهما الأولى ، من مثل قول  
جرير<sup>(١)</sup> :

أبا خالدٍ لا تُشْمِئَنَّ أعاديًا      يودُّونَ لوزلَّتْ بمهلكةٍ نعلِي

وسبب هذا الاستعطاف أنه كان يتوعدده على الاستمرار فى الهجاء مع الفرزدق لما يثيران من عصبية القبائل ، فالرواة يروون أنهما لما توافقا بالميربند فى ولايته أرسل إليهما عبّاد بن الحُصَيْن ، فهدّم دارهما ، وطلبهما<sup>(٢)</sup> . وذكرنا ذلك فى قبيضتين لهما ، يقول الفرزدق فى أولاهما<sup>(٣)</sup> :

أحارثُ دارى مرّتين هدّمتها      وكنت ابنَ أختٍ لا تُخافُ غوائله

ويقول جرير فى ثانيتهما<sup>(٤)</sup> :

وما فى كتاب الله هدْمُ بيوتنا      كتهديمِ ماخورٍ نحْيِيثٍ مَساخِلُه

وإذن فنقائض جرير والفرزدق تسبق من حيث الزمن نقائض جرير والأخطل كما تأخر عليها من حيث الزمن أيضاً ، فقد شغلتهما نحو خمسة وأربعين عاماً ، بينما شغلت الأخطل وجريراً نقائضهما نحو عشرين عاماً فحسب . ومن غير شك أتاح هذا الدهر الطويل لنقائض جرير والفرزدق أن تكون أكثر عدداً وأكمل فناً وأتمّ صنْعاً .

ومن يرجع إلى ما يرويه الرواة عن نشأة نقائض جرير والفرزدق يجدون بتفقون على أن خصومة نشبت بين جرير وشاعر يسمى غَسَّاناً من سَكِيطِ أَحَدِ غُصُونِ بَنِي بَرِئُوعٍ ، ودخل بينهما شاعر من مُجاشع قوم الفرزدق يسمى البَعِيثُ ، فتفرّق عليه جرير ، ففرّج بنو مجاشع إلى شاعرهم الكبير الفرزدق ، وكان قد قيّد نفسه لحفظ القرآن ، واعتزم أن يهجر الشعر ، فأظهر شيئاً من التردد ، فجاءه نسوة بنو مجاشع واستثرنه للاشتراك فى الخصومة والرد على جرير ، ومازلن به حتى

(٣) النقائض ص ٦٠٧ .

(٤) النقائض ص ٦٨٣ .

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٦٧ .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذنى ٢٧٨/٥

والنقائض ص ٦٨٣ .

فَكَ وَثَاقَهُ<sup>(١)</sup> وزحف إلى المعركة ، واستمر عالقاً بها حتى آخر لحظة من حياته .  
وقد يكون هذا الأصل لنشوب المعركة بين الفرزدق وجريير صحيحاً ، غير  
أن المعركة لم تلبث أن تطورت تحت تأثير مسرح المربد الكبير وما كان به من  
جماهير تريد قطع الوقت واللاهو والتسلية إلى معركة كبيرة لا في المفاضلة بين  
عشيري الشاعرين فحسب ، بل أيضاً في المفاضلة بين قبيلتين وتسميم ، فإن من  
يتعمق درّس النقائض ودرس حوادث العصر وأشخاصه وظروفه يلاحظ أن هذا  
المرزج بين عشيري الشاعرين وبين قبيلتين وتسميم بدأ منذ بدأت هذه المعركة ،  
أوفى وقت قريب من نشوئها جداً ، فقد تصادف أن عبد الله بن خازم السلمي  
القيسي صاحب خراسان في عهد ابن الزبير أوقع بتسميم سنة ٦٥ للهجرة<sup>(٢)</sup> ،  
فشبت الحصومة بين قيس وتميم منذ هذا التاريخ ، وظلت تُذكيها الحوادث طوال  
عصر بني أمية . وكان هوى قيس مع ابن الزبير منذ نشبت موقعة مرزج راهط في  
الشام لعهد مروان بن الحكم ، وكذلك كان هوى جريير وقبيلته يربوع ، فقد  
غلب على البصرة عقب موت يزيد بن معاوية في أثناء الفتنة التي قامت هناك مسكمة<sup>(٣)</sup>  
ابن ذؤيب الرياحي البربوعي ، ومنه تسلمها إلى ابن الزبير . ونجد يربوعاً تحارب  
في صفوف مضعّب ضد عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ للهجرة كما نجد شاعرها  
جريراً يترّفي من يقتتلون منها حيث<sup>(٤)</sup> .

ومعنى ذلك أن الحوادث قرنت يربوعاً وشاعرها جريراً مع قيس منذ غلب  
ابن الزبير على العراق ، وأيضاً فإن الحوادث وضعت الفرزدق ضد ابن الزبير  
والقيسين معه ، فإن قومه هم الذين قتلوا الزبير بعد موقعة الجمل ، وقد اصطلم  
بابن الزبير حين خاصمته زوجه النوار إليه في مكة ، كما اصطلمت تميم بقبيلتين  
في خراسان . ونستطيع بذلك كله أن نفهم موقفه من قيس ، وأن نفهم في الوقت  
نفسه موقف جريير ، إذ أصبح شاعر عشيرته من جهة وشاعر قيس من جهة ثانية .  
وانضمت إلى ذلك الحاجة الجديلة إلى شاعرين يملآن مسرح المربد بلعبة النقائض ،

(١) النقائض ص ١٢٦ وابن سلام ص ٨٩

(٢) النقائض ص ١١٨

(٣) أنساب الأشراف ٣٤٥/٥

(٤) طبري ٥٩٣/٢ وما بعدها .

فانبريا بقودان هذه المعارك . ولا تولى بشر بن مروان على العراق أبعد جريراً عنه باعتبارها شاعر خصومه الزبيريين ومن والاهم ، وهاج الشعراء لهجائه<sup>(١)</sup> . وواضح أن السياسة هي التي جعلته يُبعدُه عنه ، وهي أيضاً التي جعلته يدعو الشعراء لهجائه ورميهِ بمثل ما كان يرمى به هو الأمويين في أثناء ولاية الزبيريين . وفي الوقت نفسه نجد بشراً يُقَرَّبُ قَيْسًا وشاعرها الرأعي<sup>(٢)</sup> منه ، لأن أمه كانت قَيْسِيَّةً<sup>(٣)</sup> ، فهو يعتبره من أخواله<sup>(٤)</sup> ، وأيضاً فإنه قَرَّبَ تهما وشاعرها الفرزدق منه ، واتخذها نديماً له<sup>(٥)</sup> .

وأظننا الآن نستطيع أن نفهم الخصومة التي نشبت بين جرير من جهة وبين الرأعي والفرزدق من جهة ثانية ، فإننا نُفاجئاً في النقائض بموقف غريب ، يخالف منطق الظروف والحوادث ، إذ نرى جريراً يهجو الرأعي التميمي القَيْسِي ، ويقف الفرزدق في صف الرأعي ويدافع عنه<sup>(٦)</sup> وهو موقف شاذ ، هياً له ظهورُ بِشْرٍ في العراق وتقريبه بين الرأعي من جهة والفرزدق من جهة ثانية ، فتطوّر الموقف ، بل انعكس ، وجدنا جريراً يهجو تميمياً وشاعرها ، والفرزدق ينصرها وينصر شاعرها . وليس معنى ذلك أن جريراً انصرف عن قيس جميعاً فهو إنما هجا تميمياً وحدها . ولا نبالي إذا قلنا إن هذا كان حادثاً عارضاً ، لأن بشراً لم يلبث أن توفى ، وأيضاً فإن جريراً لم ينصرف عن قيس حتى في حياة بِشْرٍ ، فإنه دخل مدافعاً عنها مع الأخطل شاعر تغلب ، وأخذنا ينظران معاً نقائضهما التي سبق أن عرضناها . ولعل في هذا كله ما يدل على أن جريراً كان شاعر قَيْسٍ قبل وفود بِشْرٍ على العراق ، وإن تكن نقائضه الأولى مع الفرزدق تخلو من الإشارة إلى قَيْسٍ . على أن هذا وحده لا يكفي لتشخيص الموقف ، لأن النقائض التي بين أيدينا لهذا ليست هي كل نقائضهما وإنما هي بقايا مما قالاه . وهناك نقبضة نظمها جرير في أول ولاية الحجاج على العراق سنة ٧٥ للهجرة ونراه فيها يُعَيِّرُ الفرزدق بانتكاسه ، إذ يراه يمدح الحجاج القيسي وولائه ، وفي ذلك يقول له<sup>(٧)</sup> :

- |                                       |                                    |
|---------------------------------------|------------------------------------|
| (١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٨/٨ ،      | (٤) أغاني ٢٩٤/٨ .                  |
| (٢) أغاني ٣١٥/٨ .                     | (٥) أنساب الأشراف ١٦٨/٥ .          |
| (٣) كانت أم بشر قيسية من بني جعفر     | (٦) انظر النقائض ص ٤٢٧ وما بعدها . |
| ابن كلاب ، انظر أنساب الأشراف ١٦٤/٥ . | والأغاني ٢٩/٨ وما بعدها .          |
|                                       | (٧) النقائض ص ٦٩١ .                |

رَأَيْتُكَ إِذْ لَمْ يُغْنِكَ اللَّهُ بِالْغِنَى لَتَجَاتَ إِلَى قَيْسٍ وَخَدُّكَ ضَارِعُ

وبعدت هذه المعارك القيسية التيمية قليلاً في عهد الحجاج ، ثم عادت إلى العنف والشدة بعد وفاته ، وبعد حادث ثورة قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي وإلى خراسان على سليمان بن عبد الملك وقتل وكيع بن أبي سؤد التيمي له ؛ واستمرت حتى لفظا أنفاسهما الأخيرة .

على أنه ينبغي أن نفهم أن هذه المعارك بين عشيرتي الشاعرين ، ثم بين قيسٍ وتميم لم تكن معارك صارمة ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، وإنما كانت معارك برّاد بها اللهو والتسلية . وارجع إلى أخبار الشاعرين تجدتهما غير متحاذين ولا متخاصمين بل متصادقين متوادّين ، كما يتصادق ويتوادّ في عصرنا الصحفيون الذين يعملون لحساب أحزاب متعارضة . ويظهر ذلك في أنهما كانا كلما وقع أحدهما في شدة حاول صاحبه أن يخرجها منها جاهداً ، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة توسط له الفرزدق عند المهلب ليركه <sup>(١)</sup> ، وإذا حبس الفرزدق توسط له جرير عند صاحب الشرطة في العراق <sup>(٢)</sup> ، ثم عند هشام بن عبد الملك في الشام <sup>(٣)</sup> .

فالمسألة لم تكن صراعاً صارماً كما ظن الرواة . وفي كل مكان نجد نصوصاً تشهد بأنهما كانا متقاطعين متراحمين ، لا متقاطعين متباذلين ، وقد حزن جرير على صاحبه حزناً شديداً حين سبقه إلى الموت ، ورثاه بأبيات مختلفة ، منها قوله <sup>(٤)</sup> :

فُجِعْنَا بِحَمَالِ الدِّيَاتِ ابْنِ غَالِبٍ وَحَامِي تَمِيمٍ عِرْضِهِمَا وَالْمُرَاجِمِ <sup>(٥)</sup>  
بِكَيْتِنَاكَ حَدَّثَانِ الْفِرَاقِ وَإِنَّمَا بِكَيْتِنَاكَ شَجَرًا لِلْأُمُورِ الْعَظَامِ  
فَلَا حَمَلَتْ بَعْدَ ابْنِ لَيْلَى مَهِيرَةً وَلَا شُدَّ أَنْسَاعُ الْمَطِيِّ الرَّوَاسِمِ <sup>(٦)</sup>

فالصلة بين الشاعرين لم تكن مُنْبَتَّةً ، بل كانت صلة مودّة ، وكانا يقومان بهذه التناقض على أنها شيء يُقصدُ به إلى التسلية أكثر مما يُقصدُ به إلى السباب

(٥) المراجع : المناضل .  
(٦) المهيرة : الحرة . أنساع : جمع نسع ، وهو سير تشد به الرجال . والرواسم : النوق من رمت الناقة إذا أثرت بحوافرها في الأرض .

(١) أغاني ٢٩/١٩ .  
(٢) أغاني ٣٢/١٩ .  
(٣) ابن عبد ربه ١٤٥/٣ .  
(٤) الديوان ص ٥٣٥ وانظر ابن سلام ص ١٠٠ .

والتخاصم . وكان مَنْ حولهما يعرفون ذلك ، ومن هنا تأتى استشارة ولاية العراق لهما بحضرتهما ، وكأنهم يريدون أن يُسَكَّلُوا أنفسهم ، ويكتشفوا بعض غُصَّتِها . ومن طريف ما يروى من ذلك أن الحجاج قال لهما : « اثنيَا في لباس آباءكما في الجاهلية ، فجاء الفرزدق وقد لبس الديباج والخز وقعد في قُبَّة ، وشاور جرير دُهَّاءَ بني يربوع ، فقالوا : ما لباس آباءنا إلا الحديد ، فلبس جرير درعاً ، وتقلَّد سيفاً ، وأخذ رُمحاً ، وركب فرساً لعباد بن الحصين ، يقال له المنحاز ، في أربعين من يربوع ، وجاء الفرزدق في هيئته ، فقال جرير :

لَبِيتُ سِلَاحِي وَالْفَرَزْدَقُ لُعْبَةٌ      عَلَيْهِ وَشَاحَا كُرْجٌ <sup>(١)</sup> وَجَلَّجِلُهُ  
أَعِدُّوا مَعَ الْخَلْطِيِّ الْمَلَابَ <sup>(٢)</sup> فَإِنَّمَا      جَرِيرٌ لَكُمْ بَعْلٌ وَأَنْتُمْ حَلَالُهُ <sup>(٣)</sup>

ولا بد أن الحجاج ضحك طويلاً حين رآهما على هذه الهيئة ، وضحك معه من شاهدتهما من أهل البصرة .

ونحن نزعم من هذا وأشباهه أن المسألة لم تكن جادة كما يتصور الرواة ، ولعل هذا ما جعل الشاعرين جميعاً يملآن نقائضهما بالفكاهة ، وخاصة جريراً ، ففى جوانب كثيرة من نقائضه يرمى الفرزدق بأن زوجه النوار تكرمه ، وأنه ليس فيه ما تعشقه النساء <sup>(٤)</sup> . وقد تكون قصة جيعثين أخت الفرزدق وما يرميها جرير به من سوء أريد بها قبل كل شيء إلى الضحك والتشدير . وفى الوقت نفسه نجد الفرزدق يُعَيِّرُهُ بِجَارِيَةٍ لَهُ طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَبِيعَهَا ، لَأَنَّهَا كَرِهَتْهُ وَكَرِهَتْ مَطْعَمَهُ وَمَكْبَسَهُ <sup>(٥)</sup> . ومن هذا الباب قصة نُبُوِّ السيف فى يد الفرزدق ، وذلك أن سليمان بن عبد الملك « حجَّ وحجَّ الشعراء معه ، فلما كان بالمدينة راجعاً تلقَّوه بنحو أربعمائة أسير من الروم ، فقعد سليمان ، وأقرب بهم من مَجْلَساً عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فقُدِّمَ بطريقهم ، فقال : يا عبد الله اضرب عُنُقَهُ ، فقام ، فأعطاه أحد سيفاً ، حتى دفع إليه حَرَمَى سيفاً ،

(٣) ابن سلام ص ٩٦ وأغنى ٧٦/٨ .

(٤) النقائض ص ٨٠٣ وما بعدها .

(٥) أغنى ٥٣/٨ .

(١) الكرج : لبة على هيئة المهر يلبس

عليها الأطفال .

(٢) الملاب : الطر .

فضربه ، فأبان الرأس وأطن الساعد ، فقال سليمان : أما والله ما من جودّة  
السيف جادت الضربة ، ولكن لحسبه ، وجعل يدفع البقية إلى الوجوه وإلى الناس  
يقتلونهم ، حتى دفع إلى جرير رجلا منهم ، فلمت له بنو عبّس سيفاً في  
قرايب أبيض ، فضربه ، فأبان رأسه ، ودفع إلى الفرزدق أسير ، فلم يجد سيفاً ،  
فلمسوا له سيفاً مثيلاً لا يتقطع ، فضرب به الأسير ضربات ، فلم يصنع شيئاً ،  
فضحك سليمان والقوم ، فألقى السيف ، وأنشأ يقول ، معتزلاً إلى سليمان ،  
وموتسباً بينبؤ سيف ورّقاء بن زهير العبّسي عن رأس خالد بن جعفر بن  
كلاب :

إن بك سيفٌ خان أو قتلٌ أتى      بتأخير نفس حتفها غير شهاب  
فصيفٌ بقي عبّس وقد ضربوا به      نبأ بيدى ورّقاء عن رأس خالد  
كذلك سيوفُ الهند تنبؤ ظلماتها      وتقطع أحياناً منأط القلائد<sup>(١)</sup>

وهذه الحادثة التي أضحكت سليمان وحاشيته في الحجاز استمرّ جرير يضحك  
بها الناس في المربّد بالعراق ، فكلما أراد أن يسخر من الفرزدق ويلعب به بعض  
اللعب ويندّ عليه بعض التندير ذكرها في شعره ، من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

بصيف أبي رغوآن سيفٌ مجاشع      ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم  
ضربت به عند الإمام فأرعشت      يدك وقالوا محدث غير صارم

ولا ريب في أن هذه الحادثة وما قبلها عناصر مضحكة كان يدّخلها جرير في  
نقائضه لغرض الترويح عن الناس في المربّد وتسليةهم ، أو قل لغرض استجلاب  
تصفيقهم واستحسانهم ، إذ كانت له حكمة كما كانت للفرزدق حلقة أخرى ، وكان  
المستمعون ما يزالون ينتظرون بيتاً أو شطراً يهلّلون له ويصبحون ، وكانوا ما يزالون  
يستغزونهما ، ليصوغا بيتاً أو شطراً يتعلقون به وينتدرون بفكرته ، ويحدثون كل  
ما يريدون من شغب وهياج وتهريج وتصفيير<sup>(٣)</sup> .

(٢) انظر في ذلك خبراً طريفاً في ترجمة  
أبي حنيفة في الأغاني ١٥٣/١٩ حيث يروى  
أبو الفرج أنه هبأ شخصاً يسمى من بن سلامة =

(١) طبري ١٣٣٨/٢ وابن سلام ص ٩٤  
والغنائص ص ٢٨٣ وما بعدها .  
(٢) الغنائص ص ٤١٣ .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نقرب من فهم حقيقة هذه التفاضل بين جرير والفرزدق وأنها كانت عملاً يراد به - قبل كل شيء - إلى تسليمة الجماعة العربية الجديدة في البصرة ، فقد تكون المجتمع العربي هناك في شكل مدينة لأول مرة في تاريخ القبائل التي نزلت البصرة . وهي قبائل أكثرها مُصْرِية ، إذ كان جمهورها من قَبِيص وتَمِيم وربيعة . وكانت هذه القبائل تعيش في أثناء العصر الجاهلي في البادية جاهدة في تحصيل قوتها وأسباب عيشها ، فلما جاءت الفتوح ، واشتركت هذه القبائل فيها ، أنزلنا عمر في البصرة والكوفة ، اختطهما لها على حدود فارس .

وأخذت جموعها تعيش في هاتين المدينتين معيشة جديدة يخدمهم فيها القرس وغيرهم من الموالى ، وقد ملأت الفتوح حجورهم بالأموال ، ونظّم لهم عطاء في دواوين الدولة ، وأتاح ذلك كله لهم حياة هادئة رخيّة ، ليس فيها شتط العيش القديم ، وإنما فيها الراحة والفراغ والعطلة ، وخاصة لمن لم يشتركوا في الثورات والانتفاض على بني أمية .

ومن هنا وُجِدَت في العراق وفي مدينتيها الكبيرتين البصرة والكوفة تلك الجماعة العاطلة التي يُبَشَّر وجودها دائماً بنشوء حياة عقلية نشيطة ، فالناس يُضْطَرُّون اضطراراً إلى تمضية أوقاتهم في عمل من الأعمال . وهذا ما حدث فعلاً في البصرة حيث التقت ثقافات مختلفة من إغريقية وفارسية وآرامية وعربية ، وكان من ثمار ذلك أن ظهرت حركات دينية وعقلية جديدة ، وأخذ العلماء يدرسون مسائل القدر والإيمان ، كما أخذوا يدرسون مسائل التشريع ، وينقلون ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة . وحتى اللغة بدأوا يُخَضِّعونها للدراسة منذ أبي الأسود

الأغانى (طبع دار الكتب) ٣٩٢/١٥ حيث نرى الفرزدق وزبادة الأصم يتحاوران في المريد والناس من حولهما يضحكون ويهليون . وفي أخبار الحكم بن عديل (أغانى ٤١٣/٢) أنه هجا محمد بن حسان بقصيدة قال فيها (أما أنت الله حسان بن سعد) فذاعت ، حتى كان المكاري يسوق بخله أو حماره فيقول (عد : أما أنت الله حسان بن سعد) . وهذه كلها صور دالة على ما كان يسود المريد من تهريج ، وتصفيق ، وصغير ، وصياح .

بأبيات فيها تنف لأمه ، فكان الناس يصيحون به ويكررون شطراً يقول فيه أبو حنيفة (أعلمتها وعالم العلامة) . وفي كل مكان من الأغاني نجد فيه ذكر المريد نجد الناس يتحلقون حول الشعراء وما يزالون ينتظرون البيت أو الشطر الذي يتصاحبون به . وفي أخبار المجاج أغاني (طبع دار الكتب ١٥٢/١) أنه وقف في المريد يهجو ربيعة فلبأت إلى شاعرها أبي النجم فأتى الناس ، وأخذ يشد نفقته في المجاج ، حتى بلغ إلى قوله (شيطانه أننى وشيطانى ذكر) فعلق به الناس وتمسكوا به وهرج المجاج . وانظر

الدُّوَلِيَّ ، فشأت هذه الحركة اللغوية المباركة ، التي اضطلع بها في أواخر هذا العصر أبو عمرو بن العلاء وابنُ أبي إسحق .

ومعنى ذلك أن الحياة العقلية في العراق وفي البصرة لهذا العصر ثمرة من ثمار العَطَلِ في هذه الجماعة العربية الجديدة ، وهو عَطَلٌ أخرج العرب من بداوتهم القديمة إلى حياة متحضرة فيها خصبٌ عقلي ونشاط فكري . والمفروض أن أى جماعة يوجد فيها هذا العطل تحاول أن تقضى بعض أوقات فراغها في شيء تنلهى به ، وتتلى ، وتقطع مسافة الفراغ .

وإذا تذكرنا ما كان في مدينتي الحجاز من غناء ظننا أننا مُقِيلون في العراق على ما يشبه ذلك ، وأن البصرة ستُعْنِي بنف الغناء والموسيقى كما عُنِيَت مكة والمدينة ، غير أن البصرة لم تتَّجِه هذا الاتجاه ، وكان لابد — على كل حال — لجماعتهما أن تشغَلَ نفسها بفنٍّ من فنون اللهو وضرب من ضروب التسلية .

ولم تكن نقائص جرير والفرزدق إلا هذا الفنَّ الجديد الذي وَجَدَت فيه البصرة كلَّ ما تريد من لَهْوٍ وتسلية وقَطْع وقت أو فراغ ، فهي اللُّعْبَةُ التي كان يُعْجَب بها القوم ، والتي كانوا يخرجون للفرجة عليها في هذا المَسْرَح الكبير ، مسرح المِرْبَد ، الذي كانت تختلف إليه القبائل والجماهير ، وتتعلق حلقات للاستماع إلى الشعراء ، وإلى ما يُحدث جرير والفرزدق خاصة <sup>(١)</sup> .

وهكذا كان يتعلَّق النامس حول الشاعرين الكبيرين هناك ، أما الفرزدق فيتعلق حوله قومه من تميم وبني دارم ومُجاشع وأخطاط من قبائل أخرى ، وأما جرير فكانت تتعلَّق حوله قبيلته من كُلَيْب وبني بَرْبُوع كما تتعلَّق حوله جماعات كثيرة ، وكان بعضها من قبائل ، لم تكن في صفاء مع تميم منذ الجاهلية ، وهي قبائل قَيْس .

ويقف أحدهما فيُلقي من جَعَبَتِه كل ما أعدّه لخصمه من سهام الشعر ، وسرعان ما يحمل الرواة هذه السهام إلى صاحبه ، فينظر فيها ويُطِيل النظر ، ثم يحاول أن يَنْقُضَهَا وأن يردَّ عليها سهمًا سهمًا ، وبيتًا بيتًا ، ومعنى معنى . فالفرزدق مثلاً يَنْشُد قصيدة أو تقيضة في هجاء قَيْس وقوم جرير كُلَيْب ويفتخر بتميم وأجدادها في الجاهلية ، وقد يضيف إلى ذلك انتصاراً للأخطل

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٩/٨ وما بعدها .

وتَغْلِب . ويحمل الرواةُ التقيضةَ إلى جرير ، فيحاول أن يردَّ كل ما فيها من سهام إلى نحر الفرزدق وقومه دارم ، ويتعرض للأخطال بقذفه بدينه وكل ما يَرد على خاطره . والناس من حول جرير وصاحبه بهرْجون ويصفرون ويخرون للأذقان - كلما مر بهم قَذَفٌ أو فكاهة - ضاحكين ساخرين .

وعلى هذه الصورة كان يتكوَّن في هذا العصر مَسْرَحُ المِرْبَد ، يذهب إليه جمهور النظار من أهل البصرة ومن يَتَقَدُّ عليهم من البادية أو من الحجاز للفرجة على هذا الفن الذي كان يجيده الشاعران ، والناس يصفقون لهذا تارة ولذاك أخرى ، ويستثيرون بتصفيقهم كل استطاعة عندهما للتجويد والتحجير .

ليست النقائض بين جرير والفرزدق إذن جيداً خالصاً، فقد كان يُرادُ بها إلى اللهو والتسلية ، وأن تَمَلَأَ أوقات الناس في البصرة ، ومن ثمَّ لم يُشِرْ سبَابُهَا حَفِيظَةٌ بين القبائل . وكما نذهب نحن الآن إلى دور التمثيل والخيالة نلهو بعض الوقت ، أو كما نذهب إلى ناد رياضي للفرجة على لُعبة كُرّة القدم مثلاً كان نظارة البصرة يذهبون إلى المِرْبَد للفرجة على لُعبة النقائض .

وظلَّ الفرزدق وجرير يتقاذبان هذه النقائض أو هذه الكُرّات من الشعر حَقَباً متطاولة ، ويتجمّع أهل البصرة حولهما، ليراوا إحسانهما وتفوقتهما في هذه اللُعبة . ومن حين إلى حين كان يحاول بعض الشعراء الأصاغر أن يأخذ الكرة من جرير أو صاحبه ، فما يلبث أن يسقط في الميدان<sup>(١)</sup> . ويستمر اللاعبان الكيران في لعبهما أونقائضهما ؟ وكلُّ يحاول أن يُبَرِّزَ وأن يتفوق على منافسه، تماشاً كما نصنع الآن في عصرنا الحديث في هذه اللعبة اللطيفة التي يَسْعَى الناس لرؤيتها، والتي تسمى المناظرات . والحق أن نقائض الشاعرين لم تكن إلا مناظرات أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وهي مناظرات احتفظَ لنا بها الشعرُ العربي ، وقد صُنِعَتْ على ضوء هذه المناظرات العقلية والدينية التي أشرنا إليها في غير هذا الموضع ، فكما كانت تكتظُّ البصرة بمناظرات أصحاب النُحُلِّ والعقائد كانت تكتظُّ بمناظرات أدبية ، اشتهر منها خاصة مناظرات جرير والفرزدق .

الباهل وجندل بن الراعي الهنزي وغيرهم . انظر الديوان ص ٢٤ ، ٤٥ .

(١) حاول ذلك مع جرير عشرات من الشعراء ، انظر الأغانى ٨/٨ - ١٣ وما بعدها . فمن حاول ذلك أيضاً مع الفرزدق الطرماح والأصم

وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن الفرزدق وجريراً كانا يحضران مجالس العلماء ومناقشاتهم ومحاوراتهم . وعلى ضوء هذه المناقشات والمحاورات وفي ظلّها ألّفنا نقائضها في المفاضلة بين عشيرتهما من جهة وبين تميم وقيس من جهة ثانية . وكما يحاول صاحب التّحفة من النّحل أن يستدلّ على نِحْلَتِهِ وأن يفنّد أدلّة خصمه كانا يستدلّان على نخلتهما العصبية في عشيرتهما ، وفي تميم وقيس ، وكانا يترفّدان شعرهما أو نقائضهما بكل ما يمكن من حُجَج وبراهين ، يؤيدان بها وجهة نظرهما ، وفي الوقت نفسه كانا يأتیان بكل ما يمكن من أدلّة وبراهين لتحطيم أجداد تميم وقيس ، كل حسب ما يزعم فيمن أخذ صفوفهم ، ووقف معهم <sup>(١)</sup> . ولا شك في أن ذلك كان يستهوي الجماهير ، فكانت تذهب إلى المبريد ، ترى ما أحدث كل من الشاعرين . وعلى عادة الجماهير يكثر المهرج أو يكثر التصفيق والتصفيق ، ويتجمعون حول أحد الشاعرين تارة ، وينفضون عنه إلى خصمه يستمعون إليه تارة ثانية .

وعلى هذه الشاكلة كانت نقائض جرير والفرزدق تأخذ شكل مناظرات أدبية كبيرة . وهذه الكلمة كلمة مناظرات تجعلنا ننسجّ النقائض في تاريخ الأدب العربي وضعاً جديداً ، فنحن نزعم أنها حديثة العهد بالإسلام وبالبصرة في هذا العصر الأموي خاصة . فقد وُجدت فيها لأول مرة ، ورشّح لها عاملان : عامل اجتماعي هو هذا العطش والفراغ الذي حدث في تاريخ القبائل العربية ثم ما اتصل بذلك من إحياء العصبية وتورط القبائل في أحزاب سياسية ، وعامل عقلي هو هذه المحاورات والمناقشات التي كانت تلور بكل مكان في البصرة ، في المساجد ، وفي المجالس ، وفي الطرقات والأسواق .

وهذا العامل الثاني هو الذي لَقِّن جريراً والفرزدق القدرة على الحوار والجِدَل ، ومكَّن في شعرهما لفكرة التحليل والتسبب ووضع المقدمات وتلوين الحجاء بالإن عقلية حديثة . ومن هنا تأتي فكرة أن النقائض الأموية جديدة ، فهي

يعني بها فيروها ، ثم يشرحها هذا الشرح الكبير ، فقد وجد فيها غير مادة تحطيم له ولأشاله من الشعوبيين الأجداد العربية .

(١) لعل في هذا ما يلفتنا إلى أن نقائض جرير والفرزدق جمعت بين أدبيها مثالب تميم خاصة ، ثم مثالب قيس وغير قيس من العرب ، وأكبر الظن أن هذا ما جعل أبا عبيدة الشنوي

تُقالُ في جو عقلٍ جديد ، وتُصاغ في جو اجتماعي جديد ، صياغة المناظرة لا صياغة الهجاء العادي القديم ، فالشاعر لا ينظم معاني بدويّة بسيطة ، بل ينظم معاني تتلائم مع التطور العقلي الحديث ، الذي أصابه الذهن العربي ، والذي طوره من بعض جوانبه . ومن هنا يأتي نكوص الشعراء الذين حاولوا أن يدخلوا مع الشعراء الكبار في هذه المناظرات ، لأنهم ظلوا محتفظين بيداوتهم وتقاليدهم القديمة ، ولم يستطيعوا أن يُجاروا روح العصر ، بل عجزوا عجزاً تاماً ، لأن عقولهم لم تكن مهياًة لهذه المجارة ، ولم تكن قد ثقيفت في بيئات العلماء طرق الجدال والحوار على نحو ما تقف ذلك جرير والفرزدق .

ليست النقائص إذن أهجى بالمعنى القديم الذي كان يفهمه العرب في الجاهلية للهجاء ، وإنما هي مناظرات أدبية أوجدتها ظروف عقلية وأخرى اجتماعية لعصر بني أمية . ولعل من الطريف أنها اقترنت عند جرير والفرزدق بمسألة شكلية نلاحظها في مناظراتنا الحديثة ، فنحن إذا تساؤلنا أين كان يقف جرير في مناظراته مع الفرزدق كان الجواب الطبيعي أنه يقف في صفوف قومه تميم ، فإن أبي تميم كان عليه أن لا يقف في صفوف خصومها . ولكن الذي حدث فعلاً أن جريراً لم يقف دائماً في صفوف تميم ولا في صفوف أنصارها ممن كانت تعادهم في الجاهلية والإسلام مثل كلب ، وإنما وقف في الصفوف المقابلة مع خصومها وأعدائها : صفوف قيس وفروعها وخصونها . وطبعاً كان ينصر قومه كليباً أمام قوم الفرزدق مجاشع ، غير أنه كان يدافع أيضاً عن قيس ضد دفاع الفرزدق عن تميم ، بالضبط كما يقف المناظر في عصرنا الحديث ليدافع عن وجهة نظر مُعيّنة في موضوع من الموضوعات ، وليس من الضروري أن يكون مؤمناً بها ، بل قد يكون من خصومها ، ويأتي به من أعداء المناظرة للإغراب على الناس وجمهور النظار .

وعلى هذا النمط جعلت قيس جريراً لينود عنها أمام الفرزدق وتميم ، فتحت بذلك صورة بعض مناظراتنا الحديثة حين يدخل شخص في مناظرة وهو غير مقتنع بفكرة من الأفكار ، فيوضع للدفاع عنها ، وبذلك تصبح المسألة لُعبة عقلية لا أقل ولا أكثر ، يُرادُ بها إلى تسليّة السامعين والمِران على الجدل

والحوار في المسائل أيًا كان الوضع ، وأيًا كانت الغاية ..  
 السنا إذن في نقائص جرير والفرزدق يلزاه مناظرات أدبية حقيقية ؟ فهذا  
 جرير يقف في المربد ليدافع عن قبس ، وما عهدنا في الجاهلية ولا في الإسلام  
 شخصاً يتنازل هذا التنازل عن قبيلته ، ويلحق بقبيلة أخرى ، يتعصب لها ،  
 ويتشيع لأهلها وأبنائها ، على نحو ما بتشيع ويتعصب جرير لقبس أعداء تميم  
 في الجاهلية والإسلام .

ولو أن الإسلام استطاع أن ينسي العرب عصبيتهم وأن يَمْحُوها محواً  
 لاستطعنا أن نفهم موقف جرير ، غير أننا نعرف أن الإسلام لم يستطع أن يَمْحُو  
 العصبية إلا إلى مدة محدودة ، فقد حملت نيرانها قليلاً ، ثم عادت إلى الاشتعال  
 منذ فتنة عثمان ، وظلّت تتأجج طوال عصر بني أمية ، حتى في أقصى الشرق ، في  
 خراسان ، وفي أقصى الغرب ، في الأندلس . ومعنى ذلك أن العرب لم يستطيعوا  
 أن يتخلصوا من عصبيتهم يوماً ، فإذا جاء جرير التميمي يتعصب لخصوم قومه  
 من قبس لم نستطع أن نحلّ هذه المشكلة إلاّ على أن المسألة كانت مسألة  
 مناظرات أدبية اجتماعية ، أو مسألة لعبة يتفرّج عليها الجمهور في البصرة .  
 قد يقال إن المسألة مسألة تورط ، إذ اتصل جرير بولاة الزبيريين في العراق ،  
 ووصله ذلك بأنصار ابن الزبير وعلى رأسهم قبس ، واستمر هذا الاتصال وخاصة  
 في عهد الحجاج . وأيضاً فإن قبساً كانت تكافئه على موقفه منها ، وكانت تصبّ  
 في حجره بعض أموالها ، على ما أشرنا إليه فيما مرّ من كلامنا .

ونحن لا ننكر السبب السياسي في نشأة النقائص بين الشاعرين ولا السبب  
 المادي في استمرارها ، ولكننا مع ذلك نزعم أن المسألة تحولّت في نفسية جرير إلى  
 صورة من صور المناظرة ، بل لقد تحولّت هذا التحول في نفوس الناس عامة ،  
 حتى نفوس الخلفاء المروانيين أنفسهم ، الذين كانوا يخاضعون قبساً ، أو على  
 الأقل كانت كثرتهم تخاضعون قبساً ، كما كانت تخاضعها تميم ، فإن هؤلاء  
 الخلفاء كانوا يستمعون إلى جرير شاعر قبس ، ولم تكن تضيرهم فيه هذه القيسية .  
 فخلفاء بني أمية لم ينظروا إلى النقائص بين جرير والفرزدق أو بينه وبين الأخطل  
 نظرة جادة ، فقد فهموها على حقيقتها وأنها لعبة القبائل الجديدة في العراق وفي

البصرة خاصة ، تُمنّى فيها أوقات فراغها ، وتكثُر بعض اللّهو بها . ومن هنا لم يجدوا حرجاً في أن يضمّن جرير والفرزدق والأخطل مديحهم شيئاً من هذه المناظرات لغرض التسلية والترفيه ، وأن يطّلعوا وهم في قصورهم على جوانب من هذه المناظرات ، التي سارت بها الركبان ، وعمّت في كل مكان ، وأصبحت خليّة العرب ومجامعهم ، وطُرفة مجالسهم ومخالفهم .

وعلى هذه الشاكلة لم تعد المسألة مسألة أهاجٍ فحسب ، بل أصبحت مسألة مناظرات ومحاورات ، ومناقشات ومجادلات ، وكانت تُصاحِبها السياسة حيناً ، كما صاحبت نقائض جرير في أصل نشأتها ، وتنفصل عنها حيناً ، كما انفصلت عنها في أثناء ولاية غير القيسيين على العراق ، ومع ذلك تستمر . فجرير يناظر عن قيس في أثناء حكم الزبيريين وأثناء ولاية الحجاج القيسي وعمر بن هبيرة الفزاري على العراق ، وينظر عنها أيضاً بعد إدار الأمر عن الزبيريين ، وكذلك في أثناء ولاية غير القيسيين على العراق من مثل يزيد بن المهلب الأزدي وخالد القسري . وهذا كله معناه أن نقائض جرير والفرزدق كانت مناظرات اجتماعية بكل ما يمكن أن تتحمّل هذه الكلمة من معنى ، وكذلك كانت عند معاصريهما ومن كانوا يختلفون إليهما . وعلى نحو ما نصنع نحن الآن في مناظراتنا حين يقف شخص يدافع عن وجهة نظري معينة ، ثم يردّ عليه صاحبه أو مناظره ، وفي أثناء ذلك يُنصت الجمهور ، ويستمع ، ثم يقوم من بينه من يتنصّر لهذا المناظر أو ذاك ، كذلك كان الشأن في مناظرات جرير والفرزدق أو في نقائضهما . وكان أكثر المتصرّين يقفون في صف الفرزدق ، لأنه كان فعلاً متفوقاً في أسرته ومكانته الاجتماعية . ومن وقف في صفه سُرّاقة البارق ، وفيه وفي جرير يقول (١) :

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ بَرَزَتْ أَعْرَاقُهُ عَقَوْنَا وَغَوْدِرَ فِي الْغُبَارِ جَرِيرُ

ومن وقف في صفه أيضاً الرَّاعِي الشاعر النُمَيْرِي القَيْسِي ، وهيات لذلك صلته ببشر بن مروان ، كما أسلفنا ، فقال (٢) :

أَصَاحِبِي دَنَا الرُّوَّاحُ فَسِيرًا غَلَبَ الْفَرَزْدَقُ فِي الْمَجَامِ جَرِيرًا

وثار جرير على الراعي ، وغازله أنه ينضم إلى الفرزدق ، مع أنه يحيف في الميربند مدافعاً عن قومه مادحاً لهم أمام مناظرات الفرزدق ونقائضه ، فقال فيه وفي الفرزدق بائته المشهورة ، وكان يُسميها الدماعة والمنصورة<sup>(١)</sup> ، وفيها يقول للراعي بيته المأثور :

فغض الطرف إنك من نمير  
فلا كعباً بكتفت ولا كلاباً

والذين قصوا للفرزدق على جرير كثيرون ، منهم المزار بن منقذ ، وثور بن الأشهب بن ربيعة النهشلي ، والد لهنس وهبيرة بن الصلت التميميان ، والطهوي<sup>(٢)</sup> ثم الصلتان العبدي ، وقد فضل الفرزدق في المجد ، وفضل جريراً في الشعر<sup>(٣)</sup> ، ولعله الوحيد الذي رأى أن يرضى الطرفين .

وعلى هذا النحو كلما أمتعنا في درس النقائض واتصلنا بجموها وظروفها وجدناها تتطابق تماماً مع صور المناظرات الأدبية التي نعرفها ، فإذا قلنا بعد ذلك كله إنها كانت مناظرات اجتماعية ولم تكن أهاجى بالمعنى القديم ، وأنها مناظرات لا عهد للعرب بها لم تكن مغالين ولا مبغدين في شيء .

وإذا رجعنا لتحليل عناصر هذه المناظرات بين جرير والفرزدق وجدناها تنحصر إلى نفس العناصر التي تحدثنا عنها سابقاً عند جرير والأخطل في نقائضهما . فكل نقيضة لأحد الشاعرين نراها تنحصر إلى مفاخر الجماعة التي يتحدث باسمها ومثالب خصومها ، فالفرزدق مثلاً حين ينظم نقيضته يعرض لمفاخر تميم ، ثم يصب على قيس ، كما يصب على كليلة قوم جرير ، هجاءه ، وكأنه أسواط عذآب . وقد يعرض في أثناء ذلك لمفاخر تغلب يريد أن يؤيد خصم جرير الثاني ومناظره : الأخطل فيما يذهب إليه . وفي الصف المقابل نجد جريراً حين ينظم نقيضته يعرض لمفاخر قيس ، وقومه من يربوع خاصة ، كأنه يريد أن يخبر جهم من تميم ، ثم يتحول إلى قوم الفرزدق ، وخاصة بجاشعاً ودارماً ، فيرميهم بكل ما يستطيع من سهام الهجاء ، كما يرمى تغلب وصاحبها

(٢) الشعر والشعراء ص ١٢ وانظر ابن سلام

ص ٩٥ .

(١) النقائض ص ٤٣٠ .

(٢) انظر الأغاني ٢٣/٨ وما بعدها .

الأخطل بكل ما يستطيع من حجارة القَدَف .

وفي أثناء ذلك كله يسوق الطرفان المتناظران كل ما كان لتميم وقيس وتغليب من أيام في الجاهلية والإسلام ، وبذلك تُصبح نقائضهما ، كما أصبحت نقائض جرير والأخطل ، وثائق مهمة في تاريخ القبائل العربية ، فليس هناك من حرب وقعت في الجاهلية بين هذه القبائل أو بين فروعها وغصونها ، وكذلك ليس هناك من حرب وقعت بينها في الإسلام إلا ويسلُكُها الشاعران في نقائضهما . ومن هنا كان شرح هذه النقائض لأبي عبيدة جامعها وشارحها ليس أكثر من عَرَضٍ واسع لأيام العرب ووقائعهم في الجاهلية والإسلام وكل ما اتصل بهذه الأيام والوقائع من حوادث وأشعار .

وإذن فنقائض جرير والفرزدق تعتمد على عنصر مهم ، وهو عنصر تاريخي يقوم على الثقافة بتاريخ القبائل القديم ، كما يقوم على الثقافة بتاريخها الحديث . وهذا العنصر في النقائض قد يكون غريباً على أذواقنا الآن ، ولكن من غير شك له طرافته ، لأنه يضع تحت أعين الباحثين مادة كبيرة لتاريخ القبائل العربية .

وإذا كانت أذواقنا تنفّر من هذا القسم الآن ، فما لا ريب فيه أن جمهور المتفرجين في المربد كان يُعجب به ويتجدد فيه متعة واسعة ، لأنه يعرض التاريخ القديم ، ويُجسّمه للناس شعراً ، فكل ما لتميم وقيس وتغليب في الجاهلية من أيام ووقائع ومفاخر ومثالب يُسجّل ، تُسجّله هذه الآلة اللاقطة ، آلة المناظرات الأدبية الحديثة عند جرير والفرزدق .

ومادة هذا التاريخ القديم في النقيضة كان يقابلها مادة جديدة تتصل بالحياة الإسلامية الحديثة وما جدد من ظروف سياسية . فهذان الشاعران الكيران حين كانا يقفان للمناظرة في المربد كانا يفكران في أمر الجماعة الإسلامية وأمر بني أمية وصلة القبائل بهم . فكانت نقائضهما تتعرض للشئون السياسية التي عاصرتهما . ففلا إذا ثارت قيس على الخلافة تعرض لها الفرزدق يُندد بها ويشفي ، ويحاول أن يفسر بها وشاعرها الضربة القاضية على نحو ما نجد في نقيضته الميمية :

تَحِينُ \* بَزَوْرَاءِ الْمَدِينَةِ نَاقِي  
حَتَّينَ عَجُولٍ تَبْتَغِي الْبَوْرَاءِ

فقد ضَمَّنَ هذه النقيضة مديحاً لسليمان بن عبد الملك وهجاءً لقَيْسٍ واثارها في خراسان قتيبة بن مُسلم الباهلي ، وكان الذي قتله وكيع بن أبي سُود اليربُوعي التَّيْمِي ، فاستغلَّ الفرزدق ذلك ، وكب هذه النقيضة ، يُسَجِّلُ على قَيْسٍ مساوئها ضد بني أمية ، وفي الوقت نفسه يسجل انتصار تميم لهم كلما ثار ناثراً قَيْمِي .

ومعنى ذلك أن النقائض عند جرير والفرزدق كانت تستمدُّ من الحديث ، كما كانت تستمد من القديم ، وكانت تتأثر الظروف السياسية المختلفة في عصرهما . وليس هذا فحسب ، فإنها كانت تتأثر عناصر إسلامية خالصة ، ويتبين ذلك فيما يضمُّنها الشاعران من مديح وهجاء ، فالفرزدق مثلاً في نقيضته المبيِّنة هذه يقول لسليمان بن عبد الملك :

جُعِلَتْ لَاهِلِ الْأَرْضِ عَدُوًّا وَرَحْمَةً وَبُرءًا لَأَثَارِ الْجُرُوحِ الْكَوَالِمِ .

وفي كل مكان من هذه النقيضة نجد العنصر الإسلامي فهو في غزلها يخاف يوم التخاصم أى يوم القيامة ، وهو في هجائها يذكر طغيان الحجاج ويشبهه بفرعون حين بقى ، وطلب إلى هامان أن يبنى له صرحاً ، لعله يَطَّلِعُ إلى إله موسى ، كما يشبهه بأين نوح حين أعرض عن دعوة أبيه ، وقال : « سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَنْصِلُنِي مِنَ الْمَاءِ . . . فكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » وفي الوقت نفسه نراه يدعو قيساً حين ثارت مع صاحبها في خراسان مُشْرِكةً بربِّها ، يقول في ذلك :

وَلَمَّا رَأَيْنَا الْمُشْرِكِينَ يَقُودُهُمْ قُتَيْبَةُ رَحَفًا فِي جُمُوعِ الزَّمَاظِمِ  
ضَرَبْنَا بِسَيْفٍ فِي يَمِينِكَ كَمْ نَدْعُ بِهِ دُونَ بَابِ الصَّبْرِ عَيْنًا لظَالِمِ  
بِهِ ضَرَبَ اللَّهُ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا بِيَدْرِ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ وَالْمَعَاصِمِ

فهو يجعل قَيْبَةً مشركةً بربها كافرةً بأنعمه ، ويجعل جموعها كجموع الزمازم ، وهم المحضون الذين يجاهدون المسلمون ، وفي الوقت نفسه يجعل تميمياً وصاحبها وكيع بن أبي سُود يضربان في قتيبة وأنصاره بسيف الله ، الذي ضرب به الرسول والمسلمون يوم بدر .

ودائماً نجد هذه العناصر الدينية في نقائض الفرزدق، تارة يعدل إلى قَصَص من القرآن، وتارة يعدل إلى بعض صُوَرِهِ أو بعض أساليبه، كقوله في جرير<sup>(١)</sup>:

ضَرَبْتَ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتَ بِنَسْجِهَا وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ

يريد أن يثبت جرير في الوهن والذل كبيت العنكبوت الذي ورد في الذكر الحكيم، إذ يقول جل وعز: «وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت».

وفي مقابل ذلك كان جرير هو الآخر يستعين بالعناصر الإسلامية في مديحه وهجائه جميعاً، وقد مررنا في حديثنا عن حياته مدى ما كان يُصَوِّر به الخليفة الأموي من خصال إسلامية، كما مررنا في حديثنا عن نقائضه مع الأخطل كيف كان يهجو بمسيحيته. وفي كثير من نقائضه مع الفرزدق يهجو الأخطل وتغلب معه، ويَعْجَبُ من وقوفه مع تغلب المسيحية ضد قيس المسلمة، وفي ذلك يقول له<sup>(٢)</sup>:

فَخَرَّتْ بِقَيْسٍ وَافْتَخَرَتْ بِتَغْلِبٍ فَسَوْفَ تَرَى أَيَّ الْقَرِيقَيْنِ أَرْبَحُ  
فَأَمَّا النَّصَارَى الْعَابِدُونَ صَلِيهِمْ فَعَذَابُوا وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَأَفْلَحُوا

ويستعمل في هجاء الأخطل بمسيحيته. أما الفرزدق فكانت فيه ثغرة فسق واستهتار، وكان جرير دائماً يستغلها، ويدخل منها في هجائه له، من مثل قوله<sup>(٣)</sup>:

أَنْتَ حُلُودَ اللَّهِ مُدُّ أَنْتَ يَافِعٌ وَشَيْتَ فَمَا يَنْهَكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ<sup>(٤)</sup>  
تَتَّبِعُ فِي الْمَسَاخِيرِ كُلِّ مُرِيْبَةٍ وَأَسْتَبَ أَهْلَ الْمُحْصَنَاتِ الْكَرَّامِ

وفي كل مكان من نقائض جرير نجده يرمى الفرزدق من هذا الجانب، ويرى قومه معه، من مثل قوله فيه<sup>(٥)</sup>:

إِنَّ الْمَوَاجِينَ مِنْ بَنَاتِ مُجَاشِعٍ  
إِنَّ الْبَعِيثَ وَعَبْدُ<sup>(٦)</sup> آلِ مُقَاعِسٍ  
مَتَاوَى لِلصُّوَصِ وَمَلْعَبُ الْعُهَارِ  
لَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْأَخْبَارِ

(٤) اللهازم: أصول الحيين.

(٥) النقائض ص ٣٤٠.

(٦) يريد الفرزدق.

(١) النقائض ص ١٨٣.

(٢) النقائض ص ٥٠٦.

(٣) النقائض ص ٣٩٦.

وثبتتُ تشربُ عند كلِّ مُقَصِّصٍ (١) خَضِلِ الْأَنَامِلِ وَاكْفِ الْمَعْصَارِ  
لَا تَفْخَرَنَّ فَإِنَّ دِينَ مُجَاشِيعٍ دِينَ الْمَجُوسِ تَطُوفُ حَوْلَ دَوَّارٍ (٢)

فقد زعم أن الفرزدق وصاحبه البعيث لا يحفظان القرآن، ويقول الشُّرَّاح إنه يريد أنهما لا يُؤَفِّيَانِ بِالْعَهْدِ لقوله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » . غير أننا نرى أن جريراً يُطْلِقُ وَلَا يَتَّقِدُ، ويعم ولا يخصُّ ، فهو يريد أن الفرزدق وصاحبه لا يسيران على الصراط المستقيم ، وقد ذهب يُصَوِّرُ فِسْقَ الفرزدق وملازمته لبيوت الحمَّارين من أهل اللمة ، ولم يلبث أن ادَّعى على مجاشع كلها أن دينها دين المجوس .

وواضح أن الهجاء على هذا النحو كانت تدخل فيه الخصال الإسلامية الجديدة ، فالشعراء يعتدُّون في هجائهم بالمثل الأعلى الذي أراده الإسلام للمسلمين من طهارة وفضيلة وما يتصل بالفضيلة . ويضاف إلى ذلك النزعة الدينية الخاصة التي كان يُريدها الخلفاء في مدائحهم ، حين يُلِّمُ بهم جرير والفرزدق ومن على شاكلتهما .

ومن هنا كنا نقول إن النقيضة عند الشاعرين كانت تحوى عناصر قديمة من الأيام والأعاجاد الجاهلية وعناصر حديثة من الاتصال بالعصر والدين والسياسة . وكان على الشاعر الممتاز أن يوازن بين هذه العناصر كلها ، وأن يمثلها في نقيضته ، وأن يضيف كل ما يمكن من سخرية بقبيلة صاحبه حتى يسقط به سقطة لا يقوم من بعدها أبداً . وليس هذا فحسب ، فنحن نجد كلا من جرير والفرزدق يتعلَّقُ بأسلوب القرآن الكريم وقصصه ، ويستمدُّ منهما في نقيضته ، كما يتعلَّقان بالشعر القديم وما فيه من صُور ، ولأنهما ليعتدُّان في مدحيهما وهجائهما بالخصال القديمة من كرم ورموَّة وشجاعة ووفاء ، بجانب الخصال الإسلامية الجديدة ، فالقديم والجديد كانا يمتزجان بصورة مختلفة .

وهذا هو معنى ما نقوله من أن هذه المناظرات الأدبية التي نهض بها الفرزدق وجرير في النقائض كانت فَنًّا معقدًا لم يستطع الشعراء العاديون أن يُحَسِّنُوهُ لَأَن

(١) المَقْصَص : الذي الذي جرت ناصيته . (٢) دَوَّار : صَم .

من يُحسِنه يحتاج عقلية ممتازة قد ثقفت الطرق الحديثة في الحوار والجدل ، ولها من القدرة على مَرَج القديم والجديد ما يُؤهلها للقيام على هذا العمل الفنى .  
لم تعد قصيدة الهجاء إذن تَخُوضُ في معانى محدودة ، بل أصبحت تتناول معانى واسعة ، أو قل معانى معقدة ، فيها جاهل قديم ، وفيها إسلامى حديث ، وفيها هذا التلوين العقلى الذى لا بُدَّ للشاعر أن يكتسبه من بيئة العلماء الذين يتحاورون فى النحْلِ ومسائل القَدَرِ والإيمان .

وقد مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن الفرزدق وجريراً كانا يتَّصِلان مباشرة ببيئات الفقهاء وما فيها من مناقشة وحوار ، وأن الفرزدق كان يُدْخِل فى شعره بعض المسائل الفقهية ، وأن جريراً كان يتَّصِل بأصحاب الحَيْكَل فى الفقه ومَثَلْنَا من شعرهما على هذا الاتصال .

وليس هذا فحسب ، فقد اتصل الشعاران بمناقشات القَدَر ، فكانا يَنْزِعَان نَزْعَةً جَبَرِيَّةً ، وقد أشرنا إلى هذا فى غير موضع . فإذا قلنا إن عقليتهما فى هجائهما كانت عقلية جديدة مَرَكَّتْ على الحوار والحيلة فى الحوار لم نكن مغالين ، بل كنا مُطابقين للواقع .

وهذا مَعْنَى ما نزعهم من أن نقاض جريراً والفرزدق تُمَثِّل عقلية جديدة ، وتُعبِّر عن تطوُّر جديد فى الفكر العربى ، وما دَعَمَهُ من طرق استدلال وبرهنة فى المسائل والمشاكل . ومن هنا كانت هذه النقائض تستقل عن الهجاء القديم ، إذ أصبحت فنّاً معقداً ، وهو تعقيد يقوم على المزج بين عناصر قديمة وأخرى جديدة ، كما يقوم على طُرُق الاستدلال الحديث ، التى كان يستمع إليها جريراً والفرزدق فى بيئات الفقهاء والعلماء فى أثناء محاوراتهم ومناظراتهم .

والحق أن جريراً والفرزدق طَوَّرَا الهجاء القديم تطَوُّراً هائلاً ، فقد أخرجاه من معانيه البدوية البسيطة إلى هذه المناظرات الواسعة فى حقيقة عثريتهما وحقيقة قَيْسٍ وتَمِيمٍ . وفى أثناء ذلك كانا يتناظران فى قَيْسٍ وتَمِيمٍ . وبذلك تتسع مناظراتهما فتشمل كل ما كان يَخُوض فيه جريير مع الأخطل وكل ما كانا يعرضان له ، ثم تنفرد بما كان بين كليب ومجاشع ، وقيس وتميم . وأيضاً فإن مُقام الفرزدق مع جريير فى البصرة جعل المناظرات بينهما تأخذ صورتها الكاملة ، فبينما كانت نقبضة

الأختل يحملها الرواة في أغلب الأحيان إلى جرير ليرد عليها ، وكان ذلك يأخذ مسافة من الزمن ، تطول وتقصّر ، كان الفرزدق يقف في ناحية من الميربد ، وحوله أنصاره ، فيُنشئ النقيضة أو يلقيها ، فيحملها الرواة إلى الحلقة الثانية المقابلة ، التي يقف فيها جرير مع أصحابه .

ومن هنا كانت نقائض جرير والفرزدق مناظرات بالمعنى الكامل . وكان يحدث أن يذهب أحدهما إلى حلقة الآخر فيلقى النقيضة التي أنشأها ، ولا ينتظر حتى ينقلها الرواة عنه . يدل على ذلك ما رواه صاحب الأغاني بصدد النقيضة التي نظمها جرير في هجاء الفرزدق والراعي النميري ، إذ قال : « لما أصبح جرير ، وعرف أن الناس قد جلسوا في مجالسهم بالميربد ، وكان يُعرف مجلسه ويجلس الفرزدق ، دعا بدهن فادهن وكف<sup>(١)</sup> رأسه ، وكان حسن الشعر ، ثم قال : يا غلام أسرج لي ، فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلس الفرزدق ومعه الراعي ، حتى إذا كان بموضع السلام قال : يا غلام قل للراعي : أبعتك نسوتك تكتسبهن المال بالعراق ؟ أما والذي نفس جرير بيده لترجعن إليهن يمين<sup>(٢)</sup> يروهن ولا يبرهن ، ثم اندفع فيها فأنشدها ، فنكس الفرزدق والراعي ، وأرم<sup>(٣)</sup> القوم ، حتى إذا فرغ منها سار إلى مجلسه<sup>(٤)</sup> . وفي هذا الخبر ما يدل على أن الشاعر كان يشترى بأجمل ثيابه وأعطرها ، كي يذهب إلى الميربد للمشاركة في هذه المناظرات .

ويروى الرواة أخباراً أخرى تتصل بهذه النقيضة ، تدل على الطريقة التي كانت تنتقل بها هذه المناظرات ، فهم يصفون أن جريراً حين حاول صنع هذه النقيضة قال لراويته المسمى حسينا : زد في دهن سراجك الليلة ، وأعد دواً<sup>(٥)</sup> . فما زال جرير يصوغ البيت والحسين يكتب ، حتى انتهى من النقيضة<sup>(٥)</sup> .

وفي هذا ما يدل على دلالة واضحة على أن النقيضة لم تكن تُنقل عن طريق الرواية

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .

(٤) أغاني ٣٠/٨ .

(٥) النقائض ص ٤٣٠ وأغاني ٢٢/٨ .

(٢) المير : الطعام .

(٣) أرم القوم : سكتوا .

الشفوية ، بل كانت تُنْقَلُ عن طريق الكتابة . وفي ابن سلام أن جريراً لما فرغ من هذه النقيضة ، وأصبح بالميربند قال : يا بَنِي تَمِيم قَبِدُوا قَبِدُوا ، أَيْ اكْتُبُوا<sup>(١)</sup> . وفي الشعر والشعراء أن «أبا عمرو بن العلاء كان في حكمة جرير ، وهو يُعَلِّي نقيضته في الأخطل :

وَدَّعْ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ      إِنَّ الْوَدَاعَ لِمَنْ تُحِبُّ قَلِيلُ<sup>(٢)</sup>

فالرواة والناس كانوا يتجلسون حول جرير في الميربند ، فيستمعون إلى ما يُنْشِدُ ، بل إلى ما يُعَلِّي ، إذ كانوا لا يكتفون بالسماع ، بل كانوا يُضَيِّفُونَ إليه الكتابة .

ولا ريب في أن الفرزدق كان يتخذ نفس الطريقة ، فهو يتوقف في الحلقة الأخرى يُعَلِّي مناظرته على الرواة والناس ، وهم يكتبون . وفي الأغاني أنه تورع خالد بن كلثوم الكلبي - وكان قد دون من شعره وشعر جرير - أنه سيجوه إن لم يكتب نقائضه<sup>(٣)</sup> . وهذه كلها أخبار ونصوص تشهد بأن النقيضة كانت تُكْتَبُ حين إنشاد الشاعر لها ، وأكبر الظن أنه كان يُنْشِدُها من صحيفة مكتوبة أو صُحُف . وبعد فراغه من إملائها وكتابتها الرواة لها كانوا يأخذونها إلى خصمه ، فيتناولها منهم ، ويتأمل فيها ، ثم يحاول الرد عليها .

وربما كان في هذا الصنيع ما يفسر لنا هذه الظاهرة المُطَرِّدة في النقائض ، فإن كل من يطلع عليها يلاحظ في وضوح ضَعْفَ الشاعر الثاني الذي يُطْلَبُ إليه الرد على زميله ، فإنه لم يكن يأخذ من الوقت ما يأخذه في صنع نقيضته إذا كان هو البادي أولاً ، فالرواة والناس من حوله يتعجلونه ويستحثونه أن يرد في أقرب فرصة ، فيمسك بالنقيضة ويقرؤها ، ثم يحاول أن يرد عليها دون ريب ، حتى يثبت مهارته وتفوقه .

وليس لدينا أخبار كثيرة تدل على ذلك ، ولكن صاحب الأغاني احتفظ بخبر بالغ الدلالة ، فقد روى أن سرافة البارقبي فضل الفرزدق على جرير في قصيدة

(٣) أغاني ١١/١٩ وما بعدها . .

(١) ابن سلام ص ١٠٤ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٨٦ .

طويلة ، فأخذها بشر بن مروان وهو وال على العراق ، فأرسلها إلى جرير ليردّ عليها ، قال أبو عبيدة : حدّثني أيوب بن كُثيب عن أبيه ، قال : « كنت مع جرير ، فأناه رسولُ بشر بن مروان فدفع إليه كتابه ، وقال له : إنه قد أمرني أن أوصّله إليك ، ولا أبرح ، حتى تُجيب عن الشعر ، في يومك إن لقيتك نهراً ، أو ليلتك إن لقيتك ليلاً . وأخرج إليه كتابَ بشر ، وقد نسخ له القصيدة ، وأمره بأن يُجيب عنها . ويَمْضِي الخبر ، فيذكر أن جريراً تناول القصيدة من رسول بشر ، ومكث ليلته يحاول أن يرد عليها ، وما زال يُجهد نفسه ، ويجهد ، حتى نظم قصيدة في هجاء سُراقَة يقول فيها لبشر :

يا بشرُ حقّ لوجهك التَّبشِيرُ هَلَّا قُضيتَ لنا وأنتَ أميرُ

ولما فرغ منها أخذها الرسولُ ، ومضى بها إلى بشر ، فقرئت بالعراق ، وأشحيم سُرّاقَة ، فلم يَنْطِقْ بعدها بشيء من مُناقضته<sup>(١)</sup> . ولا نشك في أن هذا نفسه ما كان يحدث بين جرير والفرزدق ، فأحدهما إذا صنّع نقيضةً ، وأنشدها الناس ، أو قل أملاها الناس في المِرْبَد ، كتبتَها الرواة ، ثم ذهبوا بها إلى الشاعر الثاني ، فدفعوها إليه ، كي يردّ عليها ويتنقّضها ، وأحياناً كان الشاعر يَمُرُّ على خصمه في مجلسه ، فلا يكلفه مَسْئَلَة الانتظار ، بل يُملي نقيضه عليه وعلى من حوله ، ويَمْضِي إلى مجلسه ، ينتظر الردّ على نحو ما صنّع جرير في نقيضته ، التي أنشأها ضد الفرزدق والراعي .

ومعنى ذلك كله أن نقائض جرير والفرزدق كانت مناظرات مكتوبة ، ويؤكد ذلك الطريقة التي كانت تتبّع في صياغتها وفي طريقة نظمها ، إذ نرى الشاعر يردّ على معاني النقيضة الأولى معنًى معنًى ، ولا يتأتى ذلك من الوجهة العملية إلا إذا وُضِعَت النقيضة الأولى تحت بَصَرِهِ ، ونظر في أفكارها فكرةً فكرةً . ولعل هذا يحلّ إشكال اتفاق الأسلوب أحياناً ، فبعض الأبيات يكاد يكرّر مع اختلاف بسيط ، ويظهر هذا خاصة في الأبيات الجيدة التي يقولها الشاعر الأولى ، فثلاً في نقيضة الفرزدق التي استعملها بقوله<sup>(٢)</sup> :

إِنَّ الَّذِي سَمَّكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا      بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ  
بَيْتًا بَنَاهُ لَنَا الْمَلِكُ وَمَا بَنَى      حَكَمُ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُنْقَلُ

نجد جريراً حين يحاول الرد عليها يتأثر بهذين البيتين تأثراً يبلغ حدَّ السَّيْطَرَةِ عليه ، فيُضْطَرُّ أن يردَّ عليهما بصياغة ، تنفق مع صياغتهما ، فيقول <sup>(١)</sup> :

إِنَّ الَّذِي سَمَّكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا      عِزًّا عَلاكَ فَا لَهُ مِنْ مَنَقَلٍ

ويتكرَّر هذا كثيرًا في النقاظ . وفي رأينا أنه يدلُّ دلالة قاطعة على أن النقيضة الأولى كانت توضعُ أَلَمُ الشاعر في صُحُفٍ مكتوبة ، وكان يرد عليها ، ويتضطرُّ لزاء بعض الأبيات ، فلا يستطيع نقضها إلا باجتهادٍ بنفسه أسلوبها وصياغتها .

على كل حال تدلُّ صورةُ النقاظ بين جرير والفرزدق وأخبارها على أنها كانت تُكْتَسَبُ ، وأن الشاعر كان يَنْظُرُ فيها ، ثم يردُّ على خصمه أو زميله . وهذا هو الذي أعطى جريراً والفرزدق الفرصة كي يُحَسِّنَا فَنَسْهُمَا ، ويَنْهَضَا بِهِ لَأَنَّ الشعر حين يُكْتَسَبُ يكون شيئاً آخر من حيث التجويد الفني يختلف عن هذا الشعر الذي يَحْتَمِدُ على الإنشاد والرواية الشفوية فحسب ، فالشاعر يأخذ في قراءة النقيضة مُتَأَنِّباً مُتَنَبِّئاً ثم يردُّ على خصمه ، وقد أَلَمَ بجميع المعاني التي طرقها . وهو يعود إلى استعراضها والردُّ عليها معنى معنى وفكرة فكرة .

وعلى هذا النحو كانت النقيضة في هذا العصر تُكْتَسَبُ كتابة ، وكان يُقَصَّدُ بها إلى المناظرة واستخراج إعجاب الناس في المِرْبَد ، وكان الشاعر ما يزال يلازم فيها بين تَرَاثٍ قديم من أيام القبائل ومفاخرها ، وبين تَرَاثٍ جديد يُدْخِلُهُ من الإسلام والحياة الدينية ، وما اشتبك معها من الحياة العقلية تارة ، ومن السياسة الحديثة وظروف القبائل الاجتماعية في هذا العصر تارة أخرى .

فالنقيضة عند جرير والفرزدق تطورت تطوراً واسعاً من جميع النواحي ، فهي مناظرة تكتب من جهة ، وهي عَمَلٌ أدبيٌّ يَسْتَفْرِقُ جُهْداً معقداً من

جهة أخرى . وقد أخذت على هذا الأساس تتسع فصولها وتتسع موضوعاتها وتضطرب في الشئون العقلية والدينية والسياسية التي صادفت الأمة العربية حيثئذ .  
وليس هذا كل ما يلاحظ عليها ، فهناك ناحية لم نتحدث عنها حتى الآن ، وذلك أن جريراً والفرزدق حين نهضاً بهذا العمل استعانا فيه بكل ما يمكن من توليد للمعاني وتركيب فيها . أما من حيث التركيب ، فقد أدخلها عليها معاني جديدة اجتلباها من الإسلام ومن المسائل العقلية التي اضطرع فيها العلماء والناس ، وأما من حيث التوليد فإن المعنى الذي كان يدور في نقائضهما كانا يعبرضانه في صور مختلفة .

أما ما يزعمه النقاد من أن جريراً يُكرّر أربعة معانٍ في هجائه لا يكاد يعلموها ، وهي قَتْلُ مُجَنِّحِ الرُّبَيْعِ حَوَارِيَّ الرُّسُولِ ، وَأَنَّ الْفَرَزْدَقَ قَبِيْنُ ابْنِ قَبِيْنٍ ، وَمَا يَرْمِيهِ فِي أُخْتِهِ جَعِيْنٍ ، وَمَا كَانَ مِنْ نُبُوِّ السَّيْفِ فِي يَدِهِ حِينَ ضَرَبَ الرُّومِيَّ ، فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ . وقد ردّ عليهم ابنُ الأثير في المثل السائر ردّاً مُفْهِمًا<sup>(١)</sup> ، إذ أتى بهجاء كثير لجرير يُثَبِّتُ به أنه نَوْعٌ في معاني هجائه ، وأنه لم يَقِفْ عند هذه المعاني الأربعة التي يَعُدُّونها . ولم يكتفِ ابنُ الأثير بذلك ، بل ذهب يَسْتَعْرِضُ معنى واحداً من المعاني الأربعة التي ذكروها ، وهو أن الفرزدق قَبِيْنُ ابْنِ قَبِيْنٍ ، إذ كان لجدّه صَعَصَعَةٌ قِيُونٌ كثيرة في الجاهلية ، فاستغلَّ ذلك جرير في سبِّه وهجائه به .

ويلاحظ ابنُ الأثير أن هذا المعنى الواحد يُؤلِّدُه جرير على صور مختلفة ، فتارة يقول له إن أباك شُفِلَ عن المكارم بصناعة القيون على نحو ما نرى في مثل قوله :

أَلْهَمَى أَبَاكَ عَنِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا لِي الْكَشَائِفِ وَارْتِفَاعِ الْمِرْجَلِ<sup>(٢)</sup>

وتارة ثانية يقول له إن المِرْجَلَ والقِدْرَ المَحْطَمَيْنِ يَبْكِيَانِ أَبَاهُ فهو لا يَبْكِيهِ النَّاسُ وَلَا يَسْكِيهِ الْمَسْجِدُ ، وإنما تبكيه أدوات صناعته كما نرى في قوله :

(١) المثل السائر لابن الأثير (طبع بولاق)  
ص ٤٩٠ وما بعدها .  
والمرجل : القدر .

(٢) الكشاف : جمع كيفة ، وهي النبة

يَبْكِي صَدَّاهُ إِذَا تَصَدَّعَ مِرْجَلُهُ<sup>(١)</sup> أَوْ إِنْ تَشَلَّمَ بُرْمَةً أَعْشَارُهُ<sup>(٢)</sup>

وتارة ثالثة يقول له : إِنْ أَبَاكَ أَوْرَثَكَ آلَةُ الْقَبِيونِ أَوْ آلَةُ الْحَدَادَةِ ، أَمَا أَبِي فَأَوْرَثَنِي آلَةُ الشُّجَاعَةِ أَوْ رِبَاطُ الْخَيْلِ عَلَى شَاكِلَةٍ مَا نَرَى فِي قَوْلِهِ :

إِذَا أَبَاؤُنَا وَأَبُوكَ عُسِدُوا<sup>(٣)</sup> أَبَانُ الْمُفْرَفَاتِ مِنَ الْعِرَابِ<sup>(٤)</sup>  
فَأَوْرَثَكَ الْعَلَاةَ<sup>(٥)</sup> وَأَوْرَثُونَا<sup>(٦)</sup> رِبَاطُ الْخَيْلِ أَفْنِيَةَ الْقِسَابِ

والحق أن من يستعرض النقائض يستطيع أن يجد في فكرة القين التي مَبَّ بها جرير صاحبه أفكاراً كثيرة عُرِضَتْ معارضةً مختلفة ، فمن ذلك قول جرير<sup>(٧)</sup> :

وَرَقَّعَ لِحْدَكَ أَكْبَارَهُ وَأَصْلَحَ مَتَاعَكَ لَا تُفْسِدِ  
وَأَدْنِ الْعَلَاةَ وَأَدْنِ الْقَدُومَ<sup>(٨)</sup> وَوَسَّعَ لَكَبْرِكَ فِي الْمُقْعَدِ

فهو ينصحه أَنْ يُصْلِحَ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ مِنْ تَرْكِهِ ، وَيُنَبِّهَهُ إِلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ الْعَلَاةُ وَالْقَدُومُ مِنْهُ ، أَمَّا الْكَبْرُ فَيَحْسِنُ أَنْ يَوْسِعَ لَهُ فِي مَكَانِهِ .  
وفي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ نَقَائِضِ جَرِيرٍ نَجِدُ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ الْمُدَّاعَةَ عَلَى الْفَرْدَقِ وَأَبَائِهِ تُعَرِّضُ فِي صُورٍ مُتَنَوِّعَةٍ ، فَتَارَةً يَذْكُرُ لَهُ أَنَّ أَدَوَاتِهَا دُفِنَتْ مَعَ أَبِيهِ فِي قَبْرِهِ ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ<sup>(٩)</sup> :

وَجِدَ الْكَتِيفُ ذَخِيرَةً فِي قَبْرِهِ وَالْكَتَبَتَانِ جُمِعَيْنِ وَالْمِيشَارُ

وتارة يذكر أَنَّ صِنَاعَتَهُ تُلَطِّخُ جَسَدَهُ بِرَوَائِحِهَا الْكَرِيهَةِ ، وَتَخْلُجُ عَلَى أَدِيمِهِ لَوْنَ السَّوَادِ ، وَلِذَلِكَ تَكْرَهُهُ حَتَّى رَأَاهُ ، وَتَسْتَفْرِ مِنْهُ ، كَمَا نَرَى فِي قَوْلِهِ<sup>(١٠)</sup> :

حَتَّى رَأَاهُ أَنْكَرَتِ الْقَبِيونَ وَرِيحَتَهُمْ<sup>(١١)</sup> وَالْحَرُّ يَمْنَعُ ضَبْمَهُ الْإِنْكَارُ<sup>(١٢)</sup>  
لَمَّا رَأَتْ صَدَأَ الْحَدِيدِ بِجِلْدِهِ فَالْوَنُ أَوْرَقُ<sup>(١٣)</sup> وَالْبَتَانُ قِصَارُ

(٣) العَلَاةُ : إِدَاةٌ يَحْلِبُ فِيهَا .

(٤) النَّقَائِضُ ص ٨٠١ .

(٥) النَّقَائِضُ ص ٨٥٢ وَالْديوان ص ٢٠٢ .

(٦) النَّقَائِضُ ص ٨٥٢ .

(٧) الْأَوْرُقُ هُنَا : الْأَسْوَدُ .

(١) الْبُرْمَةُ الْأَمْشَارُ : الْقَدْرُ الْهَظْلُ ، وَالصَّدَى

هُنَا : بَدَنُ الْمَيِّتِ .

(٢) الْمَفْرَفَاتُ : الْمَجَانُ ، وَهِيَ اللَّائِي يُولَدُن

مِنْ عَرَبِيَّةٍ وَغَيْرِ عَرَبِيٍّ أَوْ الْمَكْسُ . وَالْعِرَابُ :

الْأَصْلِيَّاتُ فِي الْعَرَبِيَّةِ .

ودائماً يلعب جرير بهذه الفكرة في النقائض وما يتصل بها من بيان أثر الحدادة وأدواتها في أنامل الفرزدق وميزان قتيبه ، وإنه ليدكر له دائماً الفأس والكبير والكثيفة والميشار والكتبتين ، ويعترف له بأنه يحسن صناعته وخاصة صناعة المساحي والأدام أو القبود ، يقول فيه (١) :

هو القين وابن القين لا قين مثله لِفَطَّحِ (٢) المساحي أول جندل الأدام

ويقف جرير كثيراً عند هذه الفكرة ، فإذا نبأ السيف في يده حين ضرب الروي تطرق له من ذلك يزعم أنه لا يحسن الضرب بالسيف ، إنما يحسن صناعة الفشوس على نحو ما نرى في قوله (٣) :

عنيف بهز السيف قين مجاشع رفين بأخترات الفشوس الكرازم (٤)

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن كيف أن جريراً كان يؤلّد في المعاني والصور . وإن من الممكن على هذا القياس أن يجمع شخص من النقائض كل ما جاء داخل فكرة كبيرة من أفكار الهجاء ، فتكون عنده دراسة طريقة لمقدرة جرير وصاحبه العقلية على التوليد في المعاني وتوسيع طاقتها ، ففي الظاهر يدور الشاعر حول فكرة عامة واحدة ، وفي الحقيقة يفرض في هذه الفكرة ، ويستخرج كل ما يمكن من أصداها ولآئها .

وهذا ونحوه إنما جاء جريراً وصاحبه من الرق العقلي الذي أحرزاه على ضربه ما كانا يسمعان من المتناظرين والمتكلمين في مسائل التشريع والإيمان والقدر ، وما رأياه عندهم من تشقيق الأفكار وتوليدها وسبب أغوارها ، فذهبا يطبقان ذلك على فنّ الهجاء ، فنقلاه هذه النقلة الكبيرة إلى مناظرات بديعة في قياس وتسيم وكلّيب ودارم وتغليب وما إلى تغليب ، وأخضعنا هذه المناظرات لكل الثروة العقلية التي لقيناها من العلماء في أثناء بحثهم ومحاوراتهم ومداوراتهم ، كما أخضعناها لكل الظروف السياسية والاجتماعية التي ألمّت بعصرهما .

(٤) أخترت : جمع غرت ، وهو الثقب في

أعلى الفأس يوضع فيه الحربة التي يملك منها ،

والكرازم : الفشوس ذات الرسوم النخسنة .

(١) النقائض ص ٧٦٦ .

(٢) الفطح : من فطح المود براه وعرضه .

(٣) النقائض ص ٤١٩ .

وقد أخذ كل منهما بحسب المعاني القديمة ، والمعاني الجديدة التي أحدثها ، ويحاول أن يستنفد كل مادتها وأن يستخرج منها كل ما يمكن من سخرية بصاحبه وبقييلته . ومن هنا تبيين صعوبة هذا العمل الفني وأنه لم يكن عملاً سهلاً ، بل كان عملاً صعباً معقداً غاية التعقيد ، وفيه هذا المزج بين العناصر القديمة والحديثة التي أكثرنا القول فيها ، وفيه هذا التوليد الواسع للمعاني والصور والأفكار . ولعل في كل هذا الذي قدمناه ما يوضح المنزلة الرفيعة التي كان يستزها الفرزدق وجريير في أذهان الناس خاصتهم وعامتهم لهذا العصر ، فقد كان الخلفاء والولاة يُجلّونهما ، وكذلك كان الناس من حولهما ، لهذا التفوق الفني الذي رأوه فيهما ، إذ نهضاً بفن الهجاء هذا النهوض ، واستطاعا أن يحققا له استقلالاً واكتمالاً لم يحققه شاعر من قبلهما ولا من بعدهما ، فركباً قصائده هذا التركيب الذي وصفناه ، واستخرجاً فيه كثيراً من الأفكار والمعاني ، فتنوعت صور الهجاء وطرائقه تنوعاً شديداً .

وكان كل من يحاول الوقوف معهما في هذا الميدان يسقط إلى الأبد ، ولم يثبت معهما فيه سوى الأخطل ، ولذلك كان بعدهم النقاد ثلاثاً الثلاثة الممتازين في العراق بل في العالم العربي كله ، حيثئذ .

وقد تمّ هذا العمل وأحكم عند جريير والفرزدق ، فإن الأخطل لم يعيش كثيراً ، وكان بعيداً عن العراق ، فكان لا يزور البصرة إلا لماماً . وهو عمل تمّ واكتمل في هذا الملعب الكبير ، ملعب الميربند ، وتجتأ أبصار النظارة ، الذين كانوا يؤمونه في هذا العصر .

## مقارنة

رأينا أن الإطار الذي وُضِعَتْ فيه نقائض جرير والفرزدق أكلٌ وأدق من الإطار الذي وُضِعَتْ فيه نقائض جرير والأخطل بحكم طول المسافة التي شغلتها النقائض الأولى ، ثم بحكم أنها أخذت بين الشاعرين شكل مناظرات تامة .  
ويظهر أن القلماء عرفوا ذلك ، وأحسُّوا به ، فعَنُّوا بنقائض جرير والفرزدق عنايةً تتفوق على العناية بأختها ، وينضج ذلك في الديوانين المنشورين للنقائض ، فديوان جرير والفرزدق أكثر انضباطاً من ديوان جرير والأخطل ، وقد اهتم أبو عبيدة به فشرحه شرحاً واسعاً ، عرَّض فيه بالتفصيل لأيام العرب ووقائعها في الجاهلية والإسلام .

ومع أن أبا عبيدة اهتم بهذا الديوان ، فنظرة فيه تدلُّ على أن عنايته به كانت محدودة ، إذ لم يُعْنِ بجمع النقائض جمعاً تاريخياً دقيقاً نستطيع أن نتبين فيه زمن النقيضة ، بل نقيضة متقدمة تسبق نقيضة متأخرة ، وأيضاً فإنه ، على ما يظهر ، لم يجمع كل النقائض بين الشاعرين ، وإلا فكيف نفهم أن هذه الكمية القليلة من نقائض جرير والفرزدق هي كل ما قالاه في نحو خمسة وأربعين عاماً .

ومن يَرُجِعُ إلى ديوان الشاعرين ، ويُقابل القصائد بعضها ببعض يستطيع أن يلاحظ أن هناك قصائد قِيلَتْ في المهجاء ، واختصَّت بزميله الذي يناقضه ، ولم تَرِدْ في نقائض أبي عبيدة ، مع أن مجرد استعراضها يدل على أنها نقيضة ، وقد يمكن أن نجد ردّها أو جوابها في ديوان صاحبه ، وقد لا نجده ، ومع ذلك لا يكفي عدم وجود رد لها عنده للحكم بأنها لم تكن نقيضة ، فمن الممكن أن يكون انصرف عن نقيضها ، ومن الممكن أن يكون قد نقَضَها ولم تصلنا نقيضته .

ونقائض جرير والفرزدق على عيوبها هذه أتمُّ وأكلٌ من نقائض جوير والأخطل ، والحقيقة أنها هي التي تعبّر عن هذه المناظرات تعبيراً أبين وأوضح .

بِحُكْمِ قُرْبِ الشَّاعِرِينَ بَعْضُهُمَا مِنْ بَعْضٍ ، بَلْ بِحُكْمِ جَوَاهِرِهَا وَتَقَاتُهَا بِأَنْصَارِهَا  
يَوْمِيًّا فِي الْمَرْبِدِ .

وليس هذا فحسب ، فنقائض جرير والفرزدق تتميز أيضاً بميزة مهمة ، هي  
أنها دارت بين شاعرَيْنِ مسلمين ، اختلطا بالحياة الدينية والعقلية ، التي حاولنا أن  
نرمم خُطوطها في الصفحات السابقة . وليس معنى ذلك أن الأخطل لم يتأثر  
بالحضارة الحديثة ، فقد كانت تحت بصره ، فتأثر بها ، ولكن في صورة تخالف  
الصورة التي تأثر بها جرير والفرزدق ، فلم يكن مثلهما يستمع إلى وعظاظ البصرة  
وعلمائها ومن يتحاورون هناك في النحل والمذاهب والمشاكل التشريعية والمسائل  
العقلية .

وأيضاً فإن العقل العربي كان دائم التطور في هذا العصر ، وقد تُوَفَّقِي الأخطل  
قبلهما بنحو عشرين سنة ، فلتحقا بعلمه زمناً ارتقى فيه عقل الأمة العربية ضرورياً  
من الرق ، وكان للملك أثره في عملهما وفي المواد التي كانا يؤلفانه منها . وكما نسا  
عقل الأمة نسا عقلهما ، وأخلت طاقتهما الفكرية تتسع على مر الزمن وتنهض  
بأشياء لم تكن تنهض بها العقلية العربية في القديم . ولله الألباب كلها كانت  
نقائض جرير والفرزدق وخاصة الأخيرة منها ، أكثر تنظيمًا ومهارة .

وإذا أخذنا نقارن بين جرير والأخطل في نقائضهما لنرى أيهما يتفوق على  
صاحبه وجدناهما يتهاجيان ، كما قلنا ، بعناصر قديمة من الأيام والأعجاء  
الجاهلية وعناصر جديدة يستمدانها من العصر والسياسة . والأخطل من هذه  
الناحية لا يتصل بالعناصر الإسلامية مباشرة ، ولكنها تتسرّب إليه ، فهو حين  
يمدح عبد الملك مثلاً لا يفكر في ملحه بالتصوي وقرأة القرآن الكريم على نحو ما  
يصنع جرير ، وهو لا يمدّ أطناب المسألة إلى نزعة أموية تقابل النزعة  
الشيعية على نحو ما صورنا ذلك عند جرير ، ومع هذا تتسرّب إليه بعض  
العناصر ، فيصف عبد الملك بأنه خليفة الله أو يصفه بأنه إمام المسلمين ونحو  
ذلك .

على أن الأخطل إذا قصّر من حيث العناصر الإسلامية ، لأنها لم تكن  
مهيأة له ، ولم يكن يفهمها كما كان يفهمها جرير ، فإنه لم يقصّر من حيث

الاتصال بالعصر والظروف السياسية . ويتبين ذلك في نقيضته « خف القطين » التي هلك لها عبد الملك وكثير ، فقد سبق أن قلنا إنه ملحه فيها من حيث هو خليفة للمسلمين . ولم يقف عند هذا المعنى طويلا ، لأنه كما قلنا لم يكن يحسن إحساسا عميقا . وليس هذا الذي يلفتنا ، وإنما يلفتنا ، أنه ملحه بعناصر جديدة استلها من الحياة الحاضرة أو الحياة الحديثة إذ نراه يضيف إلى ذلك مبيع عبد الملك في أثناء حربه لمصعب بن الزبير . وبذلك استطاع أن يمدح عبد الملك قائداً يحسن تنظيم الجيوش وتنسيقها . فالعقل الدائب الذي شاهدناه عند جرير في توليد المعاني وتجديدها نجده عند الأنخل ، وإن كنا نلاحظ أن عقل جرير كان أكثر توليدا .

وكان الأنخل يحاول دائماً أن يضيف على جرير بانتصاره لقيس ، فيذكر خروجهما على طاعة الأمويين وانتفاضهما عليهم ، ويؤكد في الوقت نفسه بتغليب وموقفها من الخلافة ونصرتها لبني أمية ، فيضطرب جرير حين يحاول الرد عليه . وكان جرير يتصدى له من جانب آخر يحاول أن يشدد على خناقه منه ، وهو جانب مسيحيته ، وقد لعب هذا الجانب دوراً بعيداً في نقائص جرير مع الأنخل ، وكان هو نفسه يعترف به ، فالرواة يحدثن عنه أنه قال : « عَينْتُ عَلَى الْأَنْخَلِ بِكَفَرِهِ »<sup>(١)</sup> وكان معاصروه يشعرون بذلك ، فقد روى الرواة عن عمر ابن عبد العزيز أنه قال : « إِنْ الْأَنْخَلُ ضَبَّقَ عَلَيْهِ كُفْرُهُ الْقَوْلَ ، وَإِنْ جَرِيرًا وَسَّعَ عَلَيْهِ إِسْلَامُهُ قَوْلَهُ »<sup>(٢)</sup> .

ولا نستطيع في الواقع أن نزعم لأحدهما تفوقاً تاماً على صاحبه في نقائضه ، لأن المسألة كانت تُرْمَنُ بالظروف ، وفي العادة يتفوق صاحب النقيضة الأولى . وقد تفوق الأنخل على جرير في نقيضته « خف القطين » تفوقاً ظاهراً ، لأنه كان البادئ ، ولأنه كان يملك زمام الموقف ، فاستغل خصومة قيس لبني أمية وعلى رأسهم عبد الملك استغلالاً واسعاً . وعلى العكس من ذلك تجنّب جرير في رده عليه موقف قيس ، ولم يستطع أن يمدح عبد الملك على نحو ما صنع الأنخل . فالظروف

السياسة التي صاحبت قبساً كانت أحياناً تُحدثُ اضطراباً في جرير وفي نفسه ، وخاصة أنه كان يريد الاتصال ببني أمية ، وأن يكون شاعرهم الأول ، فإذا تحدث الأخطل عن عصيان قيس أحس كأنما ألقمه حجراً ، فيتعثر في أثناء رده ويضطرب فنوناً من التعثر والاضطراب .

وكذلك كان الفرزدق معه في هجائه يستغل عصيان قيس وخروجها على الطاعة ، وكان ذلك يُحدثُ أزمة محققة في نفسية جرير ، وانضم إلى ذلك أنه كان من أسرة متواضعة بينما كان الفرزدق من أسرة أرستقراطية . ومن هنا كان يشعر بالصغار أمامه ، وعلى العكس كان الفرزدق يشعر بغير قليل من الكبرياء والاستعلاء والنفطرسمة . وأكبر الظن أن هذين العاملين هما اللذان أتاحا للفرزدق أن يتقدم في نقائضه على جرير ، وربما كان من عوامل ذلك أيضاً أن جريراً لم يكن من قيس نفسها فدفاعه عنها لم يكن صادراً من قلبه على نحو ما كان يصدر دفاع الفرزدق عن تميم . على كل حال من يقرأ نقائض الفرزدق وجرير يحس تفوق الفرزدق على صاحبه ، ولعل ذلك ما جعل جريراً يعتمد إلى الهجاء الشخصي أكثر من صاحبه فهو يكثر من السباب والشتائم ، بينما يتوقر الفرزدق ويرتفع ، عن أن ينحدر معه إلى السفح الذي يهوى إليه .

وينبغي أن لا نفهم من ذلك أن جريراً يتخلف تخلفاً عاماً في شعره عن صاحبه ، فإن من بترك النقائض إلى ديوانيهما ، ويبحثهما فيهما ، ويوازن بين شاعريتهما ، يجد جريراً في ديوانه أشعر من صاحبه . وكأن جريراً كان يسقط أو يضعف أمام الفرزدق في المناظرات لعوامل نفسية طارئة ، فإذا فصل عن هذه العوامل وأصبح حراً استعاد كل مقدوره ، وأصبح أشعر من صاحبه .

وقد حاول القدماء كثيراً أن يتحكموا بينهما ، ووسّعوا الحكومة إلى الأخطل ، فذهبوا إلى أن الفرزدق يتفوق في الفخر <sup>(١)</sup> ، بينما يتفوق الأخطل في المديح ونعت الخمر <sup>(٢)</sup> ، أما جرير فاعطوه السبق في الهجاء والغزل والرثاء <sup>(٣)</sup> .

(٣) ابن سلام ص ٨٧ والأغان ١٠/٨

وكذلك ٣٨/٨

(١) ابن سلام ص ٨٧

(٢) ابن سلام ص ١١٣ والأغان ٣٤/٨

٢٨٦/٨

وهذه الأحكام تحتاج فضلاً من البحث والدواصة ، أما أن الأخطل يتفوق في نعت الخمر ، فإنه مما لا ريب فيه ، لا لأن جريراً والفرزدق كانا ينعتانها فلا يوفقان ، بل لأنهما لم يحاولا هذا النعت ، فقد منعهما الإسلام منه ، وإن لم يمنع شعراء مسلمون آخرون من ذلك <sup>(١)</sup> . أما هما فإنهما نفرا منه ، فلم يقبلا عليه ، ولا اشتغلا به ، على عكس الأخطل فإنه كان مسيحياً ، وكان صبيّاً بالخمر ، فأكثر من وصفها ونعتها ، وأجاد في ذلك على نحو ما نرى في قوله <sup>(٢)</sup> :

صَرِيحُ مُدَامٍ يَرْفَعُ الشَّرْبُ رَأْسَهُ      لِيَحْبَا وَقَدْ مَاتَتْ عِظَامُ وَمُتَفَصِّلُ  
نُهَادِيهِ أَحْيَانًا وَحِينَئِذٍ نَجْرُهُ      وَمَا كَادَ إِلَّا بِالْحُشَاشَةِ يَسْتَقِيلُ

على كل حال يتقدم الأخطل صاحبيه في نعت الخمر ، لا لأنها أجرياً معه فيه ، وسبقهما ، ولكن لأنه انفرد به . أما في المديح ، فقد يكون ذلك صحيحاً إلى حد ، إذ كان الأخطل يجود في المديح ، وكان ما يزال ينوع في معانيه على ما تقدم في غير هذا الموضع . ولا شك في أنه كان يتقدم في هذا الفن الفرزدق لأن نفسية الفرزدق كانت منطوية على التمرّد ، كما قلنا ، فهو لا يُعجّب إلا بقومه ، وهو يثور على كل من عداهم . لذلك كان غير مهيباً من الوجهة النفسية للفرزدق في المديح .

وإذن فالمقارنة في المديح ينبغي أن تكون بين الأخطل وجرير ، وإذا ذهبنا نقارن بينهما وجدنا الأخطل ينوع في مديحه ، ولكن تنويعه ينصب في أكثره على الإفادة من العناصر القديمة ، فهو يمدح بالخصال المعروفة عن العرب من كرم وشجاعة ووفاء ومروءة وحلم وصبر على المكروه ، ريقف في أكثر مديحه عند ذلك . أما جرير فإنه يُقيد في مديحه من العناصر الإسلامية الجديدة ، فيخلق على الخلفاء والولاة صفات دينية كثيرة من إقامة العدل بين الناس ومن عصيان داعي الهوى والاهتداء بالكتاب والسنة وإقامة الفرائض والحدود . وقد تحول الجزء الأكبر من مديحه في الخلفاء إلى دفاع حار عن دعوة الأمويين وتفضيل حيزهم على الحزب الشيعي وغيره من الأحزاب ، وذهب يسبغ عليهم كل ما يسبغه الشيعة على

(٢) الشعر والشعراء ص ٣١٠ .

(١) انظر على سبيل المثال ترجمة ابن أوطاة في الأغاني ٢/٢٤٢ .

أتمتهم من خصال وصفات .

ومعنى ذلك أن تنوع الأخطل في المديح ينصبُّ في أغلبه على الإفادة من المعاني الجاهلية القديمة ، وكان القدماء أنفسهم يشعرون بذلك ، فأبو عبيدة يقول : إن الأخطل أشبه الثلاثة بالجاهلية<sup>(١)</sup> .

فإذا نظرنا إلى معاني المديح وصلتها بالجليل والإسلامي قلنا جريراً على الأخطل ، وإذا نظرنا إلى الصياغة وجزالتها ومحاولة استنفاد المعاني والصور القديمة والتوليد فيها قلنا الأخطل على صاحبه ، كما حكم بذلك القدماء .

أما الفرزدق وما يقولون من سبقه لصاحبه في فن الفخر فصحيح إلى أبعد حد ، إذ كان من أسرة ذات شرف وسيادة ، وكانت نفسه تمتلئ بمكانة أسرته امتلاء لا نهاية له . ولم يكن الأخطل من أسرة تشبه أسرته ، وكان جرير من أسرة متواضعة ، فلم تكن لكل منهما النفسية العنيفة التي اشتمل عليها الفرزدق ، وما انطوى فيها من شعور بالعزة لا يكاد يُحدّ ، وشعور بالكرامة لا يكاد ينتهي ، فلم يستطيعا أن يحكما معاً في آفاق الفخر التي خلق فيها ، إذ كانت أجنحتهما من الضعف بحيث لا تستطيع أن تبلغ شأوه ، وارجع إلى شعره فستجد قطعاً كثيرة من الفخر تتألق فيه تألقاً ، من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

لنا العزةُ الغلباءُ والعدَدُ الذي عليه إذا عُدَّ الحصى يُتَحَكَّفُ  
ولا عزٌ إلا عِزُّنا قاهرٌ لهُ وَيَسْأَلُنَا النِّصْفَ الدَّلِيلُ فَيُنْصَفُ  
تَرَى النَّاسَ مَامِيرُنَا بِسِيرِنَا خَلَفْنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفْنَا

ومثل هذه القطعة هو الذي كان يرفعه على جرير في نقائضه ، إذ كان يشعر ضله بخطرسة شديدة ، فيرهبه بمقاتل آبائه وأجداد عشيرته ، وكأنها سهام يُصَوِّبها إلى نحره ، واستمع إليه يقول له في إحدى نقائضه واصفاً قومه<sup>(٣)</sup> :

الْكَثْرُونَ إِذَا يُعَدُّ حَصَاهُمْ وَالْأَكْرَمُونَ إِذَا يُعَدُّ الْأَوَّلُ  
حُلُلُ الْمُلُوكِ لِبَاسُنَا فِي أَهْلِنَا وَالسَّابِغَاتِ إِلَى الْوَعَى نَتَسَرَّبُ

(٢) النقائض ص ١٨٧ .

(١) أغاني ٢٩٢/٨ .

(٢) النقائض ص ٥٧١ .

أَحْلَامُنَا تَزْنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً وَتَخَالِنَا جِنًّا إِذَا مَا نَجْهَلُ  
فَادْفَعْ بِكَفِّكَ إِنْ أُرِدْتَ بِنَاءَ كَمَا تَهْلَانِ ذَا الْمَضْبَاتِ هَلْ يَتَحَكَّمُ<sup>(١)</sup>

ويُسرف الفرزدق في مثل هذا الفخر ، وبعلا شعره ونقائضه ضجيجاً وصياحاً  
بآبائه وعشيرته على هذا النحو . ومن أجل ذلك كان يتفوق تفوقاً ظاهراً على  
صاحبيه في هذا الفن من فنون الشعر .

وإذا تركنا فن الفخر إلى فن الهجاء ، أو قل إلى قطع الهجاء في النقائض  
وقارناً بين الثلاثة وجدنا جريراً أشد عنفاً من صاحبيه فيها ، فهو حين يصل إليها  
يشبه الطائر الجارح حين ينقض على فريسته ، يريد أن لا يُبْقَى فيها شيئاً ، ولعل  
ذلك ما جعله يلجأ في أحوال كثيرة إلى هتك الحرُمات والأعراض كأنه يريد أن  
يُمزق خصمه تمزيقاً .

ولم يكن الأخطل والفرزدق على هذه الصورة من العنف ، وارجع إلى نقائض  
الأخطل فستجده يستمر له غير قليل من شبيهه ووقاره ، وكذلك الفرزدق حين  
يتناقض أو يهجو يستمر له شيء من الاعتداد بنفسه وبكرامته . ومن هنا كانا  
لا يعمدان إلى السب والقذف على نحو ما يعمد جرير ، فهما يَحْتَشِمَان ، أما  
جرير فلم يكن يعرف حِشْمَةً ولا ما يشبه الحشمة ، بل كان ينصب انصباباً على  
خصمه ، يريد أن يطعنه الطعنة المصيبة .

ولعلنا نفهم الآن ما يقوله الرواة من أن الفرزدق كان يُسْتَقَعُ لَوْنُ وجهه حين  
يقول له قائل : إن جريراً أنشد اليوم في المربد قصيدة<sup>(٢)</sup> ، إذ كان ينتظر دائماً  
أن يَقْدِفَه جرير في أثناء قصيدته أو نقيضته بحجرٍ غليظ من حجاراته  
يَجْرَحُهُ جُرْحاً بليغاً .

وإذن فجرير كان يتفوق على صاحبيه في الهجاء ، ولكن ليس معنى ذلك أنه  
كان يتفوق عليهما في النقائض ، فالنقائض تحتوي موضوعات مختلفة . حقاً هو  
والأخطل كانا فَرَسَيَّ رِهَان ، وكان يتفوق منهما في العادة من يكون صاحب  
النقيضة الأولى لأنه حرٌّ ، ولأنه لا يتقيد بمعان خاصة ولا بأوزان وقواف خاصة . أما

(٢) ابن سلام ص ٨٦ .

(١) تهلان: جبل. يتحلمل: يزول ويتحرك .

مع الفرزدق فالمسألة تختلف ، لأن الفرزدق يتفوق عليه في مجموع التقيضة بفضل هذا الشعور العميق بآبائه ، وما كان يحسه تلاقاه من تَسَامٍ وكبرياء . فجرير مع إقذاع هجائه ومرارته وتفوقه في هذه المارة لا يتقدم الفرزدق في مجموع التقيضة ، لأن نفسية الفرزدق كانت أقوى من نفسيته .

وشأن جرير في الغزل شأنه في الهجاء كان يسبق صاحبيه سبقاً لا يدع مجالاً للشك والريب ، فقد شهد به معاصروه وشهد به نقاد العصور التالية . ومعنى ذلك أننا إذا فَرَّقْنَا التقيضة قطعاً وجدنا جريراً يسبق صاحبيه في الهجاء والغزل أما إذا جمعناها جميعاً ، فإن الفرزدق هو السابق المُجَلِّى .

على كل حال كان جرير يتفوق في الغزل كما كان يتفوق في الهجاء ويلاحظ ذلك في وضوح مَنْ يرجع إلى ديوانه وديوانتي صاحبيه . وربما كان تَخَلُّفُ الأخطل في الغزل راجعاً إلى أنه كان متكلفاً في شعره ، يسعى به إلى الصورة التي نعهد لها عند شعراء الجاهلية من أمثال زهير والنابغة .

ومن أهم ما يحتاج إليه الغزل أن يكون طبعياً صادراً عن شعور حقيقي ، لا عن تكلف وافتعال ، ولهذا لم يستطع الأخطل أن يتفوق في هذا الفن من فنون الشعر العربي لأنه لم يُحَدِّثْنا فيه حديث العاطفة الطبيعية ، وإنما حَدِّثْنا فيه حديث العاطفة الصناعية ، إذ لم يكن يُعَبِّرُ عن شيء حقيقي يشعر به وإنما كان يعبر عن الصناعة التقليدية ، أما جرير فكان على تَقْيِيزِهِ يعتمد على مشاعره وإحساساته في غزله ، وينطلق في التعبير عن عواطفه وجداناته ، ومن هنا كنا نُحِسُّ عند الأخطل بالهفاف والحمود ، بينما نحس عند جرير أنه يتحوّل إلى شعور وعواطف خالصة . وحظّ الفرزدق في هذا الفن فَتَنَ الغزل وما يَنُطْوِي فيه من نَسِيبٍ وَتَشْبِيبٍ ليس أَسْعَدَ كثيراً من حظّ الأخطل . حقاً إنه لم يكن يتكلف تكلفه ، ولم يكن يُقْنِي شخصيته في القدماء من أمثال زهير والنابغة على نحو ما أفناها الأخطل ، ومع ذلك فإنه لم ينجح في هذا الفن ، على الرغم من أنه كان فاجراً مستهتراً ، بل كان زبيراً للنساء .

وفي رأينا أن الفرزدق لم ينجح في الغزل ، لأن نفسه كانت غليظة ولم تكن رقيقة ، فقد كانت خَشِنَةً جافّةً ، لم تُطْبِعْ على شيء من اللين ، وإنما طَبِعَتْ

على التمرّد والقسوة وعدم الخضوع والاستكانة ، فهي نفس — في قرارها — جاهلية ، لم تهذب ، ولم تكلن ، ولم تصنف .

والغزل لا ينجح فيه إلا صاحب النفس اللينة الصافية ، ولذلك تقدمه جرير إذ كانت نفسه لينة حقاً ، صافية حقاً ، وقد جاءه ذلك من أنه كان مُتَدَيِّنًا بذنوب في الإسلام ، فصقّى الإسلام جوهراً نفسه ، وأعدّه لينخ في هذا الفن ، ويتفوق على زميله الذي كان يرتبط بالعادات والطباع الجاهلية .

وافترق مع ذلك أن جريراً كان من أسرة فقيرة ، بينما كان الفرزدق من أسرة شريفة ، فكان ذلك سبباً لأن يشعر جرير في أعماقه بشيء من الحزن ، وخاصة أن الفرزدق دائم التمدح عليه بآبائه وأمجاده في الجاهلية .

ولا نشك في أن هذا الحزن الذي كان يتسرب إلى قلبه كان ذا أثر بعيد في صفاء نفسه وإرهاقها وتهيتها لأن يتفوق في الغزل والتشبيب ، لأن الحزن من عاداته أن يَجْلُو النفسَ وَيَجْلُو ما يَصْدُر عنها ، وخاصة إذا كان شكوى من حبيب .

وكل من يقرأ غزل جرير ومقلماته لتقائضه وقصائده يشعر أنه يقرأ لنفسٍ غير مبتهجة ، فليس له ما يبتهج به في الآباء ، وإنما له ما يؤذيه ، وما يشعر معه بالمقصور والحزن . ولعل ذلك ما جعله يطيل مقدمات تقائضه مع الفرزدق ، فإنه كان يُودع فيها إحساساً عميقاً بحزنه ، وينفّس فيها عن شعور النقص الذي يشعر به لزاء خصمه . وعلى العكس كان الفرزدق يُقصر هذه المقدمات ، وكان في بعض الأحيان لا يأتي بها ، بل بهجم مباشرة على فخره ، وتعدّد مناقب آبائه . فالنفسيتان كانتا مختلفتين ، نفسيةٌ تقنّى في الأمجاد والمناقب القديمة ، ونفسيةٌ تأمى وتحزن ، لأنها لا تجد لها أمجاداً ومناقب تعزُّ بها . وفي الوقت نفسه ترتبط أولاهما بالعادات والطباع الجاهلية ، فهي نفس غليظة ، بينما ترتبط الثانية بالحياة الإسلامية الحديثة ، فتصفّيها ، وتهذبها ، وتسمو بها ضروباً من السمو . وكل ذلك هيباً جريراً لأن يتقدم صاحبه في هذا الفن الرقيق من فنون الشعر ، واستمع إلى قوله في بعض غزله (١) :

إِنَّ الَّذِينَ عَسَدُوا بِلُبِّكَ غَادَرُوا      وَشَلَّابِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا  
غَيْضُنَ مِنْ عَبْرَاتِهِمْ وَقُلْنَا لِي      مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا

وواضح ما في هذين البيتين من بكاء ودموع ، وهما يصدوران من نفس يشوبها غير قليل من الحزن ، واستمع إليه يقول مرة ثانية<sup>(١)</sup> :

إِنَّ الْعَيْنَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَّضٌ      قَتَلَتْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِنَا قَتْلَانَا  
يَضْرَعُ عَنْ ذَا اللَّبْحَى لِاحْتِرَاكِ بِهِ      وَهَنْ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا  
أَتَبَعْتَهُمْ مُقَلَّةً إِنْسَانُهَا غَرِقٌ      هَلْ مَا تَرَى تَارِكٌ لِلْعَيْنِ إِنْسَانَا

فلأنك ترى غزله يتجيش بالعاطفة ، ويمسح عليه حزن غير قليل . وهكذا جرير دائماً في غزله يشكو ، ويرقُّ ويكِين هذه الرقة واللين .

ولم يكن الفرزدق مهيئاً من الوجهة النفسية ليصدر عنه مثل هذا الغزل الرقيق الصافي ، ولعل من الطريف أنه كان يعترف بالجرير بسبقه في هذا الفن ، وكان يقول : « ما كان أحوجّه مع عفافه إلى صلابة شعري ، وأحوجّني مع شهواني إلى رقة شعره »<sup>(٢)</sup> .

فالفرزدق يعترف بالجرير برقة شعره وغزله ، وأنه لا يستطيع أن يحقق ذلك لنفسه ، فشعره صلب ، فيه غِلَظ وخشونة . ومن هنا كان لا يستطيع أن ينجح في الغزل الذي يحتاج دقة في الشعور ، ورقة في الإحساس ، واستمع إلى جرير يقول<sup>(٣)</sup> :

بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبُهُ عَزِيزٌ      عَلَيَّ وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامٌ  
وَمَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ لَا أَرَاهُ      وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النَّيَامُ

فلأنك تشعر حقاً بهذه الرقة التي يشير إليها الفرزدق ، وهي رقة كان عفافه أحد أسبابها لا كما ظن الفرزدق أن العفاف يقتضي الخشونة ، بل هو يحدث من الطُّهْرِ في النفس والتسامي ما يجعلها تصفو ، وتلين ، وتتحول إحساساً وشعوراً خالصين . على كل حال كانت نفس جرير نفساً لينة رقيقة ، وكانت نفس الفرزدق

نفساً خشنة غليظة ، فأتاح ذلك لجرير أن يبسزه ويتفوق عليه في هذا الفن من الغزل وما ينلمج فيه من نسيب وتشبيب .

وكما يتفوق جرير على صاحبيه تفوقاً واضحاً في المهجاء والغزل يتفوق عليهما أيضاً في الرثاء ، لأن الرثاء كالغزل يحتاج وقرة في الشعور وصدقاً في الإحساس ، فإذا اتفق أنه يصدر من نفس محزونة كان ذلك عاملاً آخر في إحصائه والبراعة فيه . وقد قلنا إن الأخطل كان متكلفاً في شعره ، لا يصدر فيه عن طبع ولا ما يشبه الطبع ، فطبيعي أن لا يتفوق في هذا الفن ، وكذلك كان الفرزدق غليظاً جافياً ، فيه صلابة ، وفيه خشونة ، فكان من الطبيعي أيضاً أن لا يتفوق فيه ، إنما يتفوق فيه جرير ، الذي رقى مشاعره الإسلام ، والذي طبع بؤس أسرته نفسه بطابع حزين ، واستمع إليه يقول في رثاء زوجه أم حنزة<sup>(١)</sup> :

|                                         |                                  |
|-----------------------------------------|----------------------------------|
| لولا الحياءُ لصادني استبارُ             | ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يزارُ      |
| ولَهتُ قلبي إذ علقتُ كَبْرَةَ           | وذوُ والتَّمائمُ من بَنِكَ صغارُ |
| ولقد أراك كُفيتُ أجملَ منظرٍ            | ومعَ الجمالِ سَكينةٌ ووَقارُ     |
| صَلَّى الملائكةُ الذينَ تُخَيَّرُوا     | والصالحونَ عليكِ والأبرارُ       |
| لا يَلْبَثُ القُرْناءُ أن يَتَفَرَّقُوا | لَيْلُ بَكَرٍ عليهمُ ونَهَارُ    |

وهذا رثاء يتقبض أمي وحزنًا ولوعة وحسرة على زوجه أم حنزة ، التي كان يتغزل فيها غزلاً عذبةً ، فلما توفيت أخذ يرثيها رثاء حاراً ، ولعل رثاءه في ابنة سَوَادَة أشدَّ حرارةً ، فقد كان يبكيه بكاء مُرّاً ، وسمعته يقول فيه<sup>(٢)</sup> :

|                                    |                                    |
|------------------------------------|------------------------------------|
| قالوا نصيبك من أجرٍ فقلتُ لهم      | كيف العزَّاءُ وقد فارتُ أشبالي     |
| ودعشتُ حين كَفَّ الدهرُ من بَصَرِي | وحين صيرتُ كعظمِ الرَّمَّةِ البالي |

فنفسه تتساقط أنفاساً على فلذة كبده وسويداء فؤاده ، فهو ينوح عليه نواحاً لا ينقطع ، ويعزِّيه الناس ، ويذكرونه ثواب الصبر ، فلا يزيده ذلك إلا نواحاً وحزنًا .

(١) الديوان ص ١٩٩ .

(٢) الديوان ص ٤٣٠ والأغاني ٢/ ٢٢٠ .

ومن يقرأ ديوان الفرزدق لا يستطيع أن يتحيف على مثل هذا الرثاء ، لأن نفسه لم تكن مغطورة على الحزن ولم تكن مهتأة لأن تجزن ، فهي نفس غليظة جافة ، ويتندر الرواة عليه ، فيقولون إنه حين توفيت زوجه النوار لم يجد الناحة شعراً له ينوحون به عليها ، فناحوا بشعر جرير السابق في رثاء زوجه (١) .

وأكبر الظن أنه قد اتضح لنا الآن ما يتميز به كل شاعر من الأقطاب الثلاثة ، فجرير يتفوق في الهجاء والغزل والرثاء ، بينما يتفوق الفرزدق في الفخر والتفاض ، أما الأخطل فإنه يتفوق في الحمر ، كما يتفوق في المديح إن لاحظنا جزالة الأسلوب ومثاقه ، أما إن لاحظنا المعاني والملاءمة فيها بين العناصر الجاهلية القديمة والعناصر الإسلامية الحديثة فإن جريراً يتقدمه ، ولا يبقى له إلا نعت الحمر .

والحق أن الأخطل يتخلف عن جرير والفرزدق جميعاً ، أما هما فيمتاز من بينهما الفرزدق بأبنية شاعرة في الفخر ، وقوة باذخة في الشعر ، بحيث يمكن أن نسيه شاعر القوة ، بينما يمتاز جرير بالعذوبة والأسلوب الرشيق والموسيقى الصافية . وهذا الحكم الذي نحكم به على الأخطل وما نزع من تخلفه عن صاحبيه سبقنا إليه بشار بن برز زعيم المجددين من الشعراء في العصر العباسي ، فقد روى ابن سلام أنه سأله عن الثلاثة فقال : «لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له ، وأفرطت فيه ، فقال له ابن سلام : فجرير والفرزدق ؟ فقال بشار : كان جرير يحسن ضرورياً من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، وفضل جريراً عليه» (٢) .

ونحن نتفق مع بشار في هذا الحكم ، فالأخطل يتخلف عن جرير والفرزدق ، وكذلك جرير يتقدم الفرزدق بكثرة ما أحسن فيه من فنون الشعر ، فهو يتقدمه في الهجاء والغزل والرثاء ، وإن كان ذلك لا يمنع الفرزدق من تقدمه عليه في التفاض والفخر .

على أن حكمتنا على الأخطل بالتخلف عن صاحبيه ينبغي أن لا يخفى عن أعيننا جانباً عنده ، هو جانب الصقل في الصياغة وتنقيح العبارة ، وذلك أنه كان من عبید الشعر الذين يبالغون في تنقيحه ويلحون في نخله وتهذيبه . ومن

هنا كانت أساليبه أكثر استواء من أساليب صاحبيه ، ويبالغ الرواة فيما كان يتخذهُ  
لذلك ، فيقولون إنه كان ينظم تسعين بيتاً ، ثم يختار منها ثلاثين ، فيُدبّرُ بها<sup>(١)</sup> .  
قصائده مُنتخبة ، كل قصيدة انتُخِبَتْ من أضعافها .

وليس من ريب في أن هذا يدلُّ على جهْد كان يضْطَلع به الأخطل ، في  
صنْع شعره ، فهو لم يكن ممن يفهمون الشعر على أنه شيء يصدر عن الفطرة ، بل  
كان يفهمه على أنه يصدر عن الخبرة والجهْد والتثقيف والتفحُّص ، فهو ممن يَعْمَلُونَ  
شعرهم عملاً ويتكلّفونه تكلفاً ، وما يزالون يُتَقَنُّون فيه ، ويمرّون به حتى يُخْرِجُوهُ  
مُسْتَوِيّاً .

والأخطل من هذه الناحية يشبه زهيراً صاحب الحَوَلِيَّات ، وقد قالوا إنه  
صنَعَ إحدى قصائده في حَوَلٍ كامل<sup>(٢)</sup> ، فهو من هذه المدرسة التي كانت  
تَقْسُو على نفسها في صنع شعرها ، فما تزال تَتَقَفُّ في القصيدة ، وتَصَقِّلُ ،  
وتجود ، وتَقْدَحُص ، وتَمْتَحِن ، وتُجَرِّب ، حتى تُخْرِجَهَا نموذجاً تاماً .  
ولعل ذلك ما جعل اللغويين يلاحظون أنه أكثر الثلاثة عَدَدَ قصائد طوال جيّاد ،  
ليس فيها فُحْشٌ ولا سَقَطٌ<sup>(٣)</sup> . فأساليبه في أشعاره أساليب متخاة ، لا نُبوَّ  
فيها ولا شلوذ .

وكل ذلك يَحْرِضُه الأخطل في موسيقى ضخمة فيها رِزَاة ووقار ، وفيها  
هذا الجو الذي يصلنا بالماضي ، ولذلك كانت موسيقاه شديدة الصلة بالموسيقى  
القديمة في العصر الجاهلي . أما جرير فلأننا لا نقرؤه حتى نشعر أن موسيقاه جديدة  
بحكم اندماجه في الإسلام وحفظه للقرآن الكريم وتجاوُبه مع عصره من جميع  
النواحي .

وجرير في ذلك يتقدّم الفرزدق كما يتقدم الأخطل ، فقد كان أكثر من  
الفرزدق استجابة للإسلام وطواعية له وانقياداً ، وكان كذلك أكثر منه قُرْباً إلى  
الحياة الحديثة . لذلك كانت موسيقاه أقرب إلى معاصريه منه ، لما امتازت به من  
لين وصفاء ومرونة . وكان الفرزدق نفسه يشعر بذلك ، فيقول : ما أَشْرَدَ قَافِيَتُهُ<sup>(٤)</sup> ؛

(١) أغاني ٢١١/٨ .

(٢) أغاني ١١/٨ .

(٣) أغاني ٢٨٤/٨ وما بعدها .

(٤) أغاني ٢٨٧/٨ وما بعدها .

وكان الأخطل يشعر شعوره ، فقد روى الرواة أنه اجتمع يوماً مع الفرزدق فقال له :  
« إن جريراً أوتي من سبب الشعر ما لم نُؤنّه ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال  
أهجنى منه ، قلت :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأئمتهم بولي على النار

فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر ، وقال هو :

والثغلبى إذا تنحنح للقرى حلك أسنه وتمثل الأمثالا

فلم تبق سقاة ولا أمثالا إلا روه<sup>(١)</sup> . فقضيا له أنه أسير شعراً منهما .  
وهذا نفسه كان يحسه معاصروهم ومن جاءوا بعدهم ، فقد سأل معاوية بن  
أبي عمرو بن العلاء ابن سلاّم : « أى البيتين عنده أجود : قول جرير :  
ألتسم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أم قول الأخطل :

شمس المداة حتى يستفاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قد روا

فقال ابن سلام : بيت جرير أحسن وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرزن ،  
فقال معاوية لابن سلام : صدقت ، وهكذا كانا في أنفسهما عند الخاصة والعامة<sup>(٢)</sup> .

فشعر جرير كان أكثر سيورة وانتشاراً من شعر صاحبه بشهادتهما وشهادة  
النقاد لسبب بسيط ، وهو أنه أقرب إلى نفوس معاصريه ، إذ اندمج في الحياة  
الجديدة بأكثر مما اندمج زميلاه ، فكان طبيعياً أن تصبح أساليبه أكثر ذبرعاً ،  
وأكثر ألفة للناس . أما الأخطل فكان محافظاً يتمسك بالقديم وأساليبه ، وأما  
الفرزدق فكانت فيه غلظة وخشونة ، وكانت في أساليبه صلابة غير مألوفة ، فكان  
ذلك لا يتيح لهما أن تنتشر أشعارهما وتطير انتشار شعر جرير وطيرانه .

وكل من يقرأ الفرزدق يشعر أن موسيقاه تمتاز بكثير من الشنوء والالتواء في  
أساليبه ، وهو التواء وشنوء أتياه من تمرده الذى اشتعلت عليه نفسيته ، وهل منا

(١) أغاني ٣١٨/٨ .

(٢) أغاني ٣٠٥/٨ .

مَنْ لَا يَحْفَظُ بَيْتَهُ الْمَلْتَوَى الْمُعَقَّدَ فِي مَدِيحِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هِشَامِ الْهَزْرَوِيِّ خَالَ هِشَامِ  
ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، إِذْ يَقُولُ فِيهِ <sup>(١)</sup> :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُسَكَّكًا أَبُو أُمِّهِ حَتَّى أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

فقد خالف في ترتيب ألفاظ البيت حتى أصبح لا يكاد يفهم مع أن الفكرة التي  
يحتويها بسيطة ، وهي تظهر من ترتيب الألفاظ على وَضْعِهَا السليم هكذا « وما  
مثله ( المملوح ) في الناس حتى يقاربه إلا مملكاً أبو أمه أبوه » يريد إلا ملكاً هو  
هشام بن عبد الملك الذي يشترك معه في الجلد فهو ابن أخته .

وكما كان يأتي بهذا الالتواء وما يشبهه في أساليب شعره كان يأتي أيضاً بشواذ  
نحوية ، يخالف فيها الطرق المألوفة في الصياغة ، من مثل قوله <sup>(٢)</sup> :

وَعَصْفُ زَمَانٍ يَابِسٌ مَرَوَّانٌ لَمْ يَدْعُ مِنْ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجَرَّفٌ <sup>(٣)</sup>

فقد عطف على كلمة « المسحت » المنصوبة بالرفع . وكان ذلك يؤدي للفرين  
الذين كانوا يعاصرونه في البصرة ، فكانوا يراجعونه ، وكان عبد الله بن أبي إسحق  
الحضرمي خاصة يُكثِرُ الرَّدَّ عليه ، والعرض له ، فقال فيه يهجو :

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلىَ هَجَوْتُهُ وَلَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلىَ مَوَالِيَا <sup>(٤)</sup>

ويقال إن ابن إسحق حاول أن يُقْنِعَهُ بأن الصواب أن يقول « مولى موال » .  
ولعل في ذلك كله ما يدلُّ دلالة واضحة على أن الفرزدق لم يكن مُهَيَّأً لأن تصدر  
عنه موسيقى عذبة ، إنما كان مُهَيَّأً لأن تصدر عنه موسيقى صلبة ، وهو يختلف  
في ذلك من صاحبيه ، فالأخطل يحكم تنقيحه وتنقيفه استطاع أن يكون له موسيقى  
جَزَلَةٌ فيها متانة ، ولكن ليس فيها صلابة موسيقى الفرزدق وخشونتها . أما  
جرير فكان تبعاً يتدفق ، وقد وصفه الفرزدق وصفاً دقيقاً ، قال : « إني ولِيَاهِ  
لنُفْتَرِفُ مِنْ بَحْرِ وَاحِدٍ ، وَتَضْطَرِبُ دِلَاؤُهُ عِنْدَ طُولِ النِّهْرِ » <sup>(٥)</sup> . فهو يعترف بأن

(١) أخبار النحويين البصريين السرياني

(٢) طبع كزكر ( ص ٢٦ )

(٣) ابن سلام ( ص ٨٧ )

(١) الديوان ص ١٠٨ .

(٢) الثقات ص ٥٥٦ .

(٣) المسحت والمجرف : المتأمل .

جريراً أقدر منه في الاعتماد من نهر الشعر ، إذ يستطيع أن يستمد منه في أى مكان يريد لا يتعسر عليه ولا يتعذر ، أما الفرزدق فكان كثيراً ما يشعر بحواجز تحول بينه وبين ما يريد ، وعَبَّرَ عن ذلك تعبيراً طريفاً ، فقال : « أنا عند تميم أشعرُ تميم ، ولربما أنت على ساعة ، ونزعُ ضرسٍ على أسنهلٍ من قول بيت ،<sup>(١)</sup> فهو يُقِرُّ بأن شيطان الشعر لا يُوَاتيه دائماً .

وهذا كله معناه أن موسيقاه لم تكن تَطَرِدُ له ، بل كان كثيراً ما يجد فيها التواء وعسراً وصعوبة على صور مختلفة ، بخلاف جرير فموسيقاه لَيْسَتْ سائغة ، تَطَرِدُ له اطرأداً ، وقد عبَّرَ عن ذلك الأخطل في جملة المأثورة التي مرت بنا في غير هذا الموضع ، إذ قال : « جرير يَتَفَرِّفُ من بَحْرٍ ، والفرزدق يَنْحَعْتُ من صَخْرٍ ، وفترقُ بَعِيدٌ بين الماء السائغ العذب ، وبين الصَّخْر الغليظ الضخم .

(١) الشعر والشعراء ص ١٩ .

## الفصل الرابع

### ألوان جديدة

١

#### غزل ابن أبي ربيعة

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وفي الغالب يُنسبُ إلى جده ، فيقال ابن أبي ربيعة ، وكُنْيَتُهُ المشهورة أبو الخطَّاب . وهو شاعر قُرَشِيٌّ من أهل مكة ، ومن أسرة ثريَّة واسعة الثراء من أسرها ، هي أسرة بني مَخْزُوم ، وكان أحدُها وهو هشام بن المغيرة يُلقَّب في الجاهلية بربِّ قريش <sup>(١)</sup> ، وأخوه الوليد كان سيِّداً من سادات مكة ، وفيه نزل قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رَجُلٍ من القُرَيْشِ عَظِيمٍ » . وكان لهما من الأخوين أخ ثالث هو أبو ربيعة جدُّ عمر ، وكان شجاعاً من شجعان قريش ، ويقولون إنه لم يكن يقاتل إلا بِرُمُحَيْنِ <sup>(٢)</sup> .

وهؤلاء الإخوة الثلاثة وأبناؤهم قصص الرواة عنهم وعن ثرائهم أخباراً كثيرة ، وفي الوليد نزلت الآية الكريمة : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْنُوناً وَبَيْنَ يَدَيْهِ شُهُوداً وَمَهَّيْتُ لَهُ مَهْمِداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » . وفي الطبرى أنه لما أسلم عِكْرَمَةُ بن أبي جهل بن هشام بن المغيرة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَسْأَلْنِي شَيْئاً أُعْطِيَهُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا أُعْطِيْتَهُ لَكَ ، فقال عِكْرَمَةُ : ما كنت لأسألك مالاً ، وإنى لمن أكثر قريش مالاً » <sup>(٣)</sup> ، فقَرَعَ الوليد وهشام كنانَتَريَيْنِ ، وكذلك كان قَرَعَ ابن أبي ربيعة ، فابنه عبد الله كان تاجراً موفيراً من تجار مكة في الجاهلية ، وكان مستجراً في اليمن ، وكانت

(١) الاشتقاق لابن دريد (نشر الخانجي) (٢) ألفاظ طبع دار الكتب ١١/١ وما بعدها.

(٣) طبى ٢٣٨٦/٢ .

١٠١ ، ١٤٧ ، ١٥٠ .

قريش تُسَمِّيهِ الْعِدَلُ ، لأنه كان يكسو الكعبة في الجاهلية سنة ، وتكسوها هي سنة <sup>(١)</sup> ، ويُقَالُ إنَّ الرُّسُولَ اقْتَرَضَ مِنْهُ بَضْعَةَ عَشَرَ أَلْفًا يَسْتَتَعِينَ بِهَا فِي مَوْقِعَةِ حُنَيْنٍ <sup>(٢)</sup> ، ويقال أيضاً إنه كان يملك عبيداً من الحبشة كثيرين ، وعرض على رسول الله أن يستخذ صَهِمٌ فِي غَزْوِ ثَقِيفٍ فَأَبَى ذَلِكَ <sup>(٣)</sup> . وَيُرْوَى الرِّوَاةُ أَنَّهُ وَلىَ لِلرُّسُولِ وِلَايَةً فِي الْيَمَنِ عَلَى مِقَاطَةِ تَسْمَى الْجَنْدُ ، وَلَمْ يَزَلْ وَالِيًا عَلَيْهَا ، حَتَّى تَوَفَّى أَثْنَاءَ حَصَارِ الْعَرَبِ لِعُمَانَ بْنِ عَفَانَ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ لِلْهِجْرَةِ <sup>(٤)</sup> .

فأبو عمر وهو عبد الله كان سيِّداً من سادات مكة ، وكان ثرياً مُفْطِرَ الثَّوْبِ ، ويقول الرواةُ إنه تزوج بِحَبَشِيَّةٍ جَاءَ مِنْهَا بَوْلَدٌ ، سَمَاهُ الْحَارِثُ ، وَهُوَ الْقُبَاعُ الَّذِي وَلَاهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى الْبَصْرَةِ ثُمَّ عَزَلَهُ عَنْهَا ، وَقَدْ مَرَّ ذَكَرُهُ فِي نَقَائِصِ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ ، وَتَزَوَّجَ عَبْدُ اللَّهِ أَيْضاً سَبْيَةً مِنْ سَبَايَا الْيَمَنِ تَسْمَى مَجْنُوداً وَهِيَ أُمُّ عَمْرٍ <sup>(٥)</sup> .

فَصَحْبٌ يَسْمَى الْأُمُّ قُرَيْشِيُّ الْأَبُ ، وَقَدْ تَوَهَّمُ بَعْضُ الْمَعَاصِرِينَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَكُتِبَ دَرَاسَةٌ لَهُ عَلَى أَسَاسِ هَذَا الْوَهْمِ الْحَاطِي <sup>(٦)</sup> ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَمَا تَشْهَدُ بِذَلِكَ أَخْبَارُهُ فِي كِتَابِ الْأَغَانِي وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَعْدٍ مِنْ أَنَّ أَبَاهُ نَزَلَ مَكَّةَ بِأَهْلِهِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ <sup>(٧)</sup> . وَنَرَى عَمْرَ نَفْسَهُ يَقُولُ : فِي بَعْضِ شِعْرِهِ . وَأَنَا أَمْرٌ بِقَرَارِ مَكَّةَ مَسْكُونِي وَلَهَا هَوَايَ فَقَدْ سَبَتْ قَلْبِي وَلَمْ يَكِدْ عَمْرٌ يَتَجَاوَزُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِهِ حَتَّى تَوَفَّى أَبُوهُ فَكَفَلَتْهُ أُمُّهُ ، وَقَامَتْ عَلَى تَرْبِيَتِهِ ، بَلْ لَقَدْ كَانَتْ تَقُومُ عَلَى هَذِهِ التَّرْبِيَةِ وَأَبُوهُ وَالِ عَلَى الْجَنْدِ بِالْيَمَنِ ، فَلَمْ يُلْزِمْهُ ابْنُهُ ، عَلَى مَا يَظْهَرُ ، أَثْنَاءَ وِلَايَتِهِ ، بَلْ تَرَكَهُ وَأُمُّهُ فِي مَكَّةَ . وَكَانَ لِقِيَامِ هَذِهِ السَّيِّدَةِ عَلَى تَرْبِيَةِ ابْنِهَا ، سِوَاةً فِي حَيَاةِ أَبِيهِ أَوْ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، أَثَرٌ عَمِيقٌ فِي نَفْسِيَّتِهِ ، فَقَدْ نَشَأَتْهُ نَشْأَةً كُلَّهَا دَلَالٌ ، وَتَصَادَفَ أَنَّ عَمْرَ كَانَ جَمِيلاً <sup>(٨)</sup> ، وَكَانَتْ هِيَ غَرِيبَةً ، فَاشْتَدَّ وَلَعُهَا بِابْنِهَا — وَاشْتَدَّتْ

(١) انظر كتاب عمر بن أبي ربيعة : حياته

وشعره لجمهور طبع بيروت .

(٢) ابن سعد ٣٢٨/٥ .

(٣) خزائن الأدب الجندى ( طبع بولاق )

٤٢٠/٢ .

(٤) أغاني ١/٦٤ .

(٥) طبري ٢٣٨٦/٣ .

(٦) أغاني ١/٦٥ .

(٧) الكامل لابن الأثير ١٦١/٣ وشذرات

النخب لابن الهادي ( طبع القسم ) ٤٠/١ .

(٨) أغاني ١/٦٦ .

صَبَّابَتِهَا بِهِ ، فَكَانَتْ لَا تُفَارِقُهُ وَكَانَ لَا يَفَارِقُهَا ، وَكَانَتْ تَبَالُغُ - كَعَادَةِ أُمَمَاتِ الْوَلَدِ الْوَاحِدِ - فِي هَيْئَتِهِ وَزِينَتِهِ وَعِطْرِهِ وَكُلِّ مَا يَتَصَلُّ بِهِ . وَاسْتَمَرَ ذَلِكَ دَأْبَهُ طُولَ حَيَاتِهِ <sup>(١)</sup> .

وَهَذِهِ التَّرِيَّةُ الْمُنْزِلِيَّةُ الْمُدَلَّلَةُ الْعَاطِرَةُ تَصَادَفُ فِي أَثْنَائِهَا أَنْ مُجْتَمَعَ مَكَّةَ كَانَ يَتَطَوَّرُ وَيَتَحَضَّرُ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْعُنَاصِرِ الْأَجْنِبِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي دَخَلَتْ فِيهِ بِسَبَبِ الْفَتْوحِ ، فَكَانَ يَكْتَنِظُ بِجَوَارِي الرُّومِ وَالْفَرُسِ ، وَكَانَ يَشِيعُ فِيهِ الْغِنَاءُ وَالْمُوسِيقَى . وَقَدْ وَجِدَتْ فِيهِ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ الْعَاطِلَةُ الَّتِي لَا بَدْءَ أَنْ تَمَلَأَ أَوْقَاتُهَا بِشَيْءٍ تَجِدُ فِيهِ لَهْوَهَا أَوْ عَلَى الْأَقْلَ بِعُضِّ اللَّهْوِ ، وَكَيْفَ تُمَضِّي هَذَا الْفَرَاغَ الْهَائِلَ الَّذِي حَلَّ بِهَا ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ مَغْلُومَةً ، يَخْدُمُهَا الْأَجَانِبُ ، وَيَهَيِّثُونَ لَهَا حَيَاتَهَا ، إِنْ لَمْ تَتَّخِذْ فَنَاءً كَفَنَ الْغِنَاءِ ؟ .

وَعَلَى هَذَا النُّحُوِّ أَصْبَحَتْ مَكَّةُ مَدِينَةً مَتَحَضَّرَةً ، وَقَدْ أَخَذَتْ تَعْمُهَا خُصَائِصُ كَثِيرَةٍ مِنْ تِلْكَ الْخُصَائِصِ الَّتِي نَرَاهَا فِي الْمَدَنِ حِينَ تَتَحَضَّرُ ، فَهَمَّ فِيهَا الْإِهْتِمَامُ بِفَنِّ الْغِنَاءِ ، وَهَمَّ فِيهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ التَّشْرِفِ ، وَأَخَذَ يَسُودُ الْمَجْتَمَعَ ضَرْبٌ مِنَ الْحَرِيَّةِ فِي حَيَاةِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، فَشَاعَتْ أَحَادِيثُ الصَّبَابَةِ وَالْغَزَلِ ، يَشَاعُ مَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ اللَّهْوِ .

وَكَانَ الْغِنَاءُ أَهَمَّ فَنُونِ اللَّهْوِ حِينَئِذٍ ، فَقَدْ تَلَقَّفَتْهُ أَيْدِي الْمَوَالِي وَالْجَوَارِي مِنْ الْأَجَانِبِ ، وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ اسْتَخْرَجَتْ مِنْهُ نَظْرِيَّةَ جَلِيدَةٍ تَحْدِثُنَا عَنْهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَهِيَ نَظْرِيَّةُ أَحَدِ ثَنَائِهَا هَذِهِ الْحَيَاةَ الْجَلِيدَةَ لِلْمَجْتَمَعِ الْمَكِّيِّ ، وَمَا تَعْلُقُ بِهِ النَّاسَ هُنَاكَ مِنَ السَّمَاعِ وَالْجُلُوسِ إِلَى الْمَغْنِينِ وَالْمَغْنِيَّاتِ . وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْمَغْنُونِ وَالْمَغْنِيَّاتِ يُمْلِكُونَ ، فَهَمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَوَالِي الَّذِينَ صَبَّبَتْهُمْ الْفَتْوحُ فِي حُجُورِ الْمَكِّيِّينَ ، فَكَانُوا يُغْنَوْنَ دَائِمًا حَسَبَ إِرَادَةِ سَادَتِهِمْ وَسَيِّدَاتِهِمْ ، إِذْ كَانُوا رَهْنًا لِإِشَارَتِهِمْ . وَبِذَلِكَ تَحَوَّلَتْ مَكَّةُ إِلَى مَا يَشْبَهُ الْمَسْرَحَ الْكَبِيرَ ، فَالْمَغْنُونِ وَالْمَغْنِيَّاتِ مَا يَزَالُونَ يَضْرِبُونَ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ عَلَى أَوْتَارِهِمْ ، وَهَذَا الشَّبَابُ الْمُتَعَطِّلُ مِنْ حَوْلِهِمْ فِتْيَاتٌ وَفِتْيَانٌ يَجْتَمِعْنَ بِهِمْ ، وَيَسْتَمِعْنَ إِلَيْهِمْ ، يَسْتَمِعْنَ فِي بَعْضِ الْمَنَازِلِ ، وَيَسْتَمِعْنَ فِي بَعْضِ الْمَتَنَزَّهَاتِ بِالضُّوَاحِي .

لم تعد مكة مدينة مُتَبَدُّيَّةً ، بل أصبحت مدينة متحضرةً يعرف أهلها كثيراً من ضروب الترف والنعيم في الملبس والمطعم وألوان الزينة المختلفة ، وماذا يَنْقُصُهُمْ ؟ إن المال مِلْءُ حُجُورِهِمْ ، والخوازي الفارسيات والروميات مِلْءُ قُصورِهِمْ ، وهؤلاء المغنون يقيمون لهم كل يوم ما يشاؤون من حفلات الغناء . وقد أخذت تَلَمَّحُ ، في هذا المجتمع ، أسماءُ أبناء الطبقة الراقية ، واشتهر كثير منهم بذوق رفيع ، حتى بين النساء أنفسهن .

وفي هذا المجتمع المتحضر الجديد عاشَ عمر بن أبي ربيعة ، ونَعِمَ بما نَعِمَ به شبابُ عصره من مُتعة الغناء والموسيقى ، وتَنَقَّسَ في هذه الحرية ، التي ظفر بها المجتمع الجديد ، من حيث الصَّلَة بين الرجل والمرأة ، وكانت منزلته وأسرته تُتَبَحَّحان له الاختلاط بكثير من أَسْرِ مكة ، وكان يتدفق على لسانه هذا البنبوع العذب ، ينبوع الشعر ، فذهب يُصَوِّرُ به مشاعره ومشاعر المرأة المكية في عصره ، واستمرَّ في هذا التصوير ، حتى آخر حياته ، أو قل حتى وفاته .

والروايات تضطرب في تحديد وفاته ويقول أبو الفرج إنه عاش سبعين سنة وإنه ولد ليلة قتل عمر بن الخطاب <sup>(١)</sup> أي في سنة ٢٣ للهجرة ، ومعنى ذلك أنه تَوَفَّى سنة ٩٣ في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) . وهناك رواية تزعم أن سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) نفاه إلى الطائف <sup>(٢)</sup> ، وأخرى تزعم أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) نفاه إلى دَهْلَسَك <sup>(٣)</sup> . والروايتان مَكْنُحُولَتَانِ ، لأنه لم يَلْحَقْ عصر سليمان ولا عصر عمر . ويزعمُ بعضُ الرواة أنه غَزَا في البحر ، فَأُحْرِقَتْ سَفِينَتُهُ فَأَحْتَرَقَ <sup>(٤)</sup> . وليس بمعقول أن يذهب إلى الغَزَا في سِنِّ السَّبعين . ويزعم آخرون أنه تغرَّلَ بسيدة وهي تَحْبُجُّ ، فدَعَسَتْ عليه فأت <sup>(٥)</sup> وهذه الرواية أقرب إلى القصص منها إلى الحقيقة .

وإذا كان الرواة اضْطَرَبُوا في وفاة عمر وكيف تَوَفَّى ، فإنهم اضطربوا أكثر

(١) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٧١/١ .

(٢) أغاني ٦٧/٩ .

(٣) أغاني ٦٤/٩ والشعر والشعراء ص ٣٤٩

وحظك جزيرة في البحر الأحمر بالقرب

من اليمن .

(٤) الشعر والشعراء ص ٣٤٩

(٥) أغاني ٢٤٧/١ .

في أخبار حياته ، إذ أخذت شكلَ قصصٍ يدور حول مغازلاته للمرأة المكية وبعض نساء المدينة ونساء العرب الخوارج . ولا يترتابُ مَنْ يقرأ الأغاني وأخبارَ عمر فيه أنه أصبح شخصية خيالية يتسجج حولها الرواةُ الأفاقيص ، ومن هنا اضطربت صورةُ حياته ، وأصبح من الصعب معرفةُ الخيوط الحقيقية من الخيوط الزائفة التي تُسججت منها هذه الحياة ، إذ تدخلت فيها مُخيلةُ القصاص والرواة .

ومن أجل ذلك يكون من الخطأ أن يُحكّمَ على عمر وعشقه من هذه الأحاديث التي دارت عنه في الجزء الأول من كتاب الأغاني ، فأكثرها كُتِبَ لتسلية الناس والترفيه عنهم ، لا لوصف حقيقة عمر وحبه ، فإذا سلمنا بها وصنعنا منها حياة عمر وعشقه نكون قد حَرَفْنَا هذه الحياة وذلك العشق بمقدار ما حَرَفَ القصاصُ فيهما .

والواقع أن قصص الرواة عن عمر لا يمثل عمرَ تماماً ، وأيضاً فإنه لا يمثل النساء والفتيات اللاتي تغزل بهن عمر ، فلم يكن مُجتمَع مكة ماجناً كل هذا المجون الذي يقصّه الرواةُ عن المرأة المكية في هذا العصر .

وفرقٌ بين أن يكون المجتمع حراً وأن يكون ماجناً ، فالذي لا ريب فيه أن المرأة المكية نالت حرية واسعة في هذا العصر لم تكن جدتها أو أمها تنالها ، وأن طبيعة الحياة نفسها وما كان فيها من مزاحمة الجوارى الأجنبية من فارسيات وروميات لما جعلها تخرج من حجابها القديم ، وتطلب الرجل وتغازله . ولكن الرواة وسعوا الصورة ، وكادوا يجعلونها عبثاً خالصاً ، وفرق بين العبث والحرية . ولذلك كنا نجد نساء فضليات كالسيدة سَكِينَةَ بنت الحسين تُشوّش صورتها في الأغاني كما تُشوّشُ صورة الفتاة الأولى في حياة عمر وهي الشَّريفة<sup>(١)</sup> بنت علي ابن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس .

ومن يردُّ أخبار الثريا بعضها إلى بعض يستطيع أن يعرف في وضوح أنها كانت من الفتيات البارزات في مكة حسَباً ونسباً ، وتزوجها سهيل بن عبد العزيز بن مروان . وكانت وهي في مكة تُعجب بالفن الجليد ، فن الغناء ،

وقد تخرّج في بيتها الفريضة ويَحْيَى قَيْلَ وَسُمَيَّة . ولعل ذلك ما جعلها تتصل بعمر ، إذ كان ينظم الشعر في الحب وكان أكبر مصدر لمقطوعات هذا الشعر التي تُغنى في مكة ، فمرّفته ، وبرزت إليه على سُنّة الشريفات في عصرها ، ونظّم فيها كثيراً من غزله ، وبادله ودّاً بُود<sup>(١)</sup> .

واختلاط أخبار الرّيا مع عمر يشبه اختلاط أخبار السيدة الثانية في ديوانه ، وهي زينب الجُمُحِيَّة ، ولم تكن من أهل مكة ، وإنما كانت من أهل المدينة ، حَجَّتْ مع أخيها قُدّامة ، فأُعْجِبَ بها عمر<sup>(٢)</sup> ، ولم تلبث أن انعقدت بينهما أسبابُ الودِّ ، ونظن ظناً أنها هي الجُمُحِيَّة التي تزوّج بها<sup>(٣)</sup> ، فكل من يقرن أشعار عمر بعضها إلى بعض يستطيع أن يعرف أن زينب هذه هي نفسها هند<sup>(٤)</sup> التي أكثرَ من الصّباة بها في شعره . وأيضاً هي نفسها نُعْم<sup>(٥)</sup> ، وهي ذات الحال<sup>(٦)</sup> التي يتغنّى بها . ولم يحاول الرواة أن يتيقنوا شيئاً من ذلك ، وإنما حاولوا أن يقصّوا عن عمر والأسماء الموجودة في ديوانه قصصاً كثيراً للتسليّة وقطّعت أوقات الفراغ ، ولم يتيقنوا إلى أن بعض هذه الأسماء قد يكون حقيقياً وأن بعضها قد يكون رمزياً إلا ما كان من أبي الفرج ، إذ أشار إلى أن اسم نُعْم التي يتنزل فيها عمر اسم رمزي<sup>(٧)</sup> . ولا ريب في أن أسماء أخرى كانت رمزيّة ، فكان مرة يذكر الاسم صراحة ، ومرةً يكتفي ، وكانت زينب الجُمُحِيَّة خاصة تطلب منه ذلك<sup>(٨)</sup> .

وهذا كله لا يهمنا هنا ، وإنما يهمنا أن نعرف أن المرأة التي كان يتنزل بها عمر كانت تختلف اختلافاً تاماً من أمها أو جدتها في الجاهلية ، فهي منعمة ، وهي مخدومة بالجواري الأجنبية ، وهي تقضى أوقاتها في الاستماع إلى الغناء . ومن هنا كانت الظاهرة الأولى في غزل عمر أن المرأة التي يتنزل بها متحضرة مبالغة في تحضرها ، وقد أصابت ضرباً من الحرية تحت تأثير الحياة الاجتماعية الحديثة ،

(١) انظر أخبارها في الأغاني ٢١٢/١ وكذلك ٢٢٨/١ .  
 (٢) أغاني ٩٨/١ .  
 (٣) أغاني ٢٢٠/١ .  
 (٤) نفس المصدر ٢٣٩/٩ .  
 (٥) انظر الأغاني ٢١٣/٤ ، ٢٣٩/٩ .  
 (٦) أغاني ٢٣٩/٩ .  
 (٧) نفس المصدر ٢٣٩/٩ .  
 (٨) ديوان عمر (طبع ليبك) ص ٨٢، ٨٧ .

كما أخذت تُقْبِل على الرجل بأكثر مما كانت تُقْبِل عليه المرأة الجاهلية ، فهي ليست مثلها حشمةً وتضعاً وتكلفاً وما يتصل بالتكلف ، وإنما هي سيدة حديثة تأخذ قِسْطاً واضحاً من الحرية فتَبَرُّزُ للرجال ، وقد تفازلهم غزلاً عفيفاً . ونحن نظن أن من أسباب اندفاع المرأة المكية إلى الرجل في هذا العصر بجانب ما قدّمنا من وجود الجوارى الأجنبية في قَصْرِها أن كثيراً من الشبان خرجوا من وطنهم للغزو والجهاد ، ولم يعودوا ، إما لأنهم قُتِلوا في الفتح أو لأنهم آثروا الأرض الجديدة التي نزلوا فيها ، فكان ذلك عاملاً من عوامل إقبال المرأة المكية على الشباب في هذا العصر ، ودائماً عقب الحروب تحدث مثل هذه الهزات في نفسية المجتمع .

أسباب مختلفة جعلت المجتمع المكي يسوده شيء من الحرية غير قليل ، بعضها يرجع إلى ما أحرز العرب من مجد الفتح وإحساس المرأة القرشية بذلك ، وبعضها يرجع إلى الجوارى الأجنبية وما أُنْتَحَنَ برأيتهن للمجتمع من حرية ، وبعض آخر يرجع إلى النقص الياذي في شباب مكة ، وخاصة أنهم استمروا طوال هذا العصر الأموي ينزلون في الأقاليم المختلفة ، فكانت المرأة القرشية تَبَرُّزُ للرجال محاولة أن تجتذبهم إليها من هؤلاء الجوارى من جهة ، ومن تلك الأوطان التي ينزلونها من جهة أخرى ، وهي في هذا كله شاعرة بمكانتها ومكانة قومها ، وما أحرزوه من دولتي الفرس والروم .

ولعل في هذا ما يدل دلالة واضحة على أن المرأة التي نجدتها في غزل عمر كانت من ذوق آخر غير الذوق الجاهلي ، ذَوْقٌ متحضر ، وأظن أن ذلك ما جعل الرواة يكثرّون عنها من القصص في غير احتياط ، فقد وجدوا صورتها في ديوان عمر تختلف من صورة أمها وجدتها في الشعر القديم ، فذهبوا ينسجون حولها كثيراً من القصص واندفعوا إلى رواية صُورَ ماجنة لا تؤيدّها حقيقة الحياة حينئذ ، ولا ديوان عمر نفسه .

على كل حال غزلُ عمر بن أبي ربيعة الذي نقرؤه في ديوانه جديدٌ في تاريخ الشعر العربي من حيث المرأة التي يتغزل بها ، فهي امرأة متحضرة ، أُتِيحَ لها من الفراغ وأسباب زينة الحياة ما لم يُتَحَ للمرأة الجاهلية . وفي غزل عمر أبيات كثيرة

تصفُ ملابسَ هذه المرأة المتحضرة . وما كانت تفرق فيه من الخلى والطيب<sup>(١)</sup> ،  
وفيه أيضاً أبيات كثيرة تصور مدى ما وصلت إليه من ترف ونعيم ، واستمع إلى  
عمر بقول<sup>(٢)</sup> :

لو دبَّ ذرٌّ فوق صاحي جِلْدِها      لأبانَ من آثارِه منْ حَدُورُ

فلو أن الذرَّ اتصل بظاهر جسمها لظهرت فيه من آثاره كلُّوم وجُرُوح .  
وفي كل جانب من جوانب غزل عمر نجد أثر هذا النعيم بل قل أثر هذا الترف  
الشديد .

ومعنى ذلك أن صورة المرأة في غزل عمر صورة جديدة ، هي صورة امرأة  
مُنعمة مُترفة ، تحفُّ بها الجوارى يسكننها ويُعَدِّدْنَ لها من أفانين اللهو  
واللعب ما تقطع به وقتها قطعاً هنيئاً ، على هذا النحو الذى يصفه عمر<sup>(٣)</sup> :

ولقد قالتْ لِحَارَاتِهَا      كَالْمَهَاءِ يَلْعَبْنَ فِي حُجْرَتِهَا  
خُذْنَ عَنِّي الظِّلَّ لَا يَشْتَبِعُنِي      وَمَضَتْ تَسْعَى إِلَى قُبَّتِهَا

وهذا دلالٌ أى دلال ، أن تطلب امرأة من جواربها أن يأخذن الظل عنها ،  
وأكبر الظن أنها لا ترمز بذلك إلى شيء سوى الظل نفسه ، فالحديث حديث  
دلال ولعب .

وهذه المرأة المدللة المترفة ، كما كانت تتسلَّى باللعب مع جواربها ، كانت  
تسلَّى يلعب المغنين والمغنيات ، وما يلحَّثون على عيدانهم . ومن هنا تأتى صلةُ  
عمر بها ، فقد كان يلزم المغنين ، يقدم لهم الشعر ويغنون فيه ، فطبعى أن يتصل  
بسيدهم من مثل الثريَّا مولاة الغريص وكان من أهم المغنين في عصره ، كما يتصل  
بغيرها ممن يزُرُّنَّها ويجلسن معها للسَّماع .

وكما يُعَقَّدُ هذا المجلس في بيت الثريَّا قد يُعَقَّدُ في متنزهٍ أو في بعض ضواحي  
مكة ، فيجلس بعض السيدات ، وقد يجلس معهن بعض الشباب ، يستمعون جميعاً  
إلى مغنٍّ أو مغنية ، ففى الأغاني أن الحارث بن خالد المخزومي الشاعر المعروف قال :

(٣) أغاني ٢٠٨/٨ .

(١) أغاني ٩٥/١ .

(٢) الديوان من ١٥ .

« بَلَغَتْنِي أَنْ الْغَرِيضُ خَرَجَ مَعَ نِسْوَةٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، مِنْ أَهْلِ الشَّرَفِ ، لَيْلًا ، إِلَى بَعْضِ الْمُتَحَدِّثَاتِ مِنْ نَوَاحِي مَكَّةَ ، وَكَانَتْ لَيْلَةً مُقْمِرَةً ، فَاشْتَقْتُ إِلَيْهِنَّ ، وَإِلَى مَجَالِسِهِنَّ ، وَإِلَى حَدِيثِهِنَّ ، وَكَانَ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ مَعِي قَرِيبًا ، فَأَتَيْتُهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنْ فُلَانَةٌ وَفُلَانَةٌ وَفُلَانَةٌ — حَتَّى سَمِيتِهِنَّ كُلَّهُنَّ — قَدْ بَعَثْتَنِي وَهَنَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَقُلْنِ : تَشَوَّقُنَّ إِلَيْكَ فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ لَصَوْتِ أَنْشَدَانِهِ الْغَرِيضُ ، وَكَانَ الْغَرِيضُ يُغَنِّي هَذَا الصَّوْتَ ، فَيَجِيدهُ ، وَكَانَ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بِهِ مُعْجَبًا ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَسْأَلُ الْغَرِيضَ أَنْ يُغَنِّيَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

أَمْسَى بِأَسْمَاءَ هَذَا الْقَلْبُ مَعْمُودًا      إِذَا أَقُولُ صَحَا يَعْتَادُهُ عِيدًا

فَلَمَّا أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ قَالَ : لَقَدْ أَرَعَجْتَنِي فِي وَقْتٍ كَانَتْ الدَّعَةُ أَحَبَّ فِيهِ إِلَيَّ ، وَلَكِنْ صَوْتُ الْغَرِيضِ وَحْدَيْتِ النِّسْوَةِ لَيْسَ لَهُ مُتَّبَرِّكٌ ، وَلَا عَنْهُ مَحْبِصٌ ، فَدَعَا بِشِيبَاهُ ، فَلَبِسَهَا ، وَقَالَ : أَمَضْ فَضِينَا نَحْنُ الْعَجَلُ ، حَتَّى قَرَبْنَا مِنْهُنَّ ، فَقَالَ لِي عَمْرٌ : خَفِّضْ عَلَيْكَ مَشْيُكَ ، فَفَعَلْتُ ، حَتَّى وَقَفْنَا عَلَيْهِنَّ ، وَهَنَ فِي أَطْيَبِ حَدِيثٍ وَأَحْسَنِ مَجْلَسٍ ، فَسَلَّمْنَا ، فَتَهَيَّبْنَنَا ، وَتَخَفَّرْنَ مِنَّا ، فَقَالَ الْغَرِيضُ : لَا عَلَيْكُنَّ ! هَذَا ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْحَارِثُ بْنُ خَالِدٍ جَاءَا مُتَشَوِّقَيْنِ إِلَى حَدِيثِكُنَّ وَغَنَائِي ، فَقَالَتْ فُلَانَةٌ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا ابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَاللَّهِ مَا تَمَّ مَجْلِسُنَا إِلَّا بِكَ ، اجْلِسَا ، فَجَلَسْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ ، وَأَخَذْنَا عَلَيْهِنَّ جَلَابِيْبِهِنَّ ، وَتَقَرَّرْنَا بِأَخْمِيرَتِهِنَّ ، وَأَقْبَلْنَا عَلَيْنَا بِوُجُوْهِهِنَّ . . . فَلَمْ نَزَلْ بِأَنْتَعَمَ لَيْلَةً وَأَطْيَبَهَا حَتَّى بَدَأَ الْقَمَرُ يَغِيبُ ، فَقَمْنَا جَمِيعًا ، وَأَخَذَ النِّسْوَةُ طَرِيقًا وَنَحْنُ طَرِيقًا ، وَأَخَذَ الْغَرِيضُ مَعَنَا <sup>(١)</sup> .

وَلَعَلَّ فِي هَذَا الْخَبَرِ مَا يَرِينَا كَيْفَ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَجْتَمِعُونَ لِسَمَاعِ الْمَغْنِينِ تَارَةً فِي مَنَازِلِهِمْ وَتَارَةً فِي بَعْضِ الْمَضَاحِي ، لِيَسْمَعُوا إِلَى مَا يُحَدِّثُونَ وَكَانَ يَحْضُرُ الْمَغْنِي وَيَحْضُرُ مَعَهُ فِي أَحْوَالٍ كَثِيرَةٍ الشَّاعِرُ الَّذِي يُغَنِّي فِي شِعْرِهِ . وَكُلٌّ مِنْ يَقْرَأُ أَخْبَارَ عَمْرِ فِي الْأَغَانِي أَوْ أَخْبَارَ الْغَرِيضِ وَابْنِ سُرَيْجٍ يَحْسُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَفَارِقُهُمَا ، وَكَانَا أَهْمَ مَغْنِينٍ هُنَاكَ ، فَكَانَ يَحْضُرُ مَعَهُمَا مَجَالِسَ الْغِنَاءِ ، وَكَانَ يَسْتَأْثِرُ بِهِمَا مِنْ دُونِ النَّاسِ اسْتِثْنَاءً ، إِذْ كَانَ ثَرِيًّا ثَرَاءً مَقْرُطًا ، وَكَانَ كَثِيرَ الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ لَهَا ، فَعَاشَا فِي ظِلَالِهِ ،

وأصبحا يؤلفان معه ما يشبه الجوقة .

وكان نساء مكة يعجبْنَ بهذه الجوقة الطريفة كما كان يعجب بها نساء أهل المدينة ، فكان يُرسلُنَّ في طلبها ، وكان يرسلن طبعاً إلى ربّها عمر ، حتى يحضر معه ابن سُرَيْج أو الغرييض أو هداً معاً ، ففي الأغاني أن نسوة اجتمعن في المدينة فذكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظهرته وحسن مجلسه وحديثه ، وتشوّقن إليه ، وتمنّيته ، فقالت سَكِينَةُ بنت الحسين : أنا لكن به ، فبعثت إليه رسولا ، ووعدته الصّورين<sup>(١)</sup> الليلة سَمَتَهَا ، فوافاها على رواحه ، ومعه الغرييض ، فحدثهن حتى وافى الفجر . وحان انصرافهن ، فقال لمن : إني والله لمشتاق إلى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ، ثم انصرف إلى مكة ، وقال :

أَلَحِمٌ بَرِيذٌ إِنَّ الْبَيْنَ قَدْ أَفِدَا      قَلَّ الدَّوَاءُ لَنْ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا<sup>(٢)</sup>

وأكبر الظن أن زينب هذه هي زينب الجمّاحية . وعلى هذا النحو كان عمر يختلط بالنساء في عصره ، وكان يجذبن إليه شعره والمغنون الذين يغنونه . وكل ذلك أحدث طرافة في غزله إذ جعله يتصل مباشرة بالمرأة المتحضرة لعهده ، وقد رشّحته تربية أمه ومعاشرته لها ولأن يزُرُّها من النساء أن يُحسّن وصفهن ، وأن يعرف حقاً كيف يصوّر نفسيتهن في مكة لعصره ، فقد خبّرت هنّ من قرب عن طريق أمه من جهة ، وعن طريق اختلاطه بهن مع الغرييض وغيره من جهة أخرى ، فتحوّل في غزله إلى وصف أحاديثهن ، وما ينطوى فيها من غيرةٍ وغير غيرةٍ ، وخاصة حين يتعرض شخصٌ لسيدة يصف جمالها ، فيزرع بذلك الحقد في قلوب أخواتها ، ويستفسّسن عليها ما توصف به من حسنٍ وفتنة ، واستمع إليه بقول<sup>(٣)</sup> :

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزَتْ نَأْمًا مَا تَعِدُ      وَشَقَّتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَعْجِدُ  
وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً      إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ  
وَلَقَدْ قَالَتْ لِحَارَاتٍ لَهَا      ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَرَّتْ تَبْتَرِدُ

والنّواء : الإقامة .

(٢) أغاني ١٨٦/١ والديوان ص ١١٥

(١) الصّوران : موضع بالمدينة  
(٢) أغاني ٣٧٦/٢ ، وأند : اقترّب ،

أَكْمَا يَنْتَعِنِي تُبْصِرُنِي عَمَّرَكُنَّ اللَّهُ أُمَّ لَا يَفْتَصِدُ  
فَتَضَاحَكُنْ وَقَدْ قُلْنَ لَهَا حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مِّنْ تَوَدَّ  
حَسَدًا حُمْلَتُهُ مِنْ أَجْلِهَا وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ

فعمر يتحدث هنا بلسان النساء ونفسيتهن ، وما يغمرهن من غيرةٍ شديدة حين يتغنى شخص بجمال إحداهن وما لها من فتنة وإغراء .

وغزلُ عمر طريف من هذه الناحية ، فهو يقصُّ علينا كثيراً من أحاديث النساء وثُرَّاهتهن ، وما يحول في أذهانهن ، وكل ذلك يمدُّه فيه تربية أمه له ، وما تعودته من الجلوس مع المرأة في عصره . وأكبر الظن أني لا أغلو إذا زعمت أن عمر به جانبٌ من انعكاس العاطفة وشلوذها ، فنحن لا نجد عنده الشاعر الغزل المألوف الذي يُعنى بوصف حُبِّه ، وإنما نجد شاعراً يعنى بوصف المرأة نفسها ، ووصف أحاسيسها ، وكأن غاية من ديوانه أن يصف المرأة وصفاً نفسياً .

ومعنى ذلك أن عمر في ديوانه وغزله مُعْطَلٌ إلى حد كبير ، إذ حوّل الغزل من الرجل إلى المرأة ، فالصورة العامة في غزله أنه معشوقٌ لا عاشق . وعمر في ذلك يُعَبِّرُ عن تطوُّر جديد في الحياة العربية ، فقبله لم تكن نعرف شاعراً يصيح شخصه موضوع الغزل في غزله ، وإنما شخص المرأة هو الموضوع المعروف للغزل ، وبعبارة أخرى كانت المرأة قبل غزل ابن أبي ربيعة هي المعشوقة ، أما في غزله ، فقد تحولت إلى عاشقة ، كما تحول عمر نفسه من عاشق إلى معشوق .

ولعل هذا ما جعل عمر يتفرّد في غزله بشخصية واضحة ، لم يستطع أحد أن يجاريها ، لأن عمر نفسه ليس من السهل أن يوجد مراراً ، إذ لا بد للشاعر من ظروف كثيرة تُحوّله من عالم العاشقين إلى عالم المعشوقين ، لا بد أن يكون له ثراءٌ عمر ، وأن تكون له أمه التي عاشت له ، وعاشت تعشقه ، وأيضاً لا بد أن يوجد سُجْتَمَعٌ مكة وما فيه من نساء أصبَنَ شيئاً من الحرية ، فكشَّرَ الاختلاط بينهما وبين الرجال ، على نحو ما كثر بين نساء مكة وابن أبي ربيعة .

وبما يمكن فإن هذا جانب واضح في غزل عمر بل هو خاصة تميّزه عن غيره من الغزّالين في ذلك . يخ الشعر العربي ، فقد انعكست العاطفة عنده ، وشذت هذا الشلوذ

الذى حوَّله من عاشق إلى معشوق ، فإذا النساء هنَّ اللاتي يَطْلُبْنَهُ . وإذا هو الذى يُدِلُّ عليهن ، ويَخْتَال ، على نحو ما نرى فى قوله <sup>(١)</sup> :

قالت ليرب لها تحدُّثُها      لتُفسِدَنَّ الطوافَ فى عُمرِ  
قوى تصدَّى له ليعرفنَّا      ثم اغمِز به يا أخت فى خفيرِ  
قالت لما قد غمِزته فأبى      ثم اسبِطرت <sup>(٢)</sup> تسعى على أثرى

فعمز هو المتبوع لا التابع ، وهو المطلوب لا الطالب ، وهو المعشوق لا العاشق ، فالنساء يُغَمِّزْنَ به ، ويتصدَّين له ، وينتهزن كل فرصة للقاءه ، ويُسِرْنَ له باليد حيناً وبالعين حيناً ، ويغمِزنه ضرباً مختلفاً من الغمز ، وهو فى كل ذلك لا يُعْنَى ولا يَلْتَفِتُ دلالاً وتيهاً ، وإعجاباً بنفسه وبجماله . وقد عرف معاصروه ذلك فيه ، فى أخباره أنه أنشد ابن أبى عتيق قوله :

بينما ينعتننى أبصرتنى      دون قيد <sup>(٣)</sup> الميل يبعدُ وبى الأغر  
قالت الكبرى أتعرِفن الفتى      قالت الوسطى نعم هذا عُمر  
قالت الصغرى وقد تيممتها      قد عرفناه وهل يخفى القمر

فقال له ابن أبى عتيق : « أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك ، كان ينبغى أن تقول : قلت لها ، فقالت لى ، فوضعتُ خدَّي ، فوطئتُ عليه » <sup>(٤)</sup> .

ومعنى ذلك أن معاصرى ابن أبى ربيعة كانوا يعرفون فيه هذا الضعف العاطفى ، وأنه مشغول فى غزاه لا بيسيدات عصره ، وإنما بنفسه <sup>(٥)</sup> ، وكأنما حسنه وجماله هيئته لذلك ، فانقلب يتحدث عن نفسه وعيشته السيدات والفتيات له ، حتى ليجعل زواجه ما تَمَّ لهم ، بل نارا مُستعيرة فى قلوبهن ، واستمع إليه يقول على لسان الثرى <sup>(٦)</sup> :

خبروها بأننى قد تزوّجتُ      تَفَلَّاتُ تَكاتيمُ الغَيْظِ سِيراً  
ثم قالت لأختها ولأخرى      جزعاً ليشه تزوّج عَشراً

(٥) خزانة الأدب ٢/٤٢٠ والموشح (طبع

المطبعة السلفية) ص ٢٠٤ .

(٦) الديوان ص ٢٣٤ .

(١) أغاني ١/١٠٣ .

(٢) اسبطرت : أسمرت .

(٣) قيد : قدر .

(٤) أغاني ١/١١٨ .

وأشارت إلى نيام لديها لا ترى دونهن للسر مستراً  
ما لي قلبي كأنه ليس مني وعظامي إخال فيهن فثراً  
من حديث نعى إلى فظيع خلعت في القلب من تكلّبه جثراً

فهو الذي تستعير له قلوب النساء حين يغير من أبيهين ، وهو الذي يذيب قلوبهن كمدأ وحسرة حين ينصرف عنهن . إنه هو المعشوق الذي يستصبيهن ، والمحبوب الذي يعدّ بهن ، وهل في مكة من فتاة أو سيدة إلا قد برأها حبه ، وإنها لتنتظر من وراء الكوى والخروق ممرّه ، لتملأ عينها بجماله وحسنه (١) :

وكن إذا أبصرتنى أو سمعتنى سعين فرقعن الكوى بالمحاجر

فكل مكبة تلهج باسمه ، وتشكو تباريح حبه ، فأحشاء النساء خافقة به ، وقلوبهن هائمة بجماله ، وهو لا يغدو ولا يروح ، حتى يراهن يسعين في أثره ، كما يقول في بعض غزله (٢) :

البتت بالتي قالت لمسولة لها ظهراً  
أشيري بالسّلام له إذا هو نحوتنا خطراً

فالنساء متيمات به ، قد أفرح الحب قلوبهن ، وهن يتابعنه بالسلام والغمز والإشارات ، وهو يدلّ عليهن ويصدّ عنهن ، بل إنه ليهجرهن من غير سب ، ويعلن ذلك إعلاناً فيقول (٣) :

ما ضيرارى نفسي بهجرة من لبّ من مسيئاً ولا بعيداً نواه  
واجتنابى بيت الحبيب وما الخلد بأشهى إلى من أن أراه

فهو الذي يهجر حبيته من غير إساءة ولا ذنب جسته ، وهو يهجرها مع قربها منه ، كأنما يجد لذة في الهجر من حيث هو ، لأنه يعتبر بما يريد من نيه ودلال وإعجاب بنفسه ، كما تعجب المرأة المعشوقة بدلالها ونسبها ، وهي في ذلك تريد أن تعلن عن غرائب الحسن فيها وعجائب الجمال وما يطوّى في الجمال .

(٣) الديوان ص ١٦٥ .

(١) الديوان ص ٢٣٥ .

(٢) ألف ٩٢/١ .

ولا ريب في أن غزل عمر من هذه الناحية جليل خالص في اللغة العربية ، فهو لا يشكو على عادة المحبين هَجَرَ مَنْ يَجْوزُهُمْ وَتَأْيِسَهُمْ وَصَدَّ عَنْهُ ، وإنما يعلن أنه هو الذي يَهْجُرُ ، وهو الذي يَتَأَيَّسُ وَيَصُدُّ ، وهو الذي يَقَرِّحُ الجفونَ ، وَيُكْمِدُ القلوبَ . وغزله كله يصور ذلك تصويراً دقيقاً ، من مثل قوله <sup>(١)</sup> :

قالت لقيتمها وأذرت عبيرةً      مالى ومالك يا أبا الخطّابِ  
أطمعتنى حتى إذا أوردتني      حلاّتني <sup>(٢)</sup> لم أستقيم شرابى

وهو شراب كانت تَتَمَنّاهُ لنفسها كل فتاة وكل سيدة ، أو على الأقل يحاول عمر أن يعطينا هذه الصورة لنفسه ، فهو الجميل الذي يعكف عليه النساء ، وهو الذي يتمنى حبه في عظامهن ، ويخالط دماءهن وأرواحهن ، ثم هو على ذلك يهجرهن ، فيُرْسِلُنَّ وراءه الرُّسُلَ ، يقول في بعض غزله <sup>(٣)</sup> :

إنّ هندا قد أرسلت      وأخو الشوق مُرْسِلُ  
أرسلت      تَسْتَحِثُّ      وتُفَدِّى      وتَعْدُلُ

فهند وغير هند يُرْسِلُنَّ إليه ، وهو يتأبى ويتمنع ، وهن لا يترشّن ولا يتمهلن ، بل يتولهن ويهجن ، ويرسلن بالرُّسُلِ تِلْوُ الرُّسُلِ ، فلبين بعد طول الصّدِّ والتمنع .

وتكثر هذه الرسل في غزله من مثل بَشْرَةَ <sup>(٤)</sup> وأُرْوَى <sup>(٥)</sup> وسُلَيْمَى <sup>(٦)</sup> . وهكذا عمر دائماً ، أو هكذا غزله ، فالصورة — ونقصد صورة المشق — معكوسة في ديوانه ، إذ كل ما نعرفه عند المرأة نجد عمر يُصَوِّرُ به نفسه ، واستمع إليه يقول <sup>(٧)</sup> :

عجباً لموقفنا وموقفها      ويسمع نيربينا تُراجِعُنَا  
ومقالها مير ليلةً معنَا      نَعْمَدُ فَإِنَّ البَيْنَ فاجِعُنَا  
قلتُ العيونُ كثيرةٌ معكم      وأظنُّ أن السَّيْرَ ما نِعُنَا

(٥) الديوان ص ١٣١ .  
(٦) الديوان ص ٥٥ وانظر أيضاً ص ١٣٢ .  
(٧) أغاني ١/٩١ .

(١) الموشح ص ٢٠٥ .  
(٢) حلا : منح .  
(٣) أغاني ١/١٨٣ .  
(٤) الديوان ص ٨٩ .

فصاحبه هي التي تطلب منه أن يسير معها ، وهو الذي يخاف العيون والمراصد التي ترصده . والموقفان جميعاً غريبان ولكن لا غرابة عند عمر ، فقد تبدلت طبيعة الغزل عنده ، وأصبح هو المَشوق لا العاشق . ومن طُرَف هذا الباب عنده أن نجده يذكر الوُشاة على عادة العاشقين ، غير أن الوُشاة عنده لا يأتون ليشكو هو منهم ، وإنما لشكو عاشقاته منهم ، كما نرى في بعض غزله ، إذ يقول (١) :

وَلَمَّا التَقَيْنَا سَكَمْتُ وَتَسَمْتُ      وَقَالَتْ كَقَوْلِ الْمُحْرَضِ الْمُتَجَنِّبِ  
أَمِنْ أَجْلِ وَاشْ كَاشِعٍ بِنَجِيمَةٍ      مَشَى بَيْنَنَا صَدَقْتُهُ لَمْ تَكْذِبِ  
قَطَعْتُ وَصَالَ الْجَبَلَ مِنَّا وَمِنْ يَطْعٍ      بَلَى وَدَّ قَوْلَ الْمُتَحَرِّشِ بُعْتِبِ

فالمرأة في شعر عمر هي التي تشكو من الوُشاة ، وهي التي تطلب إليه أن لا يصدقهم ، وأن لا يقطع حبال الودِّ والحُبِّ ، فيحقق لم أمنيتهم .

وعلى هذه الشاكلة يحاول عمر أن يجعل كل فتاة وكل سيدة في مكة ممن يذكرهن في غزله متعلقة به ، ويُخْبِلُ إلى الإنسان أنه لم تكن هناك شريفة ولا غير شريفة إلا وهي تتمنى منه نظرة عطف ورضا . ولا شك في أن هذه صورة معكوسة للعشق المعروف عند العرب ، حتى لئلا يطلب من عاشقته أن لا تبوح باسمه ، على نحو ما يطلب بعض النساء من عاشقين أن لا يبوحوا باسمهن ، ألا تراه يقول في بعض غزله (٢) :

أَلَمْ تَعْلَمِي مَا كُنْتُ أَلَيْتُ فِيكُمْ      وَأَقْسَمْتُ لِاتَّحَكِّينَ ذَاكِرَةً بِاسْمِي  
فَعُمِّرْ يَطْلُبُ مِنْ صَاحِبِهِ أَنْ لَا تَعْلَنَ عَنْ اسْمِهِ . والحق أن كل الصورة التي نجدها للمرأة المحبوبة في الغزل العربي نجدها قد أُصِيقَتْ إلصاقاً بعمر ، وتعلّمت عليه بجميع تفاصيلها وتفاصيلها .

وإذن فلم يكن عمر عاشقاً في غزله ، بل كان معشوقاً ، ولعل في ذلك ما يدل بوضوح على فساد هذا القصص الذي أكثر منه الرواة عنه ، والذي حكاه صاحب الأغاني ، فأكثره لا يتفق وهذه الشخصية التي شدّت في عواطفها . ولذلك كنا لا نشك في عِفَّة عمر كما شك القلماء (٣) ، فثله في تربيته وعواطفه لا يكون إباحياً ،

(٣) أغاني ١/ ٧٥ - ٧٦ .

(١) الديوان ص ١٧٨ .

(٢) الديوان ص ٧٨ .

ولعل ذلك كان سبباً مهماً في أن نساء قريش كنَّ يَبْهَرُزْنَ له ، ويتحدثنَّ إليه .  
ونستطيع بذلك أن نفهم لماذا لم يكن لعمر مدرسة في تاريخ الغزل العربي ، لأنه  
كما قلنا كان مُفَرَّدُ الشخصية ، وعملت ظروف مختلفة في تكوينه ، ليس من  
السهل أن توجد عند غيره . ولا ريب في أنه ثمة هذه الحضارة التي دخلت في مكة  
والمدينة ، فأَرْهَقَت المشاعر ، وطَبَّعَت الناس بطوايع جديدة . قد يكون فيه ضرب  
من الشذوذ العاطفي ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يَنْفُذَ إلى تصوير مُجْتَمَعِهِ  
الجديد ، فتحن لا نقرأ ما يصف به امرأة عصره وإقبالها على حديث الرجال وما يكون  
بينها وبينهم من رُسُل ، حتى نَطَّلَعَ على صورة جديدة للمرأة العربية .

وَعَزَلَ عمر لذلك بديع ، لأننا نستطيع أن نَنْفُذَ منه إلى معرفة كثير من  
المحرِّكات النفسية للمجتمع العربي في مكة والمدينة وما أصابه من تبدُّل تحت تأثير  
الحضارة الجديدة ، إذ أتاح لنا بواسطة هذا الحوار المفتوح في الديوان بين السيدات  
عن جماله وفِشَنَّتِه أن نتعرَّف إلى كثير من جوانب الحياة المعاصرة له ، وخاصة حياة  
النساء وما نِلْنَ من حظوظ في الحرية ، وأيضاً فإنه كَشَفَ في أحاديثهنَّ عن جوانب  
كثيرة من نفسياتهنَّ ، وما يتغلغل فيها من تَرَاهَات وتخلَّجات ووجدانات .

ومحور الغزل هو عمر نفسه وعشق النساء له ، ولكن سقط في أثناء ذلك كلُّ  
ما يُصَوِّرُ المرأة المعاصرة له في مكة والمدينة بواسطة هذه الأحاديث التي يُجْزِيها بين  
النساء أو هذا الحوار الذي يَلْفُتُ كل من يقرأ غزله . وربما كانت هذه هي الخاصة  
الثانية الكبيرة في ديوانه ، ففيه حوار مفتوح لا يَنْضَبُ مَعِينُهُ ولا تَجْفُ قِطْرَانُهُ  
في نفسه . ومن هنا كان لغزله طابعٌ ثانٍ يخالف فيه طابع الغزل العربي كله إلا ما يأتي  
نادراً ، ونقصد طابع القَصَصِ والحوار الذي يشيع في شعره ، وهو طابع يُعَدُّ نتيجة  
للطابع الأول طابع المعشوق لا العاشق ، فإنه أتى بالنساء في شعره لا ليشهن تباريح  
الحب ، ولا ليصف جمالهن ، ولا ليشكو من هجرهن ويصف آلامه وإنما جاء بهن  
ليعبرن عما ينفث من لواجع الحب فيهن ، وليصفنَّ حَسَنَ البديع ، وما يتألَّم به من  
هجرة وصدِّه ، فهن مصوَّراتٌ في شعره مشغولات به هائعات يجماله ، تَرَدَّد  
الأحاديث بينهن في فتنه وإغرائه . فكان لا بد لهذا كله أن يُطْبِعَ شعر عمر  
بطابع الحوار والقصص ، إذ عمر إنما يتكلم في غزله بلسان غيره من الفتيات والنساء ،

ومن هنا تعمق هذا الطابعُ كل ديوانه .

وعلى هذا النحو أصبح طابعُ الحوارِ والقصصِ أساسياً في شعر عمر ، ونفذ إلى كل مقطوعاته ، وهو قصصٌ حيّوات يستمد من هذه الخيالة الخصبية التي كانت تنعقد فيها محبُ الأحاديث بين النساء ، ثم تتقاطر حباتها في هذه الأسلاك من الشعر التي بصوغها عمر . ولا شك في أن هذا يعطى غزله طراقة خاصة ، إذ يُشيع فيه الحياة ، ويجعله زاخراً بالإحساسات والمشاعر ، لا إحساسات الشاعر ومشاعره فحسب ، بل إحساسات الفتيات والنساء في عصره ومشاعرهما . فهو لا يُعبّر في غزله عن نفسه فقط ، بل يُعبّر أيضاً عن المرأة التي عاصرتة ، أو قل إنه يُعبّر عن نفسه ، ولكن عن طريق المرأة التي عاصرتة ، بحيث أصبح ديوانه صوّت نفسه وصوّت المرأة التي كانت تعاصره ، فكل محبوبة له وكل معشوقة ، أو قل كل مُحِبّة له وكل عاشقة ، تظهر في غزله مع أخواتها وصديقاتها وجواربها ، ويدور بينهما الحوارُ تارة من ورائه ، وتارة من أمامه وخاصة في أوقات الوداع . وله في وصف هذه الأوقات طُرْف كثيرة لا ريب في أنه كان يستعين في جوانب منها بـخيالة القصاص البارع ، فن ذلك قوله في رائيته المشهورة ، وقد أمضى مع صاحبتة الليل حتى تنفس الصبح ، وخشيت أن يشتمها الناس (١) :

من الحزنِ تُذري عبّرةً تتحدّرُ  
كيساءٍ أن من خبزٍ دمٍ مَقْسَرُ  
أني زائراً والأمرُ للأمرِ يُقدّرُ  
أقلّي عليك اللّومَ فالخطبُ أبسرُ  
فلا مِرْناً يَفْشُو ولا هوَ يَظْهَرُ  
ثلاثُ شُخوصٍ كاعيانٍ ومُعْصِرُ (٢)  
ألم تَنَقِّ الأعداءَ والليلُ مَقْصِرُ  
أما تَسْتَحْيِ أو تَرَعَوِي أو تَفْكَرُ

فقامت كشيءٍ ليس في وجهيها دمٌ  
فقامت إليها حرّتان عليهما  
فقالن لأختيهما أعيننا على فتى  
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا  
يقوم فيمشي بيتنا متنكراً  
فكان مجئني دون من كنت أتقي  
فلما أجزئنا ساحة الحى قلن لي  
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً

وغزل عمر كله بُنِيَ هذا البناء القصصى ، وهو بناء غير كامل من حيث القصة ، فليس فيه عَقْدَةٌ ، وليس فيه تركيبٌ ولا تحليل . ومع ذلك ينبغي أن نلاحظ أن الخيال لعب دوراً مهماً في هذا القصص ، كما يلعب عادة في أقاصيص من يَقْصُونَ إذ يُخْرِجُونَا من عالمنا إلى عالم جديد لهم ، يَمَلِكُونَهُ بِخِيَالَتِهِمْ . وكذلك كان عمر في كثير من جوانب ديوانه يملؤه بكثير من أخيلته ، فهو قصاص في غزله ، بتخيّل ، ثم يَقْصُ ما يتخيّل ، سواء حين يصف مغامراته كما صنع في القطعة السابقة ، أوحين يصف أحاديث النساء فيه وتَعَلَّقَتِهِنَّ بِهِ . واستطاع أن ينفذ من خلال ذلك إلى تصوير عواطف المرأة التي تحضرت في عصره حين تحبُّ ، وما يكون بينها وبين أُنِيعَاتِهَا أَوْ جَوَارِيهَا من أحاديث عن حبها وعن صاحبها ، وعن كَلَفَتِهِ بِغَيْرِهَا وَكَلَفِهَا بِهِ . وبذلك أعطانا صورة حيّة للمرأة المتحضرة ، وما قد يمرُّ بها من هواجس ووساوس ، وما يبدُ أعيب خيالها من أفكار وأوهام .

فلماذا قلنا بعد ذلك إن غزل عُمرَ لونٌ جديد في الشعر العربي لم يكن من الممكن أن يوجد قبل العصر الأموي لم تكن مجاوزين للواقع في شيء ، لأنه في حقيقته إنما يصور عواطف المرأة العربية التي تحضرت في هذا العصر ، وغير معقول أن توصف المرأة العربية المتحضرة في شعر العصر الجاهلي لأنه عصر بداءة ، أما عصر ابن أبي ربيعة فهو عصر الحضارة ، وهو العصر الذي يتيح لهذه المرأة أن توجد ، ثم يتيح للشاعر أن يصفها في شعره أو غزله .

لم يكن من الممكن إذن أن يوجد غزل ابن أبي ربيعة في العصر الجاهلي لأن الموضوع الأساسي الذي يَسْتَمِدُّ منه في صنع هذا الغزل ، وهو المرأة العربية المتحضرة ، لم يكن قد وُجِدَ ، فطبيعي أن لا يوجد الشعر الذي يعبر عنه . ولعل في هذا كله ما يتيح لنا أن نقول إن غزل ابن أبي ربيعة غزل حَضَرِيّ تنضح فيه صِفَاتُ مُجْتَمَعٍ متحضر ، لا عهد لنا به عند العرب ، وهو لذلك يُعَدُّ شيئاً جديداً حقاً .

وليس هذا كل ما يلاحظ فيه من جديد ، فهناك جديد ثان لم نتحدث عنه حتى الآن وهو أن عمر استطاع أن يكتب في هذا الغزل ديواناً ضَخْماً ، وهذه أول

مرة نجد فيها شاعراً عربياً يكتب ديواناً في الغزل . والحق أن العقلية العربية تطوّرت وأصبحت عقلية تخصص ، فالشاعر يأخذ فناً واحداً ، ويحاول أن يعيش فيه ، حتى الشعراء الذين اضطربوا في الحوادث من مثل جرير والفرزدق والأخطل استطاعوا أن ينفذوا بالهجاء إلى فن جديد هو فن التناقض الذي صورنا خصائصه في غير هذا الموضع .

على كل حال عاش ابن أبي ربيعة في إطار الغزل لا يتحوّل عنه إلى إطار آخر ، وهو إطار كان يُشغّف به أهل مكة والمدينة جميعاً ، حتى كاد كثير من الشعراء أن يتخصّصوا به ، فهم لا يفارقونه إلى غيره ، مثل العرّاجي في مكة ، فهو كمن لم يشغل نفسه بمديح ولا هجاء ولا رثاء .

وما لا شك فيه أن شيوع الغزل في المدينتين الكبيرتين بالحجاز يرجع إلى عوامل نفسية كما يرجع إلى عوامل اجتماعية ، فأما النفسية فترجع في جملتها إلى شعور الفرد في المدينتين بنفسه أكثر مما كان يشعر بها في البجاهلية ، فقد كان قديماً يفتنى في قبيلته ، ويلوب فيها ، ولا يحسّ لنفسه بوجود إلا من خلالها ، وهو لذلك يتغنى بمفاخرها ، ويهجو خصومها ، ويمدح ساداتها ، أما في هذا العصر فقد شعر شباب المدينتين أنهم ورثة كسرى وقنصر ، وقد صبّت في حجورهم خزان الأرض ، وشعروا كأن الدنيا تدين لهم ، فتولّد فيهم شعور عميق بأنفسهم .

وكان هذا الشعور بالنفس عند شباب مكة والمدينة وما انطوى فيه من إحساس الفرد بمنزلته سبباً في أن تحوّل الشعر من بعض الوجوه إلى الحديث عن النفس لا عن القبيلة ، فأصبح كله ، أو كاد ، غزلاً بعد أن كان أكثره فخراً وهجاء . وإذا فسر في غزله صورة لمجتمعة ، يُعبّر به عن هذا التحول الذي أصاب نفسيّة من حوله من أهل مكة والمدينة ، فهو لا يتنظّم في الفخر ولا في الهجاء ، وأيضاً لا ينظم في المديح الذي شاع بين شعراء العراق ، إنما يتنظّم في هذا الموضوع الذي كان يُعبّر عن شعور الجماعة الجديدة في مكة والمدينة ، وقد أخذ يُقَطّر لهم فيه عواطف المرأة المعاصرة وما أصاب حياتها من تبدّل وتطور ، كما أخذ يقطّر عواطفه وخواطره ، ومن هنا كان من الظواهر اللافتة في غزل الحجازيين لهذا العصر أن الشاعر أخذ يحلل نفسه وعواطفه إزاء المرأة ، ولم يعد يقتصر على وصفها الحسي الذي كنا

نألفه عند شعراء الجاهلية من أمثال امرئ القيس ، فقد اتجه اتجاهًا داخليًا ، يتحدث عن نفسه إزاء حبه وصباته ، أو يتحدث عن المرأة وحبها وصباتها كما يصنع ابن أبي ربيعة .

وهذه العوامل النفسية التي أنتجت ديوان عمر الذي بُنِيَ كله على الغزل كانت تقابلها عوامل اجتماعية ، منها هذا التحضر الذي أصاب المرأة ، ومنها جانب آخر لم نتحدث عنه حتى الآن ، مع أنه كان بعيد الأثر في الغزل الذي أصدرته الحجاز في هذا العصر ، وهو فن الغناء الذي ذاع وشاع حينئذ ، والذي تحولت من أجله مكة والمدينة إلى ما يُشبه المسارح الكبيرة .

فكرة في هذا العصر الذي عاش فيه عمر كانت تشبه مسرحًا كبيراً يُغَنَّى فيه المغنون والمغنيات من مثل ابن مِسْجَح وابن مُحَرَّر وابن سُرَيْج والغريص وسُمَيْة وسَلَامَةُ الْقَسَّ ، وغير هؤلاء كثيرون منشئون في مكة ونواديها .

وكانوا يُغَنِّون في الشعر القديم ، ولكن ليس هذا هو الطريف الذي كان يُلائم عصرهم ، إنما الطريف حقاً هو هذا الغزل الذي كان يصنعه عمر ونظراؤه من الشعراء ، وكان المغنون يطلبونه طلباً ويلحون في طلبه . ولا أظننا نغلو إذا قلنا إن عمر كان أهم شاعر لبى حاجة هؤلاء المغنين والمغنيات ، فهو أهم شاعر روى له أبو الفرج أصواتاً من شعره في كتاب الأغاني .

ويُحَسُّ الإنسان كأنما أراد بشعره كله إلى الغناء ، فغزله في حقيقة أمره أغان ، ولعل ذلك ما جعله كله مقطوعات إلا بعض قصائد قليلة جداً ، ومع ذلك غُنِّيَتْ أو غُنِّيَ منها غير قليل من أبياتها ، ولم لا تُغَنَّى ، وقد كان عمر نفسه يعمل على ذلك ، فهو يُقَرِّب منه ابن سُرَيْج والغريص ويلتزمهما : حتى يُؤْلَمُوا جميعاً ما يشبه الحققة ، فهو لا يذهب ولا يجيء إلا مع أحدهما أو معهما . ويظهر أنه كان كثير البذل لمن يُغَنِّون في شعره ، فما يروى عنه أنه أعطى ابن سُرَيْج في تلحين قطعة له ثلاثمائة دينار<sup>(١)</sup> ، كما أعطى الغريص في تلحين أخرى خمسة آلاف درهم<sup>(٢)</sup> . وكان يذهب إلى المدينة ، فيحضر نوادي الغناء

(١) أغان ٢٥٩/١ .

(٢) أغان ٣٢٢/٣ .

هناك ، وكان مَنْ يُغَنِّي في شعره يَهَبُ له المئات ، والرواة يقولون إنه أعطى الدُّلَّال في تلحين إحدى مقطوعاته مائة دينار<sup>(١)</sup> كما أعطى جَمِيلَةً في مقطوعة أخرى عشرة آلاف درهم<sup>(٢)</sup> . وكان في داره جاريثان خاصَّتان به تغنيانه في شعره ، وهما بَغُوم وأَسْمَاء<sup>(٣)</sup> .

لذلك كله إذا قلنا إن غزل عمر إنما هو أغان قيلت لَتُغَنِّي لم تكن مغالين . وكان لهذا طابع مهم في غزله مَيَّزَه من الغزل القديم الذي كان يُنشد ، ولم يكن يُنظَّم لِبُغَنِّي ، وحتى إن هو غنَّى لم يحاول المغنى فيه أن يُلحِّنه على أساس قواعد خاصة لنظرية في الغناء ، إنما كان يُلحِّنه حسب ذوقه ، أما في هذا العصر فقد استحدث الأجانب في مكة والمدينة نظريَّةً جديدة لإيقاع الشعر وتلحينه ، وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا ، وكان عمر ينظم غزله تحت تأثير هذه النظرية وألحانها وإيقاعاتها ، وكان يُعاشِر أصحابها ويُدْخِلُهُمْ ، فكان لذلك من أهم الشعراء الذين تلاءموا معها .

ونستطيع أن نلاحظ هذا التلاؤم عند عمر في جانبين من ديوانه ، أو قل من موسيقى شعره . أما الجانب الأول فهو استخدامه للأوزان الخفيفة ، كما يلاحظ من يقرأ الأشعار التي استشهدنا بها فيما مرَّ من حديثنا عنه ، وهي أوزان كانت تلائم الغناء الجديد من مثل أوزان السريع والخفيف والوافر والرمل والمُتَقَارِب ، وكانت هذه الأوزان موجودة في العصر الجاهلي ، وعمر من هذه الناحية لم يوجِد وزناً جديداً ، وإنما أكثر من استعمال الأوزان السهلة ، التي لا تحتاج مجهوداً من المغنِّي ، والتي في الوقت نفسه تُتَبَّحُ له ما يريد أن يُحمِّلها من ألحان وإيقاعات ، ولذلك غنَّى بهذه الأوزان حتى يَرْضَى المغنين والمغنيات .

وأما الجانب الثاني فهو جانب تقصير الأوزان وتجزئتها ، وهو أيضاً جانب واضح فيها استشهدنا له من أشعار ، وهو جانب كان موجوداً في القديم ، ولكن عمر أكثر منه إكثاراً ، حتى ليكاد يكون خاصَّةً من خصائص ديوانه ، فكثير من غزله بُنِيَ من مجزوءات ، حتى يُهَيِّئَ للمغنين والمغنيات الفرصة

(٢) أغان ١/١٦٥ .

(١) أغان ٤/٢٩٦ .

(٢) أغان ٨/٢٠٨ .

لتطبيق ألحانهم وأنغامهم التي اجتلبوها من فارس والروم ، على ما ذكرنا في غير هذا الموضع . وغزل عمر أو قل أغانيه مليئة بهذه الممزوجات ، من مثل قوله <sup>(١)</sup> :

قُلْ لِهَنْدٍ وَتَرْيَهَا      قَبْلَ شَحْطِ النَّوَى غَدَاً  
إِنْ تَجُودَى فَطَالَمَا      بَتْ لَيْلٌ مُسَهَّداً

وهو من مجزوه الخفيف ، وقوله <sup>(٢)</sup> :

لَقَدْ أَرْسَلْتُ جَارِيَتِي      وَقُلْتُ لَهَا : خُذِي حَذَرَا  
وَقُولِي فِي مَلَاظِفَةٍ      لَزِينَةٍ : نَوِّلي عُمَرَا

وهو من مجزوه الوافر ، وقوله <sup>(٣)</sup> :

أَصْبَحَ الْقَلْبُ مَهِيضًا      رَاجِعَ الْحَبِّ الْفَرِيضَا

وهو من مجزوه الرمل . وتكثر هذه الممزوجات في شعر عمر كثرة مفرطة ، وهي مجزومات نستطيع أن نفذ منها إلى الظن بأن تحريفات كثيرة حصلت في الأوزان عنده تحت تأثير الغناء . ولنتصور المغنين في العصر الحديث يحاولون أن يُدْخِلُوا نظرية أجنبية لغناء الشعر العربي أو نظرية اشتقوها وتأثروا فيها بألحان أجنبية كثيرة ، فما مَدَى ما يَحْدُثُ من تعديل وتحريف في أوزان الشعر ؟ والجواب واضح ، وهو أنه لا بد أن يحدث من ذلك آثار كبيرة في الشعر وأوزانه .

والصورة العامة في أوزان عمر أنها أوزان سهلة خفيفة ، وأن كثيراً منها جزئي ، حتى يكون خفيفاً على هؤلاء المغنين من الأجانب . ونحن نظن ظناً أن تحريفات كثيرة وقعت ، وإن كانت كلها تستغرقها نظرية الزحافات والعلل التي أتت بها الخليل بن أحمد ، إذ قال إن كل فعيلة من حقها أن تُعَلَّ عَلَلاً كثيرة ، بتسكين المتحرك فيها ، أو حذف ساكنها ، ونحو ذلك .

ولا نشك في أن هذه النظرية الجديدة للغناء التي استحدثها هؤلاء المغنون حرقت كثيراً في هذا الجانب ، وأودعت الشعر كثيراً من الزحافات والعلل حتى يَجْهَرُ

(١) أغاني ٥٩/١ ، والشحط : البعد . (٣) أغاني ١٧٨/١ والفريرس : النفس

(٢) أغاني ٩٢/١ .

المغنون في أماكن من غنائهم ويمدوا النغم ، أو حتى يهيمسوا ويقتصرُوا ، فما لا شك فيه أنهم كانوا يمدون أحياناً في بعض الحروف ، ويمدّون أو يهيمسون في بعض الحروف الأخرى . وكان عمر بن أبى ربيعة يرى ذلك كله ، فصنع شعره تحت تأثيره ، ونفذ بما وجد القدماء يصنعون من تنجزيّة أو زحاف وعيلة إلى كثير في هذا الباب .

على كل حال من الطوابع المهمة لغزل عمر أنه أغان ، وأنه كتب أو نظم لكى يُغنى في المغنون والمغنيات تحت تأثير النظرية الجديدة التى نقرؤها في الأغاني ، إذ يقولون مثلاً « ثَقِيلٌ أَوَّلُ بِالْخِنْصَرِ » أو « رَمَلٌ بِالْبِنْصَرِ » أو « خَفِيفٌ رَمَلٌ بِالْوُسْطَى » ونحو ذلك ، مما حاولنا تفسيره فيما أسلفنا .

وليس هذا كل ما يلاحظ في غزل ابن أبى ربيعة من حيث إنه أغان ، فهناك ناحية ثانية أثير فيها الغناء أيضاً ، وهى ناحية لُغَتِهِ وأَسَالِيهِ ، فإن الغاية به إلى الغناء جعلته غزلاً شاعبياً أو يكاد ، أليس يُقَدِّمُ إلى مسارج مكة والمدينة ، وهى مسارج كان أصحابها أنفسهم من الأجانب ، ونقصدُ المغنيات والمغنين الذين كانوا يقومون عليها . ثم هؤلاء الناس الذين يستمعون في هذه المسارج منهم أجانب كثيرون . من أجل ذلك كله كان من الطبيعى أن تَسَهَّلَ لغة هذه الأغاني وأَسَالِيهَا ، بسبب ما يريد لها ابن أبى ربيعة من الرّوَّاج بين الجمهور الذى يَقْطُرُ له عواطفه فيها .

وغزل عمر من هذه الناحية بصور تطوراً هاماً في تاريخ الشعر العربى ، فقد أخذ يظهر فيه ضرب من الشعر الشعبى ، هو هذا الشعر الذى كان يَنْظِمُ فيه ابن أبى ربيعة وأمثاله من شعراء الحجاز والذى كان يُغنى فيه المغنون والمغنيات ، وهو شعر هَجَرَ فيه أصحابه — إلى حد ما — الأساليب القديمة ، كما هَجَرُوا الألفاظ الغريبة ، وبَنَوْه بناءً سهلاً ، بتلام مع حياة الناس الجديدة التى تحضرت ، حتى يقتربوا منهم ومن لغتهم اليومية ؛ شعر ليس فيه بُعدٌ ولا ما يشبه البُعد ، وإنما فيه القُربُ كلَّ القُرب من حياتهم ومن مُجْتَمَعِهِمْ ، وهو يقترب من هذه الحياة وذلك المجتمع في العواطف التى يَصَوِّرُهَا ، كما يقرب منهما في اللغة التى يتحدث بها الناس .

وخلاصة ذلك كله أن غزل عمر صيغ من مادة معاصرة ، سواء من حيث النفسية التي تتغلغل فيه ، أو من حيث المرأة التي يُبهرز عواطفها ويحتلل خواطرها أو من حيث الأوزان التي ينظم فيها ، وأيضاً من حيث اللغة ، فهو من لغة قريبة ، لغة مألوفة للناس ، ليس فيها هذا الإغراب الذي نجد عند القلماء أو الذي نجد عند شعراء العراق من مثل الفرزدق ، وإنما فيها الخفة والقرب وما يلائم الأذواق المتحضرة الجديدة .

وقد استطاع عمر أن يبرز في كل هذه الضروب من التجديد كثيراً من عاصروه سواء في مكة أو في المدينة ، ولذلك كان اسمه يَدَوَّى في أثناء حياته ، وما زال يَدَوَّى حتى اليوم ، لتفوقه حقاً في هذا الفن من فنون الشعر العربي .

ولعل ذلك ما جعل النساء يُعجبْنَ به ، فقد كنَّ يَطْلُبْنَ منه أن يَتَغَنَّى باسمهن حتى ربَّات القصور الأموية ، كنَّ إذا حَجَّجْنَ تَمَنَّيْنَ أن تلتقطهن عَيْنُ<sup>(١)</sup> عمر فَيَبْطِئَهُنَّ في هذه الآلة المصوّرة ، التي كانت تَدَاعُ صورها على لسان المغنين والمغنيات . وأى امرأة لا تريد التغنّي بها وبجمالها ؟ من أجل ذلك كنّا نَعْجَبُ أن يطلب شريفات بنى أمية من عمر أن يُظهرهن في شعره وأغانيه . ولم يكتف عمر بالحواج من الأمويات ، فقد ذهب يتغنّى بهن من شريفات العرب ، وفي ذلك يقول<sup>(٢)</sup> :

يَقْصِدُ النَّاسُ لِلطَّوْافِ احْتِسَابًا      وَذُنُوبِي مَجْمُوعَةٌ فِي الطَّوْافِ

فهو لا يذهب للحج والطواف كبقية الناس ، وإنما يذهب لالتقاط الصور الجميلة ، وكأن عينه آلة مُصَوِّرة ، فهي لا تصادف جميلة إلا وتلتقطها ، فترسمها ، ويروى له أبو الفرج في ذلك طرفاً كثيرة<sup>(٣)</sup> .

وأظن أنه قد اتضح الآن اتضاحاً لا سبيل إلى الشك فيه أن ابن أبي ربيعة جدّد في غزله فنوناً من التجديد، وهي فنون تَمَّتْ تحت تأثيرات حضارية وأخرى

(٣) انظر الأغاني ٨٤/١ وكذلك ١٤٧/١

١٠٦/١ ، ٢١٤/١

(١) أغاني ١٦٦/١ وانظر أغاني ١٩٠/١

٣٥٧/٢

(٢) عيون الأخبار ١٠٧/٤

نفسية ، وهى كلها تأثيرات جديدة نبئت فى هذا العصر ولم يكن من الممكن أن توجد قبله . وقد دفع عمر بكلتا يديه الشعر العربى هذه الدفعة القوية إلى آفاق شعبية جديدة ما زالت تنمو من بعده فى صور مختلفة مارة من عصر إلى عصر ، حتى انتهت إلى الموشحات والأزجال المعروفة فى الأندلس .

## ٢

## لوحات ذى الرمة

هو غَيَّلَان بن عُقْبَةَ بن مَسْعُود<sup>(١)</sup> ، وقال ابن سَلَام هو غَيَّلَان بن عُقْبَةَ بن نَهَيْس<sup>(٢)</sup> ، من بنى عَدَى بن عَبْد مَنَاف . ويختلف الرواة فى سبب تَلْقِيهِ بِذِي الرُّمَّة ، فيزعم بعضهم أن مَبِيَّةً أَلَمَّتْ بِهَا فِي شَعْرِهِ هِيَ الَّتِي لَقَّبَتْهُ بِهَذَا اللَّقَب ، «وذلك أنه مرَّ بِخَبَائِثِهَا ، وَهِيَ جَالِسَةٌ إِلَى جَنْبِ أُمِّهَا ، فَاسْتَسْقَاهَا مَاءً ، فَقَالَتْ أُمُّهَا قَوِيٌّ فَاسْقِيهِ ، وَكَانَتْ عَلَى كَتِفِهِ رُمَّةٌ ، وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنْ حَبَلٍ ، فَأَتَتْهُ بِالْمَاءِ وَقَالَتْ : اشْرَبْ يَا ذَا الرُّمَّة ، فَلَقَّبَ بِذَلِكَ . وَزَعَمَ بَعْضُ الرُّوَاةِ أَنَّهُ لُقِّبَ بِذَلِكَ لِقَوْلِهِ فِي بَعْضِ شَعْرِهِ : «أَشَعْتُ بِأَقْيَ رُمَّةٍ التَّقْلِيدَ» . وَزَعَمَ آخَرُونَ أَنَّهُ كَانَ يُصِيبُهُ فِي صِغَرِهِ فَرْعٌ ، فَأَتَتْ بِهِ أُمُّهُ الْحَصِينُ بْنُ عَبْدَةَ الْعَدَوِيِّ الَّذِي كَانَ يُقْرِئُ الْأَعْرَابَ فِي الْقَبِيلَةِ ، فَكَتَبَ لَهَا مَعَاذَةَ فِي جِلْدِ غَلِيظٍ ، وَعَلَّقَتْهَا أُمُّهُ عَلَى يَسَارِهِ ، وَشَدَّتْهَا بِحَبَلٍ أَسْوَدَ ، وَمَرَّتْ بِهِ يَوْمًا عَلَى الْحَصِينِ لَتُسْمِعَهُ بَعْضَ شَعْرِهِ ، فَلَمَّا سَمِعَهُ قَالَ أَحْسَنَ ذُو الرُّمَّةِ<sup>(٣)</sup> .

وقد ولد ذو الرُّمَّة حول سنة ٧٧ للهجرة فى فَيَافَى الدَّهْنَاءِ بِبَادِيَةِ الْيَمَامَةِ ، إِذْ كَانَتْ قَبِيلَتُهُ تَنْزِلُ هُنَاكَ مَعَ تَمِيمٍ . وَلَيْسَ بَيْنَ أَيْدِينَا شَيْءٌ وَاضِحٌ عَنْ أَسْرَتِهِ إِلَّا مَا يُرَوَّى مِنْ أَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ مِنْ بَنِي أَسَدَ ، وَكَانَتْ تَسْمَى ظَنِيَّةً ، وَيَقُولُ صَاحِبُ الْأَغَانِي : كَانَ لِذِي الرُّمَّةِ إِخْوَةٌ ثَلَاثَةٌ : مَسْعُودٌ وَجَرِّفَامُ وَهَشَامُ وَكُلُّهُمْ

شعراء<sup>(١)</sup>. ويضع ابن قتيبة بدلاً من جرفاس أوفى<sup>(٢)</sup>، أما صاحب الأغاني فيجعل أوفى ابن عمه .

ومعرفتنا بحياة ذى الرمة ليست أكثر وضوحاً من معرفتنا بحياة أسرته . ونظن من صلاته بالخصين معلّم القبيلة أنه علّمه القرآن والكتابة، ففي أخباره أنه كان يقرأ ويكتب<sup>(٣)</sup>. ولا نجد له أخباراً تتصل بقبيلته إلا ما يروى من خصومة نشأت بينه وبين من يسمى عتيبة بن طرثوث بسبب بر كانت لقبيلة ذى الرمة ، فاحتكما إلى المهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة ، فحكم بها لذي الرمة<sup>(٤)</sup>. وخبر ثان يرويه الرواة وهو أنه نزل مع جماعة من قبيلته على قبيلة امرئ القيس بن عبد مناة في قرية لها تسمى مراًة ، فلم يقروهم ، ولم يكفروهم ، وفي ذلك يقول :

ولمّا دَخَلْنَا جَوْفَ مَرَّاءَ غُلِقَتْ دَسَاكِرُ لَمْ تُرْفَعْ لَخَبِيرٍ ظِلَالُهَا

فكان ذلك سبباً في اصطدامه بشيطان من شياطين هذه القبيلة هو هشام المرقى ، فنشب الهجاء بينهما<sup>(٥)</sup>، ولكنه لم يستمر على نحو ما استمر بين جرير والفرزدق، لأن هشاماً كان متخلفاً في الشعر ، ولم تكن له قدرة ذى الرمة .

ولا نجد بعد ذلك أخباراً لذي الرمة تتصل بقبيلته . وكل من يقرأ ديوانه يلاحظ أنه كان كثير الرحلات إلى العراق وخاصة البصرة والكوفة ، وفي ديوانه ما يشير إلى أنه نزل البصرة عام<sup>(٦)</sup>، وفيه قصائد كثيرة قيلت في عُمَرَ بن هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيِّ وإلى العراق بين سنتي ١٠٣ و ١٠٥ للهجرة وبلال بن أبي بَرْدَةَ الْأَشْمَعِيِّ وإلى البصرة لخالد القسري ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شُرْطَةِ خَالِد ، وأَبَان بن الوليد وإلى فارس لخالد أيضاً . وفي الديوان ما يشير إلى أن رحلاته امتدت إلى أَصْبَهَانَ<sup>(٧)</sup>، وفيه أيضاً مدائح في خليفة أموى<sup>(٨)</sup> أكبر الظن أنه هشام بن عبد الملك . ومعنى ذلك أن رحلاته امتدت إلى دمشق .

(٥) أغاني ١٦/١١٢ .

(٦) الديوان ص ٦٥٣ .

(٧) الديوان ص ٣١٢ .

(٨) الديوان ص ٤٥٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣٤ .

(١) أغاني ١٦/١٠٧ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٣٦ .

(٣) أغاني ١٦/١١٦ وانظر الشعر والشعراء

ص ٣٣٤ .

(٤) الديوان ص ٤٧٣ .

وأغلب الظن أنه نزل في السنين الأخيرة من حياته بالعراق ، وتَرَكَ منازل قبيلته في الدَّهْنَاء ، وإن كان ظلَّ دأَمَ الصَّلَاةَ بها يزورها ، ويتزل فيها ، ويرحل إليها في الحين بعد الحين . على أن الحياة لم تَطُلْ به فقد تَوَفَّى ، ولا يجاوز الأربعين من عمره . وتضطرب الروايات في مكان موته وسببه ، فروايةٌ تذهب إلى أنه تَوَفَّى بالحِجْر في اليمامة ، وتذهب أخرى إلى أنه تَوَفَّى بسبب نفور ناقته منه في الصحراء بالقرب من البصرة وعليها شَرَّابُهُ وطعامه ، وما زالت تَنْفِرُ منه ويتابعها حتى مات ، وتذهب روايةٌ ثالثة إلى أنه تَوَفَّى بالجُدْرَى<sup>(١)</sup> ، وتزعم رواية رابعة أنه لما تَوَفَّى قال : لا تَدْفِنُونِي فِي الرَّهْدِ وَالْغَمُوضِ ، وطلب أن يدفنه في حَزْوَى ، وهي كُثْبَان مرتفعة بالدَّهْنَاء<sup>(٢)</sup> . وفي ديوانه أشعار يشكو فيها من المرض ، وأنه لا يستطيع الرُّحْلَةَ من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

أَتَشْنِي كَلَابُ الْحَيِّ حَتَّى عَرَفْتَنِي      وَمُدَّتْ نُسُوجُ الْعَتَكِبُوتِ عَلَي رَحْلِي  
وقوله<sup>(٤)</sup> :

أَيْنَمَا وَشَكْوَى بِالنَّهَارِ كَثِيرَةٌ      عَلَيَّ وَمَا يَأْتِي بِهِ اللَّيْلُ أَبْرَحُ

وربما كان هذا دليلاً على أنه لم يَمُتْ فجأةً بالصحراء . ويقال إنه ظل يُنَشِّدُ الشعرَ حَتَّى فارق الحياة<sup>(٥)</sup> .

وقد مر بنا في الحديث عن الحياة الدينية أن في شعره أدعية وابتهالات ، وهي لا شك تدلُّ على نزعة دينية فيه . وهي نزعة تلاحظ في صور مختلفة ، فهو إذا مدح وصف مادحه بالتقوى والإيمان<sup>(٦)</sup> وإذا هجا وصف مهجوه بتتركُّ الشعائر الدينية<sup>(٧)</sup> . وهو دائم الإشارة في أثناء وصف رحلاته بالصحراء إلى تقصير الصلاة والتبسم<sup>(٨)</sup> وتلاوة القرآن .

ونراه في أثناء وقوفه مع صاحبيه في الأطلال يدعو لهما أن ينالارضوانَ ربهما وأن

(١) انظر في ذلك الأغاني ١٦/ ١٢٢ .

(٥) أغاني ١٦/ ١٢١ .

(٢) أغاني ١٦/ ١٢٢ .

(٦) الديوان ص ٢٧٣ ، ٦٥٥ .

(٣) الديوان ص ٤٩١ .

(٧) الديوان ص ٢٠٠ .

(٤) الديوان ص ٦٦٣ .

(٨) الديوان ص ١٥٨ .

يَتَجَزَّيْهُمَا خَيْرُ الْجَزَاءِ يَوْمَ الْحِسَابِ ، يَوْمَ يُؤْفَى كُلُّ شَخْصٍ مَا كَسَبَتْ يَدَاهُ ،  
وَأَسْمَعُ لَهُ يَدْعُو لِمَا حَبِيْبِهِ <sup>(١)</sup> :

يَا صَاحِبِي انْظُرَا آوَاكُمْ أَدْرَجُ عَالٍ وَظِلٌّ مِنَ الْقِرْدِ دَوْسٍ مَحْدُودُ  
وَيَدْعُو لَهَا مَرَّةً أُخْرَى ، فيقول: <sup>(٢)</sup>

وَلَا زِلْتُمَا فِي حَبْرَةٍ مَا بَقِيْتُمَا وَصَاحِبَتُكُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ مُحَمَّدًا

ولعل من الطريف أننا نجده يذكر ، بجانب الأثافي والنؤى والآرى مما يشاهده  
في الأطلال ، بقايا المسجد الذي كانت تتخذها القبيلة ، كقوله في بعض شعره <sup>(٣)</sup> :

عَفَّتْ غَيْرَ آرِي وَأَعْضَادِ مَسْجِدٍ وَسُفْعِ مَسَاخَاتٍ رَوَاحِلَ مِرْجَلٍ

وهذه النزعة الدينية الواضحة في شعر ذى الرُّمَّة تجعلنا نؤمن بأنه كان حين  
ينزل البصرة أو الكوفة يذهب إلى المسجد الجامع للاستماع إلى الوعظ الديني ، وإلى  
ما كان يدور بين العلماء من أبحاث في القَدَر والإيمان . وقد مر بنا في الحديث عن  
الحياة العقلية أنه كان يأخذ بمذهب القَدَرية ، وأنه كان يُناضل عنه الشعراء من  
مثل رُوْبَةِ .

فدو الرُّمَّة كان يعرف جدال العلماء في العراق حول القَدَر ، كما كان  
يعرف اللُّجَاج في الخصومات العقلية . وقد أكثر من مديح بلال بن أبي بردة  
وإلى البصرة وقاضيهما بيبين الآراء الصحيحة وعمق فكره ، وبعُد مسافة خَوَرٍ  
عقله في الأمور المشتبهة <sup>(٤)</sup> . وتدل أخباره على أنه كان ذكياً ذكاءً ممتازاً ، فقد  
وصفته الكُمَيْتُ بدقائق الفطنة وذخائر كثير العقل ، وتعجب أن يكون  
بَدَوِيًّا ، وَيَصِلُ إلى ما يصل إليه في شعره <sup>(٥)</sup> ، وغاب عنه أنه فارق البادية ،  
وأن عقله نهيل بما كان يستهزل منه الناس في البصرة .

واشتهر ذو الرُّمَّة بحبه لمبة بنت طلبة بن قيس بن عاصم المِنْقَرِي

النواب ، والأطواد : الجواب ، والسفع :

الأثافي . ودعاهما رواحِلَ لأن المِرْجَل (القدر) يملوها .

(٤) الديوان ص ٤٤٢ .

(٥) أغاني ١٠٨/١٦ .

(١) الديوان ص ١٣٢ .

(٢) الديوان ص ١٢١ ، والجرة :

الجهور والسرور .

(٣) الديوان ص ٥٠٢ والآرى : مريظ

التَّحْيِيْمِي ، وتضطرب الروايات في تعرُّفِهِ عليها وَصَبَّبَ ذلك ، فروايةٌ تزعم أنه كان يَسِيرُ في الصحراء مع أخيه مسعود وابن عمه أَوْفَى يطلبون إِبْلًا لهم ضَلَّتْ ، فلما أجهدهم العطش عند ذو الرمة إلى خِيَبَاءٍ كبير يطلب ماءً ، فوجد فيه مَيَّةً وأمَّها ، فسقته مَيَّةً ، وتعلق نظره بها ، وظلَّ طول حياته هائمًا بحبِّها <sup>(١)</sup> . وتزعم رواية ثانية أنه أراد أن تَخِيِطَ له مَيَّةٌ إِذْ أَوَاتَتْهُ ، فقالت له إِنِّي خَرَقَاءُ لَا أُحْسِنُ ذلك <sup>(٢)</sup> . ومن هنا كان ذو الرمة يُسَمِّيها مرة مَيَّةً ومرة خَرَقَاءُ ، فالاسمان جميعًا يتردَّدان في شعره . على أن بعض الرواة ظنَّ أن خَرَقَاءَ اسمٌ لامرأة أخرى غير مية . ومن ثَمَّ زعمت رواية أن خرقاء من بني عامر <sup>(٣)</sup> . ويتسع القصص عن خرقاء هذه ، فيقال إنها كانت كَحَالَةٍ <sup>(٤)</sup> ، ويقال إن ذا الرُّمَّةَ هجر مَيَّةً إليها ، لأنها شتمته بإيعاز من زوجها <sup>(٥)</sup> . ولا يقف الرواة عند فَصْمِ العلاقة بين ذى الرمة ومَيَّةَ ، فراهم ينسبون إليه شعراً في ذِمَّها ، ويقول بعض الرواة : بل هو لِكثيرة ابنة عمها ، إذ كانت تغتار منها ، ويقال بل كَثِيرَةٌ هذه كانت مولاة لابنة عمها <sup>(٦)</sup> .

وهكذا تكثر الروايات عن مَيَّةَ وَخَرَقَاءَ ، ويتعلَّق بهما خيال القصَّاص والرواة ، فتتسع الروايةُ ويتسع القصص . غير أن من يتتبع الديوان يؤمِّن بأن مَيَّةَ هي نفسها خَرَقَاءُ ، فقد تَغَنَّى ذو الرمة بمَيَّةَ في خمس وخمسين قصيدة ، بينما تغنى بخَرَقَاءَ في ثمان ، ولا فرق بين نفسية الشاعر في هذه ونفسيته في تلك ، فدائمًا اللوعةُ وحُرقةُ الحب واليأسُ القاتل من اللقاء . وفي الديوان أخرى تسمى أمَّ سالم ذُكِرَتْ في خمس قصائد ، وهي نفسها خَرَقَاءُ أو هي نفسها مية <sup>(٧)</sup> .

وكل ما تحت أيدينا من أخبار ذى الرمة يدل على أنه أحب مَيَّةَ من النظرة الأولى كما يقولون ، واستمرَّ هائمًا بحبها طوال حياته ، فهي الشعاع الذى أضاء روحه في شبابه ، وهي النَّبْعُ الذى انبثق منه في نفسه الفنُّ ، أو قل تَفَجَّرَ منه الشعر ، فنَّها استمد مشاعره وإحساساته الأولى ، فذهب ينادى باسمها في كل مكان يحلُّ فيه ، في البادية وفي اليمامة وفي البصرة والكوفة وأصبهان وفي دمشق والشام ، فهي

(٥) أغاني ١٦/١١٠ .

(٦) أغاني ١٦/١١٤ .

(٧) انظر الديوان ص ١٦٤ .

(١) أغاني ١٦/١٠٩ .

(٢) أغاني ١٦/١١٠ وما بعدها .

(٣) الشعر والشعراء ص ٣٣٥ وما بعدها .

(٤) أغاني ١٦/١١٩ .

صاحبه التي شغفت قلبه حباً ، وهي التي ألهمته الشعر ، واستمرت مصدر  
إلهامه ، حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

والإنسان لا يقرأ ما سبق أن رويته من أنه كان يُفزع ، وهو لا يزال في  
المهمل صبيّاً وأن أمّه أجدته إلى الحُصَيْن بن عبدة العدوي ، ليصنع له  
تعويذة تنقيه هذا الفزع ، ثم يقرأ ديوانه وحبّه العميق لميّة ، حتى يشفق عليه ،  
فقد بطل عمَلُ التعويذة القديمة أمام حبّ ميّة ، وأصبح ذو الرّمة في كل  
أوقاته مُفزعاً ، تروعه ميّة أطراف النهار ، ويروعه خيالها أثناء الليل . وتصادف  
أنها تزوجت من ابن عمها عاصم ، فزاد به الفزع ، وعمِلَ سِجَرُ ميّة أوسع  
عمل ، فإذا الشاعر يائس منها ومن حياته<sup>(١)</sup> :

بَدَا اليأسُ من مَيٍّ على أن نفسه طویلٌ على آثار مَيٍّ نحیْها

فهو يائس منها ، ومع ذلك هو لا ينساها ، بل يذكرها دائماً ، يذكرها  
بالنَّحِيب والبكاء والدموع ، ولكن أي دموع ؟ إنها الدموع التي تخنق<sup>(٢)</sup> :

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ جَرَّ عَامٍ مَالِكٍ لِدَوْعْبَةٍ كُلًّا تَفِيضُ وَتَخْنُقُ  
وإنسانٌ عَبَتِي بِحَمِيرِ الْمَاءِ تَارَةً فَيَبْدُو وَتَارَاتٍ يَجِمْ فَيَفْزُقُ

فهو يبكي بكاء مُراً ، بكاء تتساقط قطراته في خيوط مستمرة ، وكأنها  
جبال توشك أن تخنقه خنقاً ، بل وكأنها تدبجه ذبحاً ، أو تكاد ، واستمع إليه  
يقول<sup>(٣)</sup> :

أَجَلْ عِبْرَةٌ كَادَتْ لِعِرْفَانٍ مَنَزَلٍ لِمِيةٍ لَوْلَمْ تُسَهِّلِ الْمَاءَ تَدْبَحُ

وفي كل جانب من شعر ذي الرّمة نجد هذا البكاء ، فهو يبكي دائماً ويُدري  
الدَّمْع ، ويُسْئِرُهُ نَشْراً ، علّه يَشْتَقِي ، أو علّه يُطْنِئُ شيئاً من هذه  
اللّوعة الملتهبة في أحشائه ، وإنه ليقول في مطلع ديوانه :

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَقَرَّةٍ سَرِبُ

(٢) الديوان ص ٧٧ .

(١) الديوان ص ٦٧ .

(٢) الديوان ص ٣٩١ .

والكلى : الرُقْع تكون فى أصل عُرْوَة المَزَادَة ، والمَصْفَرِيَّة : المقطوعة ،  
وسَرِب : سائل ، فهو يرى فى عينه التى لا يَجِفُّ ماؤها رُقْعًا تشبه تلك الرقع  
فى مَزَادَة الماء التى تَبْكى خُرُوزُها ، وقد بَكَيت خُرُوز عَيْنه ، وتَفَرَّحت  
أجفانها ، وتصدعت رُقْعُها تصدُّعًا ، لاسيلى إلى إصلاحه ، فهى غارقة فى الدموع  
سائلة بها دائمًا . ويشعر كل من يقرأ ديوانَ ذى الرُّمَّة بأنه كان عاشقًا حقًّا لميَّة ،  
فحبها لها قد امتزج بروحه ، واختلط بدمه ، وجرى فى عظامه ، وتمشَّى فى عروقه ،  
وعبَّر عن ذلك عبارات مختلفة ، فمن ذلك قوله (١) :

إذا قلتُ ودَّعْ وصلَّ نَحْرُ قَاءَ وَأَجْتَنِبْ زِيَارَتَهَا تَخَلُّقْ حَيْثَالُ الْوَسَائِلِ  
أَبَتْ ذِكْرٌ عَوْدُنَ أَحْشَاءَ قَلْبِيهِ خُفُوقًا وَرَفَضَاتُ الْبُهِتِوى فى الْمَقَاصِلِ  
فهو يُحِسُّ بالخفقات فى أحشاء قلبه ، كما يحس باهتزازات الحبِّ فى  
مفاصله ، فهو حب سَرَى فى الروح ، وتعلق بالجسم حتى العظام ، وهو لذلك  
كان إذا بكى أحسَّ كأن كلَّ شيء فيه يبكى ، بل إنه ليحس كأن الطبيعة  
تبكى معه (٢) :

ولمَّا أتَانِي أَنَّ مَيَّاً تَزَوَّجَتْ خَسِيْسًا بِكِي سَهْلُ الْمَيِّى وَحَزُونُهَا  
ولا ريب فى أن ذا الرمة من هذه الناحية يُعبِّر عن شاعرية أصيلة فى نفسه ، كما  
يعبر عن تأثر عميق بحب ميَّة ، وهو دائم الإعلان لهذا الحب ، وما يتغلغل منه  
فى روحه وعظامه وأحشائه ، وإن زفراته لتنساب فى صدره فتكاد تحطمه تحطُّمًا ،  
يقول فى بعض شعره (٣) :

تَعْتَادُنِي زَفَرَاتٌ مِّنْ تَذَكُّرِهَا تَكَادُ تَنْفَضُّ مِنْهُنَّ الْحَيَازِيمُ  
وإن الإنسان ليخيل إليه فى كثير من الأحوال أنه لم تعد فيه بقيَّة ، فقد  
أصبح زفراتٍ خالصة يُلْهِبُهَا هذا الحب الذى لا يرحم ، يقول فى بعض غزله (٤) :

وجبَّها لى سوادَ اللَّيْلِ مُرْتَعِدًا كَأَنَّهَا النَّارُ تَحْبُوْ ثُمَّ تَلْتَهَبُ

(١) الديوان ص ٤٩٤ .

(٢) الديوان ص ٥٦٩ .

(٣) الديوان ص ٦ .

(٤) الديوان ص ٦٤٨ والمضى : موضع .

فكل شيء فيه يرتعد ، بل يستعير ويكتسب ، وإنه ليفزع دائماً إلى  
دموعه ، لعلها تطفىء هذه النار الملتهبة في أحشائه ، فلا تزيد إلهتها والتهايب والتياحاً ،  
وتوقداً واشتغلاً .

وعلى هذه الشاكلة استمر ذو الرمة يصف حبه لمبة ومدى استغراقه فيه .  
ولكن ليس هذا هو اللون الجليد عنده الذي نريد أن نعرض له ، فهناك جانب  
ثان في ديوانه ، لعله أروع من هذا الجانب الخاص بحبه وعشقه ، وهو جانب وصف  
الصحراء ، إذ استطاع أن ينفذ في هذا الوصف إلى لوحات رائعة . وهي لوحات  
دبجت براءة شاعر عاشق لا لمبة فحسب ، بل للصحراء نفسها ، وكأنما كان  
يرى في الصحراء إطار مية ، فأحبها كما أحب مية ، وازداد شغفه بها حين رأى  
الصورة أو رأى مية تفلت من يده ، ولا يبق له إلا هذا الإطار الرائع  
الذي كان يراه من حولها ، فاعتز به وضمه إلى صدره ، وأحبه حباً ملك عليه  
ذات نفسه .

وذو الرمة في هذا الجانب فريد في الشعر العربي القديم ، حقاً الشعراء من  
قبله ومن حوله كانوا يصفون الصحراء وكل ما فيها ، ولكن ذا الرمة انفرد منهم  
بعشقه لها ، فهو يصفها لا وصف الشاعر الذي يشاهدها ويعجب بها ، ولكن  
وصف الشاعر الذي يتدمج فيها ويتقنى . وشعره من هذه الناحية يمكن أن  
يعد من ذوق جليد في اللغة العربية ، فالشعراء من قبله كانوا يصفون الصحراء  
من الخارج إن صح هذا التعبير ، أما ذو الرمة فيصفها من الداخل ، داخل نفسه  
وروحه ، إذ كان شديد الحب بها ، بل قل شديد العشق لها ، وقد تحول يصنع  
لوحات يسجل فيها مشاهدنا ، ويرسم مناظرها بجميع تفاصيلها ، يرسم أيامها  
وليلاتها وصخورها ورمالها وأعشابها وأشجارها وحيوانها ، وكل ما يتجرب فيها من  
رياح وشرق ورجد ومطر ، وكل ما يلمع في سماءها من كواكب ونجوم وغيوم ،  
وكل ما تكتظ به من سمائم وطير وآبار وسراب .

كل ذلك يرسمه ذو الرمة في ديوانه رسماً بحسب فيه دائماً أكثر ما  
هناك من جزئيات وذرات في الطبيعة جارية وغير جارية ، ومتحركة وغير متحركة ،  
ويحس الإنسان في كثير من الأحوال كأن خلفه من قصيدته أن يرسم هذه المناظر

فحسب . وقرأ القصيدة الأولى من ديوانه فستره يفتحها بالفرز ، ثم ينتقل إلى وصف الصحراء ، فيودع فيه بقية قصيدته ، وبينما تأخذ مئة نحو ثلاثين بيتاً نجد الصحراء تأخذ نحو مائة بيت عمدة فيها إلى تصوير ثلاثة مشاهد رائعة ، وهي مشهد حمار الوحش مع أتنه في الصحراء ، ثم مشهد ثور الوحش يجرى فيها ، ثم مشهد الظليم مع نعامته وأولاده . وهنا كله يوضع في القصيدة لا مبدئاً ولا منتهى ، كما كان يصنع شعراء الجاهلية غالباً ، فهو المخل وهو الغرض جميعاً في القصيدة . ومن هنا كان ذو الرمة يختلف اختلافاً واضحاً عن سبقوه وعاصروه ، فالصحراء ومشاهدها عنده غاية ، ويشعر الإنسان كأنما مئة هي الوسيلة والصحراء غايتها ، فهو يبدأ قصيدته بمئة ، ثم يستمر في وصف مشهد الصحراء استرسالاً . ولذلك كنا نزع أن الصحراء في ديوان ذي الرمة أهم من صاحبته ، فنأظرها ومشاهدها تطغى عليها طغياناً شديداً ، وهو طغيان أرادته ذو الرمة وعمدة إليه عمداً ، حتى يسرى هذه اللوحات الفاتنة لصحرائه ، التي ما يزال يبدي ويُبعد في تلويها ومدة خطوطها وحشد ظلالها وأضوائها .

وذو الرمة يُعبر في ذلك كله عن مقننة جديدة في التلوين والتخطيط والتظليل ونشر الأضواء ، وهي مقننة استغل صاحبها كل ما وصل إليه الشاعر الجاهلي ، ثم نفذته منه إلى هذه اللوحات الخافقة المليئة بالحركة والحياة . ونحن لا ندخل في ديوانه حتى نحس كأننا ندخل عالماً جديداً ، فهذا كتاب الصحراء قد فتحت صفحاته أو قل فتحت لتوحاته ، وفي كل لوحة نرى مشهداً عجيباً من مشاهد الصحراء . وارجع إلى القصيدة الأولى في الديوان فستجد أول مشهد بديع يقابلك فيها مشهد حمار الوحش ، وقد عضته وحوش من غير أسرته ، فهو يجرى في الصحراء ظالماً ، وأمامه أتن رماذية اللون ، وهو يصيح عليها في يوم حار صرحت فيه الأعشاب والبقول . وما يزال يجرى في إثرها حتى يصفر قرن الشمس وحتى يقترب من الماء الذي يطلبه منذ أول النهار ، فيُسرع في جريه حتى يصل إلى هذا الماء ، ويشد ركضه وركض أتنه ، ولكن الماء لا يزال بعيداً ، فيُسرع أعظم ما تكون السرعة . ويستمر في هذه السرعة وذلك الجرى طوال الليل ، حتى تبدأ أنوار الصباح في التفلت خلال الآفاق ، وإذا هو

يصل إلى عَيْنِ أُنْثَى التي تصطبغ فيها الضفادع ، وهو يتقدم أُنْثَى ، يشق لها الطريق إلى أَهْضَام هذه العين وأمكنتها المظلمة التي تنزل منها لشرب وترتوي . وبينما الأُنْثَى وحمارها تريد أن تَشْفِي غُلَّتْهَا من الماء إذا هي تسمع صوتاً خفياً ، فتَقْشَعِرُ أبدانها خوفاً من أن يكون هناك صائد يَسْتَرَبِصُ لها وراء الأشجار . وإنه هناك يَتَلَفَّعُ بشيابه البالية وَيُضَائِلُ في شخصه وجسمه ، وفي يده قَوْسُهُ ، وفي حِجْرِهِ سهامه :

فَعَرَضَتْ طَلَقًا أَعْنَاقَهَا فَتَرَقًا      ثُمَّ اطْبَأَتْهَا خَرِيرُ الْمَاءِ يَسْتَسْكِبُ<sup>(١)</sup>

فهى تُمِيلُ أعناقها تنظر ، ولكن خريير الماء الذي طلبته منذ صباح اليوم السابق يَسْتَلْعِيهَا ، فتقبل على المياه ، وقد وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ، وَخَفَقَتْ قُلُوبُهَا ، حتى إذا مَسَّتْ المياه حناجرها صَوَّبَ الصائد سهامه إليها فطاشت كلها ولم تُصِبْهَا :

رَمَى فَأَخْطَأَ وَالْأَقْدَارُ غَالِبَةٌ      فَانْصَعَمْنَ وَالْوَيْلُ هِجِيرَاهُ وَالْحَرْبُ<sup>(٢)</sup>

وعادت - من حيث جاءت - مُسْرِعَةً ، تَقْدَحُ حَصَى الصحرَاءِ قَدْ حَا بِأَقْدَامِهَا ، حتى ليكاد يلتهب التهاياً ، ويشتعل اشتعالاً .

ويخرج ذو الرُّمَّة من هذه اللُّوْحَةِ البليعة لمشهد الحمار وأُنْثَى في الصحراء وما صورَّ خلال ذلك من الأعشاب التي ذَبَلَتْ وَبَيَسَتْ إلى لوحة جليلة يَصُورُ فيها ثَوْرَ الْوَحْشِ ، وإنه ليَعْرِضُهُ علينا بِنُقْطَةِ السَّوْدَاءِ التي تُرْصَعُ سِيقَانَهُ ، وقد اكْتَنَى من الحرِّ اللافح في نباتات الصحراء من الخِلْفَةِ وَالرَّيْلِ وَالْأَرْطَى . وما زال في هذا البيت أو الكِنَاسِ حتى أقبل الخريف ، فخرج إلى مكان جديد ، يستدعيه ما ألفه فيه من رَيْبٍ وَأَعْشَابٍ ، وإنه ليجرى في الصحراء يطلب مأْوَاهُ ، وقد أحاطت به الرمال من كل جانب ، وما يزال يجرى حتى يَدْهَمَهُ اللَّيْلُ ويَدْهَمَهُ الْمَطَرُ ، فيلجأ إلى أَرْطَاةٍ يُمَضِي فيها ليلته ، وما يزال المطر يسقط من فوقه ، وكأنه جُمُحَانٌ ينحدر من سِلْكِهِ ، وإنه ليريد أن يدخل أكثر مما دخل

(٢) انصعن : تفرقن ، وهجيراه : دأبه وشأنه . والحرب : الغضب .

(١) طلقاً : لإرادة الطلق وهو الجرى ، واطبأها : استعماها .

فِي كَيْنَاسِيهِ ، فَتَعْنَمُهُ فُرُوعُ الْأَرْضِ طَيِّ وَغُصُونُهَا ، وَهُوَ فِي هَذَا كُلِّهِ يَتَرَقَّبُ وَيَسْمَعُ ، فَيَسْمَعُ صَوْتًا خَفِيًّا مِنْ حَوْلِهِ ، هُوَ صَوْتُ اللَّيْلِ فِي الصَّحَرَاءِ ، وَقَدْ اخْتَلَطَ بِصَوْتِ الرِّيحِ وَالْمَطَرِ ، وَإِنْ نَفْسُهُ لَتَوَسَّوْسُ لَهُ كَأَن جِنًّا تَرِيدُهُ فِي هَذَا اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ بِدُجَاهٍ وَغَيُومِهِ . وَمَا يَزَالُ فِي هَذَا الْكَيْنَاسِ حَتَّى تَنْفُذَ مِنَ الْأَفْقِ أَضْوَاءُ الصَّبَاحِ ، فَيُخْرِجُ مِنْ بَيْتِهِ بَرْعِي وَيَلْهَوُ . وَإِنَّهُ لَيَبْدُو هُنَاكَ وَكَأَنَّهُ لَيَهَبُ . وَإِنَّهُ لَنِي رَعِيهِ ، وَإِذَا كَلَابُ الْعَمِيدِ قَدْ أَرْسَلَهَا صَاحِبُهَا عَلَيْهِ ، فَيَعْلُو عَنَدًا وَآ سَرِيعًا ، يَرِيدُ أَنْ يُفْلِتَ مِنْهَا :

حَتَّى إِذَا دَوَّ مَتَّ فِي الْأَرْضِ رَاجِعَةً كَبِيرٌ وَلَوْ شَاءَ نَجَّى نَفْسَهُ الْهَرَبُ فَتَصُدُّ لَهَا يَصَارِعُهَا وَتَصَارِعُهُ ، وَتَشْتَدُّ الْمَعْرَكَةُ ، وَيَشْتَدُّ طَعْنُهُ فِي أَعْنَاقِهَا وَصُلُوبِهَا وَقُلُوبِهَا ، وَمَا يَزَالُ بِهَا حَتَّى يَتْرُكَهَا مَقْسَمَةً بَيْنَ جَرِيحٍ وَقَتِيلٍ ، وَيُخْرِجُ رَوْعَهُ وَتَنْجَلِي عَنْهُ الْكَرْبُ .

وَعَلَى هَذَا النُّحُو نَرَاهُ يُصَوِّرُ فِي لَوْحَةِ ثَوْرِ الْوَحْشِ هَذِهِ الْمَلْحَمَةَ الرَّائِعَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَابِ ، كَمَا صَوَّرَ فِي لَوْحَةِ حِمَارِ الْوَحْشِ وَأُتِنَهُ الْمَلْحَمَةُ الَّتِي نَشَبَتْ أَوْكَادَتِ بَيْنَ الصَّائِلِ بِسَهَامِهِ وَالْحِمَارِ وَأُتِنَهُ وَقَدْ وَلَّتْ هَارِبَةً لَا تُدْرِي عَلَى شَيْءٍ .

وَلَا يَكُنِّي ذُو الرِّمَةِ فِي قَصِيدَتِهِ الْأُولَى فِي دِيْوَانِهِ بِهَاتَيْنِ اللَّوْحَتَيْنِ اللَّتَيْنِ اسْتَفَدَ فِيهِمَا وَفِي تَصَوِيرِهِمَا وَرَسَمِهِمَا جَهْدًا كَبِيرًا ، فَقَدْ عَمِدَ إِلَى لَوْحَةٍ ثَالِثَةٍ رَسَمَ فِيهَا الظَّلِيمَ وَصَاحِبَتَهُ وَأَوْلَادَهُمَا ، وَقَدْ اسْتَهْلَهَا بِالظَّلِيمِ وَهُوَ يَرْعَى الْآءَ وَالتَّنُومَ وَالْعُقْبَةَ وَالْحِلَّةَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْشَابِ الصَّحَرَاءِ ، وَقَدْ امْتَدَّتْ عُنُقُهُ الطَّوِيلَةَ فِي النَّبَاتَاتِ فَغَمَرَتْهَا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا هَذِهِ الْقُبَّةُ مِنَ الرِّيشِ الَّتِي تَشَبَّهُ خَيْبَةَ الْعَرَبِيِّ ، وَإِنْ الظَّلِيمُ لَيَبْدُو وَكَأَنَّهُ يَلْبَسُ قَطِيفَةً سَوْدَاءَ لَهَا خُمَائِلٌ وَأَهْدَابٌ . وَبَيْنَا الظَّلِيمِ يَرْعَى إِذَا هُوَ يَذْكُرُ أَفْرَاحَهُ الثَّلَاثِينَ الَّتِي تَرَكَهَا بِالْقَرَبِ مِنْهُ وَقَدْ أَخَذَ الْجَوَّ يَكْفُهُ رِيحٌ وَأَخَذَتْ الرِّيحُ تَحْمِلُ الْحَصَى وَالتَّرَابَ ، فَانْبَرَى يَتَعَدُّ إِلَى أَفْرَاحِهِ ، وَانْبَرَتْ مَعَهُ النِّعَامَةُ تَسَابِقُهُ وَكَأَنَّهُمَا دَلُّوْا بَرًّا انْقَطَعَ جِلْبَاهُ ، فَهِيَ تَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ سَقُوطًا سَرِيعًا . وَإِنَّهُمَا لَيَعْدُوَانِ وَإِنْ جُلُودُهُمَا لَتَكَادُ تَنْشَقُّ عَنْهُمَا مِنْ سُرْعَةِ الْجَرَى وَفِرَطِ النَّشَاطِ خَوْفًا عَلَى أَفْرَاحِهِمَا أَنْ تَعْلُو عَلَيْهَا سَبَاعُ اللَّيْلِ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيْهَا بَرْدُ السَّمَاءِ ، فَقَدْ تَرَكَاهَا

ولا غطاء لها إلا الرمال التي تفتريشها . ويستمر في وصف الأفراخ ووصف رموسها وأشداقها ، وأعناقها .

وبذلك ينتهى ذو الرمة من القصيدة الأولى في ديوانه ، وهي كما ترى قصيدة أريد بها أن ترسم بعض مناظر الصحراء ، فلا غاية لها وراء ذلك . ولذى الرمة قصائد فيها مديح وهجاء ، ولكن حتى هذه القصائد يحس قارئها أن المديح والهجاء يأتيان فيها ، وكأنهما وسيلة لا غاية ، فالغاية دائماً الصحراء ومشاهدها واستخراج كل ما يستطيع الشاعر من مفاتها ومواضع الجمال فيها .

ذو الرمة إذن شاعر الصحراء في عصره ، وقد عكف عليها يرسم مشاهدها ومناظرها في إحساس عجيب بالبهجة والمررة وشعور عميق باللذة والمتعة ، ولعل هذا أهم ما يفرق بينه وبين شعراء العربية من قبله ومن حوله في وصف الطبيعة إذ يحس الإنسان أنه يدخل فيها لا بعينه وذهنه فحسب ، بل بشعوره ووجدانه . ومن هنا كان يشعر من يقرأ ديوانه أن حيوانات الصحراء أصبحت جزءاً من نفسه ، ولذلك كان يبذل في وصفها ، فهو يصف رحلاتها في الصحراء كما رأينا في المناظر الثلاثة السابقة ، وكأنه يصف رحلاته هو ، أما هي فصادية تطلب الماء ، وأما هو فصائد يطلب مته . وقد تولد للحيوانات فيه أثناء هذا الوصف كثير من العواطف ، ولعله من أجل ذلك كان لا يدع الفرصة لسهام الصائد ولا للكلاب أن تصيدها ، وربما كان لنفسه اللاشعرة أثر في ذلك ، فإنه لا يستطيع أن يحصل على حبه ، وكذلك الصائد لا يستطيع أن يصل إلى صيده .

على كل حال الظاهرة الأولى في رسم ذي الرمة لحيوانات الصحراء أنه لم يرسمها رسماً ظاهرياً يقف فيه عند وصف جسمها وحركاتها بين المراعى حين يشتد الحر ، أو يدخل الليل ، أو يسقط المطر ، بل هو يصفها وصفاً داخلياً . ولزج في القصيدة الأولى ثانية إلى لوحة ثور الوحش ، فإننا نرى ذا الرمة يصف نفسه وهواجه وسواسه وما يصاحبه في أثناء ذلك من اضطراب وقلق خوفاً من الإنسان وكلابه التي يرسلها عليه . ويستمر ذو الرمة حتى يصله بهذه الكلاب ، فيفر منها بادئ الأمر ، ثم يعود ، وقد استشر كرامته ، فأنف أن يهرب من المعركة . وذو الرمة في ذلك يمثل في الثور نفسيته البدنية الذي يرى الهروب من المعركة شراً

أَيُّ عَارٍ ، وها هو الثور يعود ، وقد وهب المعركة روحه مخلصاً ، كما يهبها العرب  
لربهم في جهادهم وفتحهم ابتغاء الأجر والثوبة :

فَكَرَّ يَمْتَشِقُ طَعْنًا فِي جَوَاشِينِهَا كَأَنَّهُ الْأَجْرُ فِي الْإِقْبَالِ يَحْتَسِبُ<sup>(١)</sup>  
وكما يَمْتَشِقُ ذو الرمة في الثور نفسية البدوي المعتز بنفسه نراه ينفث فيه وفي  
غيره من الحيوان كل ما يضطرب في نفسه هو من قلقٍ وسواسٍ إزاء حُبِّ مَيَّةٍ ،  
ولعله من أجل ذلك كان يسترسل في وصف هذا القلق .

وكان ذو الرمة ماهرًا حقًا في بثِّ العواطف والحركات النفسية في الحيوان ،  
وقد صوّر في لوحة الظلِّيم ونعامته السابقة حُنُوَّ الأب والأم على أبنائهما أو أفرأخهما  
تصويراً طريفاً ، فهما يخشيان عليها أن تمتدَّ لها يَدُ سَبَاعِ الليل ، أو يَدُ بَرَدِ  
السَّهَاءِ ، وهما لذلك يعلوان إليها علواً سريعاً . واستمع إليه بصور عاطفه الظَّبيَّة  
نحو خَشْفِهَا إِذ يَقُولُ<sup>(٢)</sup> :

إِذَا اسْتَوَدَّ عَنْهُ صَفْصَفًا أَوْ صَرِيْمَةً تَنَحَّتْ وَنَصَّتْ جَيِّدَهَا بِالْمَنَاطِيرِ<sup>(٣)</sup>  
حَدَّارًا عَلَى وَسَنَانٍ يَبْصُرُهُ الْكَرَى بِكُلِّ مَقْيِلٍ عَنْ ضِعَافٍ فَوَاتِيرٍ  
وَتَهْجُرُهُ إِلَّا اخْتِلَاسًا نَهَارَهَا وَكَمْ مِنْ مُحِبِّ رَهْبَةِ الْعَيْنِ هَاجِرٍ  
حَدَّارَ الْمَنَايَا رَهْبَةً أَنْ يَفْتُنَّهَا<sup>(٤)</sup> بِهِ وَهِيَ إِلَّا ذَاكَ أَضْعَفُ نَاصِرٍ

فهو يُصَوِّرُ الظَّبيَّةَ وقد رَمَتْ بِخَشْفِهَا أو ابنها على الأرض أو الرَّمْلَةِ ،  
وقفت بعيداً كأنها تخشى إن مكثت معه أن تدُلَّ عليه السباع ، فهي تبعد عنه  
وتنظر من حولها حذراً على ابنها ، وإنها لتخالس النظر إليه ، وهكذا تأخذها الشفقة  
عليه ، فتبعد وهي الحبة ، وتهجر وهي العاشقة .

وهذا جانب في ديوان ذي الرمة أو في لوحات ذى الرمة يجعلها تفيض  
بالحياة ، وهو من أهم الجوانب التي تَفَرِّقُ بين لَوْنَاتِ الشاعر وَلَوْنَاتِ الرِّسَامِ ،  
فالرَّسَامُ يُصَوِّرُ الظَّاهِرَ أو يُصَوِّرُ الْجَسَدَ ، أما الشاعر فيصور العواطف والحركات  
الوجدانية ، ولذلك كانت لوحاته ناطقة ، أو هي أكثر نطقاً ، بما تصور من

(١) يمشق : يطعن ، الجواشن : الصدور ،  
يحتسب : يطلب الثواب .  
(٢) الديوان ص ٢٨٦ .  
(٣) الصفصف : الأرض المستوية ،  
والصريمة : الرملة ، ونصت : رفعت ونصبت .  
(٤) يفتن : يسهو .

## المشاعر والوجدانات المختلفة .

وهي مشاعر ووجدانات استمدتها ذو الرمة من إحساسه العميق بالحيوان وحياته ، ووجد فيها ما يعبر عن مشاعره هو ووجداناته . ولا نشك في أن المشاعر الإنسانية التي بشها الإسلام في نفسه كان لها أثر في هذا الجانب من جوانب لوحاته ، إذ ملأه بالعطف على كل ما يجرى من حوله ، واستمع إليه يقول<sup>(١)</sup> :

أرى فيك من خرقاء ياطببنة اللوى      مشايه جنببت اعتلاق الحبائل

وهذا حنو بالغ على الحيوان، فهو يدعو للظبية أن لا تقع في حيلة صائد ، وهو دائماً لا يسكن الصائد من حيوان في ديوانه .

وعلى هذا النحو نجد في لوحات ذى الرمة مشاركة وجدانية بينه وبين الحيوان كما نجد بشاً لعواطف بل لحركات عواطف لا تنتهى في ديوانه ، فالحيوان يصور تصويراً نفسياً ، مليئاً بالحنو والعطف من جهة وبالحركات الوجدانية من جهة ثانية ، وهو في ذلك كله كأنه مرآة دقيقة لنفسية ذى الرمة وكل ما يجيش فيها من عواطف ، ويضطرب من خواطر . ومن هنا كان ذو الرمة لا يبدأ في وصف حيوان حتى يحس الإنسان أنه لا يريد أن ينتهى لأنه يعبر بواسطته عن نفسه وكل ما يتحرك في نفسه من نزعات ورغبات .

وصف الحيوان إذن في ديوان ذى الرمة حديث نفس قبل أن يكون حديث حس ، حديث نفس الحيوان وحديث نفس ذى الرمة . وفي هذا الحديث يفيض ذو الرمة في بيان المشاعر والعواطف ، فهو عن النفس الباطنة يصدّر ، لا عن العين الظاهرة ، وهو لذلك يستع من يطيل النظر في لوحاته ، إذ يجد فيها معيناً لا ينضب من حركات النفس ومشاعرها .

وطبيعى أن تصحب هذه الحركات النفسية حركات حسية على نحو ما رأينا في رحلات حمار الوحش ، والثور ، والظلم ، في الصحراء . فالحركة أساسية في لوحات ذى الرمة وهي من أهم الفوارق التي تفرق بينها وبين لوحات الرسامين التي يتجمد المنظر فيها ، ويأخذ وضعاً خاصاً لا يفارقه ، بسبب ما يتقيد به

الرسام من المكان ، أما الشاعر فإن انفساح الزمن عنده يعطيه الفرصة كي يرسم ما يريد في أوضاع مختلفة . وكان ذو الرمة شديد العناية بالأوضاع في صورته على نحو ما نرى في قوله يصف ظبيّة<sup>(١)</sup> :

بِرَأَقَةِ الْجِيدِ وَاللِّبَاتِ وَأَصِحَّةِ<sup>٢</sup> كَأَنَّهَا ظَبْيِيَّةٌ أَفْضَىٰ بِهَا لَبَبُ  
بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ مِنْ عَقْدٍ عَلَىٰ جَوَانِبِ الْأَسْبَاطِ وَالْهَدْبِ

فهو يختار للطبقة هذا الوضع البديع ، فهي آتية من بعيد ، وقد أفضت بها رَمْلَةٌ ، وهي تخرج من هذه الرملة في وقت الغروب بين النهار والليل ، فراها هناك في الوادي وهي تلتصع وسط النباتات والأعشاب .

وعلى هذا النحو كان ذو الرمة يُعْنَى عناية بالغة بالوضع في صورته ، ولم يكن يقف عند وضع واحد بل كان يُعَدُّد الأوضاع ، ومن ثمَّ نَشَرَ حركة واسعة في ديوانه لا في الطبيعة الحَبَّة فحسب ، بل أيضاً في الطبيعة المَيْتَةِ أو الطبيعة الصامتة ، إذ كانت لديه مهارة حقاً في تحريك هذه الطبيعة ، وكأنه كان خبيراً بفنّه خبيرة فائقة ، فنحن نراه حين يصف الكُثْبَانَ والجبال والصخور في الصحراء يختار النهار حين يمتد فيه السراب ، فإذا رَعَانُ الجبال وأعاليتها تتحرك ، وكأنها مجاميع من خيل أو إبل ، واستمع إليه يقول في جبل<sup>(٢)</sup> :

تَرَى رَعْنَهُ الْأَمْصَىٰ كَانَ قُمُوسَهُ تَحَامِلُ أَحْوَىٰ يَتَّبِعُ الْخَيْلَ ظَالِحِ

فالصخور العالية في الجبل تلبو له وسط السراب كأنها خيول تجري ، وقد نَدَّت منها صخرة تجري ورامها وكأنها فرس ظالع . واستمع إليه يقول أيضاً في رِيعَانِ الْجَبَلِ<sup>(٣)</sup> :

كَأَنَّهُنَّ ذُرَىٰ هَدْيٍ مُّجَسَّوَةٌ عَنْهَا الْجِلَالُ إِذَا أَبْيَضَ الْأَيَادِيمُ

الفارقة في السراب ، والأحوى : الفرس الأسود .  
(٣) الديوان ص ٥٧٧ وبجوبة : مكشوفة ،  
والجلال : ما تصان به الإبل من الأكسية ،  
والأياديم : الأرض الصلبة .

(١) الديوان ص ٣ ، واللبات : موضع  
القلادة ، واللب : ضرب من الرمل ، وكذلك  
الهدب . والأسباط : نبات ، والهدب : ورق  
الأرطى .  
(٢) الديوان ص ٣٧٠ والقوس : الأجزاء

فهو يتصور أعالي الجبال متحركة في السراب كأنها أسنمة ليل أهديت  
إلى البيت الحرام ، وقد كشفت عنها جلالها ، وهي تجري في أرض بيضاء  
صلبة .

وعلى هذا النحو يرى ذا الرمة يحرك الطبيعة الصامتة نهاراً بواسطة السراب وما  
يتخلله تحت عينه من مشاهد غريبة . أما في الليل فكان يرى النجوم متحركة من  
حوله ، وقد أخذ يصفها بصور الوحش المختلفة التي يشاهدها في صحرائه ، واستمع  
إليه يقول <sup>(١)</sup> :

وَرَدَتْ وَأُرْدَأُ النُّجُومَ كَأَنَّهَا      وَرَاءَ السَّمَاءِ كَيْسَ الْمَسَاوِي

فهو يتصور النجوم تسير وراء السماء كالمساوي واليعافر ، أو بعبارة  
أخرى كأنها بقر الوحش والظباء ، واستمع إليه يقول <sup>(٢)</sup> :

وَقَدْ مَالَتِ الْجُوزَاءُ حَتَّى كَأَنَّهَا      صَوَارٌ تَدُلُّ مِنْ أَمِيلٍ مُقَابِلِ

فهو يتخيل نجوم الجوزاء صواراً أو قطعاً من قطيعاً من قطعان البقر متحركاً في هذا  
الرمال الواسع المسمى أميلاً . وهكذا كان يُشيع الحركة في الطبيعة ليلاً ونهاراً .  
وقد ملأ ديوانه في أثناء ذلك بتشبيهات لا تُحصى حتى قالوا إنه أحسن أهل الإسلام  
تشبيهاً <sup>(٣)</sup> . وهو لا يقف عند التشبيه ، بل يضيف إليه ضرباً لا تخصي من  
التشخيص ، واستمع إليه يقول <sup>(٤)</sup> :

وَلَا رَأَيْنَا اللَّيْلَ وَالشَّمْسَ حَيَّةً      حَيَاةَ الَّذِي يَقْضِي حُشَاةَ نَازِعِ

فهو يتصور الشمس وهي تدع النهار كأنها نازع عند الموت ، يكاد يلتفط  
آخر أنفاسه . وهذا التشخيص ملأ به تصويره للطبيعة الصامتة ، واستخرج صوراً  
نادرة كثيرة ، من مثل قوله <sup>(٥)</sup> :

وَرِيحُ الْخَزَامِي رَشَّهَا الطَّلُّ بَعْدَمَا      دَنَا اللَّيْلُ حَتَّى مَسَّهَا بِالْقَوَادِمِ

(٤) الديوان ص ٣٦٤ .

(٥) الديوان ص ٦١٧ . والقوادم : الریش

في مقدم الجناح .

(١) الديوان ص ٢٤٨ .

(٢) الديوان ص ٤٩٧ .

(٣) ابن سلام ص ١٧ .

ويحس الإنسان كأن مُخَيَّلَةً ذِي الرُّمَّةِ لا يمكن أن تَنفَدَ صورها  
ورسومها التي تُذَيِّعُها في شعره . وقد كان يلاحظ هذا التشخيصَ ضرباً من  
التجسيم والتوكيز والتخشد في الصورة ، وذو الرمة لا يكاد يسبقه شاعر عربي في  
هذا الباب ، واستمع إليه يقول (١) :

وما قَلْنِ إِلَّا سَاعَةً في مُخَوَّرٍ وما يَتَنِّ إِلَّا تَلَكَّ وَالصَّبْعُ أَدْرَعُ

فالإبل لم تسرح في رحلتها إلا قليلاً ، قالت ساعة أو بعض ساعة ، وبانت  
كل تلك ساعة أو بعض ساعة ولم تَبَيَّثْ إِلَّا في أعقاب الليل ، حين أخذت أضواء  
الصباح تبليج في الآفاق . والتجسيم هنا إنما هو في كلمة «أَدْرَعُ» والأدْرَعُ :  
الحَمَلُ ظهره أسود وبطنه بيضاء ، فهو يعبر عن هذه القطعة من أواخر الليل  
وأوائل النهار بهذا الحمل الأدرع الذي يكسوه الظلام فوق ظهره ، ويكسوه الضياء  
تحت بطنه . واستمع إليه يقول في فلاة (٢) :

وَدُوٌّ كَكَفِّ الْمُشْتَرَى غير أَنَّهُ بِسَاطٍ لِأَخْفَافِ الْمَرَّاسِيلِ وَاسِعٌ

فهى فلاة ضيقة ، وهى لذلك تركز في خياله ، كأنها كفٌ مُشْتَرٍ  
مفتوحة لعقد صَقْفَةٍ ، ثم تعود فتسع ، فإذا هى بساط تجرى عليه أخفاف  
الإبل .

وهذه الحامسة الرائعة حاسة التوكيز والتجسيم عند ذى الرمة استطاع بها أن  
يركز ويحسم كل شيء ، حتى الزمن نفسه ، فهذه عهوده القديمة التي كان يرى فيها  
مَبَّةً والتي مرت به وكأنها لحظة يشبهها بظل الكَرَمِ لا يَمْتَدُّ حتى يَطْوَى ،  
يقول (٣) :

وَدَعْ ذِكْرَ عَيْشٍ قَدِمَ نَسَى لَيْسَ رَاجِعاً وَدُنْيَا كَفِيلُ الْكَرَمِ كُنَّا نَخْوُضُهَا

فهو يتصور حياته في أيامه الماضية كأنها ظلٌ كَرَمٍ كان يخوضه ، وسرعان  
ما خاضه فهو ليس ظلاً فحسب ، بل هو ظل يستعجله ذو الرمة ، فيخوض فيه

(١) الديوان ص ٣٤٩ . والمغور : المكان  
الذي تغور فيه ، وقلن : من القيلولة .

(٢) الديوان ص ٣٣٨ .  
(٣) الديوان ص ٣٢٦ .

يقطعه ، وهو لا يدري أنه يقطعه ، وقد رجع إلى هذه الصورة ، فأخرجها أو  
جسمها ثانية ، إذ يقول<sup>(١)</sup> :

لَيْلَى اللَّهْوُ يَطْبِينِي فَأَتَّبَعُهُ كَأَنِّي ضَارِبٌ فِي غَمْرَةٍ لَحِيبُ

فهو يتمثل لبايه الماضية كلها مع مَيَّةَ كأنها هذا الوقت القليل الذى يقضيه  
سابعٌ فى أول النهار أو آخر النهار ببركة ماء يلهو ويلعب .

ونحن كلما تصفحنا لوحات ذى الرمة أو صفحات ديوانه استقبلتنا كثيراً  
من هذه التجسيمات والتركيزات التى تدل على موهبة خيالية ممتازة ، واستمع إليه  
يصف مفازةً فى أثناء مُرَّاه فى الليل ، وقد حَسَنَتْهَا السَّهَامُ<sup>(٢)</sup> :

وَتَبْهَاءَ تُوْدِي بَيْنَ أَرْجَائِهَا الصَّبَا عليها من الظَّلَامِ جُلٌّ وَخَسْدَقُ

ويمكن أن نتصور موتَ الصَّبَا فى هذه المفازة إما لشدة حرها أو لشدة اتساعها ،  
وكذلك نستطيع أن نتصور الظلماء تُسْدِلُ غطاءً كثيفاً أو جُللاً على الصحراء  
أو المفازة ، ولكن الغريب هو هذا الخندق الذى يَحْفَرُ به ذو الرُّمَّةَ هذه الظلماء  
فى أذهاننا حَقَرًا ، يَحْفَرُها بكل ما فيها من مخاوف أثناء الليل المظلم الكثيف .  
ولن نستطيع صورة أن تعبر عن مخاوف الليل الدَّاجِى فى الصحارى بأروع مما تعبر  
صورة هذا الخندق الذى تتحوَّل إليه الصحراء ، فيظن راكبها أنه يسقط سقوطاً  
فى مهاوٍ ، لا يستطيع خروجاً منها ولا إفلاتاً .

وفى كل جانب من ديوان ذى الرمة نجد هذه الروعة التى لا يستطيع وصفُ مهما  
يكن أن يُلِمَّ بها ، فهو دائمُ الرسم والتصوير ، وهو دائمُ الاستعانة بهذه الحاسة  
الدقيقة ، حاسة التجسيم والتركيز ، واستمع إليه يقول<sup>(٣)</sup> :

قَدْ انْجَلَى اللَّيْلُ عَنَّا فى مُلْمَعَةٍ مِثْلِ الأَدِيمِ لَهَا من هَبْوَةٍ نِيمُ

فهو يرى الأرض تلمع بالمراب كأنه أديم أو ثوب تلبسه ، وهذا الأديم أو  
الثوب الذى تلبسه يمتد فوقه ثوبٌ نَصَفٌ من فَرَوٍ أو نيم كما يقول ذو الرُّمَّةَ ،

(١) الديوان ص ٧ . ويطبئى : يدعوف .

(٢) الديوان ص ٥٧٦ .

(٣) الديوان ص ٣٩٩ .

وبعبارة أخرى يعلوه معطف فرّو ، وهو معطف من هبّوة أو من غبار غليظ .  
ولا ريب في أن هذه الصورة بالغة التجسيم والتركيز ، وهي كأخواتها السابقة تدل  
على هذه القدرة البديعة في التخيّل والتصور .

وهي قدرة كان يمدّها حيناً دقيق بوحدات الصحراء ، لا وحداتها المنظورة  
فحسب ، بل أيضاً وحداتها المسموعة ، فالصوّور السميّة في الصحراء تجسّم هي  
الأخرى كما تجسّم الصوّور البصريّة . ولعل ذلك ما جعل ذا الرمة يمثّل لنا في  
ديوانه أصوات من يصفهم من الإنسان والحيوان ، فهذا الصائد مخنف وراء  
الأشجار ، وهو يجمع في نفسه ، وقد اعتمد على زُجّى مِرْفَقَيْهِ أو حَدَدَيِ  
مِرْفَقَيْهِ سهران يتنظر ، وأصوات صدره الخفيفة وأنفاسه تخرج منه في أثناء ذلك على  
نحو ما يقول (١) :

وَقَدْ أَسْهَرَتْ ذَا أَسْنَهُمْ بَاتَ طَاوِيًّا      لَهُ فَوْقَ زُجِّيٍّ مِرْفَقَيْهِ وَحَاوِحُ  
فهذه الواوح هي أصوات الصائد التي تخرج من صدره مع أنفاسه وهو  
يتربّح ما يريد صيده . وكما يصوّر ذو الرمة صوت الصائد نراه يصور صوت الظبيّة  
« ماء » بمد الميم مُعَالَةً بين الكسر والفتح ، فيقول (٢) :

لَا يَنْعَشُ الطَّرْفَ إِلَّا مَا تَخَوَّنَهُ      دَاعٍ يَنَادِيهِ بِأَسْمِ الْمَاءِ مَبْغُومُ  
فَالْخِشْفُ لَا يَرْفَعُ الطَّرْفَ إِلَّا حِينَ تَنَادِيهِ أُمُّهُ « ماء » هذا الصوت المبغوم  
المعروف . وكما صوّر صوت الظباء في شعره صوّر صوت الإبل في أثناء شربها وهو  
يدعوه « شيب » يقول في ذلك (٣) :

تَدَاعَيْنِ بِأَسْمِ الشَّيْبِ فِي مُتَشَلِّمٍ      جَوَانِيَهُ مِنْ بَصْرَةٍ وَسَلَامٍ

وقد تَسَمَّعَ إلى صوت أخفاف الإبل ذات ليلة ، وهي تسير ، فسمع فيه  
صوتها وهي تَرَشُّفُ الماء بعد العطش الشديد ، أو كما يقول بعد اليوم السابع ،  
فقد مضى يقول (٤) :

(٣) الديوان ص ١٠٩ والبصرة والسلام :

حجارة .

(٤) الديوان ص ٣٦٨ .

(١) الديوان ص ١٠٩ .

(٢) الديوان ص ٥٧١ ، وينعش : يرفع ،

وتخونه : تعبه .

لَاخْفَافِهَا بِاللَّيْلِ وَقَعَ مَكَانَهُ عَلَى الْيَدِ تَرَشَّافُ الظُّمَاءِ السَّوَاعِ

وهذه كلها أصوات كان يتيبئها . وكانت بجانبها أصوات أخرى ، هي إلى الهمس أقرب منها إلى أى شيء آخر ، وهي أصوات الفلوات نفسها إذا جنَّ الليل ، أصوات أصدائها التي تتجاوب فيها ، وما كانوا يتوهمونه من جين وغير جن ، على نحو ما نرى في قوله (١) :

وَدَوِيَّةٌ مِثْلَ السَّمَاءِ اعْتَسَفَتْهَا وَقَدْ صَبَغَ اللَّيْلُ الْحَصَى بِسَوَادٍ  
بِهَا مِنْ حَسْبِ الْقَفْرِ صَوْتٌ مَكَانَهُ غِنَاءٌ أَنْتَاسِيُّ بِهَا وَتَنَادِي

فقد الرُّمَّةُ يحس بأصوات الليل من حوله أو قل أصوات الفلوات كأنها غناء ، أو كأن أناساً ينادى بعضهم بعضاً . وإن الأوهام لتكبرُ في نفسه وتتضخم حتى ليخيل إليه كأن أصوات الجين المروعة تهمس إليه ، بل تأخذه من كل جانب ، فيقول (٢) :

وَرَمَلٌ عَزِيفُ الْجِنِّ فِي عَقِيدَاتِهِ هُدُوءٌ اكْتَضَرَابِ الْمُغْتَنِّينَ بِالطَّبِيلِ

وهو طبل يسمع أصواته تأتي من بعيد ، بل إنها لتأتيه من قريب ، أو قل هي تارة تأتيه من قريب ، وتارة تأتيه من بعيد ، وهي لذلك قد تشبه طبلاً مروّعاً أحياناً ، وقد تشبه غناء أحياناً أخرى على نحو ما نرى في قوله (٣) :

لِلْجِنِّ بِاللَّيْلِ فِي حَافَاتِيهَا زَجَلٌ كَمَا تَجَاوَبَ يَوْمَ الرِّيحِ عَيْشُومُ  
هَنَّا وَهِنًا وَمِنْ هُنَّا لَهْنٌ بِهَا ذَاتَ الشَّمَائِلِ وَالْإِيمَانِ هَيْئُومُ  
دَوِيَّةٌ وَدُجَى لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا يَمُّ تَرَاطُنٌ فِي حَافَاتِهِ الرُّومُ

فهو يسمع للجن في الفلاة صوتاً كصوت الريح حين تهب عاصفة على نبات العيشوم ، وهو صوت هينوم ، أو صوت هينمة ، تُسمع ولا تفهم ،

هدأ الليل وسكن .

(٢) الديوان ص ٥٧٥ .

(١) الديوان ص ١٣٩ ، والحيس : الصوت .

(٢) الديوان ص ٤٨٨ . والمقدات :

ما انمقد من الليل ، وهلوا : حين

وإن الصوت ليتجسم في سمعه قليلا قليلا ، فإذا هو كأنه صوت روم يتراطنون في حافات يسم . ولقد استطاع ذو الرمة أن يجسم لنا هذا الصوت بواسطة ألفاظ الشطر الأول في البيت الثاني ، فالصوت يترامى إليه من كل جانب ، أو كما يقول هو يترامى إليه من ههنا وههنا ومن ههنا . وما أظن كلمات تستطيع أن تمثل اضطراب ذى الرمة وخوفه وقلقه أثناء مراره في ظلمات الليل كهذه الكلمات المكررة مع اختلاف خفيف في تحريك الهاءات ، فإنها تبليغ من ذلك كل ما يريد من تصوير . وذو الرمة من هذه الناحية كان يعرف معرفة دقيقة كيف يعبر بصوت كلماته عما في نفسه . وقد أكثر من تصوير هذا الحس الذى يشعر به راكب الصحراء ، وجسم لنا في أثناء ذلك ليلته ورحلاته داخل هذه الليالي ، يقول (١) :

أخو قفزة مستوحش ليس غيره ضعيف النداء أصحح الصوت لأغبه  
تلوم بهتياه بيته وقد مضى من الليل جاوز وأبسطرت كواكبه  
فهو يلحرف نفسه أخا للقفر ، يسير فيه ولا أنيس له سوى القفر نفسه ، إن أمكن أن يكون القفر أنيسا لأحد . وإنه ليصور نفسه وقد أكثر من النداء حوله ضعيف الصوت ، قد بُع من كثرة ما نادى ، فهو أصحح لأغب . وانتقل في البيت الثانى بصور طول ما مر به من ليل وإسراء ، فهو يتابع هذه الحركة حركة الثاوب التى صورها في كلمة « ياه » وكررها هذا التكرار الواضح فى البيت ليدل على ما أصابه من إعياء ، فقد مضى من الليل جاوز أو شطر كبير ، وأسرعت كواكبه تريد الزوال ، وكأنما انتهى إلى أعجاز الليل وأوقات سحبه .

ولعل فى هذا كله ما يدل على هذه المقدرة البديعة عند ذى الرمة فى نقل الصور المسموعة وتصويرها فى لوائح ، وهى لوحات شاعر فنان كان يعرف كيف يرسم ، وكيف يحول الشعر إلى صور ، وهى صور كما رأينا تفرق عن صور الرسامين من نواح كثيرة ، إذ نراها تعتمد على حديث النفس كما قدمنا أو على بث الشعور والعواطف والحركات الوجدانية فى الحيوانات المصورة . ولا يستطيع الرسام أن ينقل فى لوحاته حركات وجدانية متعاقبة لا لحيوان ولا لإنسان ، إنما كل

ما يستطيعه أن ينقل حركة واحدة ، أما ذو الرمة وغيره من الشعراء فإنهم يستطيعون أن ينقلوا حركات متعاقبة .

وليس هذا كل ما يَفَرِّقُ لوحاتُ ذى الرمة من لوحات الرسامين ، ففيها تشخيص واسع ، إذ نراه يرسمُ الصخور كأنها خيل وإبل متحركة ، أو يرسمُ النجوم كأنها ظباء وبقر ، أو يرسمُ النهار وقت الغروب كأنه شخص تتعثر في حلقه حشرات الموت . وفيها أيضاً هذا التجسيم والتركيز الذى يصور الزمن الماضى كأنه ظلٌ كَرُمَ ، والذى يجعل الليل المظلم الداجى كأنه خندق ، كما يجعل السراب يُجكِّلهُ الغبار كأنه ثوب تلبسه الصحراء ، وتلبس من فوقه معطف صوف رمادى اللون .

وليس هذا كل ما يفرق لوحات ذى الرمة من لوحات الرسامين ، ففيها أيضاً هذه الصور السمعية التى ينقلها ذو الرمة عن حيوان الصحراء ، بل عن هَمَمَات الفلوات . وفيها هذه الصور التى يسمعها لنفسه فى أثناء الليل ، وقد أخذته المواجه من كل جانب ، وهو طائر فوق ناقته كأنه من عِتَاق الصُّقور ، لا ينام إلا حَسَوَ الطير .

ولكن أنظرن أنا استطعنا حتى الآن أن نصف فنَّ هذا الشاعر وخصائصه فى تصوير لوحاته وصفاً دقيقاً ؟ لقد بقيتْ أهمُّ صفة تراءى لمن يقرأ ديوانه ، وهى صفة الربط بين الصور المتباعدة ، فن أهم ما يميز ذا الرمة أنه كان صاحب مُخَيَّلَةٍ رابطة ، وهى مخيلة من طراز لا نألفه عند شعراء العرب إلا فى المثال بعد المثال ، أما عند ذى الرمة فقد صدر عنها كثيرٌ من صوره الطريقة التى يرسمها فى لوحاته . وهذه الصفة عنده تدلنا دلالة قاطعة على أنه كان يُحِسُّ الكون كله إحساساً لا مكان له ولا زمان ، فكل وحدة فيه يمكن أن تنتسب إلى غيرها انتساباً دائماً لا تنقطع جزئياته ، ولا تنفصل ذراته . ونحن نؤمن بأن ذلك كان نتيجة نَظَرَةٍ عميقة فى الكون ، وهى نظرة هيأتها الإسلام وهيأتها الأبحاث العقلية الجديدة ، فإذا ذو الرمة يشعر فى أعماق نفسه بالصِّلة التامة ، بل بالربط التام بين وحدات الطبيعة فى سمائها وأرضها ، وبرِّها وبحرها ، وصخورها وسفنها ، وظبايها ونجومها وصدها .

وهذا الإحساس العميق بالكون هو الذى تقاربت فيه صورُ الأشياء ، بل كادت تتحدُّ ، كما تقاربت فيه المسافات بل كادت تتنمحي ، وهو إحساس نمته الحياة الجديدة والحضارة الجديدة ، ولذلك كنا نزع أن لوحات ذى الرمة لوحات جديدة فى الشعر الربى ، أوجدها العصر الأموى ، ولم يكن يمكن أن توجد قبله . يمكن أن توجد بعض أمثلة لها أو بعض بنورها ، ولكن لا يمكن أن توجد هذا الوجود الذى نراه عند ذى الرمة من إحساس الكون إحساساً دقيقاً بكل جزئياته ووحدااته . ومن هنا كانت لوحاته يتلاشى فيها الزمن ، كما تتلاشى المسافة ، لهذا العمق فى الإحساس وهذه الدقة فى الشعور بالكون ، وأعل ذلك ما جعل الكهيميت ، كما مر بنا ، يصفه بدقائق الفطنة وذخائر كثر العقل ، وهى دقائق وذخائر لم يحصل عليها العرب إلا فى هذا العصر وعند ذى الرمة الذى تحول بصور طبيعة الصحراء فى لوحاته ، فإذا صورة الكون كله تشع فى نفسه من صورة هذه الصحراء ، وإذا هذا الشعور العميق الذى يندمج بين صور الطبيعة كلها صحراء وغير صحراء ، واستمع إليه يقول <sup>(١)</sup> :

كَأَنَّا وَالْقَيْنَانِ الْقَوْدَ تَحْمِلُنَا مَوْجُ الْفُرَاتِ إِذَا التَّجَّ الدِّيَامُ

فهو يتصور نفسه ، والسراب يحيط بالقينان أو القسم الشامخة من حوله ، كأنه يسبح فى الصحراء ، فهذه الدياميم أو هذه الفلوات هى نفسها الفُرَات ، وهذا السراب أمواجه . وقد يمكن أن يقع هذا التشبيه فى الذهن ، ولكن استمع إلى قوله <sup>(٢)</sup> :

كَأَنَّ مَطَايَا بَكْلٍ مَفَاذَةَ قَرَّاقِيرٍ فِي صَحْرَاءٍ دِجْلَةٍ تَسْبَحُ

والقراقير : السفن ، وتشبيه المطايا بالسفن قديم ، ولكن الجديد هنا إضافة الصحراء إلى دجلة . فالأمواج تضاف إلى الفلاة ، والصحراء تضاف إلى دجلة لتعبر عن متسع الماء هناك . وأنت مهما حاولت أن تفهم هذه الصورة فلن تستطيع فهمها إلا إذا ارتددت إلى فكرة الإحساس بالكون كله إحساساً يحدث الصلة الواضحة بين صوره . واستمع إليه يقول فى وصف ظباء ، تلعب فى فلاة <sup>(٣)</sup> :

(٢) الديوان ص ٥٨٩ .

(١) الديوان ص ٥٧٦ .

(٢) الديوان ص ٩٢ .

كَانَ بِلَادَهُنَّ سَمَاءُ لَيْلٍ تَكْشَفُ عَنْ كَوَاكِبِهَا الْغُيُومُ

فالفلاة تشبه السماء لا من حيث الظباء والنجوم فحسب ، بل أيضاً من حيث الغيوم ، ففي الأرض آفاق تخرج منها هذه الظباء كما تخرج النجوم من غيوم السماء ، واستمع إليه يقول (١) :

كَانَ أَدْمَانُهَا وَالشَّمْسُ جَانِحَةٌ وَدَعَّ بِأَرْجَائِهَا فَضٌّ وَمَنْظُومٌ

فالفلاة لا تشبه السماء في غيومها ونجومها فحسب ، بل هي تشبه أيضاً البحر بِوَدَّعِهِ وَأَصْدَاقِهِ مُتَجَمِّعَةٍ وَمَشْتَوَةٍ . فلا فارق في لَوَّحات ذى الرمة بين بَرٍّ وَسَحَرٍ وَأَرْضٍ وَسَمَاءٍ . ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم قوله السابق في وصف الشَّوَرِ حين عاد إلى الكلاب يُصَارِعُهَا ، إذ يقول :

حَتَّى إِذَا دَوَّمَتْ فِي الْأَرْضِ رَاجِعَتُهُ كَبِيرٌ وَلَوْ شَاءَ نَجَى نَفْسَهُ الْهَرَبُ

فقد عبَّرَ بالتدويم عن دوران الكلاب في الصحراء ، والتدويم إنما يكون للظَّيْرِ في السماء . ولأَمَّة بعض اللغويين أَنَّ وَضَعَ التدويم في غير مكانه ، وهم الملمومون ، لأنهم لم يفهموا ذا الرُّمَّة ، ولم يعرفوا أنه كان يَصْدُرُ عن إحساس عميق بالكون لا بد أن يصيب اللغة فيه بعض الاختلال ، لأنها تعودت الفصل بين وحدات هذا الكون وجزيئاته . ومن صُورِ هذا الإحساس الدقيق أن نراه يتصور نَبَاتًا التَفَّتْ أَصُولُهُ ، وكَثُرَتْ فُرُوعُهُ ، وتراكت أعشابه ، فَبَدَأَ فِيهِ سَوَادُ الْخُضْرَةِ . كأنه الليل ، يقول في حمارٍ وَخَشٍ يَرْعَى فِي قِطْعَةٍ مِنَ النَّبَاتِ (٢) :

وَقَدْ كَسَا كُلُّ مُرْتَادٍ لَهُ خَضِيلٌ

مُسْتَحْلِسٌ مِثْلَ عَرَضِ اللَّيْلِ بِخَمُومٍ

فكل مكان يرتاده الحمار في هذه القطعة قد كساه نبات رطب ناعم كثيف كأنه عرض الليل في سواده وظلمته . وإذا كان هذا الإحساس هو الذي هَدَى ذا الرمة إلى هذه المشابهة فرأى سواد الليل في النهار ، فإن هذا الإحساس نفسه قد

(١) الديوان ص ٥٧٧ . والأدمان: الظباء ،  
وفض : متفرق .  
الرطب ، ومستحلس : متراكم ، واليخوم :  
الأسود .

(٢) الديوان ص ٥٨٣ ، والخضيل: النبات

جعله يرى ظلال النهار في فحمة الليل ، إذ يقول (١) :  
 قد أغسِفَ النَّارِجَ المَجْهُولَ مَحْصِفُهُ في ظِلِّ أَغْضَفَ يَدِ عَوْهَامَةِ البُومِ  
 والأغضف : الليل ، وهو يقول إنه يسير على غير هُدًى في مفازة لا تحمل  
 علامةً يَهْدِي فيها ، وهو يسير هذا السير في أثناء ليل أو قل في ظلمات ليل مخيف  
 يدعو فيه البومُ بعضه بعضاً . وواضح أنه وضع كلمة ظل بدل كلمة ظلمة ، فهو  
 يرى في ظلمات الليل ظلال النهار ، كما يرى في ظلال النهار ظلمات الليل .

وهذا كله مصدره الإحساس الشامل بالكون ، وهو إحساس جاء من تأمل  
 عميق ، يمثل كل ما حصل عليه الذهن العربي في العصر الأموي من فكر دقيق .  
 ونحن لا نقرؤه حتى نحسَّ بجماله وأن شاعراً قديماً لم يستطع أن يجرى مع ذى الرمة في  
 هذا الميدان ، لأن ذِهنَ ذى الرمة كان ذهنًا صافياً من هذه الأذهان القليلة التي  
 تُعكِّسُ فيها مناظر الطبيعة ، وكأنها رؤى حاملة ، أنقول إن ذلك كله كان حلماً  
 كبيراً لذى الرمة ؟ ولكن كلمة الحلم في الواقع لا تصوِّره ، فقد أسرف الناس في  
 استعمالها ، حتى أصبحت لا تدل على شيء واضح ، إلا إذا خصصناها هنا وعند  
 ذى الرمة بهذا الربط بين الصور المتباعدة التي لا تقع المشابهة بينها في الذهن العادي  
 إلا أن يحلُم ، فإذا الشيء تحقَّق المشابهة بينه وبين أبعد الأشياء عنه ، وكان  
 هناك خيطاً واصل في مُحْكَمَةِ الشاعر تغيب عن الأشخاص العاديين . ومن  
 هنا كنا نحسُّ حين نقرأ ذا الرُّمَّة بعنصر المفاجئة في صُوْرِهِ ، وهو عنصر يغمرُ  
 الصور بنور رائع يُجسِّمُها في أذهاننا تجسِّماً ، أو قل يتحفِّرُها حفرًا .

ومن غير شك كان يستوحى ذو الرُّمَّة الشعر القديم وصُوْرِهِ ، ولكنه  
 عرف كيف ينفذ من خلال ذلك إلى طريقة جديدة في وصف صحرائه ، استطاع  
 أن يصنع من خلالها هذه اللوحات الفاتنة التي تدل دلالة واضحة على أن الشعر  
 العربي تطور في هذا العصر تطوراً لم يقف عند السطح والظاهر فحسب ، بل تناول  
 الداخل ، تناول النفس وأحاسيسها ، فانطبعت فيه روحُ تأملٍ واسعة في الطبيعة ،  
 وهي روح كانت تتأثر بالإسلام كما كانت تتأثر بالعقل الجديد . ولم يلبث  
 ذو الرمة أن نفذ من خلالها إلى هذه الروعة في التخيل ، وذلك الإحساس العميق

بالكون ، فانفتح باب في التصوير الشعري كان مغلقاً ، ياب كله حُلُمٌ ورؤى بهيجة .

## ٣

## هاشميات الكميّ

هو الكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ من بني أسد ، واشتهر معه في هذا العصر بذلك الاسم شاعران آخران من نفس قبيلته ، وهما الكُمَيْتُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أحد الشعراء المحضرين ، وخفيد له يسمى الكُمَيْتُ بْنُ معروف . وولد الكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ في الكوفة سنة ٦٠ للهجرة وعاش حتى سنة ١٢٦ هـ . فهو شاعر حضري لم ينشأ في البادية ثم انتقل إلى الكوفة أو البصرة كبعض شعراء عصره من مثل الفرزدق وجريّر وذى الرُّمّة ، بل نشأ في الحاضرة وعاش فيها حياته .

وطبعي أن يتصل بكل ما كان في الكوفة من ضروب معرفة وثقافة ، وكل من كتبوا عنه يُشيدون بمعرفته بأنساب العرب وأيامها<sup>(١)</sup> ، ويقولون إنه كان فقيه الشيعة<sup>(٢)</sup> هناك ، وينقل صاحب الأغاني عنه مجموعة من الأحاديث<sup>(٣)</sup> . فهو فقيه محدث عالم بالأنساب والأيام .

وليس هذا كل ما يلاحظ على معرفته وثقافته ، فقد تقدّم في حديثنا عن الحياة العقلية أنه كان شيعياً زيدياً على مذهب زيد بن علي ، وكان زيد بن علي يتلمذ لواصل بن عطاء ، ومن هنا كان الزيدية جميعاً معتزلة ، ومن هنا أيضاً كان الكميّ نفسه من المعتزلة .

فنحن إذن بإزاء شخصية طريقة اتصلت ببيئات المتكلمين وتلقّت منها طرقيهم في الجدال والحوار والاستدلال على ما يتحلونه من أفكار وآراء . وبظهر أن الكُمَيْتَ رأى أن لا يكفي أن يكون مطلقاً أو متلقياً ، فذهب يُلَقِّنُ ويُلَقِّي

(٣) أغاني ١٥/١٢١ .

(١) أغاني ( طبع الساسي ) ١٥/١٠٩ .

(٢) غزاة الأدب للبندقي ١/٦٩ .

على التلاميذ تعاليمه ، فقد روى الرواة أنه كان مُعَلِّمًا ، يَعْلَمُ التلاميذ في مسجد الكوفة (١) وأكبر الظن أنه كان يَعْلَمُهُم اللغة وأنساب العرب وأيامها ، ومن يدري ربما كان يُلَقِّنُهُمْ في أثناء ذلك حَدِيثًا وَفِقْهَا شِيعِيًّا وَاعْتِزَّالًا .  
ويظهر من مجموع أخباره أن حياته لم تكن هادئة ، فقد كان على مذهب زَيْد ابن علي ، وكان زَيْد يدعو للثورة ، وبخاصة لذلك خالداً القَسْرِي والى العراق هشام بن عبد الملك ، وجرت هذه المخاصمة كثيراً من شيعة الكوفة معها وعلى رأسهم الكُحَيْت . وهنا نجد الكميت يحاول أن يؤلب الناس على خالد ، وقد اتخذ لذلك نقطة ضعف فيه ، فقد كان خالد يَمَنِيًّا يَتَعَصَّبُ لِلْيَمَنِ يَتَعَصَّبُ شديداً ، فوقف الكُحَيْتُ أمامه يَتَعَصَّبُ لِمُضَرٍّ ، وكأنه يريد أن يُحَدِّثَ بشعره فوضى في العراق بين اليَمَنِية والمُضَرِيَّة ، فينفذ من خلال ذلك إمامه زَيْد إلى ما يريد من ثورة أو انتفاض على الدولة .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم التناقض عند الكميت بين شيعته ومُضَرِيَّتِهِ ، فالقول أن يتخلَّى الشيعي عن عصبية القبيلة إلى عصبية جديدة ، هي عصبية النُحْلَةِ والعقيدة . ولكن المسألة كما لاحظنا لم تكن مسألة عصبية قَبَلِيَّة حَقًّا ، إنما كانت مسألة سياسية ، أريدَ بها خدمة زَيْد وأصحابه ، وتدخل في هذه الغاية قصيدته المشهورة : ( أَلَا حُبِّيَّت عَنَّا بِأَسَدٍ يَنْتَا ) وهي المعر بالمذهبة ، وهي من أهم القصائد وأقدمها في العصبيات ، فقد هجا فيها اليَمَنِ هجاء مُخْزِيًّا ، ويقال إنه لم يترك حَيًّا من أحيائها إلا ولطَّخه بمثالبه ومساوئه . وبلغت هذه القصيدة أكثر من ثلاثمائة بيت ، ويظهر أنها كانت سبباً في حبس خالد القَسْرِي له . وتذهب بعض الروايات إلى أن الذي أمر بحبسه هشام بن عبد الملك حين سمع شيئاً من شعره في بني هاشم وأن هذه القصيدة قيلت بعد الحبس . وفي الوقت نفسه نجد روايات أخرى تتصل بشاعر يَمَنِيٍّ يسمى حكيم ابن عِيَّاش الكَلْبِي كان يتعصب لليَمَنِ ضد مُضَرٍّ ، وتزعم بعض الروايات أنه لما كثر هجاؤه للمُضَرِيَّة وثَلَبُهُ لها بأقبح المثالب انتصر بنو أسد بشاعريهم الكُحَيْت واضطروه أن يدخل معه في المعركة . وهناك رواية تزعم أن

حكيمًا كان يهجو على بن أبي طالب وبنى هاشم إذ كان منقطعاً لبني أمية ، وكان يعرف أن ذلك يرضيهم ، فأنبرى له الكميّ الشيعي<sup>(١)</sup> .

وهكذا تضطرب الروايات في خصومة الكميّ اليمينية ، وخاصة حين رأوا شاعراً يمينياً يخلع معه في هذه الخصومة . ولكن المسألة في رأينا واضحة ، وهي كلها يشعّرها ترجع إلى خالد القسري نفسه وتنعصبه ضد الشيعة . ومن الممكن أن يكون حكيم بن عبيّاش تهاجى مع الكميّ في أثناء ذلك إما بسبب اليمينية وحدها ، أو بسبب تعصبه لبني أمية ضد عليّ وشيعته ، أو بسببهما جميعاً .

على أن هذا كله محدود بالمدة التي ولى فيها خالد القسريّ على العراق من سنة ١٠٥ حتى سنة ١٢٠ هـ . ويمكن أن نجعل هذه المدة نفسها تاريخ هاشميات الكميّ ، فأغلبها نظيم فيها ، أما قبل ذلك فإننا نجد الكميّ يفد على يزيد<sup>(٢)</sup> ابن عبد الملك ( ١٠١ - ١٠٥ هـ ) ونجد قبل هذا التاريخ يوالى أسرة يمنية مشهورة هي أسرة المهلب ، إذ كان يمدح محمد<sup>(٣)</sup> بن يزيد بن المهلب ، الذي ولاّه أبوه على خراسان<sup>(٤)</sup> في أثناء خلافة سليمان بن عبد الملك ( ٩٦ - ٩٩ هـ ) وقد توفّي سنة مائة للهجرة .

ومعنى ذلك أن الكميّ قبل خلافة هشام بن عبد الملك وولاية خالد القسري على العراق كان يتّخذ على بني أمية من جهة ، وكان راضياً على اليميني واليمينية من جهة ثانية . ونحن نظن لذلك أن تشييعه لم يتمّ ولم يكتمل قبل ولاية خالد القسري سنة خمس ومائة للهجرة ، إذ بدأ ينظم هاشمياته ويحدث هذا الشغب ضد اليمينية وخالد معاً .

وهناك رواية تزعم أنه أنشد على بن الحسين الملقّب بزین العابدين إحدى هاشمياته<sup>(٥)</sup> ، وقد توفّي على بن الحسين سنة ٩٤ للهجرة<sup>(٦)</sup> . وفي رأينا أن هذه الرواية غير صحيحة لأن زيد بن عليّ الذي تشيع له الكميّ لم يكن قد دعا لنفسه

(١) أغاني ١١٢/١٥ وما بعدها .

١٣٥٠/٢ .

(٢) أغاني ١١٧/١٥ .

(٣) غزاة الأدب ٦٩/١ .

(٤) أغاني ١٠٨/١٥ ، والبيان والبيان ٢٣٩/٢ .

(٥) ابن سعد ١٦٤/٥ .

(٦) طبري ١٣١١/٢ وكذلك ١٣٢٤/٢ .

في أثناء حياة أبيه . وأخبار الكُمَيْت من هذه الناحية تضطرب كثيراً ، لأن القدماء لم يحاولوا أن يبينوها في دقة .

ومن ذلك كله نستطيع أن نتصور الموقف في وضوح ، فالكُمَيْت كان شاعراً شيعياً متعصباً لبني هاشم في مدة ولاية خالد القسري ، فجره ذلك إلى عصبية ضد خالد وقبيلته البينية . وإذن فالأساس عنده كان التشيع ، أما العصبية للمضرية ضد البينية فكانت شيئاً في الظاهر . وهذا نفسه نستطيع أن نتبينه في خصومته مع حكيم بن عياش الكلبي فإنه كان يهجو على بن أبي طالب وبيته من بني هاشم ، فأراد أن يبعده عنه وعن أسرته من الهاشمين ، واحتال على ذلك بإثارة البينية والمضرية ، وبالح في هذا الإبعاد حتى كان يفتخر عليه أحياناً ببني أمية ، وتعجب ابنه المستهزل من ذلك ، فسأله فيه ، فقال له : « يا بُنَيَّ أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بني أمية وهم أعداء على عليه السلام ، فلو ذكرت علياً لترك ذكري وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرّضت علياً له ، ولا أجد له ناصراً من بني أمية ، ففخرت عليه ببني أمية ، وقلت إن نفضها على قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غمّاً وفكبتُهُ ، فكان كما قال ، أمسك الكلبي عن جوابه فغلب عليه » (١) .

فالبنية التي أثارها الكُميت مع عياش كان يراد بها صرْفُه عن علي وبيته ، وكان يراد بها في الوقت ذاته إيذاء خالد القسري الذي كان يخاصمه كما قلنا من أجل إمامه زيد . وأظن أن هذا هو الوضع الصحيح للمسائل ، ولهذا كنا ننفي عن الكُميت ما يروى من أن بني أسد حين لجأوا إليه ليهجو حكيم بن عياش وقومه قال لهم : لا أستطيع هجاءه ، لأن خالد القسري محسنٌ إليّ ، فلا أقدر أن أردّ عليه (٢) ، إذ الحوادث تؤكد أنه لم يكن بينهما ودٌ ولا إحسان ، بل كان بينهما خصومة ومغاضبة وحقد وانتظار للحوادث . ومن الأدلة القاطعة على ذلك أننا نجد الكُميت حين يرى خالداً يولّي على خراسان أخاه أمدأ سنة ١١٧ للهجرة يوصل إلى أهل مَرَوْ بهذا الشعر (٣) :

(٢) طبري ١٥٧٤/٢ .

(١) أغل ١٢٣/١٥ .

(٢) أغل ١١٢/١٥ .

أَلَا أَبْلُغُ جَمَاعَةَ أَهْلِ مَرْوٍ      عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَتَائِ وَبُعْدٍ  
رِسَالَةَ نَاصِحٍ يَهْدِي سَلَامًا      وَيَأْمُرُ فِي الذِي رَكِبُوا بِجِدِّ  
فَلَا تَهِنُوا وَلَا تَرْضَوْا بِخَسْفٍ      وَلَا يَغْرُرْكُمْ أَسَدٌ بِهَهْدٍ  
وَلَا فَارِقُوا الرَّايَاتِ سُودًا      عَلَى أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالْتَعَدِّي

وهذه دعوة صريحة إلى الثورة على أسد وأخيه خالد ، وكان الكميت كان يريد أن تثور خراسان على الدولة ، وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك ، فإن الخراسانيين هم الذين انتفضوا على بني أمية . ولعل في هذا الشعر أيضاً ما يدل على أن خراسان كانت تُعد منذ هذا التاريخ وكرراً مهماً للشيعة .

على كل حال تدل هذه الأبيات أو قل هذا المنشور الذي أرسل به الكميت إلى أهل خراسان أن العلاقات كانت بينه وبين خالد سيئة ، وأنه كان يبدأ من الأيادي السوداء التي تلعب في الخفاء ضد بني أمية في العراق وخراسان جميعاً . وأكبر الظن أننا نستطيع الآن أن نفهم الظروف التي نشأت فيها خصومة الكميت مع خالد القسري واليمنية ، فهي خصومة تستمد من نخلته الشيعية ، وكان الكميت يريد أن يوجِّحها حرباً على خالد ، وهو يتخذ من إثارة العصبية المضمرية ضد العصبية اليمينية نقاباً يريد أن يشعل به هذه الحرب ، التي يتلطف عليها هو وإمامه . هي إذن حرب عصبية في الظاهر وهي في الباطن حرب سياسية يرادُ بها إلى نُصْرَةِ الشِيعَةِ ونُصْرَةِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ خاصة . ومعنى ذلك أن قصيدته المذهبة التي خص بها اليمنية قصيدة شيعية كُتبت لغرض الدعوة الشيعية وخدمة زيد بن علي عن طريق تشتيت الجماعة الإسلامية وبث الفرقة فيها . وقد كان زيد بن علي يطمح إلى الخلافة كما طمع إليها جده الحسين ، فكان يبث دُعَاة في الكوفة ، وكان الكميت من أكبر هؤلاء الدُّعَاة ، فهو الشاعر الذي تكفَّل بالدعوة لزيد شعراً ، ولما اصطدم زيد بخالد القسري تحول يهجو ويهجو قومه من اليمنية وشاعره حكيم بن عياش الكلبي .

وفي أثناء ذلك كان الكميت يؤلف قصائده المعروفة بالهاشميات ، وهي قصائد لا تبدي بكاء الأطلال والديار على عادة القصائد القديمة ، إنما تبدي بحب أهل

البيت الهاشمي والنسب بهم ، على نحو ما يقول في إحدى هاشمياته <sup>(١)</sup> :

طَرَبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ      وَلَا لَعِبًا مِنِّي أَذْوَ الشَّيْبِ يَلْعَبُ  
لَكِنْ إِلَى أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالنَّهْيِ      وَخَيْرِ بَنِي حَوَاءَ وَالْخَيْرِ يُطْلَبُ

وقد يصف رحلته في الصحراء ولكنه يأتي بها في آخر القصيدة ، كأنه يريد أن لا يشغله شيء عن مديح بني هاشم . وهي ليست مدائح بالمعنى المعروف ، إنما هي دفاع عن البيت الهاشمي ، وتقرير لما يراه إمامه زيد في صورة حماسية رائعة . وليس من ريب في أن خالدًا سمع بهذه القصائد ، بل يقول الرواة إنها وصلت سمع هشام ، فحبس الكمين . ويروى الرواة إن امرأته كانت تزوره في ثياب وهيئة حتى عرفها البوابون ، فلبس يومًا ثيابها ، وخرج عليهم دون أن يعرفوه ، وفي ذلك يقول :

خَرَجْتُ خُرُوجَ الْقِدْحِ قِدْحِ ابْنِ مُقْبِلٍ

على الرغم من تلك النواجح والمُقبِل <sup>(٢)</sup>

على ثياب الغانيات وتحتها      عَزِيمَةُ أُمِّرٍ أَشْبَهَتْ سَلَمَةَ النَّصْلِ

وتوجه إلى الشام مستغيثًا بأشراف بني أمية ، ولما كان ذنبه عظيمًا لم يمرؤ أحد على طلب العفو عنه من هشام ، ونصح له ناصح أن يضرب قبضته على قبر ابنه معاوية الذي توفى قريبًا ، فلما رأى أولاد معاوية ذلك ربطوا ثيابهم بشيابه ، حتى دخل ودخلوا معه ، على جدِّهم ، فلما رأهم اغرورقت عيناه بالدمع وعفا عنه لهم ، وفي رواية أن مسلمة بن هشام هو الذي استصدر له العفو من أبيه <sup>(٣)</sup> .

وبذلك ردت حريته الكمينت إليه ، ولكن بعد جهْد جهيد ، وبعد شعر كثير نظمه في هشام وابنه مسلمة ، وكان هشام يريد أن يوليه العهد بدلًا من ابن أخيه الوليد بن يزيد ، ويروى الرواة للكمينت في مسلمة <sup>(٤)</sup> :

إِنَّ الْخِلَافَةَ كَاتِنٌ أَوْ تَادُهُمَا      بَعْدَ الْوَلِيدِ إِلَى ابْنِ أُمِّ حَكِيمٍ

(١) الهاشميات ص ٢٧ .

(٢) قلع ابن مقبل : من قدام المير ، كان ليلى عامر بن صمصمة ، ولا يحمل في القدام إلا خرج فائزاً . انظر المير والقدام ص ٦٦ .

والمثل : الذي يفرى الكلاب بالصيد .  
(٣) انظر في حبس الكمينت والروايات المتصلة بطور هشام عنه الأغاني ١٥ / ١١٠ ، وما بعدها .  
(٤) طبري ١٧٤٢ / ٢ .

وأم حكيم هي أم مسلمة . على كل حال اتصل الكميت بهشام وابنه ، وقد أخذ ينظم فيهما مدائح كثيرة قبل عفو هشام عنه وبعد هذا العفو فيما يظهر ، استرضاء لهما ، وفي هشام يقول من قصيدة (١) :

أَنْتُمْ مَعَادِنُ لِلْخِلَا      فَكَابِرًا مِنْ بَعْدِ كَابِرٍ  
بِالتَّسَعَةِ      الْمُتَابِعِ      بَيْنَ خِلَافَتَا وَيْخِرِ عَاشِرٍ  
وَالِى الْقِيَامَةِ لَا تَزَا      لُ لَشَافِعِ مِنْكُمْ وَوَاتِرِ

ويقول الرواة إن مسلمة أمر له بعشرين ألفاً ، وإن هشاماً أمر له بأربعين ، وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته وأنه لا سلطان له عليهم ، وجتمع له بنو أمية مالا كثيراً (٢) .

وعاد الكميت إلى الكوفة ، وسرعان ما عزل خالد سنة ١٢٠ للهجرة وتولى يوسف بن عمر الثَّقَفِي ، فترصد الكوفة بأكثر مما رصد لها خالد ، ومكث ينظر في حركات زيد بن علي وصحبه بعين بَقِظَةٍ لَا تَغْفُل . واعتزم زيد الخروج في أصحابه ، وسرعان ما رأى الفرقة تدب فيهم ، فلم يثبت معه إلا نفر قليل . وبذلك انتهى إلى نفس المصير الذى انتهى إليه جده الحسين ، فقتله جند يوسف بن عمر سنة إحدى وعشرين ومائة ، وصلى يوسف جسده بالكوفة ، وأرسل برأسه إلى هشام ، فبعث بها إلى المدينة ، وظلت معلقة هناك ، حتى ولى الوليد فأنزلت وأحرقت (٣) .

ولم يخرج الكميت مع إمامه زيد ، لا لأنه رَفَضَهُ كما رَفَضَهُ كثير من شيعة الكوفة ، بل لأنه كان يرى أن لا يخرج زيد لما يعرفه من نفسية أهل بلده وأنهم إذا جدَّ الجدُّ لا ينصرونه ، ومع ذلك فقد تولى أسيفاً يَنْعَى على نفسه هذا التخلف والنكوص عن إمامه ، إذ يقول في بعض هاشمياته (٤) :

دَعَا نِي ابْنُ الرَّسُولِ فَلَمْ أَجِبْهُ      أَلْهَمَنِي لَهْفٌ لِلْقَلْبِ الْفَرُوقِ  
حَدَّ آرَ مَنِيَّةٍ لَا بَدَّ مِنْهَا      وَهَلْ دُونَ الْمَنِيَّةِ مِنْ طَرِيقِ

(٣) طبرى ١٦٩٨/٢ وما بعدها .

(٤) الهاشميات ص ١٥٧ .

(١) أغاني ١١٣/١٥ وما بعدها .

(٢) أغاني ١١١/١٥ .

فهو محزون لفراقه في خروجه ، وأنه لم يبذل نفسه في سبيله ، فالموت لا بد منه ، وهو إن تأخر اليوم فسيموت غداً .

ولعل هذا الجانب في الكميّة هو الجانب الوحيد الذي خالف فيه إمامه ، ومع ذلك فقد كان يخالفه على ما يظهر قاصداً إلى ذلك ، ففي هاشمياته اعتراف بأنه لا يرى الخروج متأسيّاً في ذلك بكثير من الأئمة السابقين ، ونفسُ زين العابدين والد زيد لم يخرج ، وكان أخوه محمد الباقر يرى عدم الخروج ، ومن ثمّ يقول الكميّة (١) :

تَجُودُ لَمْ نَقْصِي بِمَا دُونَ وَثْبَةٍ      تَظَلُّ لَهَا الْغِرْبَانُ حَوْلَى تَحْنُجِلُ  
وَلَكِنْ لِي فِي آلِ أَحْمَدَ أُسْوَةٌ      وَمَا قَدْ مَقَصَى فِي سَالِفِ الدَّهْرِ أَطْوَلُ

فالكميّة لم يخرج عن قصد وإيمان بوجهة نظر كان يشايعه فيها بعض الشيعة ، وكأنه كان يرى أن الوقت لم يتّحّن للخروج ، وأنه لا بأس من استمرار السريّة والتقيّة (٢) . على أنه ذهب يبكي بكاءً مرّاً حين قُتِل زيد بن علي ، كما ذهب يهجو يوسف بن عمر هجاءً مرّاً أيضاً ، ومن قوله فيه (٣) :

يُعَسِّرُ عَلَى أَحْمَدَ بِالَّذِي      أَصَابَ ابْنَهُ أَمْسٍ مِنْ يُوسُفِ  
خَيْثُ مِنَ الْعَصْبَةِ الْأَخْبَثِينَ      وَإِنْ قُلْتُ زَانِينَ لَمْ أَقْذِفِ

ولا ريب في أن هذا الهجاء بلغ يوسف كما بلغه بكاء الكميّة على زيد ، فأخذ يتحجّن له الفُرَصَ ، حتى إذا كانت سنة ستّ وعشرين ومائة وأيناه يتقد عليه مدحه ، وفاته أنه يُمكنه بذلك من نفسه ، ويضع الفرصة في يده ، فيبينا كان يُنشد قصيدته وَضَعَ الْجُنْدَ سِوْفَهُمْ فِي بَطْنِهِ ، فلم يزل الدّمُ يُتْرَفُ منه حتى مات (٤) ، ويقال إنه كان يفتح عينيه ، وهو يجرد بنفسه ، ويقول : اللهم آل محمد ، اللهم آل محمد ، اللهم آل محمد (٥) .

والكميّة في هذا كله يُعبّر عن تشيّع عميق فيه ، وليس هذا ما يلفتنا

(١) أغاني ١١٦/١٥

(٥) أغاني ١٢٤/١٥

(١) الهاشميات ص ١٣٧ وما بعدها .

(٢) الهاشميات ص ١٤٢ .

(٣) الهاشميات ص ١٥٧ .

عنده ، فقد تَشَبَّعَ في هذا العصر كثيرون وَقْتَلُوا ، ولكن الذي يلفتنا عنده أنه أنشأ مجموعة من القصائد اشتهرت باسم «هاشميات الكميت» وفيها نراه لا يكتفى بمديح العلويين بل يعمد إلى تقرير نِحْلَتِهِمْ تقريراً قوامه الجدال والاحتجاج . والكميت في هاشمِيَّاتِهِ يصلر عن ذوق جديد لا نعرفه في العربية لشاعر من قبله ، ذوق عقل ، إن صَحَّ هذا التعبير ، فهو لا يعبر فقط عن الشعور والعواطف ، وإنما يعبر أيضاً عن الفكر ، بل لعل تعبيره عن الفكر أهم من تعبيره عن العواطف . وهو من هذه الناحية يصور لنا التطور الذي أصاب العقل العربي في هذه العصور ، فهنا هاشمِيَّاتُهُ حجاج وجدال في مسألة الهاشمين ، بالضبط كما كان يُحاجُّ ويمجاد الحسن البصري وزملاؤه وتلاميذه في مسألة القدر ، فعنده فكرة معينة متناسقة يكتب فيها هاشمِيَّاتِهِ ، وله هدف معين يريد من هذه الهاشميات .

ليس الكميت إذن من ذوق شعراء عصره الذين وَزَّعُوا أنفسهم على المدح والهجاء والفخر على نحو ما نرى عند الفرزدق مثلاً ، بل هو شاعر يَقْصُرُ نفسه وشعره على نظام فكري مُعَيَّن . وهذا ما جعلنا نقول منذ السطور الأولى في حديثنا عنه إنه شخصية طريفة بين شعراء عصره ، إذ أخرج الشعر من أبوابه القديمة إلى باب جديد ، هو باب التقرير والاحتجاج للعكويين والدفاع عنهم . ولا حظ القدماء ذلك في صور مختلفة ، فقال الجاحظ إن الكميت أول من دكَّ الشيعة على طرق الاحتجاج ، وقال آخرون إن الكميت خطيب لا شاعر<sup>(١)</sup> ، وسُئِلَ عنه بشار فقال إنه ليس بشاعر<sup>(٢)</sup> . كل ذلك لأنهم رأوه ينظم هاشمِيَّاتِهِ بطريقة جديدة ليست هي الطريقة المألوفة عند الشعراء .

ومن غير شك لم يكن همُّ الكميت في هاشمِيَّاتِهِ منحصراً في فن التعبير ، بل كاد أن يكون منحصراً في فن الاحتجاج ، وهو لذلك لا يُعْجِبُ بشاراً الشاعر ، إذ يحمله لا يُعْنَى بفنِّه كشاعر ، وإنما يعنى به كداع يدعو للمذهب معين ، فهو يُعْنَى أكثر ما يعنى بطرق الاستدلال . وهي عناية صاحبها شعور وصاحبها عواطف نحو البيت الهاشمي ، ومن أجل ذلك كان هناك من يزعم أن شعره أشبه ما يكون بالخطب ، فهو جدال وإقناع ، وهو تفكير يصاحبه الشعور ،

(١) أمال المرتضى ٥٨/١ .

(٢) ألفاظ (طبع دار الكتب) ٢٢٥/٢ .

أو هو نظام فكري خاص .

وهكذا لم يَعد الشعر عند الكميت يُعبّر عن الشعور فحسب ، بل أصبح يعبر أيضاً عن الفكر ، وأصبح يُشَفِّع بكل ما وصل إليه العقل العربي في هذا العصر من قُدرة على الجدال والإقناع . وهي قدرة اشتهر بها إمام الكميت زَيْدُ بن علي . ولا شك أنها أمتها جميعاً من تلميذتهما لواصل بن عطاء رأس المعتزلة . وبذلك خرج الكميت شاعراً مناظراً من طراز ممتاز . ولم تكن المناظرة كاملة عنده كما كُلت عند جرير والفرزدق في النقائض ، بمعنى أنه وُجد شاعر يتناظر معه في النظرية التي يمتنع لها ، فقد حاول حكيم بن عيَّاش الكلبي أن يدخل معه مجادلاً في نظريته ، ولكنه صرفه كما قدمنا إلى العصبية اليعنية يُنْاضِل عنها . فهو مناظر في الهاشيين يقف وحده ، ولا يسمح لأحد أن يدخل معه في هذه المناظرة ، لا لأنه ضعيف الحجّة فيها ، ولكن لأنه يخشى أن تتحول المناظرة إلى قِتْدَفٍ في أمتّه الذين يجهلهم ويشغف بهم .

هَاشِمِيَّاتُ الكُمَيْتِ إذن مناظرات في حقوق الهاشيين ، وهي مناظرات لا تعتمد على الإقناع العاطفي ، وإنما تعتمد قبل كل شيء على الإقناع العقلي ، وقد اتخذ الكُمَيْت لهذا الإقناع طرْقاً ثابتة لا يَحِيد عنها ، فهو يستعين بالنظر العقلي الخفّض ، كما يستعين بآي القرآن الكريم ، وما يقرره من حق الأقرين . وهو في هذا كله تلميذ لواصل ومناظراته وحججها في مسائل الاعتزال ، وقد عُرِفَ واصل بسرعة بديهته في استحضار آيات القرآن التي تؤيد مذهبه ، كما عُرِفَ بعمق تفكيره ومعرفته بالمسالك المختلفة في الردّ على خصومه .

وعلى هذا النحو نجد الكُمَيْت في هاشمياته لَسِيناً مجادلاً من طراز لم نألفه عند الشعراء من قبله ولا في عصره ، لأن الجدال عمل عقلي ، وهو ألصق بأصحاب المذاهب والآراء . غير أننا لا نتقدم إلى أواخر هذا العصر الأموي حتى يكتب العقل العربي ثروات كثيرة من هذا الجدال ، وما هي إلا أن يتناول الكميت قَبَساً منه ، فإذا هذه الهاشِمِيَّاتُ التي تُفَرِّدُ حقّ الهاشيين في مهارة عقلية بديعة ، واستمع إليه يقول (١) :

بِخَاتَمِكُمْ غَضَبًا تَجُوزُ أُمُورُهُمْ  
وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً  
وَفِي غَيْرِهَا آيَا وَآيَاتٍ تَتَابَعَتْ  
بِحَقِّكُمْ أَمْسَتْ قَرِيشٌ تَقُودُنَا  
وَقَالُوا وَرِثَانَهَا أَبَانَا وَأَمْنَا  
يَبْرُونَ لَمْ فَضَّلَا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا  
وَلَكِنْ مُوَارِثُ ابْنِ أَمِينَةِ الَّذِي  
فَدَى لَكَ مُوَرَّثًا أَبِي وَأَبُو أَبِي  
وَتَسْتَخْلَفُ الْأَمْوَاتُ غَيْرَكَ كُلَّهُمْ  
يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تَرَاثُهُ  
وَعَكَ وَلِخُمْ وَالسُّكُونُ وَحَمِيرٌ  
وَلَا تَنْشَلَتْ عَضُوبِينَ مِنْهَا يُحَايِرُ  
وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَذَلَّةٌ  
هُمْ شَهِدُوا بَدْرًا وَخَيْبَرَ بَعْدَهَا  
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَيٍّ سِوَاهُمْ

فَلَمْ أَرَ غَضَبًا مِثْلَهُ يُنْصَبُ  
تَأُولُهَا مِنَّا تَقَى وَخُرِبُ  
لَكُمْ نَصَبٌ فِيهَا لِذِي الشَّكِّ مُنْصَبُ  
وَبِالْفَتْحِ مِنْهَا وَالرَّدِيفِينَ نُرْكَبُ  
وَمَا وَرَثَتُهُمْ ذَاكَ أَمْ وَلَا أَبُ  
سَفَاهًا وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْجَبُ  
بِهِ دَانَ شَرَقِي لَكُمْ وَخُرْبُ  
وَنَفْسِي، وَنَفْسِي بَعْدُ بِالنَّاسِ أَطْيَبُ  
وَنَعْتَبُ لَوْ كُنَّا عَلَى الْحَقِّ نَعْتَبُ  
لَقَدْ شَرَكْتَ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحَبُ (١)  
وَكَئِنَّةُ وَالْحَيَّانُ بِكْرٌ وَتَغْلِبُ  
وَكَانَ لَعَبْدُ الْقَيْسِ عَضُوبُورَبُ (٢)  
وَلَا غُيْبًا عَنْهَا إِذِ النَّاسُ غُيْبُ  
وَيَوْمَ حُنَيْنٍ وَالِدَمَاءُ تَصَبُّ  
فَإِنَّ ذَوِي الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ

وواضح أن الآيات تدور حول تقرير حق البيت الهاشمي في الخلافة ، وهو يستلها بأن خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خاتم الخلافة ، خاتم بني هاشم ، ويستخدمه اليوم بنو أمية غصبًا من أصحابه ، وإنه ليقرر حقهم عن طريق آي الذكر الحكيم في سَور حَامِيمٍ وغيرها من مثل قوله تعالى : « لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُدَّةَ فِي الْقُرْبَى » وقوله عز وجل : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » وقوله سبحانه : « وَآتََا الْقُرْبَى حَقَّهُ » وقوله تعالى اسمه : « فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى » . فهذه الآيات في القرآن الكريم ناطقة بحق بني هاشم ، وإن لبني أمية منها ، كما يقول الكمي ، لعَدَابًا وَنَصَبًا ، إذ لا يستطيعون تأويلها ، ولا صَرَفَهَا عَنْ وَجْههَا .

(١) بكيل وأرحب : حيان من همدان . مراد ، مؤرب : تام .

(٢) انحلت : انحلت ، يحابر : بطن من .

والكميت في هذا كله يستتعين في احتجاجه بالقرآن الكريم على نحو ما كان يستعين وأصيل في احتجاجه تلقاء مسائل الاعتزال ، فالخلافة حتى بنى هاشم بحكم القرآن نفسه ، وقد اغتصب بنو أمية منهم هذا الحق ، فتولوا أمر المسلمين ، يتقدمهم معاوية والرديفون الذين جاءوا من بعده ، وإنه ليسميه القدر وهو أحد سيهام الميسر . وينتقل الكميته من ذلك إلى مسألة الوراثة التي قررها الأمويون في انتقال الخلافة منهم إلى أبنائهم ، فيقول إنهم يحتجون بأن آباءهم أوروها لهم ، وهو ميراث باطل ، لأن صاحب الحق الأول هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو الذي يورث ، وبنو هاشم أولى بغيرائه من غيرهم ، فهم آل الأقربون . وإنه ليبين ما في حديث بنى أمية واحتجاجهم من ضلال وبطلان ، فهم يدعون ميراث الخلافة ، وفي الوقت نفسه يقولون إن النبي لا يورث ، وهذا تناقض . على أنه إن لم يورث لكان معنى ذلك أن الخلافة حق الجميع ، وليست مقصورة على قريش ، وإذن لطلبتها القبائل العربية المختلفة من مثل بسكيل وأرحب وعك وأحزم والسكون وحيمير وكندة وبكر وتغلب ، ولطلبت نصيبها منها بحابر ، وكان لعبد القيس منها نصيب موفور ، بل لكان للأنصار الحظ الأوفر ، وهم الذين آووا رسول الله ، ونصروه على أعدائه في بدر وغير بدر .

الخلافة إذن ميراث بدليل اختصاص قريش بها ، وما دامت ميراثاً فلنتبع قانون الموارث ، ولنرجعها إلى أهلها الحقيقيين ، ولزدها عليهم من أيدي المقتصبين الظالمين ، فهي تركة الرسول ، وهم أقرباؤه الذين حرمتهم منها الفئة الطاغية التي تدعى لنفسها إرثها ، وتمنعها من صاحبها الأول وأقربائه ، فتجعل لها حق الاستخلاف وعمل أولياء العهد ، بينما تحرم الرسول من ذلك . وبنو أمية كلهم يستخلفون ، ولا يعطون للرسول الكريم هذا الحق ، وهو أول منهم به ، وآله من بنى هاشم أولى بغيرائه .

ألنا هنا في جدال صرف واحتجاج خالص ؟ فهذا الكميته يقرر حتى بنى هاشم تقريباً يستمد من نظرية الأمويين أنفسهم الذين يذهبون إلى أن الخلافة ينبغي أن تكون في قريش ، وهو يقول لهم ما دمتم تذهبون هذا المذهب ، وما دمتم تدفعون القبائل العربية والأنصار معهم عن الخلافة بهذه الحجة ، فلا معنى لتقديم

قربش على العرب إلا القرابة من رسول الله ، وإذا كانت القرابة هي الحجة ، فالأقربون أولى ، فبنو هاشم أول من بنى أمية ، وبنو علي من أبناء فاطمة أحق بنى هاشم بالخلافة . وهو يستعين على هذا كله بالقرآن مرة ، وبالنظر العقلي مرة ثانية .

وعلى هذا النحو يتحول الشر عند الكُمَيْتِ إلى تأليف حُجَجٍ وصياغة أدلّة . وهذا معنى ما نقوله من أن الهاشميات جديدة في اللغة العربية ، فالشرع فيها يتصل بمنابع عقلية جديدة ، لا صلة بينها وبين المنايع القديمة التي كان يستمد منها الشعراء ، فهي جدال في مسألة حادثة ، هي حق بنى هاشم في الخلافة وتقدّمهم في هذا الحق على بنى أمية ، وهي تتخذ في إثبات هذا الحق نفس الطرق أو نفس الأدلة ، التي كان يتخذها وأصل وأمثاله من المتكلمين حين يُقَرَّرُونَ مسألة ، فتراهم يستعينون بالنظر العقلي من جهة ونصوص القرآن الكريم من جهة ثانية ، ولذلك كنا نزع أن الكُمَيْتِ تلميذ لهذه المدرسة وتلميذ لواصل الذي اشتهر بقوة إقناعه خاصة .

والمسألة لا تحتاج حدساً وتخصيماً كما قدمنا ، فصِلَةُ الكُمَيْتِ بواصل واضحة مقررة ، وقد أخذ يكتب تحت ضوء ما تلقّنه منه هذا الدفاع الذي أخذ شكل جدال وحوار واسع ، فهو يحاور ويمجادل في حقوق الشيعة وفي أنهم أصحاب الخلافة ، ويفتح في ذلك أبواباً للمناظرة والاستدلال لم تكن مألوفاً عند الناس والشعراء من حوله .

وما أظننا ، إذا قلنا إن هاشميات الكميّت كانت مِنحَةً المعتزلة ومنحة العقل الذي كثره في العصر الأموي ، نكون مخطئين أو مبعدين في الوهم ، فهي صورة دقيقة لطرق القوم في استدلالهم وحوارهم وما كانوا يشفقون به هذا الاستدلال والحوار من نظير عقلي عميق .

فالكميّت يناظر في هاشميّاته عن الشيعة ، بل إنه يحول شعره إلى تقرير نظرية معينة ، يعيش يجادل فيها ويحاور ، ويدفع حُجَجَ الخصوم ، ويُسَبِّتُ مكانها حُجَجاً قوية ، لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها ، لأنها حُجَجٌ تَسَلَّحَتْ بكل ما يمكن من قضايا ومقدمات صحيحة ، تارة تَسْتَمِدُّ من

القرآن الكريم وتارة تستمد من العقل نفسه ، ونقصد العقل الأموى أو قل عقل المتكلمين فى أوائل القرن الثانى حين أحرزوا ثروات استدلال وجدال خصبة .

ومعنى ذلك أننا يلزأ شاعر شيعى معتزلى فى الوقت نفسه . ومن هنا كانت هاشميات الكميت تمتاز من الشعر الشيعى الذى عاصرها أو سبقها ، فقد نُظِم شعر شيعى كثير فى هذا العصر ، ولكنه كله كان يَصْدُرُ عن العاطفة وحدها فحسب ، فهو إما بكاء ، وإما إعلان لثورة . أما عند الكميت فهو قبل كل شيء يصدر عن العقل ، وليس هذا فحسب ، بل يصدر عن كل ما اكتسبه وادّخره العقل العربى لهذا العصر عن طريق المناظرات الكلامية وما اتصل بها من طرق احتجاج وجدال واستدلال .

وهذا كله هو الذى يجعل للهاشميات أهمية خاصة فى هذا العصر ، إذ تعبّر أجمل تعبير وأدقّه عن الصياغة الفكرية التى وصل إليها العقل العربى ، فلم يعد يُعبّر عن صياغة شعورية فقط ، بل أصبح يُعبّر فى بعض جوانبه على الأقل عن صياغة ذهنية ، دُعِمَتْ بكل ما عُرِفَ حيثل من مسالك أدلّة وطرق براهين . وهذه هى أهمية الكميت بين شعراء عصره إذ لم يتّبع اللروب الموروث ، بل اختار لنفسه درّباً جديداً غير مألوف من سابقه ومعاصره ، فسار فيه ، وأظهر فى ذلك براعة فائقة ، إذ حوّل شعره من ميادين العاطفة إلى ميادين الفكر ، وجعله كأنه مقالة يكتب فيها عن نظرية بنى هاشم فى الخلافة . وهو يجمع لهذه المقالة الخيوط من هنا وهناك ، أو قل المقدمات ليكون ما يريد من حجج وأدلة .

وبذلك خرج ديوان الشعر عن صورته القديمة وأصبح مقالة . فالمقالة الشيعية بل المقالة الزيدية بنوع خاص كتبت فى هذا العصر ، ولم تُكتب تُشرأ على عادة المقالات ، بل كتبت شعراً ، كتبها الكميت فى هاشميانه . والهاشميات من هذه الناحية تُورّخُ نَزْعَةً عقلية جديدة فى اللغة العربية لم تكن معروفة قبل الكميت ، إذ لم يُعرَف عن شاعر قبله أنه خصّص لنظرية معينة مجموعة من قصائده لُقِبَتْ بلقب يدل على غايته أو منزعِهِ ، إنما كان الشاعر حين يُلِمُّ بعقيدة يؤمن بها يكتب فيها البيتين أو الأبيات ، وقد يكتب قصيدة ولكنه يخصّصها بشخص من الأشخاص الذين يُعبّرون عن عقيدته أو

فكرته ، فهو لا يكتب كتابة مجردة عن الأشخاص ، إنما يمدح شخصاً أو يترى شخصاً ، ويعبر في أثناء ذلك عن بعض آرائه . أما عند الكُمَيْتِ فالقصيدة تُكْتَبُ في الفكرة من حيث هي ، لا تهتمُّ الأشخاص بقدر ما تهتمُّ الفكرة نفسها ، وقارنُ بينه وبين شاعر شيعيٍّ مثل كُثَيْرٍ الذي تحدثنا عنه في غير هذا الموضع ، فستجد كُثَيْراً يمدح ابنَ الحنفية إمامه ، فيعرض لبعض مبادئ الطائفة المعروفة باسم الكِيسَانِيَّة ، وقد يرثيه ، فيعرضُ لشيء من هذه المبادئ ، وقد يهجو بعض خصومه من أمثال ابن الزُبَيْر ، فيُضَمِّنُ هجاءه شيئاً من الإشادة بإمامه . وكُثَيْرٌ لهذا كله ، قريبٌ من الذوق العام في الشعر العربي ، فقصيدته الشيعية في ديوانه تتصل بشخص مُحَيَّن دائماً ، لأنها قصيدة كُتِبَتْ حول شخص ، ويهتمُّ الشخص نفسه قبل أي شيء آخر . أما عند الكُمَيْتِ فالقصيدة كُتِبَتْ قبل كل شيء لتخدم نظريَّة معينة ، وهي لذلك تُجَرِّدُ من اسم إمامه زَيْدٍ غالباً ، حتى هاشميته اللامية<sup>(١)</sup> التي نَظَّمَهَا في رثائه ليس فيها اسمه من قريب ولا من بعيد ؛ لأنها في الواقع ليست قصيدة من النوع المألوف عند العرب ، وإنما هي مقالة كُتِبَتْ احتجاجاً للبيت الهاشمي بصفة عامة ولزَيْدٍ بن علي بصفة خاصة . ولا يهتمُّ زيد بقدر ما يهتمُّ البيتُ كله ، لأن زيدا نفسه رمزٌ للبيت . فهي قصيدة تلور حول فكرة قبل أن تلور حول شخص . وكان زيد لا يُقْبَدُ الخلافة بفرَّع الحسين جدِّه ، بل يُطْلَقُهَا في أبناء فاطمة كلِّهم ، سواء كانوا من فرع جدِّه أو كانوا من فرع عمه الحسن ، فساعد ذلك أيضاً على التَّعْظِيم في الهاشميات .

فالكُمَيْتُ على مذهب إمامه لا يُتَقَبَّدُ بشخص من أبناء فاطمة ، ومن هنا كانت تظهر فيه نزعة عامة ، أو على الأقل ساعد ذلك على النزعة العامة فيه ، فانطلق يدافع في قصائده أو مقالاته عن النظرية الشيعية نفسها ملتزماً ما يلتزمه إمامه . وكان إمامه معتدلاً بِحُكْمِ المنطق والعقل في آرائه ، فتبعه يدعو دعوته وَيَسْتَنُّ به في كل ما يأخذ ويدع من الآراء والأفكار . ويدلُّ على ما نقوله من

(١) أغال ١١٠/١٥ وانظر الهاشميات ص ١١٠ وما بعدها .

بعض الوجوه أن زيدا ذهب إلى صحة إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك صحح خلافة أبي بكر وعمر مع وجود علي لمصلحته رآها الصحابة ، وقاعدة دينية اتبعوها<sup>(١)</sup> . وأحدث هذا الرأي خلافاً بين شيعة زيد من أهل الكوفة ، وخرجت عليه جماعة ، واستقطبت حقه في الإمامة . وهنا نجد الكميت يقف مع إمامه ، ينصره بلسانه ، ويؤيده بشعره ، من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا أرضى بشتيم أبي بكر ولا عمرا  
ولا أقول وإن لم يعطيا فذكرا ينبت الرسول ولا ميراثه كغفرا  
الله يحلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتدرا

فهو يفرق بين تشييعه وتكفيره لأبي بكر وعمر ، فيقول إنه لا يستحيل ذلك ، وإن كانا قد ارتكبا ذنب فذلك ، فإن أهلها صالحوا الرسول على نصف أرضهم دون أن يرسل لها جيلا أو جيشا ، فاعتبرت خالصة له ، وكان ينفي منها على أبناء السبيل ، فلما توفي طالبت فاطمة بها ، فأبى أبو بكر وعمر لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » ، ما تركناه صدقة » واعتبرت الشيعة ذلك خطأ من أبي بكر وصاحبه ، وجوزوا أن يورث الرسول حتى تطرد لهم فكرة الميراث في الخلافة . ولكن زيدا لم يكن يأخذ بهذا الرأي ، بل كان يفرض ذلك إلى الله ، ولا يحاسب الشيخين عليه ، والكميت يتجربى على رأيه ، فيقول إنه لا يخطئهما ولا يكفرهما ، بل يدع ذلك إلى ربه يوم الحساب .

ولا ريب في أن هذا جانب اعتدال واضح في مذهب الزيدية ، وقد جاء زيدا من تلمذته لواصل رأس المعتزلة فقد كان واسع الفكر ، وكان يجوز الخطأ على أصحاب الجمل وأصحاب صفين ، ولا يلزم الخطأ فريقا بعينه . وكان زيد يعجب بأرائه ، ويقول السابقون إن أخاه محمداً الباقر كان يعاتبه

(٢) الهاشميات ص ١٥٦ .

(١) الملل والنحل ص ١١٦ وانظر هنا الطبري ١٦٩٩/٢ .

على تَتَكَلَّمُده لواصل ، لأنه يجوز الخطأ على جَدِّه في قتال الناكثين للمَهْد<sup>(١)</sup> . ولكن ذلك لم يَصْرِفْ زَيْدًا عن واصل بل استمرَّ يتابع دروسه ، وكان لها تأثير عميق في نظريته ونظرية أتباعه ، ويكفي أن نراه الآن يُسَلِّمُ بصحَّةِ خلافة أبي بكر وعمر ، وهو مالا تُقِرُّه جميع فرق الشيعة ، بل إنه ليخطو خطوة أوسع ، فيجوز تجويزاً عاماً إمامة المَفْضُول مع قيام الأفضَل .

ومن هنا لا يكون من بَأْسٍ على الكُمَيْتِ أن يَعْتَرِفَ في بعض شعره بإمامة الأمويين ، فهم مفضولون على كل حال ، ومع ذلك ففي جَوَازِ الكُمَيْتِ هذا ؟ إنه لم يجوزْه إلا حين قَبَضُوا عليه ، فاضْطُرَّ اضطراراً إلى مدحهم على نحو ما مرَّ ، وهو مدح مطعون فيه ، لأنه قيل تحت رماحهم وسيوفهم ، ويظهر أن القدماء نَسُوا ذلك ، فقد ذهب بعضهم يُكَبِّرُ من مدائحهِ في بني أمية ، حتى ليقول ابن قُتَيْبَةَ إنه كان يَشْتَبِعُ وَيَنْحَرِفُ عن بني أمية بالرأى والهوى ، وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبين ، ولا أرى عِلَّةَ ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإثارة النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة<sup>(٢)</sup> .

وأكبر الظن أن ابن قُتَيْبَةَ يبالغ في ذلك ، وكأني به لم يقرأ الهاشميات قراءة فاحصة ، إذ نعرف أن الكُمَيْتَ فيها لم يَقِفْ عند طَالِيٍّ بعينه ، إذ كان يصلد الدفاع عن نظريته معينة ، أما في مدحه للأمويين من مثل هشام وابنه مَسْلَمَةَ ، فقد كان يَمْدَحُ أشخاصهم . وفرَّقَ بين مديح الأشخاص والدَّعْوَةِ لنظرية معينة ، فالمقارنة بين الكُمَيْتِ في هاشميَّاته ومدائحهِ مقارنة ناقصة . وقد عرفنا أن الكُمَيْتَ لم يطلب دُنْيَا الأمويين ، إنما طلب أن تُرَدَّ له حرية ، وحاولوا أن يشروه بلباسهم معلودة ، فأعطاهم مديحاً لم يلبسهم وحرية المسلوقة ، فلما عادت إليه حرية ارتدَّ يدعو دعوته ويشور ثورته .

ولعل مما يدل على أن الكُمَيْتَ لم يكن يطلب الدنيا أنه كان يرفض أن يأخذ من بني هاشم مالا نظير ما يُدَبِّجُهُ فيهم ، فقد روى الرواة أن جعفر الصادق أعطاه يوماً بعد إنشاد الأُمِّيَّة المشهورة ألف دينار وكُسُوءة ، فقال له الكُمَيْتُ : والله ما أَحْبَبْتُكُمْ للدنيا ، ولو أردتها لأتيت مَنْ هِيَ في يديه ، ولكني أحببتكم

للأنقرة ، فأما الثيابُ التي أصابت أجسادكم فلإني أقبلتها لبركتيها ، وأما المال فلا أقبلته <sup>(١)</sup> . فالكميئة لم يكن من طلاب الدنيا . ومن طريف ما يروى عنه في صدّد مديحه لبني أمية أنه كان إذا سُئِلَ عنه قال : إني لا أحفظُ منه شيئاً ، إنما هو كلام ارتجَلْتُهُ <sup>(٢)</sup> .

والحق أن شعر الكُمَيْتِ في هشام وابنه مَسْلَمَة كان شعراً عارضاً في حياته ، وهو من هذه الناحية لا يُصَوَّرُ شيئاً في عاطفته ولا في ذهنه . أما شعره في الهاشمين ، فهو الشعر الذي عاش بُنْمِيه ، لأنه كان يُعَبِّرُ فيه عن عاطفه صادقة ، كما كان يُعَبِّرُ عن كل ما حصل عليه من ثقافة ومقدرة في الجدل والإقناع ، ومع ذلك فهو ليس شعراً بالمعنى القديم ، إنما هو شعر بمعنى جديد ، فيه يتحول الفكر الخالص إلى شعر ، أو هو مقالة شيعية بمعنى أن الأفكار الشيعية تُنَسِّجُ شعراً لا نثراً .

وهاشميات الكُمَيْتِ ليست مقالة شيعية عامة ، وإنما هي مقالة زَيْدِيَّةٌ كما قلنا ، ومن هنا كانت نصّاً طريفاً للمذهب الزَيْدِيَّة في أول تكوينه . وليس كلُّ ما في الهاشميات من هذا المذهب مسألة صحيحة خلافة أبي بكر وعمر وجواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، ففيها ما يَشْتَرِطُهُ زَيْدٌ في الإمام الشيعي ، ويتضح ذلك إذا رجعنا إلى الشهرستاني ، إذ يقول إن زيدا كان يشترط في الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، وأن يكون عالماً ، زاهداً ، شجاعاً سخياً <sup>(٣)</sup> . وهذه الصفات الأربعة تردّد في الهاشميات تردّداً واسعاً ، فالكميت لا يمل تكرارها ، بل دائماً يُبْدِي ويُعيدُ فيها ، من أجل قوله <sup>(٤)</sup> :

|                                       |                                          |
|---------------------------------------|------------------------------------------|
| فَ ضِرَامًا وَقودُها بضرام            | الْحُمَاةُ الكفاةُ في الحرب إن لـ        |
| اسُ قَاوِي حَوَاضِينَ الْإِيْتَامِ    | وَالغِيوثُ الَّذِينَ إن أَمَحَلَّ النَّـ |
| م رَبَوًا مِنْ عَطِيَّةِ الْعَلَامِ   | غَالِبِينَ هَاشِمِيِّينَ فِي الْعَلـ     |
| رِ بِتَقْوَاهُمْ عَرَى لَا انْقِصَامِ | وَهُمُ الْآخِلُونَ مِنْ ثِقَةِ الْأَمـ   |

(٣) الملل والنحل ص ١١٥ .

(٤) الهاشميات ص ٢ .

(١) خزانة الأدب ٧٠/١ وانظر الأغاني

١١٨/١٥ .

(٢) أغاني ١١١/١٥ .

وَتَشَوَّلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي هَاشِمِيَّاتِ الْكُمَيْتِ ، وَيُظَنُّهَا مِنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ مَذْهَبِهِ أَنَّهَا تَكَرَّارٌ وَخَطَابَةٌ ، وَهِيَ نَظَرِيَّةُ الرَّيْدِيَّةِ يُدَّيِعُهَا الْكُمَيْتُ فِي الشَّعْرِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، فَيُطِيلُ فِيهَا ، وَيَكْثُرُ مِنْ ذِكْرِهَا وَتَرْدَادِهَا ، حَتَّى يَثْبُتَ الْمَذْهَبُ فِي نَفُوسِ أَتْبَاعِهِ مِنْ جِهَةٍ ، وَنَفُوسِ غَيْرِ أَتْبَاعِهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى . وَتَدُلُّنَا هَاشِمِيَّاتُهُ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَيْسَتْ كُلُّ مَا كَانَ يُطَلَّبُ فِي الْإِمَامِ ، فَهَنَّاكَ صِفَاتٌ أُخْرَى ، نَعْلَمُهَا كَانَتْ أَهَمُّ فِي رَأْيِ زَيْدٍ وَفِي رَأْيِ النَّاسِ ، وَلَمْ يُشْرُ إِلَيْهَا الشَّهْرَسْتَانِي ، وَعَلَى رَأْسِهَا صِفَةُ الْعَدْلِ . وَمِنْ هُنَا كَانَتْ هَاشِمِيَّاتُ تَكَثُّرٍ مِنْ ذِكْرِ عَدْلِ الْإِمَامِ الْمُنْتَظَرِ ، وَعَدْلِ الْأَئِمَّةِ السَّابِقِينَ وَالْمُعَاصِرِينَ . وَلَيْسَتْ هُنَاكَ هَاشِمِيَّةٌ لَمْ تُقَرَّرْ فِيهَا هَذِهِ الصِّفَةُ تَقْرِيرًا ، بَلْ لَمْ تُنْشِئْ بِسَطًا ، فَهِيَ أَسَاسٌ مَهْمٌ مِنْ أَسَاسِ الْمَذْهَبِ ، وَأَصْلٌ مَهْمٌ مِنْ أَصُولِ الْعَقِيدَةِ . وَالْكُمَيْتُ لَا يَكْتَفِي عَادَةً بِتَقْرِيرِ عَدْلِ إِمَامِهِ أَوْ أَئِمَّتِهِ ، بَلْ يَحَاوِلُ أَنْ يُقَرَّرَ جَوْرَ بَنِي أُمِيَّةٍ ، وَيَسْتَطِرِدُّ إِلَى الْمَقَارَنَةِ بَيْنَ مِيَاسَةِ الطَّرْفَيْنِ مَقَارَنَةً يَرِيدُ بِهَا هَدْمَ النِّظَامِ الْقَائِمِ وَتَحْطِيمِهِ ، وَاسْتِمَاعَ إِلَيْهِ يَقُولُ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَأَتَمَّتْهُمْ <sup>(١)</sup> :

|                               |                                          |
|-------------------------------|------------------------------------------|
| القريبين من ندَى والبتعيد     | ن من الجور في عرى الأحكام                |
| راجحي الوزن كامل العدل في الد | يرة طبين بالأمور الجسم                   |
| ماسة لا كمن يرى رغبة النأ     | س سواء ورغبة الأنعام                     |
| لا كعبد الملك أو كولي         | أو سليمان بعد أو كهشام                   |
| رأيه فيهم كراي ذوى الك        | لة في الثائجات <sup>(٢)</sup> جنح الظلام |
| جز ذى الصوف وانتقاء لذى الم   | خة وانعق ودعنا باليهام <sup>(٣)</sup>    |
| فهم الأرافون بالناس في الرأ   | فة والأحلامون في الأحلام                 |
| أخذوا القصد واستقاموا عليه    | حين مالت زوامل <sup>(٤)</sup> الآثام     |

وَوَاضَحُ أَنَّ الْكُمَيْتَ يُقَرَّرُ عَدْلُ أئِمَّةِ الشَّيْعَةِ وَأَنَّهُمْ لَا يَجُورُونَ وَلَا يَظْلَمُونَ ، أَمَّا بَنُو أُمِيَّةٍ فَإِنَّهُ يَصِمُهُمْ بِوَصْمَةِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ ، وَأَنَّهُمْ يَسْمُونَ الرِّعْيَةَ سِيَاسَةً

(٣) : وانق و دعدعا : يريد صياح الرعاة حل اليهام : أى الفم .  
(٤) : الزوامل : الإبل التى تحمل الماء .

(١) : الهاشميات ص ٢ وما بعدها .  
(٢) : الثالثة : الجساعة من الفم ، الثائجات : الضأن .

غاشمة ، تقوم على استخلاص كل ما يملكون ويدّخرون . وكان الرعية غنّهم لهم ، يتجزّون صوفها ، ويشربون ألبانها ، ويأكلون لحومها . وفي الوقت نفسه يصيحبون عليها كل صبيحة ، ويزجرونها كل زجر ، فهم الظلّمة الغاشمون . أما بنو هاشم فهم العدول الذين لا يتجورون ولا يظلمون ، وإنما يتبنّون العدل والقسط بين الناس ، وقد استقاموا على الطريقة ، بينما ينحرف بنو أمية ، وعليهم حدّول الآثام والخطايا .

وفي كل مكان من الهاشميات نُعتدّ هذه المقارنة بين عدل الإمام الشيعي وجور الخليفة الأموي ، فإذا قلنا إن الزيدية كانوا يقرّرون العدل صفة مهجة من صفات الإمام لم تكن مبنيدين ، بل كنا مُحِقِّين ، لأن هذه الصفة في الحقيقة هي الصفة التي دفعت زيدا إلى الخروج على هشام ، وكان زيد يُقرّرها في الناس كما كان يقرّها الكُهميت دأعيته فيهم ، فلم تخل منها هاشمية من هاشمياته ، وقد ذهب يُشَبِّهها في صور كثيرة ، وانزلق منها يُقرّر أن الإمام الشيعي هو العالم الفقيه الذي يحكم بين الناس كما أراد الكتاب والسنة ، وإذن فهذا أصل آخر من أصول الزيدية ، وقد نفذ منه الكُهميت إلى بيان ما في الحكم الأموي من شلوذ وعدول عن هدّى القرآن وسنة الرسول ، فهو يصف الأمويين دائماً بأنهم أهل بدع وضلال ، على نحو ما نرى في قوله <sup>(١)</sup> :

لم كلّ عام بدعةٌ يُحدّثونها      أزكّوا بها أتباعهم ثمّ أوحلوا  
كما ابتدّع الرهبان ما لم يتجى به      كتاب ولا وحى من الله منزل  
تَحِلُّ دماء المسلمين لديهم      ويَحْرُمُ طلع النخلة المتهدل  
فباربّ هل إلابك النّصر نبتغي      عليهم وهل إلّا عليك المعول

وعلى هذه الشائكة كان الكُهميت يُقرّر في شعره جور الأمويين وخروجهم عن الجادة ، فهم أهل أهواء وبدع في الدين ، يُحِلُّون ما حرّمه الله ، ويحرّمون ما أحلّه ، يُحِلُّون قتل المسلم ، ويحرّمون أكل التمرّة .

ونحن نقرأ هذا الشعر فنظنه ثورةً على بنى أمية فقط ، وهو في حقيقته كان تقريراً للمذهب الزيدية ، وهو تقرير تضمن هذه الثورة ، لأن زيدا نفسه كان ثائراً على الأمويين ، وكان يدعو إلى الانتفاض عليهم ، ولذلك لا تعجب حين نجد داعيته يقرر ما يقرر من خروجهم على الدين ، وهو بذلك يمهّد للثورة عليهم ، ولكنه في الوقت نفسه يعطينا وثيقةً طريفةً عن الزيدية ومبادئهم ، كما كانت تُفهم في عصر إمامها الأول زيد بن علي .

هاشميات الكُمَيْتِ إذن في حقيقتها مقالة الزيدية في العصر الأموي ، وهي من هذه الناحية تُعَدُّ شيئاً طريفاً حقاً ، ففيها مبادئ الزيدية ، وفيها الأصول التي كان يدعو إليها زيد بن علي ، وفيها ما يُكَمِّلُ كُتُبَ الملل والنحل عن الزيدية وما يشترطونه في الإمام ، على نحو ما رأينا في شعر الكُمَيْتِ من شرط العدل والأخذ بالكتاب والسنة ، أو ما شرع الله ورسوله . وليس هذا ما يؤمن به الزيدية فقط ، فالكُمَيْتُ يقرر مسألة وصاية الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عمه علي يوم غدِير<sup>(١)</sup> خُم<sup>(٢)</sup> ، إذ يقول<sup>(٣)</sup> :

ويومَ الدَّوْحِ دَوَّحَ غَدِيرِ خُم<sup>(٤)</sup> أبان له الولاية لو أطيعنا

فهو يزعم كما تزعم الفرق الشيعية الأخرى أن رسول الله أوصى بالخلافة لعلي ، ولكنه لا ينتهي كما انتهوا إلى أن أبا بكر وعمر اغتصباه حقه ، بل يدعُ الأمر في ذلك لله .

وكما قلنا مبادئ الزيدية معتدلة ، والكُمَيْتُ يصورُ ههنا الاعتدال في هاشمياته ، فليس فيها غلوٌّ في تصور حقيقة الإمام ، ولا في العلم الذي بشه الله فيه ، فالإمام ينبغي أن يكون فقيهاً ، وليس هناك بعد ذلك ما يُصوِّرُ علماً باطنياً أو شعوراًً .

ونستطيع أن نقول إن نظرية الزيدية كما تصوّرها الهاشميات إنما تركز على نظرية الإمامة والوراثة الشرعية لها ، ثم شروط تُشترط في الإمام من الزهد

(٢) الهاشميات ص ١٥٢ .

(١) غدِير خُم : غدِير غُطْبِ عتده رسول الله بين مكة والمدينة ، بينه وبين الجعفة ميلان .

والتقوى والشجاعة والسخاء والعلم بالكتاب والسنة واتباع هدى الشريعة ،  
والعدل بين الناس عدلاً تستوى فيه الرعية لا يحيد فيه الإمام قيد  
أنملة عما شرعه الله ورسوله للمسلمين من قواعد وأحكام وحدود وقوانين ،  
حتى يعم الدولة النظام ، وحتى يتأمن الناس على أنفسهم وأموالهم .

وليس في الهاشميات بعد ذلك تقرير لرجعة أو تناسخ ونحو ذلك مما يؤمن به بعض  
غلاة الشيعة ، وإنما فيها مذهب الزيدية وهو أكثر مذاهب الشيعة اعتدالا ،  
وأقربها إلى مذاهب أهل السنة ، ولذلك كنا نعجب من الجاحظ إذ يقرر  
أن الكميته كان شيعياً من الغالية<sup>(١)</sup> ، ولم يكن الكميته يوماً غالياً في تشيعه  
إنما كان شيعياً معتدلاً ، أو بعبارة أدق كان زيدياً ، ولعل الجاحظ نعت الكميته  
بذلك لإرضاء للعباسيين ، فإن الكميته كان يقرر في حماسة إرث بيت علي  
للمرسل معتمداً على القرابة ، ولذلك كان يقف في صف أبناء فاطمة . وكان هذا  
لا يرضى العباسيين منه ، فقد ادّعوا أنهم أصحاب هذا الإرث<sup>(٢)</sup> ، وأنهم  
الأحق به ، فكان طبيعياً أن يفضبوا على الكميته ، ولعل ذلك نفسه سبب  
غضبهم على ابنه المستهزل وما كان من ضرره وتعذيبه<sup>(٣)</sup> ، حتى ليروى عنه  
أنه قال لهم<sup>(٤)</sup> :

إذا نحن خِفْنَا في زمانٍ عدُّوكم وخِفْنَاكمُ إنَّ البلاءَ لراكدٌ

فلعل الجاحظ ، لهذا ، دعا الكميته غالياً في تشيعه ، وهو لم يكن غالياً  
حقاً إلا من حيث تقرير نظرية بيت أبناء فاطمة . ومع ذلك فنحن نجد في  
هاشمياته شعراً يُشيد فيه بالعباس بن عبد المطلب جند العباسيين ، ولعل المستهزل  
هو الذي أدخله في الهاشميات لإرضاء لهم<sup>(٥)</sup> .

ولم يستعنت الجاحظ الكميته بالغلو في التشيع فقط ، بل ذهب يترى على  
ملحه للرسول عليه السلام في هاشمياته ، إذ ادّعى أن النامس يسوءهم مديحه :

(١) البيان والبيان ٤٦/١ .  
(٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٢/٢٩٣ .  
(٣) انظر الأغاني (طبع الساسي) ١١٨/١٥ .  
(٤) الأغاني ١١٨/١٥ والشعر والشعراء ص ٣٧١ .  
(٥) انظر الهاشميات ص ٢١ ، ٦٣ .

وقيل: أفرطت بل قصدت ولو عتفتى القائلون أو ثلّبوا

وكان الجاحظ ينسى التاريخ وأن بنى أمية كانوا يعترضون على الكنيث لمديحه الرسول في هاشميانه ، لأنه لم يُرد إلى مدح الرسول ، وإنما أراد الدفاع عن حق بنى هاشم ، فهو حين يقول إن الناس يعنفونه على مدح الرسول إنما يقصد أهل بيته ، فوجه القول إليه وهو يريد آله وما يجرى على لسانه من موالاتهم والانحياز إليهم والدعوة لهم . واستطرد الجاحظ ، فذكر هذين البيتين للكنيث في الرسول ، إذ يقول :

وبورك قبر أنت فيه وبورككت به وله أهلٌ بذلك يشرب  
لقد غيبوا يراً وحزماً واثلاً عشيّة وآراه الصفيح المنصب<sup>(١)</sup>

يقول الجاحظ وهذا شعر يصلح في عامة الناس<sup>(٢)</sup> . وهذا صحيح ، ولكن ينبغي أن لا نقيس الكُمَيْتَ ببَيْتَين ، فمن الممكن أن لا يكونا معبرين عن صورة مدحه للرسول . والذي يقرأ الهاشميات غير متحزب على الكُمَيْتَ يراه متحمساً حماسة لا حداً لها للنظرية التي يؤمن بها وبمصدرها ، وهو الرسول نفسه ، صاحب هذا البيت الذي حبس من أجله بل الذي قُتِلَ بسببه ، وفيه وفي بيته يقول في نفس الهاشمية التي استشهد الجاحظ منها بالبيتين السابقين :

ومالٍ إلا آلَ أحمد شيعهٌ ومالٍ إلا مذهبُ الحق مذهبُ

فالكُمَيْتُ لم يقتصر في مديح الرسول ولا في مديح العلويين . كل ما يمكن أن يقال إنه لم يغفل في مديحهم ، وذلك لأنه لم يكن غالباً كما يقول الجاحظ بل كان زنديقاً معتدلاً ، لا يسرف على نفسه في المديح والثناء . ومع ذلك فقد كان زنديقاً ثائراً ، فكانت نفسه تتعلّى بالثورة على بنى أمية ، وكأنه كان يحمل في سبيل مذهبه أو زبديته روحه على يده ، يريد أن يضحى بنفسه ، ويكنى أن نرجع لهاشميته اللامية التي يقال إنه رأى بها زبند بن علي حين

(٢) الحيوان ٥/ ١٧٠ .

(١) الصفيح : الحجارة ويريد حجارة القبر ،  
والمنصب : الذي رفع بعضه على بعض .

قلوه ، لنرى ثبوتاً جامعة ، إذ يقول (١) :

وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ حَتَّى كَانُوا  
أَهْلُ كِتَابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمْ  
كَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ يُعْنَى بِأَمْرِ  
فَتْلِكَ مَلُوكُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مَلِكُهُمْ  
وَمَا ضَرَبَ الْأَمْثَالَ فِي الْجَوْرِ قَبْلَنَا  
عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الَّتِي نَتَحَلَّلُ  
عَلَى الْحَقِّ نَقْضِي بِالْكِتَابِ وَنَعْدِلُ  
وَبِالنَّهْيِ فِيهِ الْكَوْدَ بَنَى الْمَرْكَلَ (٢)  
فَحَتَّامَ حَتَّامَ الْعَنَاءِ الْمَطْوَلِ  
لِأَجْوَرِ مَنْ حُكَّامُنَا الْمَثَلِ

والحق أن هاشميات الكميت طُرْفَةٌ نفيسة من طُرَفِ عصر بني أمية ، لا لأن صاحبها شاعرٌ شيعي فحسب ، بل لأنه اتخذها دفاعاً عن حقوق بني هاشم كما يتصورها زيد بن علي وأصحابه . وأظن أننا لا نبالغ بعد ذلك إذا قلنا إن الهاشميات أقدمُ نصٍّ يُعرِّفنا بالمقالة الزيدية ، فقد كتَّبت الكميت هذه المقالة شعراً في العصر الأموي قبل أن تُكتَّبت نثراً في العصر العباسي . ومن أجل ذلك كانت الهاشميات تعدُّ لتوثيقاً أدبياً جديداً في تاريخ الشعر العربي ، فن قبل الكميت لم يتخذ شاعر شعره لإثبات مقالة مذهبية ، أما الكميت فإنه عمداً عمداً إلى صياغة مقالة الزيدية في الشعر ، مُستعيناً بكل ما ثقفه العقل العربي في العراق لهذا العصر من صور حيِّجَاجٍ وجدالٍ واستدلال .

المركل : الذي يضربه راجبه برجله .

(١) الهاشميات ص ١١١ وما بعدها .  
(٢) الكودي : البلية كأنه كودن أي يرفض ،

### خمریات الوليد

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك . فهو من سلالة هذه الدَّوْحَةِ المَرْوَانِيَةِ التي ظلت صاحبة الولاية على الأمة العربية منذ مَرْوَانَ بن الحكم إلى آخر عصر بني أمية . وأمه قَيْسِيَّةٌ من ثَقِيف ، فهي بنت <sup>(١)</sup> محمد بن يوسف أخى الحجاج ، وَلَدَتْهُ في خلافة عمِّه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ للهجرة <sup>(٢)</sup> ، وسمَّته أو سمَّاه أبوه باسم عمِّه تَسَمُّيًا به . ولما بلغ الحادية عشرة وَلَّى أبوه الخلافة ، وجعله صِغَرُ مِنتَه حَيْثُ دُ بَعَثَهُ من بعده لأخيه هشام ، ثم له <sup>(٣)</sup> .

وكلُّ الدلائل تدلُّ على أن يزيد نشأ ابنه نشأة كلها تَرْفٌ ودلال ، فقد كان هو نفسه صَبًّا بالدلال والترف ، فأسبغ كثيراً من فنونهما على ابنه . ويظهر أنه لم يترك وسيلة إلى الترفيه عنه إلا اتخذها ، وقد عُرِف هو نفسه بحبِّه لمباهج عصره . ولم تكن المباهج حيثُ دُ سوى الخَمْرِ والاسْتِمَاع إلى الفناء ولبس الثياب الحريرية المزركشة . وقد وصف أبو حمزة الخارجي يَزِيد في خطبة له ، فقال : « إنه يشرب الخمر ، ويلبَسُ الحُلَّةَ قُومَتْ بألف دينار . . . حَبَابَةٌ عن يمينه ، وسَلَامَةٌ عن يساره ، تُغْنِيَانِهِ ، حتى إذا أخذ الشرابُ منه كل مأخذ قَدْ ثَوْبَتُهُ » ، ثم التفت إلى إحداهما ، فقال : ألا أظير <sup>(٤)</sup> . ويَرْوِي الرواةُ أنه اشترى حَبَابَةً بأربعة آلاف دينار <sup>(٥)</sup> وسَلَامَةً بعشرين ألفاً <sup>(٦)</sup> . وفي غير مكان من كتاب الأغاني نجدُه يستقدم الغنين من الحجاز ، فيُقيمون له الحفلات الغنائية بقَصْرِه في دمشق ويميزهم ، حتى لتبلغ الجائزة للمغني أحياناً ألف دينار <sup>(٧)</sup> . ومن هؤلاء المغنين الذين كان يَسْتَقْدِمُهُم ابنُ سُرَيْج ومَعْبُدٌ ومالك الطائي وابن عائشة والبَيْتْدُقُ الأنصاري وابن أبي لهب . ويقصُّ الرواةُ أن

(٥) أغاني (طبع السامي) ١٤٩/١٣ .

(٦) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٤٣/٨ .

(٧) أغاني ١٠٩/٥ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١/٧ .

(٢) الطبري ١١٩٢/٢ وانظر ١٨١٠/٢ .

(٣) طبري ١٧٤٠/٢ .

(٤) البيان والتبيين ١٢٣/٢ .

مَعْبَدًا غَنَّاهُ صَوْتًا ، فَاسْتَخَفَهُ الطَّرَبُ ، حَتَّى وَتَبَ ، وَقَالَ لِحَوَارِيهِ : أَفْعَمَلُنْ  
كَمَا أَفْعَلُ ، وَجَعَلَ يَدُورُ فِي الدَّارِ ، وَيَدْرُنَ مَعَهُ ، وَهُوَ يَقُولُ :

يَا دَارُ دَوْرِي يَا قَرَقَرُ امْسِكِي (١)

وبين هذه المعازف وما يتصل بها من لَهْوٍ وَخَمَرٍ وقيان شَبَّ الوليد . ولم  
يكذِ بتجاوز الحلقة الخامسة عشرة من حياته ، حَتَّى تُوُفِّيَ أبوه ، وولَّى الخلافةَ  
عَمَّهُ هُشَام . وقد جعله شبابُه وفراغُه وما في حِجْرِهِ من أموال يَسِيرُ نَفْسَ  
السَّيْرِ اللّاهِيَةِ الَّتِي سَارَهَا أبوه ، بَلْ أَوْغَلَ فِيهَا لِيغَالَا . وكان كل شيء يدفعه  
إِلَى ذَلِكَ ، فَهُوَ الشَّابُّ الْمُدَّكِّلُ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ شَطَطَ الْعَيْشِ يَوْمًا ، وَهُوَ ابْنُ  
يَزِيدَ الَّذِي مَلَأَ قَصْرَهُ بِالْغِنَاءِ وَالْقِيَانِ ، وَنَشَّاهُ عَلَى التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ .

وَيَسْتَطِيعُ مِنْ يَتَّبِعُ سِيرَةَ الْوَلِيدِ أَنْ يَجِدَ أَخْبَارًا كَثِيرَةً عَنْ تَرْفِهِ الشَّدِيدِ .  
حَتَّى فِي مَلَابِسِهِ ، فَقَدْ كَانَ يَلْبَسُ الْوَشْيَ (٢) وَالْقَصَبَ (٣) وَالثِّيَابَ الْمَسْنُونَةَ (٤) ،  
وَكَانَ لَا يَكْتَفِي بِذَلِكَ ، فَقَدْ قَصَّوْا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ الْعُقُودَ مِنَ الْجَوَاهِرِ ،  
وَيُغَيِّرُهَا فِي الْيَوْمِ مَرَارًا كَمَا يُغَيِّرُ الثِّيَابَ (٥) .

وَتَصَادَفُ أَنْ أَبَاهُ أَسْلَمَهُ إِلَى مُؤَدَّبٍ يُسَمَّى عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ عَبِيدِ الْأَعْلَى ،  
وَكَانَ فِيهِ مَجُونٌ وَزَنْدَقَةٌ (٦) ، فَكَانَ يُغْوِيهِ ، وَكَانَ إِغْوَاؤُهُ يَصَادَفُ هَوَى  
فِي نَفْسِهِ . وَهَكَذَا اجْتَمَعَ بَيْنَهُ وَمُعَلِّمِهِ عَلَى تَوْجِيهِهِ فِي سُلُوكِهِ تَوْجِيهًا لَاهِيًا  
مَاجِنًا ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ اجْتَمَعَتْ لَهُ بَطَانَةٌ ، وَتَسَامَعَ بِهِ الْمَغْنُونُ ، فَقَصَدُوهُ كَمَا كَانُوا  
يَقْصِدُونَ أَبَاهُ ، فَقَصَدَهُ ابْنُ عَائِشَةَ وَغَنَّاهُ صَوْتًا أَعْطَاهُ بِهِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ (٧) ،  
وَقَصَدَهُ يُونُسُ الْكَاتِبُ ، وَقَدَّمَ مِنْ عِنْدِهِ بِالْذُّنْيَا (٨) ، كَمَا قَصَدَهُ غَيْرُهُمَا مِنَ  
الْمَغْنِينِ . وَمَعْرُوفٌ أَنَّ الشَّامَ كَانَتْ تَسْتُورِدُ الْمَغْنِينَ مِنَ الْحِجَازِ حَتَّى هَذَا الْعَصْرِ ،  
وَقَدْ نَبَغَ فِيهَا أَخِيرًا فِي هَذَا الْعَهْدِ عَهْدُ الْوَلِيدِ وَلَهُوَ وَمَجُونُهُ مُغَنٍّ يُسَمَّى أَبَا كَامِلٍ

(٥) أغاني ٥٩/٧ وانظر ٢٨١/٦ ،

٨٨/٧ .

(٦) أغاني ٢/٧ وانظر الطبري ١٧٤٣/٢ .

(٧) أغاني ٢٢٧/٢ .

(٨) أغاني ٢٢٧/٤ .

(١) أغاني ٦٩/١ .

(٢) أغاني ٢/٢١٠ ، ٦٠٢٨١/٧ ، ٧٧/٧ .

٩١/٧ .

(٣) طبري ٢ ١٨٠٦ .

(٤) أغاني ١١/٧ .

الغزِيل ، فكان يلزم الوليد<sup>(١)</sup> كما لزمه عمر الوادي<sup>(٢)</sup> مُعْنَى الحجاز المشهور . وفي الوقت نفسه كان الوليد يطلب الخواري المغنيات ، ويشترين ، ويبالغ في شرائهن<sup>(٣)</sup> ، وهو في هذا كله يجتمع بندمائه يشربون ، ويسمعون ، ويمرحون .

وحاول عمُّه هشام حين رآه يسير هذه السيرة المُعْجَزة أن يستصلحه ، فكان ينتهز فرصة زيارته له ، فينصحه ، أو يوحى لمن في حضرته أن ينصحوه ، ولكنه كان لا يَسْتَصِيحُ ، بل كان يزداد على مَرَّ الأيام إمعاناً في اللهو والمجون ، وكأنه وضع لنفسه مذهباً في حياته هو مذهب اللذة الحسية ، ولم يكن يستطيع أن يفارق هذا المذهب أو يعدل عنه . ولما رأى هشام أن نصائحه تذهب أدراج الرياح عَوَّلَ على خُلُوعه من ولاية العهد وتولية ابنه مَسْلُحة ، وجعل يذكر للناس تَهْتِكَةً وإدمانه على الشراب . وولاه إمارة الحج سنة مائة وست عشرة ليظهر مجونه بالحرَمين فيسقط ، فحجَّ الوليد وحملَ معه كلاباً في صناديق ، وتشاغل بالمغنين والشراب ، وأمر مَوَلَّيَّ له ، فحجَّ بالناس ، وعكف هو على الخمر والاستماع إلى مُعْنَى الحجاز<sup>(٤)</sup> . وأقبل إلى دمشق ومعه الأبنجر أحدُ المغنين هناك<sup>(٥)</sup> . فطالبه هشام بخلع نفسه ، فأبى ، وتعادى في الشراب وطَلَبِ اللذات ، وكتب إليه هشام يُعْتَفُّهُ ، ويسأله على أي دين هو ، فكتب إليه :

يا أيها السائلُ عن ديننا نحنُ على دينِ أبي شاكِرٍ  
نَشْرَبُهَا صِرْفًا ومزوجةً بالسُخْرِ أحيانًا وبالفانيرِ

وأبو شاكِر لقب مسلمة الذي كان يُرَشِّحُهُ هشام للخلافة ، وقد ولَّاه أميراً على الحج سنة ١١٩هـ فأظهر النُكْثَ والوقار واللَّين ، وقَسَمَ بمكة وأسينة أموالاً ، فقال مولى لأهل المدينة يردُّ على الوليد<sup>(٦)</sup> :

(٤) أغاني ٣/٧ وانظر الطبري ١٧٤١/٢ .

(٥) أغاني ٣/٣٤٦ .

(٦) انظر الطبري ١٧٤٢/٢ والجرد : جمع

أجرد ، وهو الفرس قصير الشعر الجواد ، والأريان : جمع رن : الجبل واللعام .

(١) أغاني ٩١/٧ .

(٢) وكان يسيه جامع لذاته ويحي طربه ، انظر الأغاني ٨٥/٧ .

(٣) انظر الأغاني ٢٥/٦ وكذلك ٢٦/٦ ،

٥٠/٧ ، ٥٢/٧ .

يا أيها السائل عن دينيسا نحن على دين أبي شاكِر  
الواهب الجرد بأرسانها ليس بزندق ولا كافر

وازدادت الأمور بين الوليد وعمه سوءاً ، فرأى أن يخرج مع ندمائه وبيطانته إلى الأذرق ، وهو موضع في طرف الحجاز على ماء يسمى الأغدف ، وترك بالرصافة التي كان ينزلها عمه كاتبه عياض بن مسلم ليرسل له بما يكون من أخبار . وعلم عمه بحاشية سوء التي معه ، ونقل إليه الوشاة شعراً نظمه عبد الصمد ، فيه تحريض به ، فأرسل إليه يأمره بإخراجه عنه ، فصعد الوليد بأمره ، وكتب يستأذن في نديم آخر ، يسمى ابن سهيل ، فأحضره هشام ، وضربه كما ضرب كاتبه عياضاً ضرباً مبرحاً ، ولم يكتف بذلك ، بل حرّم الوليد عطاؤه وحرّم سائر مواليه وأشبائيه ، فكتب إليه يستعطفه ، وكتب هشام يتوعده ويُنذره <sup>(١)</sup> وللوليد شعر كثير يستلذ به عطف عمه من مثل قوله <sup>(٢)</sup> :

رَأَيْتُكَ تَبْنِي جَاهِداً فِي قَطِيعِي وَلَوْ كُنْتَ ذَا حَرَمٍ لَهَدَمْتَ مَا تَبْنِي

ودار الزمن دَوْرَتَهُ ، فتوفي هشام دون أن يبلغ أمنيته من خلع الوليد ، وألقيت البشري إلى الوليد في ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، فاجتمع حوله ندماءه يشربون نخبته ، وفي ذلك يقول <sup>(٣)</sup> :

طَابَ بَوِي وَلَدٌ شَرِبُ السَّلَاقَةِ إِذْ أَتَانِي نَعْيٌ مِّنْ بِالرُّصَافَةِ  
وَأَنَا الْبَرِيدُ يَنْعَى هِشَامًا وَأَنَا بِخَاتَمِ الْخِلَافَةِ  
فَأَصْطَبَحْنَا مِنْ حَمْرِ عَانَةٍ صِرْفًا وَلَهُوْنَا بِقِيَسِ عَرَافَةِ

وظل يشرب معه رفاقه ، وهو يستمع إلى العزف والغناء ، فقد أقبل الدنيا عليه ، وتوفي خصمه اللدود ، ولما أفاق من سكره انطلق يقول <sup>(٤)</sup> :

هَلَكَ الْأَحْوَلُ الْمَشْرُومُ فَقَدْ أُرْسِلَ الْمَطَرُ

(٣) أغاني ١٦/٧ .

(٤) أغاني ٢٠/٧ .

(١) انظر الكتابين في الأغاني ١٢/٧

وما بينهما والطبر ١٧٤٦/٢ .

(٢) أغاني ١٠/٧ .

## تُصَنَّتْ اسْتُخْلِفَ الْوَلِيُّ دُ فَقَدْ أَوْزَقَ الشَّجَرُ

وابتسمت الدنيا له ، وأحسن كأنها تلبس ثياباً جديدة أنيقة من أجله .  
وتحوّل من منفاه إلى قصر الخلافة ، فجعله كأنه مسرح من المسارح ، إذ  
استقدم له المغنّين من الآفاق ، وجلس مع ندمائه للهو والشرب والغناء . وأخذ  
يبحث عن كل ملاهى مملكته ، ويجمعها لنفسه ، فهؤلاء ظرفاء الكوفة مطّيع  
ابن إياس وحماماد عَجْرَد والمطّيعي المغنّي يستقدمهم ، وينادهم ، ويستمرّون  
عنده حتى وفاته <sup>(١)</sup> . وهؤلاء المغنون الحجازيون مَعْبِدٌ وعطرْد ومالك الطائي وابن  
عائشة ودَحْمَان الأشقر وحكّم الوادى ويونس الكاتب والهُذَلِي والأبْجَر  
وعُمَر الوادى ويَحْيَى قَيْلٍ يَبْعُجُ بهم بلاطه <sup>(٢)</sup> أو مسرحه . وهذا حَمَاد  
الراوية يستقلّمه ، ليروى له أطرف ما تركه القدماء حتى يُغَنّيَ فيه مَغْنُوهُ <sup>(٣)</sup> .  
وهذا أَشْعَب مضحك أهل المدينة يستحضره ، ويُلَبِّسه لبسة قيّرة لها ذنب ،  
ويشدُّ في رجله أجراساً وفي عنقه جلاجل <sup>(٤)</sup> ، ويتخذ منه « أراجوزاً » يُحَرِّكُ  
خيوطه ويضحك كلما أراد . ويخيّلُ إلى الإنسان أنه لم يترك لُعبَةً طريفة من  
لُعبِ عصره ، أو تسلية تُدْخِلُ المِسْرَةَ إلى نفسه ، إلا جَلَبَهَا ، وكان يجلبُ  
خاصة الندماء والمضحكين ، ويجمعهم حوله ليفكّهوه ، ويسرّوه . روى صاحب  
الأغاني أنه بعث إلى شُرَاعَةِ بن الزَّئْدِ بُوذ ، فلما قدم عليه قال : « يا شراعة إنى  
لم أستحضرك لأسألك عن العلم ، ولا لأستفتيك في الفقه ، ولا لتحدثني ،  
ولا لتقرئني القرآن ، قال : لو سألتني عن هذا لوجدتني حِمَاراً فيه ، قال :  
فكيف علمك بالفتوة ؟ قال : ابنُ بُجْدَتِهَا ، وعلى الخبِير بها مسقطٌ ،  
فسلّ عما شئت ، قال . فكيف علمك بالأشربة ؟ قال : ليسألني أمير المؤمنين  
عما أحبّ ، قال : ما قولك في الماء ؟ قال هو الحياة ويشركني فيه الحمار ،  
قال : فاللبن ، قال ما رأيته قط إلا ذكرتُ أمي فاستحييتُ ، قال : فالخمر ؟  
قال : تلك السارةُ الباردة ، وشَرَابُ أهل الجنة » <sup>(٥)</sup> .

(٤) أغاني (سأسى) ١٧/١٠٠ .  
(٥) أغاني (دار الكتب) ٤٩/٧ وانظر  
مروج الذهب للمسعودي (طبع باريس) ٦/٦

(١) أغاني (سأسى) ٣/٧٦ وما بعدها .  
(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٩/٧ .  
(٣) أغاني ٢/٢١ ، ٧٨/٦ ، ٩١/٦ .

وعلى هذا النمط تحول قصر الخلافة إلى مقصّف للخمر والعزف والقناء ، واستغوت اللذة الوليد ، فذهب يُقَطِّرُ كئوسها بل يعبّها عبّاً ، وبلغ من غلوّه في هذا المذهب ، مذهب اللذة ، أن صنع لنفسه برمكةً ملأها خمرًا ، فكان يجلس على حافتها ، والمغنون يغنون ، حتى إذا انتشى نزع ثيابه ، وقدّاف بنفسه فيها يتنهل ، ثم يخرج منها وهو كالميت سكرًا ، فيلتقاه غلماناه بالمجّامير والثياب المطيَّبة<sup>(١)</sup> ، ومن حين إلى آخر يُنشد<sup>(٢)</sup> :

أنا الوليدُ الإمامُ مُفتخِرًا      أنعمُ بالي وأتبعُ الفزلا  
أو ينشد<sup>(٣)</sup> :

أشهد الله والملائكة الأب      رآرَ والعابدين أهلَ الصّلاح  
أنني أشتهي السّماعَ وشربَ ال      كأسِ والعصّ للخلود الملاح  
والنديمَ الكريمَ والخدامَ الفا      رهَ يسنى على بالأقداح

واستخدم عمّالَه لا في المحافظة على الأمن ، ولكن في إرسال كل ما يمكن من لعبٍ لهنّ وتسلية . ويُروى أنه كتب إلى نصير بن سيّار صاحب خراسان وقائد الجيوش فيها أن يبعث إليه ببرابيط وطناير ، ولم يدع نصير بخراسان جارية ولا آلة من آلات الطرب إلا اشتراها ، فقال بعض شعراء الجنّ هناك<sup>(٤)</sup> :

وأبشِرْ يا أمين الله      أبشِرْ بتبشير  
بإبلٍ يُحمّلُ المالُ      عليها كالأنابير<sup>(٥)</sup>  
بِفِعالٍ تحمّلُ الخمرَ      حقائبها طناير  
ودلّ البربريات      بصوت البسم والزور  
وقرع الدفّ أحيانًا      ونفخ بالمزامير  
فهذا لك في الدنيا      وفي الجنة تحبير<sup>(٦)</sup>

(٤) طبري ١٧٦٥/٢ .  
(٥) الأنابير : أكياس الطعام .  
(٦) تحبير : سرور ونعيم .

(١) أغاني ٥٢/١ وانظر أغاني ٣٠٧/٣ .

(٢) أغاني ٤٤/٧ وانظر رسالة الفخران

لأبي العلاء (طبعة هندية) ص ١٤٦ .

(٣) أغاني ٢٢/٧ .

ولما تمادى الوليد في ذلك ثَقُلَ على رعبته وعلى أبناء عمومته ، وسَخِطُوا عليه وعلى سيرته . ولم يكتف بإغضابهم من خلقه ، بل أنزل بهم مِحَنًا كثيرة ، فقد مرَّ بنا أن عمه هشامًا حاول أن يَخْلَعَهُ من ولاية العهد ، ويولِّي ابنه مسلمة ، وكان يؤيده في ذلك أبناء أخيه الوليد بن عبد الملك . فلما خلصت الخلافة له أخذ يصبُّ عليهم جامَ انتقامه ، وفي ذلك يقول (١) :

ليت هشامًا عاشَ حتى يرى مِكيالَه الأوفَرَ قد أنثرَعا  
كِلْنَا له الصاعَ التي كالتها فما ظلمناه بها أضوعا  
لم نأتِ ما نأتيه عن يدِ عَمِّ أَحَلَّهُ القرآنُ لي أجمعا

ولم يمض الوليد في انتقامه أكثر من عام واحد ، حتى صَمَّمَ ابنُ عمه يزيدُ ابن الوليد أن يخلعه ، وأيده في ذلك كثيرٌ من أسرته .

وكان قد اجتمع على الوليد سُخْطٌ آخر من قبل اليمانية ، فإن يوسف بن عمر الشَّقَقِي والى العراق استبدَّ به ، وحَدَّثَ أن أسْلَمَ إليه الوليد خالدًا القَسْرِي زعيم اليمانية ، فحبسه وعذَّبه وقتلَه في عذابه وحبسه (٢) ، فأحاط ذلك اليمانيين وأخذوا ينتظرون الحوادث . ويظهر أن الوليد كما كان يتصرَّع إلى إغضاب أبناء عمه كان يتسرع إلى إغضاب اليمانية ، وملء قلوبها بالحقد عليه ، واستمع إليه يقول ، وخالد صاحبها لا يزال في حبسه (٣) :

وَطِئْنَا الْأَشْعَرَيْنِ بِعِزِّ قَيْسٍ      فَيَا لِكِ وَطْأَةٍ لَنْ تُسْقَلَا  
وَهَذَا خَالِدٌ فِينَا أُسِيرًا      أَلَا مَتَعُوهُ إِنْ كَانُوا رَجَالَا  
عَظِيمُهُمْ وَسَيِّئُهُمْ قَدِيمَا      جَعَلْنَا الْمُخْزِيَاتِ لَهُ ظِلَالَا  
فَلَوْ كَانَتْ قِبَائِلَ ذَاتِ عِزٍّ      لَمَا ذَهَبَتْ صَنَائِعُهُ ضِلَالَا  
وَكِنْدَةُ وَالسَّكُونُ فَمَا اسْتَمَالُوا      وَلَا بَرِحَتْ خِيَلُهُمُ الرَّحَالَا  
فَمَا زَالُوا لَنَا أَبَدًا عَبِيدَا      نَسُومُهُمُ الْمَذَلَّةَ وَالسَّفَالَا

(٢) ديوان الوليد بن يزيد (نشر للجمع  
العلمي العربي بدمشق) ص ٥٥ .

(١) أغاني ١٨/٧ .  
(٢) طبري ١٧٨٠/٢ .

ولا فتك يوسف النخعي بخالد اشتد سخط اليمنية على الوليد وأخذت تنهز القرصة للانتقام عليه والانتقام منه ، بل أجمعت عزمتها على قتله<sup>(١)</sup> ، فلما دعا يزيد بن الوليد دعوته وضعت اليمنية يدها في يده . كل ذلك والوليد غارق في خمره ، معتزل للناس في الأزرق يقيم هناك مسرح عزفه وقصفيه . وبايعت دمشق يزيد ، وعلم الوليد ، فتحرك نحو البصرة ، قصر النعمان بن بشير ، يظن أنه مانع ، فحاصره القوم وقتلوه . ومعنى ذلك أن قتل الوليد لم يكن مؤامرة من بني عمه فحسب ، بل كان قبل كل شيء مؤامرة من اليمنية وانتقاماً لخالد القسري زعيمها ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء<sup>(٢)</sup> :

سنبكى خالداً بمهندات ولا تذهب صنائعه ضللاً  
وهو يترد في وضوح على شعر الوليد السابق ، فهي مؤامرة ، وهي ثار ، واستمع إلى أبي محجن مولى خالد يقول<sup>(٣)</sup> :

سائل ولداً وسائل أهل عسكره غداة صبحه شؤبونا البرد  
هل جاء من مضرن نفس فتمنعه والحيل تحت عجاج الموت تطرد  
ويقول خلف بن خليفة :

تركنا أمير المؤمنين بخالد مكباً على خيشومه غير ماجد  
فإن تقطعوا منا منا مطا قِلادة قطعنا به منكم منا مطا قِلائد

فالوليد قتل أخذاً بالثار لخالد القسري . وليس من شك في أن قتل الخليفة كان بعد كبيرة من الكباثر ، وقد استحل المتآمرون قتل الوليد بحجة إسراره في الملذات وعكوفه عليها ، وشنعوا عليه في هذا الباب تشنعاً كثيراً ، ثم جاء العباسيون فوجدوا في سيرة الوليد السيئة ، أوجد لهم الرواة ما يشنعون به على بني أمية عامة .

ومن هنا كثرت القصص عن الوليد ، وكثرت المبالغة فيه وفي فسقه ، وخروجه

(٢) انظر في طين البيتين وتاليهما الطبري  
١٨٢٣/٢

(١) طبري ١٧٧٨/٢  
(٢) طبري ١٨٠٩/٢

على الدين ، حتى اتهموه بالكفر والماتويّة ، ولرواة في ذلك أقاصيص يتضح فيها الانتحال ، فن ذلك ما يرويه أبو الفرج عن العلاء البندار ، إذ يقول : « كان الوليد زنديقاً ، وكان رجلٌ من كتّاب يقول بمقالته ، مقالة الثنويّة ، فلخلطت على الوليد يوماً ، وذلك الككنيُّ عنده ، وإذا بينهما سقط قد رفع رأسه عنه ، فإذا ما يبلو في منه حريرٌ أخضر ، فقال : ادنُ يا علاء ، فدنوت ، فرفع الحريرة ، فإذا في السّقط صورةُ إنسان ، وإذا الزئبق والنوادر قد جعلاً في جفّنه ، فجفنه يظّرف كأنه يتحرّك ، فقال : يا علاء هذا ما لي لم يتّبعني الله نبياً قبله ، ولا يتبعني نبياً بعده » (١) . وهي قصة ظاهرة الانتحال ، ومثلها في رأينا ما يروى من أنه دعا ذات ليلة بمصحف ، فلما فتحه وافق ورقة فيها : ( واستفتحوا وخاب كلُّ جبّارٍ عنيدٍ من ورّائه جهنّمُ ويُسقى من ماءٍ صديدٍ ) فقال استجعاً سجعاً علّقوه ، ثم أخذ القوس والنّبل ، فرماه ، حتى مزّقه ، ثم قال :

أتوعِدُ كلَّ جبّارٍ عنيدٍ      فها أنا ذاك جبّارٌ عنيدٌ  
إذا لاقيتَ ربّك يومَ حشرٍ      فقلّ لله مزّقي الوليد<sup>(٢)</sup>

ولسنا أولَ مَنْ يشكُّ في القصص الذي يضاف إلى الوليد ، فقد كان من القدماء مَنْ يشكُّ فيه ويتهمة ، وكان الخلفاء العباسيون أنفسهم يشكون أحياناً فيما يرويه الرواة لهم ، وكان منهم مَنْ يدافع عنه (٣) . ولا نريد أن نُبرِّئ الوليد من سوء سيرته ، ولا من إغراقه في اللهو والمجون ، ولكن نريد أن نعتدل ، وأن نحذر كل ما يروى عنه لأن السياسة لعميت دوراً غير قليل (٤) في تشويه سيرته ؛ وجددت مادةً ، ولكنها بالفت فيها وأفرطت ، ثم جاء الرواة والقصاص ، فأسرفوا على أنفسهم في الخيال ، وأسرفوا على الوليد في تصوير عبثته ومجونه .

ومهما يكن فقد اجتمعت ظروف كثيرة لتخريب الوليد على هذا النحو من أنحاء

(٣) أغاني ٨٣/٧ .

(٤) أنظر الطبري ٢/١٨٣٤-٢/١٨٤٤ .

١٨٥٣/٢ .

(١) أغاني ٥٧٢/٧ .

(٢) أغاني ٤٩/٧ وانظر ٢/٧ والمسود

١٠/٦ وما بعدها

الحياة ، فقد نشأه أبوه على اللهو واللعب والاهتمام بالغناء والسماع والأخذ من مُتَمِّع الدنيا وخاصة الخمر والشراب ، وألحق به أستاذاً مؤدّباً كان من نفس المزاج هو صَبْدُ الصَّمَدِ بن عبد الأعلى . وهذا كله أضيف إليه الثراء الواسع ، فكان الوليد يُسْرِف على نفسه إسرافاً طاغياً في كل شيء ، في أناقته وثيابه وعطره ، حتى كان يتحلّى بالجواهر ، وكانت مَسْجَمِيرُ العُود ما تزال مشتعلة في أرجاء قصره الملئ بالطنافس والقيان والجواري من روميات وغير روميات .

حياة كلها زاهية مترفة على هذا النحو لا بد أن ينشأ صاحبها على حب اللذائل الحسية والإسراف فيها والعكوف عليها والعَبْثُ منها ومن مفاتنها ومباهجها . ويخيّل إلى الإنسان أن الوليد لم يترك مُتَمِّعَةً من مُتَمِّعِ عصره ولا طُرْفَةً من طُرْفِهِ إلا وجمعها لنفسه ، وحياته من هذه الناحية أشبه ما تكون بشريط بَرَّاقٍ من أشرطة دور الحليّة ، فهي تُعْثَلُ تحت بَصَرِكَ مكثّفة بمشاهد كثيرة خلافة . وهو شريط لا يخلو من الحب ، بل نحن نرى الحب في كل موضع منه ، فقد تصادف أن تزوّج سَعْدَةَ بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفّان ، وفي إحدى زيارته لأهلها رأى أختها لها تسمى سَكَمَى ، فشغيف بها حباً ، وأحبّها حباً جَمّاً ، فطلّق أختها رجاء أن يتزوَّج منها ، ورفض أبوها رغبته ، فهام بها ، ونظّم فيها أكثر مقطوعاته ، وطرحها على المغنين يغنونه فيها ، واحتفظ لنا كتابُ الأغاني بظائفة منها ، من مثل قوله (١) :

|                  |                 |               |                      |
|------------------|-----------------|---------------|----------------------|
| وَبَنَعَ سَكَمَى | أَوْ تَرَانِي   | لَعَنَّاها    | مَا عَنَانِي         |
| مُتَلَفّاً فِي   | اللَّهُو مَالِي | عَاشِقاً      | مُحَوَّرَ الْقِيَانِ |
| شَاقَّ قَلْبِي   | وَعَنَانِي      | حُبُّ سَكَمَى | وَبَرَّانِي          |
| وَلَكُمْ لَامَ   | نَصِيحُ         | فِي سُلَيْمَى | وَنَهَانِي           |

وقوله (٢) :

|                 |                    |                          |
|-----------------|--------------------|--------------------------|
| أَرَانِي        | إِلَهَ يَا سَكَمَى | حَيَاتِي                 |
| أَلَا تَجْزِينِ | مَنْ تَبَيَّنَ     | عَصْرًا                  |
| وَمَنْ          | لَوْ تَطْلِبِينَ   | لَقَدْ قَضَاكَ           |
| وَفِي           | يَوْمِ             | الْحِسَابِ كَمَا أَرَاكَ |

وَمَنْ لَوْ مِتَّ مَاتَ وَلَا تَمُوتُنِي      وَلَوْ أَنْسَى لَهْ أَجَلٌ بِكَ  
وَمَنْ حَقًّا لَوْ اعْطَيْتُ مَا تَمَنَّى      مِنْ الدُّنْيَا الْعَرِيضَةِ مَا عِنْدَكَ  
وَمَنْ لَوْ قُلْتَ مِتُّ فَأَطَاقَ مَوْتًا      إِذَا ذَاكَ الْمَاتَ وَمَا عَصَاكَ

وشعره في سَلَمَى كله على تلك الشاكلة من الصباية وحُرْقَةُ الهوى وشدة اللوعة . وما زال يُدَيِّب قلبه شعراً فيها ، حتى وَلى الخلافة ، ويزعم الرواة أنه تزوجها حيثلد وأنها لم تمكث معه إلا مدة يسيرة ، ثم تَوَفَّيَتْ ، فبكائها بكاء حاراً ، على نحو ما نرى في قوله <sup>(١)</sup> :

يَا سَلَمَى كُنْتُ كَجَنَّةٍ قَدْ أَثْمَرَتْ      أَفْنَانُهَا دَانَ جَنَّتَاهَا مُوَضَّعٌ <sup>(٢)</sup>  
أَرْبَابُهَا شَقَقْنَا عَلَيْهَا نَوْمَهُمْ      تَحْلِيلٌ <sup>(٣)</sup> مَوْضِعُهَا وَلَمَّا يَهْتَجِعُوا  
حَتَّى إِذَا فَسَحَ الرَّبِيعُ ظَنُونَهُمْ      نَشَرَ الْخَرِيفُ ثَمَارَهَا فَتَصَدَّعُوا

وحبُّ الوليد لَسَلَمَى وإخلاصه لها وتفانيه فيها يدلُّ على أنه كان مرهف الشعور ، ليس فيه جفاء ، بل فيه الحسُّ الرقيق والعاطفة الدقيقة . ومع ذلك فحبُّه لم يُنْسِه يوماً آلات طربه ، ومجالس شرايه ، وصاقياته الحسان ، وعازفاته من القيان ، يقول في بعض شعره <sup>(٤)</sup> :

وَلَقَدْ قَضَيْتُ - وَإِنْ تَجَلَّلَ لِمَسْنَى      شَيْبٌ - عَلَى رُغْمِ الْعِدَا لِدَائِي  
مِنْ كَاعِبَاتِ كَالِدُئِي وَمَتَا صَيْفٍ      وَمِرَاكِبٍ لِلصَّيْدِ وَالنَّشَوَاتِ

ولعل إخفاقه قبل خلافته في هذا الحب ، بل إخفاقه فيه حين حصل عليه واغتصبته منه الموت ، كان باعثاً مهماً على إدمانه للخمر . وفي كل موضع من سيرته نجد الحديث عن كثرة شربه وما كان يُفْرِغُهُ في جوفه من أرباط الخمر وأقداحها ، تسقيه بها الملاح على نَقْرِ الدُّقُوف وترجيع الغناء .

ويكاد الإنسان يؤمن بأن العرب لم يوجد عندهم قبل الوليد مَنْ عَشِقَ الخمر عِشْقَهُ . حقاً هناك وَصَفٌ كثير للخمر في الشعر الجاهلي وفي الشعر الأموي ، ولكن

(١) أغاني ٦٥/٧ .  
(٢) التحليل : النزول اليسير .  
(٣) أغاني ١٢/٧ . والمتأصف : الجوارى .  
(٤) أغاني ١٢/٧ . والمتأصف : الجوارى .

(١) أغاني ٦٥/٧ .  
(٢) موضع : منفذ .

الإنسان لا يجد في الوصف القديم ولا في الوصف المعاصر للوليد ما يجده عنده من شفافية التعبير ، وهي شفافية جاءت من أنه عشق الخمر ، أو قل عبدها ، واتخذها مذهباً له في حياته . ولعل هذا أهم فارق بينه وبين الشعراء القلماء ، فقد كانوا ينظمون القصيدة ، فيذكرون فيها خمرًا وغير خمر ، وكذلك كان يصنع الأخطل . أما عند الوليد ، فالقطعة تؤلف للخمر فحسب ، فهي ليست وسيلة لشيء بعدها ، وإنما هي وسيلة لنفسها أو هي وسيلة وغاية في الوقت نفسه .

هي خمريّة ، والوليد من هذه الناحية يعيش للخمر ، ويرصد حياته كلها لها ، ويموت أو يُقتل في سبيلها ، ويبقى لها البرك ، يستبجح فيها أحياناً كالخوت ، وينام على حافتها كالطائر ، وفي سبيلها أضاع ملكه ، بل كان يقول (١) :  
دعوا لي سُلَيْمِي وَالطَّلَاءُ وَقَيْنَسَةُ      وَكَأْسًا أَلَا حَسْبِي بِذَلِكَ مَسَالَا  
خَلُّوا مُلْكَكُمْ لَا تَنْبَتَ اللَّهُ مُلْكَكُمْ      فَلَيْسَ بِمَآوِي مَا حَسِبْتُ عِقَالَا  
وأخلوا منه حقاً ملكه ، وراه وهم يهمون بأخذه ، فلم يرعوى ، ولم يزد جبراً ، بل استمرّ يصل سُكْرًا بِسُكْرٍ ، ونشوةً بنشوة ، وكأنه يحرص على آخر قطرة من فطرات المتعة .

وهكذا حياة كلها خمرٌ وعكوفٌ على الخمر ومبادرةٌ إلى بيوتها وأدبيرتها وحاناتها حكى مرّ عبداً قال : « ماشرت يوماً ، وقد فتحتُ حانوتي وجاست إلى جانب الهَيْسِكِل ، إلا بثلاثة فوارس قد أقبلوا في طريق السّماوة في البرّ ، حتى وقفوا علىّ ، وهم متلثمون بعمائم الخبز ، وعليهم حُلُلُ الْقَصَب ، فسلموا علىّ ، وأسفّر أحدهم ، وقال : أنت مرّ عبداً وهذا دَيْرُ حَنَّة ؟ قلت نعم ، قال : قد وُصِفْتَ لنا بجودة الشراب والنظافة ، فاستقني رطلا ، فبادرت ، فسلمت يدي ، ثم نَقَرْتُ الدُّنَان ، ونظرت أصفها فَبَزَلَتْهُ (٢) ، فشرب ، ومسح يده وفمه بالمنديل ، ثم قال : استقني آخر ، فسلمت يدي ، وتركت ذلك الدنّ وذلك القَدَح والمنديل ، ونقرت دنّاً آخر ، فلما رَضِيت صفاءه بَزَلْتُ منه رَطْلًا في قَدَح ، وأخذت منديلاً جليداً ، فناولته إياه ، فشرب كالأول ، ثم قال استقني رطلا آخر ، فسقيته في غير ذلك القَدَح وغير ذلك المنديل ، فشرب ،

(٢) بزل الدن : فتمعه وصبه .

(١) أفلا ٧٩/٧ ورسالة النفران ص ١٤٩

ومسح فبه يده ، وقال لى : بارك الله فيك ، فإطيب شرابك وأنظفك وأحسن أدبك ! وما كان دأبى أن أشرب أكثر من ثلاثة أرطال ، فلما رأيت نظافتك دعيتنى نفسى إلى شرب رابع فهاه ، فناولته إياه على تلك السبيل ، فشرب ، وقال : لولا أسباب تمنع من بيتك لكان حبيباً إلى جلوسى يوى هذا فيه ، وولئى منصرفاً فى الطريق الذى بدا منه ، ورى إلى أحد الراكبين اللذين كانا معه بكيس : فقلت : وحق النصرانية لا قبلته حتى أعرف الرجل ، فقال هذا الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ، وصفت له فأقبل من دمشق ، حتى شرب من شرابك ، ورأى دبرك والخيرة ، ثم انصرف ، فتحملت الكيس ، فإذا هو أربعمائة دينار<sup>(١)</sup> . وإذا كان الوليد يقصد دير حنة فى الخيرة ، فأولى أن يقصد أديرة الشام متخفياً إن أراد . وفى ديوانه شعر يذكر فيه دبر يوتاً يقول فيه<sup>(٢)</sup> :

حبلاً ليلى بدير يوتاً      حيث نسقى شرابنا ونغنى  
كيفما دارت الرجاجة دُرنا      يحسب الجاهلون أننا جُننا  
وجعلنا خليفة الله فطرو      س مجوناً والمستشار يُحسنا

ولعل زيارة هذين الديرين وغيرهما من الأديرة كان لها بعض الانطباعات فى نفس الوليد ، فهو يمجن وهو يفكر فى حقيقة الأديان .

وليس هذا فحسب ، فإن معلمه عبد الصمد اتهم بالزندقة ، ونحن لا نريد أن نتهمه لا هو ولا معلمه بهذه الزندقة ، كما اتهمهما القدماء ، إنما نريد أن نلح هنا على ما أصاب العقل العربى من انطباعات شك ، بسبب اختلاط الأجناس وامتزاج الحضارات واقتباس العرب من الثقافات ، وكانت دمشق تتأثر بالثقافة اليونانية عن طريق ما كان يذيعه المسيحيون من أمثال يوحنا النمشى ، ومر بنا ما كان من تعارض الآراء فى مسألة القدر وحرية الإنسان فى العمل . فكان هذا وما يماثله يشترك بعض الظل فى نفس الوليد فيظهر فى شعره شيء من الدعابة التى لا يراد

(٢) الديوان ص ٥٦ .

(١) مسالك الأبحار (طبع دار الكتب)

بها إلى الإلحاد كما ظن القدماء ، وإنما يراد بها إلى العبث من مثل قوله (١) :

أَدِرِ الكَاسَ يَمِينَا لَا تُدِرْهَا لِيَارِ  
اسْتَقِ هَذَا ثُمَّ هَذَا صَاحِبَ الْعُودِ النَّضَارِ  
مَنْ كُتِمَتْ عَتَقُوهَا مِنْذُ دَهْرٍ فِي جِرَارِ  
خَتَمُوهَا بِالْأَفَاوِيهِ (٢) وَكَافُورٍ وَقَسَارِ  
فَلَقَدْ أَبْقَيْتُ أَنَّنِي غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ  
سَارُوسِ النَّاسِ حَتَّى يَرْكَبُوا دِينَ الْحَمَارِ  
وَذَرُوا مَنْ يَطْلُبُ الْخَنَازِيرَ يَسْمَعِي لِيَبَارِ (٣)

ومعنى نظم الوليد إذا صنعنا كما صنع القدماء ، واتخذنا من مثل هذه الحميرية دليلاً قاطعاً على إلحاده ، لسبب بسيط ، وهو أن هذا شعر ماجن ، قاله سكير يتعاطى . ومن غير شك هو ظيلٌ للحياة العقلية ، وما أصابها من تطور تحت تأثير الأفكار الجلييلة المشعة ، ولكنه في الوقت نفسه ظلٌ باقٍ هنا على سبيل الدُّعابة في مجال الشرِّب والخمر .

ومعنى ذلك أننا لا نقول بما قاله معاصروه من أنه لم يكن يؤمن بيوم الحساب (٤) أو ما قالوه من أنه لم يكن يرى من شرائع الإسلام شيئاً (٥) ، فهذا شعر يراد به إلى العبث . هو يعطى شيئاً من نزعَةِ الشك في العقل العربي ، ولكنه لا يتنهي بصاحبه إلى إنكار يوم الحساب وشرعية الإسلام ، إنما هو صدَى التحول في العقلية العربية وما أصابها تحت تأثير البحث في العقائد والآراء . أما بعد ذلك فقد كان الوليد متدينًا وربما كان مما يدل على ذلك ما يرويه الرواة من أن ابنًا له مات كان يُسَمَّى مؤمنًا ، فلم يستطع أحد أن يستعاه إليه حتى تميل ، فعناه إليه مِينَانُ الكاتب ، فقال في الحال (٦) :

أَتَانِي مِينَانٌ بِالْوَدَاعِ لِمُؤْمِنٍ فَقُلْتُ لَهُ إِنِّي إِلَى اللَّهِ رَاجِعٌ

(٤) طبري ١٨٥٣/٢ .

(٥) طبري ١٨٤٤/٢ .

(٦) أفان ٦٩/٧ .

(١) أفان ٤٦/٧ ورسالة النفران ص ١٤٥ .

(٢) الأفلوحي : أنواع من الطيب .

(٣) لَبَار : الملاك .

ومعنى ذلك أننا نلعب إلى أن الوليد كانت تعتريه فترات عبت تحت تأثير الخمر ، ثم يثوب إلى رشده ، ومن المعروف أن الإنسان تتوالى فيه حالات نفسية وعقلية ، ترتفع وتهبط في انتظام كانتظام المد والجذر . ومن الممكن أن يصوغ الوليد ، بل من المؤكد أنه كان يصوغ مثل الحميرية السابقة في فترات الهبوط أو في نقط الهبوط ، وهو أيضاً كان يصوغها على سبيل العبث والدعابة .

على كل حال نحن نميل إلى أن هذه النزعة التي بدت في خمريات الوليد لم تكن مسببة عن أزمة روحية أو دينية ، إنما كانت مسببة عن أزمة عقلية أو فكرية ، وهي في الوقت نفسه لم يكن يراد بها إلى الجِد ولا إلى ما يُشبه الجِد . والوليد في هذه النزعة أستاذ أبي نواس ومن لف لفته من شعراء الخمر في العصر العباسي ممن كانوا يتعابثون في خمرياتهم .

ويظهر أن تأثير الوليد بهذا الفن : فن الخمريات فيمن جاءوا بعده وخاصة أبا نواس كان واسعاً جيداً ، فهو الذي فتح لهم باب هذه المقطوعات الرشيقة ، التي قلما زادت عن عشرة أبيات ، والتي تختص بالخمر وسقائها ووصف آلائها وما تُحدث من نشوة وصفاً يدل على العشق والفناء فيها .

فالوليد هو صاحب هذا الفن في الشعر العربي ، وهو الذي عمل على إذاعته . كان موجوداً قبله في شعر الشعراء ، ولكنه لم يكن فناً قائماً بنفسه يَهَبُ الشاعر شعره وحياته له على نحو ما وهبها الوليد ، لأن الحياة العربية كانت قاسية بعض القسوة ، وخاصة في العصر الجاهلي ، فلم تُتَحَ للشعراء الفرصة أن يعيشوا للخمر وحدها ، على نحو ما عاش الوليد .

وأظننا الآن نتضح في أنفسنا فكرة التخصص التي أشرنا إليها مراراً في هذا البحث ، فالشعراء الممتازون في هذا العصر ، كاد كل منهم أن يتخصص بفن من الفنون لا يعدوه ، وهو ضرب من النمو والتطور العقلي الذي أصاب الأمة العربية ، فالشاعر يستطيع أن يعيش في فن واحد ، يقوم عليه ، كما يقوم أصحاب الآراء والمعتقدات من قَدَرِيَّة وغير قَدَرِيَّة على مذاهبهم لا يتحولون عنها . وهو لا يكتفى بذلك ، بل يحاول أن يرتقي بالفن من الفنون الذي يتخصص فيه . فهذا الوليد يعيش للخمر ، ويرتقي بشعره فيها فنوناً واسعة من الرق ، أساسها أن تُفرد

للخمر قطعة خاصة بها ، وأن يصفها الشاعر لا وصفًا حسيًا ظاهريًا كما كان يصنع القدماء ، وإنما يصفها وصفًا معنويًا ، يُعَبِّرُ فيه عن عشقه لها ، أو قل عن عبادته إياها ، فهو يَفْنَى فيها فناء .

وربما اتضح هذا عند أبي نواس أكثر مما يتضح عند الوليد ، لا لسبب إلا لأن شعر الوليد فُقِدَ ولم يبق منه إلا هذه المقطوعات القليلة الماثونة في الأغاني وغيره من كتب الأدب ، وقد نُشِرَت بين مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق باسم ديوان الوليد بن يزيد . ومع ذلك فهذه المقطوعات القليلة نفسها تدل دلالة قاطعة على ما نزعته من أن الوليد هو الذي سَنَّ للعباسيين سُنَنَ الخمرية بكل ما يَسِمُهَا من عِشْق الخمر وعبادتها وكل ما يتجَلَّى فيها من نَزْعَةٍ شَكَّ أو عَبَثَ . وكان العباسيون أنفسهم يؤمنون بذلك ، يقول أبو الفرج : « وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة » ، قد أخذها الشعراء ، فأدخلوها في أشعارهم ، وسلكُوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه سَلَخَ معانيه كلها ، وجعلها في شعره ، فكَرَّرَهَا في عدة مواضع منه ، ولولا كراهةُ التَّطْوِيلِ لذكرتها ها هنا ، على أنها تُنْشَى عن نفسها <sup>(١)</sup> . وكنا نودُّ لو أن أبا الفرج أثر التَّطْوِيلِ ، لأن ديوان الوليد فُقِدَ ، وَحَمَلَ الناسُ الخمرية على أبي نواس ، ونَسُوا مُبْدِعَهَا ومنشأَ فنِّها في اللغة العربية بمعناه الكامل التام .

الوليد إذن هو صاحب هذا الفن ، فنَّ الخَمَرِيَّاتِ في الشعر العربي ، فهو الذي نهَجَ للعباسيين من مثل أبي نواس طُرُقَهُ ، وذُلِّلَ لهم مسالكه ، ورسم لهم صُورَهُ ، ووقَّعَ لهم نغمته ، واستمع إلى هذه الخمرية <sup>(٢)</sup> :

|                                          |                              |
|------------------------------------------|------------------------------|
| اصْدَعْ نَجْجِيَّ الْمَعُومَ بِالطَّرَبِ | وانعم على الدهر بانبئة العنب |
| واستقبل العيش في غضارته                  | لا تقف منه آثار مُعْتَقِبِ   |
| من قهوة زانها تقادُمُها                  | فنهى عجزُ تعلو على الحقب     |
| أشهى إلى الشرب يوم جلوتها                | من الفتاة الكريمة النَّسَبِ  |
| فقد تجلَّت ورق جَروهرها                  | حتى تبدَّت في منظر عَجَبِ    |

فَتَهَيَّ بِغَيْرِ الْمَزَاجِ مِنْ شَرَرٍ      وَهَيَّ لَدَى الْمَزَاجِ سَائِلُ الذَّهَبِ  
كَأَنَّهَا فِي زَجَاجِهَا قَبَسٌ      تَذْكُو ضِيَاءَ فِي عَيْنَيْنِ مُرْتَقِبِ

ولولم نعرف صاحب هذه الخمرية ومعناها لقلنا توّاً إنها لأبي نُوَاسٍ ،  
ففيها طابعه ، وفيها فتنته بالخمِر وصبايته ، وفيها رِقَّةٌ حِسَّةٌ ، ودِقَّةٌ مشاعره ،  
مما ينم عن أثر الحضارة والترف . وإن الوليد لينفعل إزاء الخمر انفعال العاشق أمام  
معشوقته الجميلة الكريمة النَّسَبِ . وفي كل موضع من خمرياته نشعر أنه يُقْبِلُ  
على أقداحه وكنوزه إقبال المفتون حقّاً ، ومن هنا كانت تَشْيِيعُ في شعره وخمرياته  
على الخصوص رُوحُ المَرَحِ الشديد ، ولعل ذلك ما أفاضَ على خمرياته حَيَوِيَّةً  
غريبة ، هي نفس الحيوية التي نجدها في خمريات أبي نُوَاسٍ ، واستمع إلى هذه  
الخمرية (١) :

|                                |                             |                              |                               |
|--------------------------------|-----------------------------|------------------------------|-------------------------------|
| عَبْلَانِي                     | وَاسْقِيَانِي               | مِنْ شَرَابٍ                 | أَصْبَهَانِي                  |
| مِنْ شَرَابِ الشَّيْخِ كَسْرِي | أَوْ شَرَابِ الْقَيْرَوَانِ | أَوْ بِكَفِّي مِّنْ سَقَانِي | أَوْ لَقَدْ غَوَدَرْتُ فِيهَا |
| كَلَّلَانِي                    | تَوَجَّانِي                 | وَبِشْعَرِي                  | غَنِيَانِي                    |
| أَطْلِقَانِي                   | بَوَاقِي                    | وَاشْدُدَانِي                | بَعْنَانِي                    |
| إِنَّمَا الْكَاسُ رُبِيعٌ      | يُسْعَاطِي بِالْبَيْتَانِ   | بَيْنَ رِجْلِي               | وَلَمَانِي                    |
| وَحُمَيَّا الْكَاسُ دَبَّتْ    |                             |                              |                               |

ولا ريب في أن هذه خمرية طافحة بالحياة ، نظمها شاعر ، يعشق الخمر ،  
ويعيش لها ، وَيُدْمِنُ عليها ، يشربها إذا أصبح ، ويشربها إذا أمسى ،  
ولا يكتفي بشربها ، بل يستحمُّ بها ، ويتنصَّحُها على جسده ، يتضمَّخُ بها كأنها  
ماءٌ معطرٌ ، فهي لذَّته من دنياه ، وهي نعيمُ الحياة في رأيه .

انتظنا بعد ذلك نبأه إذا قلنا إن الوليد هو الذي شرَّع لأبي نواس وأضرابه من

العباسيين هذا المذهب ، منهج الخمريات ، أو مذهب الخمر واللذة ؟ لقد أخذت الخمريات عنده كل رسومها وصفاتها التي عاشت بها من بعده ، لا من حيث روحها ومعانيها ، كما لاحظ أبو الفرج ، بل أيضاً من حيث لغتها وأساليبها . وحتى الآن لم نتحدث عن هذا الجانب في الوليد ، وهو من أهم الجوانب في شعره ، إذ يشعر كل من يقرؤه أن شعره يُصاغ من لغة عادية ، ليس فيها غريب ولا مهجور ، وإنما فيها المألوف القريب . وقد أسلفنا في غير هذا الموضع أن عمر ابن أبي ربيعة وأصحابه من شعراء الغزل الحجازيين هجروا أساليب الشعر القديمة إلى اللغة المألوفة في الحياة اليومية تحت تأثير الغناء وتطور الحياة العربية وما امتزج بها من حضارة . وكل من يقرأ الوليد يشعر عنده بنفس الصورة اللغوية ، بل لقد نمت الصورة عنده ، فأصبح أسلوب الشعر أطوع وأكثر مرونة وفي الوقت نفسه أدنى وأقرب إلى اللغة المألوفة .

ومعنى ذلك أن الوليد لم يخط للخمرية في الشعر العربي معانيتها فقط ، بل أعطاها أيضاً هذه اللغة السهلة المألوفة التي نجدها من بعده عند أبي نواس وأمثاله . وكان كل شيء يُعده الوليد لإعطاء هذه الصورة ، فقد كان أكثر اختلاطاً وامتزاجاً بأوساط المغنين ، وكانت الحضارة تنعسقه بأكثر مما تنعشق عمر ونظرائه من شعراء الحجاز . وليس هذا فحسب ، فقد اتحد عنده الغناء والحضارة والشعر ، فهو ابن قصور دمشق المتأثرة تأثراً عميقاً بالحضارة البيزنطية ، وهو شاعر ، ثم هو عازف قيثارة . يقول أبو الفرج : « له أصوات صنعها مشهورة وقد كان يتضرب بالعود ، ويوقع بالطبل ، ويحشى بالدُف على مذهب أهل الحجاز » ثم يروي عن خالد صامة المغمسي أنه قال : « كنت يوماً عند الوليد بن يزيد وأنا أغنية ( أراي الله يا سلمى حياي ) وهو يشرب حتى سكير ، ثم قال لي هات العود ، فدفعته إليه ، فغنا أحسن غناء ، ففيسئت عليه إحسانه ، ودعوت بطبل فجعلت أوقع عليه ، وهو يضرب ، حتى دفع العود ، وأخذ الطبل فجعل يوقع به أحسن إيقاع ، ثم دعا بدُف ، فأخذه ومشيت به ، وجعل يغنى أهزاج طويس ، حتى قلت قد عاش ، ثم جلس وقد انبهر ، فقلت يا سيدى : كنت أرى أنك تأخذ عنا ، ونحن الآن نحتاج إلى الأخذ منك ! » . وروى أبو الفرج

قِصَّةٌ تشبه هذه أيضاً عن يَحْيَى قَتِيلِ مَوَالِي الْعَبَدَلَاتِ<sup>(١)</sup>.

فالوليد كان شاعراً وكان عازفاً أو مغنياً ، وأشار أبو الفرج في غير موضع من كتابه إلى بعض ألحانه<sup>(٢)</sup> ، ومن يتعقب شعره يجد له ألحاناً خالصة ، فهو من جهة بَصَاحٌ من لغة سهلة تَجَرِّي على اللسان في خِفَّةٍ ، ومن جهة ثانية تُخْتَارُ له الأوزان الخفيفة التي تَسْكُبُ في القلب : كأنه لحن خالص أو لحن صاف ، واستمع إلى قوله<sup>(٣)</sup> :

|                              |                                      |
|------------------------------|--------------------------------------|
| شاع شعري في سُلَيْمَى واشتهر | ورآه الناسُ بادٍ وحَصَر              |
| وتهادته العَدَاوَى بَيْنَهَا | وتغَنَّنَ بِهِ حَتَّى اشْتَهَرَ      |
| لو رأينا سُلَيْمَى أَثَرًا   | لَسَجَدْنَا أَلْفَ أَلْفٍ لِلْأَثَرِ |
| واتخذناها إماماً مَرْتَضَى   | ولكانت حَاجَتنا والمُعْتَمَر         |

فهذا شعرٌ ينطلق من الفم بخِفَّةٍ ، لأنه شعر عازف على عودٍ وقيثار ، يعرف كيف يؤلف اللفظ ، وكيف يصوغه لحنًا خالصًا ، واستمع إليه يقول<sup>(٤)</sup> :

|                               |                              |
|-------------------------------|------------------------------|
| اسْقِنِي يا يزيد بالقرقارة    | قد طربنا وحنَّت الرُّمَّارَة |
| اسْقِنِي إسْقِنِي فإنَّ ذنوبي | قد أحاطتْ فإلها كغفَّارَة    |

أو يقول<sup>(٥)</sup> :

|                           |                          |
|---------------------------|--------------------------|
| خَبَّرُونِي أَنَّ سَلَمَى | خَرَجَتْ يَوْمَ المَصَاي |
| فإذا طيرٌ مَلِيحٌ         | فوقَ غُصْنٍ يَتَقَلَّى   |
| قُلْتُ من يعرف سَلَمَى    | قال ها ثمَّ تَعَلَّى     |
| قُلْتُ يا طيرُ ادنُ مني   | قال ها ثمَّ تَدَكَّى     |
| قلت هل أَبْصَرْتَ سَلَمَى | قال لا ثمَّ تَوَكَّى     |

فالسَّهولةُ والعدوبةُ والخِفَّةُ والرَّشاقةُ كلُّ ذلكُ أساسِيٌّ في شعر الوليد :

(٤) الديوان ص ٤٤ وانظر مسالك الأبيصار

٣٩٨/١ والمحمدي ٥/٦ .

(٥) أغاني ٣٦/٧ .

(١) انظر الأغاني ٢٧٤/٩ وما بعدها .

(٢) انظر الأغاني ٣٢/٧ ، ٤٤/٧ ،

٢٧٤/٩ .

(٣) الديوان ص ٤٣ .

خَمَرِيَّاتِهِ وَغَيْرِ خَمَرِيَّاتِهِ ، وَهُوَ فِي الْحَقِّ شِعْرٌ كُتِبَ لِلْحَنِّ وَيُغَنَّى . وَمِنْ هُنَا كَانَتْ أَبْنِيَّتُهُ لَيْسَنَةً ، وَكَانَتْ أَوْزَانُهُ فِي الْغَالِبِ قَصِيرَةً . وَيَسْتَطِيعُ مِنْ يَتَقَرَّنُ الْأَشْعَارَ أَوْ الْأَصْوَاتَ الَّتِي غَنَّى فِيهَا لِلْوَلِيدِ إِلَى أَشْعَارِ عُمَرَ وَأَصْوَاتِهِ وَكَذَلِكَ أَشْعَارُ الْحِجَازِيِّينَ مِنْ وَرَائِهِ وَأَصْوَاتِهِمْ أَنْ يَلَاظِ الْإِشْرَاقَ هُنَا وَهُنَا فِي الْمِيلِ إِلَى الْأَوْزَانِ الْمُجْتَمِعَةِ ، فَإِنْ تَرَكَّتْ فَعَلَى الْأَوْزَانِ الْخَفِيفَةِ غَالِبًا كَالرَّمَلِ وَالْمُتَقَارِبِ .

وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ انْتَقَلَ الْوَلِيدُ بِهَذَا الْعَمَلِ نَقْلَةً ، فَهُوَ يَمِيلُ أَكْثَرَ مِنَ الْحِجَازِيِّينَ إِلَى التَّحْرِيفِ فِي الْأَوْزَانِ وَالتَّعْدِيلِ فِيهَا حَتَّى تَتَلَامَ مَعَ الْغَنَاءِ الْجَدِيدِ . وَالْوَلِيدُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ بَعْدَ خُطْوَةٍ نَهَائِيَّةٍ لِلْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ وَالتَّغْيِيرَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي حَدَثَتْ فِي أَوْزَانِ الشَّعْرِ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْغَنَاءِ ، فَقَدْ كَانَ عَازِفَ عَوْدٍ وَمُلْحَنَ أَصْوَاتٍ ، وَلِذَلِكَ بَدَتْ تَجَزِئَةُ الْأَوْزَانِ عِنْدَهُ بِأَوْسَعِ مَا بَدَتْ عِنْدَ شُعَرَاءِ الْحِجَازِ .

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ طَوَّعَ الشَّعْرَ لِلْغَنَاءِ بِأَكْثَرِ مَا طَوَّعَهُ عَمْرٌ وَأَقْرَانُهُ مِنْ شُعَرَاءِ الْحِجَازِ بِعَامِلِ الضَّرُورَةِ الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَعْيشُ فِي أَثْنَائِهَا ، وَضَرُورَةِ الْغَنَاءِ وَالْحَانَةِ وَاسْتِخْرَاجِ كُلِّ مَا يُمْكِنُ مِنْ تَوْقِيعَاتٍ وَتَرْنِيَّاتٍ . وَطَبِيعِي أَنْ يَكُونَ أَثَرُ شَاعِرٍ يَخْتَلِفُ إِلَى الْمَغْنَنِ ، غَيْرِ أَثَرٍ آخَرَ ، هُوَ نَفْسُهُ مُغْنٍ ، وَهُوَ نَفْسُهُ مُلْحَنٌ . فَعَمْرٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الْحِجَازِيِّينَ كَانُوا يَتَأَثَّرُونَ بِالْغَنَاءِ الْجَدِيدِ وَالْحَانَةِ ، وَيَحَاوِلُونَ أَنْ يَجِدُوا ، وَأَنْ يَلَامُوا بَيْنَ شِعْرِهِمُ وَالْأَلْحَانِ الْجَدِيدَةِ مِلَاقَةً قَدْ تَصَيَّبُ وَقَدْ تَخْطِئُ . أَمَّا عِنْدَ الْوَلِيدِ فَهُوَ الشَّاعِرُ وَهُوَ الْمَغْنَنُ وَالْمُلْحَنُ ، يُوَلِّفُ الْقِطْعَةَ ، وَهُوَ يَعْرِفُ مَا يَرِيدُهُ مِنَ الْأَلْحَانِ وَتَوْقِيعَاتِ ، وَمِنْ تَقْصِيرِ بَعْضِ الْحَرَكَاتِ وَالْهَمَسِ بِهَا أَوْ تَطْوِيلِهَا وَمَدِّهَا . وَلَعَلَّنَا لَا نَعْجَبُ حِينَ نَعْرِفُ أَنَّهُ نَظَّمَ أَوَّلَ قِطْعَةٍ جَاءَتْ فِي كِتَابِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِنْ وَزَنِ الْمَجْنَسَةِ ، وَقَدْ قَالَهَا حِينَ تَوَفَّى عَنْهُ هِشَامٌ ، وَهِيَ تَجْرِي عَلَى هَذَا النَّمطِ <sup>(١)</sup> :

|                                 |                             |
|---------------------------------|-----------------------------|
| إِنِّي سَمِعْتُ بَلِيلَ         | وَرَأَى الْمُصَلَّى بَرَّةً |
| إِذَا بَنَاتُ هِشَامٍ           | يَسْتَدْبُرْنَ وَالِدَهُنَّ |
| يَسْتَدْبُرْنَ قَرَمًا جَلِيلًا | قَدْ كَانَ يَعْضُدُ هُنَّ   |

وَلَا تَرْتَابُ فِي نِ الْوَلِيدِ وَصَلَ إِلَى هَذَا الْوِزْنِ عَنْ طَرِيقِ الْخُرُوقِ الَّتِي كَانَ

يُحَدِّثُهَا فِي الْأَوْزَانِ ، أَوْ مَا يَسْمِيهِ الْعَرُوضِيُّونَ بِالزَّحَافَاتِ ، حَتَّى يَلَامُ بَيْنَ شَعْرِهِ  
وَالْحَانَةِ الَّتِي يَرِيدُهَا . وَلَوْ أَنَّ دِيَوَانَهُ وَصَلَ إِلَيْنَا لَأَسْتَطَعْنَا أَنْ نَعْرِفَ بِالضَّبْطِ مَا أَحْدَثَهُ  
فِي هَذَا الْجَانِبِ ، وَمَنْ يَلْتَمِزُ رَجُلًا أَحَدَثَ تَغْيِيرَاتٍ أُخْرَى فِي أَوْزَانِ الشَّعْرِ لَمْ يَحْتَفِظْ  
لَنَا بِهَا كِتَابُ الْأَخَانِي .

وَالْوَلِيدُ هَذَا كُلُّهُ يَأْخُذُ أَهْمِيَّةً بَعِيدَةً فِي تَارِيخِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، فَقَدْ عَمِلَ عَلَى  
مِرْوَةِ أَوْزَانِهِ وَمُطَاعَاةِ غَنَائِهِ لِلْغَنَاءِ الْجَدِيدِ ، كَمَا أَعَدَّ لَكُمْ هَذَا "فَنَ الْخَمْرِيَّاتِ" فِي  
اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِذْ اتَّخَذَ الْخَمْرَ فِلْسَافَةً لَهُ ، وَتَغْنَى بِهَا غَنَاءَ الْمُهَيِّينِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ فَحْصَبٌ ،  
فَقَدْ أَخْرَجَ شَعْرَهُ فِي لُغَةٍ شَجِيَّةٍ مَالُوقَةٍ . وَقَدْ رَوَى لَهُ أَبُو الْفَرَجِ أَرْجُوزَةً مَزْدُوجَةً  
خُطِبَ بِهَا فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ ، وَهِيَ تَعْدُ أُمًّا لِلشَّعْرِ التَّعْلِيمِيِّ الَّذِي شَاعَ فِي الْعَصْرِ  
الْعَبَّاسِيِّ عِنْدَ أَبَانِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَنَظَرَائِهِ

وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ عَمَلَهُ فِي الشَّعْرِ قَدْ انْتَضَحَ لَنَا ، فَهُوَ شَاعِرٌ مُجَدِّدٌ مِنْ فَوْقِ  
حَدِيثِ ، يَتَفَقَّحُ وَالْحَضَارَةَ الَّتِي نَشَأُ فِيهَا وَالتَّرَفَ الَّذِي نَسَبَتْ فِيهِ ، بَلْ قُلْ إِنَّهُ  
ضَرْبِيَّةٌ هَذَا التَّرَفُ ، فَقَدْ تَحَوَّلَ يَتَغْنَى بِالْخَمْرِ وَالْحُبِّ ، وَحَاطَلَ أَنْ يَجْدُدَ بِكُلِّ  
مَا يَسْتَطِيعُ فِي أَوْزَانِ الشَّعْرِ وَأَنْغَامِهِ .

٥

### مَتُونُ رُؤْيَا

هُوَ رُؤْيَا بْنُ الْعَجَّاجِ التَّمِيمِيِّ وَاسْمُ الْعَجَّاجِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رُؤْيَا ، وَنَسَبُهُ  
يَتَّصِلُ بِسَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ رُؤْيَا سَنَةَ ٦٥ هِجْرَةَ وَهُوَ لَا يَزَالُ  
فِي الْبَادِيَةِ . وَلَمَّا شَبَّ رُؤْيَا نَزَلَ أَبُوهُ مَعَهُ الْبَصْرَةَ ، وَمِنْ هُنَاكَ أَرْسَلَهُمَا الْعَجَّاجُ إِلَى  
دِمَشْقَ كَيْ يَتَغَدَّ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَعَ مَنْ يَتَقَدُّونَ عَلَيْهِ لِمَدْحِهِ <sup>(١)</sup> .

(١) أَغْلَى (طبع الساسي) ٢١/٢٥٩ .

وهذا الخبر أقدم أخباره وفي ديوانه أرجوزة يمدح بها القاسم بن محمد بن القاسم الذئبي وفيها يشيد بفتوح أبيه في السند ، ومعروف أنه فتحها لعهد الوليد بن عبد الملك سنة ٩٤ للهجرة وكان تنويه رؤبة فيها بفتوح القاسم في الهند سبباً في أن يتبادر إلى بعض الباحثين أنه هو المملوح بها ، وكأنها نُظمت عقب فتحه للسند ، ولكن الحق أنها نظمت في عصر متأخر<sup>(١)</sup>. وفي الديوان أرجوزة أخرى في مديح شخص يسمى عبد الملك بن قيس الذئبي كان على السند<sup>(٢)</sup>، مما قد يدل على أنه كان يرتحل إلى هذه الأنحاء .

وفي شعره ما يدل على أنه اضطرب في الحروب والحوادث التي وقعت بخراسان بعد قتل قتيبة بن مسلم سنة ٩٦ للهجرة . وقد وقَّع في هذه الأثناء على سليمان بن عبد الملك في دمشق ، إذ حجَّ معه فيمن حجَّ من الشعراء ، الذين رافقوه في حجة مشهورة له ، وكان بينهم الفرزدق وجربير<sup>(٣)</sup> . وأكبر الظن أنه كان يرحل إلى دمشق ، ويتعمق في رحلاته شرقاً إلى خراسان ، ثم يعود إلى العراق ، فيعيش مع قومه من تميم .

ويوضح من أراجيزه أنه كان يتعصب تعصباً شديداً لقومه ، ولعل ذلك ما جعله يهجو المهلكب الأزدي<sup>(٤)</sup> ، فقد كانت المنازعات تحتدم بين تميم والأزد في البصرة وخراسان ، وكثيراً ما تحولت هذه المنازعات إلى حروب تُسفك فيها الدماء ، وكان يشترك في بعض هذه الحروب ، ففي البيسان والتبيين أنه صاح في حرب منها : « يا معشر بني تميم أطلقوا من لسانى وأبصر تميمياً طعن أزدياً طعنة » ، فصاح : لا عيباً ولا مشكلاً<sup>(٥)</sup> .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم مدائحه الكثيرة لمسلمة<sup>(٦)</sup> بن عبد الملك ، فإنه قضى على يزيد بن المهلكب الأزدي وثورته في العراق عام ١٠٢ للهجرة ، وأيضاً نجده يمدح أحد قواد تميم الذين ساهموا مع مسلمة في القضاء على

(١) انظر كتاب العربية لجوهان فك ص

(٤) الديوان ص ٧٤ .

(٥) البيان والتبيين ١/ ٢١٤ .

(٦) الديوان ص ٢٥٠ ، ١٤٤ .

(٢) ديوان رؤبة (طبعة ليبك)

(٣) طبرى ٢/ ١٣٣٨ .

يزيد ، وهو هُرَيْثُ بْنُ أَبِي طَخْنَمَةَ الْمُجَاشِعِيِّ<sup>(١)</sup> .  
ويغلب على الظن أنه بقي في العراق بعد هذه الحوادث مُدَّةً متطاولة ،  
ففي ديوانه أراجيز كثيرة يمدح بها خالداً القَسْرِيَّ وإلى هشام بن عبد الملك على  
العراق وولاته المختلفين من مثل المُهَاجِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى الْيَمَامَةِ ، وبلال بن  
أبي بُرْدَةَ الْأَشْعَرِيِّ وإلى البَصْرَةِ ، وأَبَانِ بْنِ الْوَلِيدِ الْبَجَلِيِّ وإلى  
فارس .

وليس في ديوانه مديح للخلفاء الثلاثة الذين جاءوا بعد سليمان ، وهم عُمَرُ بْنُ  
عبد العزيز ويزيدُ بن عبد الملك وأخوه هِشَامُ ، وكذلك ليس في أخباره ما يدل  
على أنه كان يَفْقِدُ عليهم . وأوَّلُ خَلِيفَةٍ يَفْقِدُ عليه بعد سليمان هو الوليدُ بن  
يزيد بن عبد الملك ، ففي ديوانه أَرْجُوزَةٌ في مديحه<sup>(٢)</sup> . ونراه بعد ذلك يَفْقِدُ على  
مَرْوَانَ بن محمد آخر وُلَاةِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وفي ملححه له تَحْيِينٌ شديد وتَعْصِبٌ ضد  
أعدائه المَارِقِينَ عليه ، وإنه ليصفهم بالبَغْيِ والْفُضَالِ وَالْكَفْرِ<sup>(٣)</sup> .

وتدلُّ أراجيزه على أنه كان لا يزال يَرْحَلُ إلى الشرق ، فنحن نراه يمدح  
نَصْرَ بْنَ سَيَّارٍ وإلى خراسان ، وليس هذا فحسب ، فنحن نجده يُحَذِّرُهُ  
أَبَا مُسْلِمٍ الْخُرَّاسَانِيَّ صاحب الدعوة العباسية هناك ، إذ يقول له في بعض  
أراجيزه<sup>(٤)</sup> :

يَا نَصْرُ إِنِ اتَّخَذَ الْأَصَمَّا يَحْرِقُ نَابًا وَيَمُجُّ سَمًا  
فَارْكَبْ بِجِدٍّ دَارِعًا مُعْتَمًا وَلَا تَمُوتَنَّ بِأَرْضٍ غَمًا  
فَالسَّيْلُ بِالْوَادِي إِذَا مَا طَمًا أَبْدَى عُرُوقَ شَجَرٍ وَاقْتَمًا<sup>(٥)</sup>

ولعل هذا ما جعله يخاف على نفسه حين انتقل الأمر إلى بني العباس ، ففي  
الأغاني أن أبا مُسْلِمٍ الْخُرَّاسَانِيَّ بعث إليه حين أفضت الخلافة إلى بني هاشم ،  
فلما دخل عليه رأى منه جَزَعًا وتوجُّسًا شديدًا ، فا زال يسكته ويهدئ من  
رَوْعِهِ ، ويطلب إليه أن ينشده بعض أراجيزه القديمة ، ورؤيته يُنْشِده مقاطعات

(١) الديوان ص ١٣٩ .

(٥) أتم : كنس .

(١) الديوان ص ٦٦ .

(٢) الديوان ص ١٠٢ .

(٣) الديوان ص ١١٤ .

في مديحه ، حتى سكنَ وثاب إلى رُشدِه ، فأنشده ما أرادَ من أراجيزه<sup>(١)</sup> .  
ويُضطرُّ رؤبَةُ أن يدخُلَ فيها دَخَلَ فيه الناسُ ، بل نراه يقف على  
أبواب الخلفاء وولاتهم ، في ديوانه أرجوزة في السَّقَّاح ، وأخرى في المنصور ،  
واثنتان في سليمان بن علي وإلى البَصْرَة ، وأرجوزة في محمد بن الأشعث وإلى فارس .  
ولم تطل حياة رؤبَةَ في العصر العباسي كثيراً ، فقد لحقتهُ العَصْرُ كبيراً ،  
ولذلك سلكتاه في شعراء العصر الأموي ، إذ بدأ فنّه وأراجيزه منذ عصر الوليد بن  
عبد الملك ، ومعنى ذلك أنه عاش نحو أربعين سنة في العصر الأموي ينظم أراجيزه  
ويطوِّرها إلى أن بلغ بها الغاية .

وقد اخترناه دون أبيه العجاج ودون رُجَّاز العصر الأموي عامةً من مثل  
أبي النجم العجّلي ، لأن فنَّ الرجز تكامل عنده ، وأوفى على الغاية التي كان يريدُها  
له أصحابه ، ولذلك اهتمت به كتبُ الأدب واللغة اهتماماً واسعاً .

والحق أنه تشويجٌ لكل ما ابتغى رُجَّازُ عَصْرَ بني أميةَ لفنِّهم ، فقد  
مضى في غير هذا الموضع أن وُزِنَ الرُّجَزُ كان محدوداً في العصر الجاهلي ، فهو  
لا يكاد يُنظَّمُ إلا شُطُوراً قليلة ، وهي شطورك كانت تقال في الحركة السريعة ،  
في الحرب ، أو في الخلداء ، أو عند المتع من بشرٍ ، ونحو ذلك .

فلما جاء عصر بني أمية واتسعت معه طاقة هذا الوزن رأينا طائفة من أصحابه  
يحاولون أن يمدُّوا أطناب طاقته مدّاً واسعاً ، فإذا هم يؤلفون أراجيز طويلة طويلاً  
مُسَرِّفاً ، وإذا هم يستخدِمُونها في كل ما تُستخدَمُ فيه القصيدة من  
تسيب ومديح وفخر وهجاء وعِتَاب .

وإذا كنا قد لاحظنا في القصيدة التمامَ واتساقاً مع الرقِّ العقلي الذي صادف  
العرب ، والنشاماً واتساقاً أيضاً مع نفسياتهم الجديدة التي بثَّها الإسلام ،  
والتمامَ واتساقاً كذلك مع الظروف السياسية المعاصرة ، فإن الأرجوزة قد شاركت  
في هذا كله .

وأظن القارئ لا يزال يذكر ما قلناه في غير هذا الموضع من أن رؤبة كان يذهب إلى الجبر، بينما كان يذهب ذو الرمة إلى حرية الإرادة. وطبعي أن يذهب رؤبة هذا المذهب، لأنه كان شاعراً أمويًا، وقد عرفنا أن الأمويين عملوا على إذاعة مذهب الجبر، واتخذوا الشعراء سبيلهم إلى ذلك. وكان ممن أذاعه لم جرير والفرزدق، لسبب بسيط، وهو أنهما كانا من مدّاحهما، وكذلك كان رؤبة، ومن هنا يأتي شيوع عقيدة الجبر في أراجيزه.

وعلى نحو ما ذاع عنده الجبر في مدائحه لبني أمية وأنهم كتبوا على الناس واختارهم لم ربّهم على شاكلة ما نرى في أرجوزته التي يمدح بها مروان بن محمد<sup>(١)</sup>، كذلك ذاعت العناصر الإسلامية في أراجيزه، وقد كان يتصل بها مباشرة، إذ كان محدّثًا يروى الحديث بأسانيده<sup>(٢)</sup>، فطبعي أن يتسرّب الإسلام إلى شعره وأن يتحدّح بالحصال الإسلامية التي دَعَا إليها الدين الخفيف. وبنفس الطريقة كان يستغل الظروف السياسية المعاصرة في عمل أراجيزه، ولعل ذلك ما جعله يمدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك ومروان بن محمد، إذ نفّرنا من اليمنية، فابتعدا عنها، وأقصياها عن الحكم، وارتسميًا في أحضان القيسية.

ورؤبة في كل هذا شاعر أموي، وهو لا يضيف جديدًا في مديح الأمويين، إنما يسير على الدروب والممالك التي فتحها في مديحهم جرير والفرزدق من جهة، وأبو العجاج وأبو النجيم العجلي من جهة أخرى، فإذا كان له من فضل، فهو فضل التطبيق والاتساع به.

وهذه كلها أشياء جاءت من رُقَى الحياة في عصر بني أمية وتعتدّها وما كان للطبقات المثقفة من آثار في هذه الحياة. وحتى الآن لم نتحدث حديثًا مفصّلًا عن طبقة خاصة، وهي طبقة اللغويين الذين انبثقوا هذا العصر في البصرة والكوفة، واتخذوا يحاولون أن يتصمّموا للموالى قواعد تفهيم الغلط واللحن في اللغة العربية. وكان نشاط البصرة في هذا الجانب أوسع من نشاط الكوفة. وفي كتاب أخبار

(٢) أغاني ٥٨/٢١.

(١) انظر الديوان ص ١١٤.

النحويين للسيرافى صورةً دقيقة لهذا النشاط وبيان واضح لمن شاركوا فيه منذ أبى الأسود الدؤلى إلى يونس وأبى عمرو بن العلاء وابن أبى إسحق الحضرمى وعيسى بن عمر الذين عاصروا رؤبة .

وكان عمل أساتذة هذه المدرسة اللغوية فى البصرة وإخوانهم فى الكوفة يقوم على وضع قواعد اللغة العربية ، وعلى السماع من أهلها وتلوين ما يسمعون ، ويقال إن كتب أبى عمرو بن العلاء التى كتبها عن العرب الفصحاء ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف<sup>(١)</sup> .

وغير أبى عمرو بن العلاء كان ينحو نحوه فى الكتابة عن العرب وعن فصحاتهم خاصة . وكانوا يطلبون ذلك ويُلحِثون فى طلبه حتى يستجملوا متن اللغة العربية تسجيلاً دقيقاً . ومن هنا ظهرت هذه الطائفة من البدو الرواة الذين تتناقل كتب الأدب العربى أخبارهم ، وهم جماعة كانوا يقدون على المدن ، فيروى عنهم أبو عمرو ويونس وأمثالهما شعرهم ، ويتخذون منه الشاهد والمثل . وسرعان ما رأينا الرجز يصبح أكبر مستودع لهذه الأمثال والشواهد ، وكل من له صلة بكتب اللغة العربية التى تهتم بالغريب والشاذ يعرف أن أكثر ما يروى فى هذه الكتب إنما يروى عن الرجز ، وخاصة رؤبة وأباه العجاج ، فاسماهما يجريان على جميع الشفاه .

والإنسان لا يلم بديوانيهما حتى ينقطع بأنهما كانا يؤلفان أراجيزهما قبل كل شيء من أجل الرواة ، ومن أجل أن يمدّوهما بكل لفظ غريب وكل أسلوب شاذ . ومن هنا كنا نسمي هذه الأراجيز متوناً لغوية .

وقد بلغت هذه المتون صورتها المثالية عند رؤبة ، فهو النمو الأخير لهذا العمل التعليمى الذى أرادته المدرسة اللغوية من جهة ، والذى استجاب له الشعراء وخاصة الرجز من جهة أخرى . ولعل ذلك ما جعل اللغويين يؤقرونها أعظم التوقيع ، فأبو الفرج يقدّمه فى ترجمته له بقوله : « أخذ عنه وجوه أهل اللغة » ، وكانوا يقدّون به ، ويحتجّون بشعره ، ويجعلونه إماماً . ثم يروى أن شبيل بن عزرّة الضبي مرّ بأبى عمرو بن العلاء ويونس ، فقال : يا أبا عمرو

أَشْعَرَتْ أَنِي سَأَلْتُ رُؤْبَةَ عَنْ اسْمِهِ فَلَمْ يَلِدْ مَا هُوَ وَمَا مَعْنَاهُ ؟ فَقَالَ لَهُ  
يونس : والله لرُؤْبَةُ أَفْصَحُ مِنْ مَعْدَنَ بْنِ عَدْنَانَ وَأَنَا غَلَامٌ رُؤْبَةُ . ويقول يونس  
في رواية أخرى وقد سُئِلَ عَنْ فَصَاحَةِ رُؤْبَةَ : مَا رَأَيْتُ قَطُّ عَرَبِيًّا أَفْصَحَ مِنْهُ <sup>(١)</sup> .  
وهكذا كَانَ رُؤْبَةُ فِي عَصْرِهِ يَشْتَهَرُ بِالفَصَاحَةِ ، وَكَانَ يَحْسُ ذَلِكَ إِحْسَاسًا  
وَاضِحًا ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ مَا جَعَلَهُ فِي أَرَاغِيزِهِ دَائِمَ الْفَخْرِ بِمَعْرِفَتِهِ الَّتِي لَا تُبَارَى بِاللُّغَةِ ،  
وخاصةً وَحْشِيَّهَا وَغَرِيبِيَّهَا ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ مُتَشَدِّدٌ رَأً عَلَى بَعْضِ الشُّعْرَاءِ إِنَّهُ :  
« أَعْجَمٌ لَا يَعْرِفُ زَيْغَ الزَّيْغِ » <sup>(٢)</sup> . وَبَيْنَ أَيْدِينَا أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ  
أَصْحَابَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مِنْ مِثْلِ يُونُسَ كَانُوا مَا يَزَالُونَ يَلْتَقِطُونَ مَا يَنْثَرُهُ مِنْ دُرَرِ  
الْوَحْشِيِّ الْغَرِيبِ . وَفِي دِيَوَانِهِ إشاراتٌ كَثِيرَةٌ إِلَى النَّحَاةِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ <sup>(٣)</sup> :  
« يَلْتَمِسُ النُّحُوِيَّ فِيهَا قَصْدِي » . وَيَفْتَخِرُ بِأَنَّ النُّحُوِيَّ مِمَّا كَانَ عَالِمًا بِاللُّغَةِ  
فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَبْلَغَهُ فِيهَا ، إِذْ يَقُولُ <sup>(٤)</sup> :

لَا يَنْظُرُ النُّحُوِيَّ فِيهَا نَظْرِي      وَهُوَ دَمِي الْعِلْمُ وَالتَّعَبِيرُ  
وَلَا يَقْرَأُ الْإِنْسَانُ فِي أَرَاغِيزِ رُؤْبَةَ حَتَّى يَشْعُرَ شَعورًا وَاضِحًا بِأَنَّهُ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ  
وِظِيفَةً غَرِيبَةً ، هِيَ صِيَاعَةُ الْأَلْفَاظِ وَالْأَسَالِيبِ ، وَالْإِتْيَانُ بِكُلِّ غَرِيبٍ شَاذٍّ فِيهَا ،  
حَتَّى يَرْضَى ذَوْقُ اللُّغَوِيِّينَ وَحَاجَتُهُمْ ، وَاقْرَأْ لَهُ هَذَا الْمَطْلَعُ فِي أَرْجُوزَةٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ <sup>(٥)</sup> :  
وَقَاتَمَ الْأَعْمَاقُ حَاوِي الْمُخْتَرَقِ      مُشْتَبِهَ الْأَعْلَامِ لِسَاعِ الْخَفَقِ <sup>(٦)</sup>  
بِكَيْلٍ وَقَدْ رُبَّحَ مِنْ حَيْثُ انْخَرَقِ      شَارِبِينَ عَوَّةَ جَدَبِ الْمُنْطَلَقِ <sup>(٧)</sup>  
نَامَ مِنَ التَّصْبِيحِ نَائِي الْمُخْتَبَقِ      تَبَلُّوْا لَنَا أَعْلَامُهُ بَعْدَ الْفَرَقِ <sup>(٨)</sup>  
فِي قِطْعِ الْأَلِّ وَهَبَّوَاتِ الدَّفَقِ      خَارِجَةً أَعْنَاقُهَا مِنْ مُعْتَنَقِ <sup>(٩)</sup>

(٦) وَقَدْ الرِّيحُ : أَوَّلًا ، انْخَرَقَ : هَبَّ ،  
وَشَارِبَ : غَلِظَ ، وَهُوَ : أَقَامَ ، وَجَدَبَ  
الْمُنْطَلَقِ : مَا يَمُرُّ بِهِ يَكُونُ جَدِيدًا .  
(٨) نَامَ مِنَ التَّصْبِيحِ : يَرِيدُ لَا مَاءَ فِيهِ يَوْرِدُ  
بِكُرَّةٍ ، وَنَائِي الْمُنْتَبِقِ : يَرِيدُ أَنَّهُ لَا مَاءَ فِيهِ يَوْرِدُ  
عَشِيَّةً . تَبَلُّوْا لَنَا أَعْلَامُهُ بَعْدَ الْفَرَقِ : يَرِيدُ  
أَنَّهُ تَفَرَّقَ فِي السَّرَابِ ثُمَّ تَبَلُّوْا كَأَنَّهُا تَسْجَحُ .  
(٩) الْأَلَّ : السَّرَابَ ، وَالنَّفَقَ : جَمْعُ دَقٍّ  
وَهُوَ التَّرَابُ الدَّقِيقُ الْخَفِيفُ . وَخَارِجَةً أَعْنَاقُهَا : يَرِيدُ  
الْجِبَالَ . مِنْ مُعْتَنَقِ : مِنْ حَيْثُ اعْتَنَقَهَا السَّرَابُ .

(١) انْظُرِ الْأَهْلَاءُ ٥٧/٢١ وَمَا بَعْدَهَا .  
(٢) الدِّيَوَانُ ص ٩٨ .  
(٣) الدِّيَوَانُ ص ٤٨ .  
(٤) الدِّيَوَانُ ص ٦١ .  
(٥) الدِّيَوَانُ ص ١٠٤ .  
(٦) قَاتَمَ : أَسَدَ . وَالْأَعْمَاقُ : جَعَمٌ وَهُوَ  
مَا بَعْدَ مِنْ أَطْرَافِ الْمَغَازَةِ الَّتِي يَصِفُهَا ، وَيَخْتَرِقُ  
الرِّيحُ : مَهْمَا ، وَخَرَّاهُ : خَلَّاهُ . وَشَبَّهَ  
الْأَعْلَامَ : الْجِبَالَ ، يَرِيدُ أَنَّهَا مُشَابِهَةٌ . وَلِمَاعِ  
الْخَفَقِ : السَّرَابِ .

تَنْشِطَتْهُ كُلُّ مِخْلَافَةِ الْوَهْقِ مَضْبُورَةٌ قَرَوَاءَ هِرْجَابٍ فَتُقَى<sup>(١)</sup> ،  
وهذا المَطْلَعُ هو أسهلُ ما في هذه الأرجوزة التي يصف بها مَقَارَزةً ،  
فلذا هو يُبْعِدُ عَلَيْنَا كُلَّ هَذَا الْبُعْدِ ، وَيَتَمَقَّقُ بِنَا كُلَّ هَذَا التَّعَمُّقِ فِي الْأَلْفَاظِ ،  
وكأنه يريد أن يَنْزِعَ من يسمعه من مَدِّ تَيْسِيَّتِهِمْ وَحِجَاتِهِمْ التي يَحْيِيوْنَهَا إِلَى  
حياة جديدة ، هي حياةُ الصحراء والبادية . وهل من الممكن أن يوجد مثلُ هذا  
الشعر أو مثلُ هذا الرَّجَزِ إلا في قيعان الصحراء حيث تنبتُ اللغةُ نباتًا خَشِنًا  
جافًا لَا رَوْحَ فِيهِ وَلَا رِيحَان .

وهو هنا يصف المَقَارَزةَ وما فيها من رياح تَعَوَّى بها ، وَسَرَّابٍ يَمْلَأُ أَرْكَانَهَا ،  
ويخرج في البيت الأخير إلى وَصْفِ نَاقَتِهِ التي يقطع بها هذه المَقَارَزةَ . ولا ريب في  
أن هذا شعرٌ يُعَبِّرُ بِنَفْسِ أَصْوَاتِهِ عَنِ الْمَعْنَى التي يريدُهَا رُؤْيَا .

ونحن لا نستطيع أن ننقل هنا كثيراً من هذه الأراجيز الْوَحْشِيَّةِ إِنْ صَحَّ هَذَا  
التعبير ، لأنها تَعَسَّرُ عُسْرًا عَلَى الْمُتَخَصِّصِينَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَوْ بِعِبَارَةِ أَدَقِّ  
لأنها شِعْرٌ أُلْفَ مِنْ أَجْلِ مَنْ حَظُّوا بِأَكْبَرِ قِسْطٍ مِنَ التَّخَصُّصِ فِي مَتْنِ اللُّغَةِ  
العربية وحِدِّقْهُ .

نحن إذن بإزاء مُتَوْنٍ تَوَلَّفَ لِإِزَاءِ أَشْعَارٍ تُصَاغُ وَيُعَبَّرُ بِهَا أَصْحَابُهَا عَنْ  
حاجاتهم الوجدانية أو العقلية ، فقد تطوَّرَ الشعرُ العربي ، وأصبحت الأرجوزةُ منه  
خاصَّةً تَوَلَّفَ مِنْ أَجْلِ حَاجَةِ الْمَدْرَسَةِ اللُّغَوِيَّةِ وما تريده من الشواهد والأمثال .

والأرجوزةُ الْأُمِّيَّةُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ثَعْدٌ أَوَّلَ شِعْرِ تَعْلِيمِيٍّ ظَهَرَ فِي اللُّغَةِ  
العربية . ولعل في هذا ما يدل على المكان الذي ينبغي أن تَوْضَعَ فِيهِ أَوَّلُ الَّذِي  
وُضِعَتْ فِيهِ فَعْلًا ، فَكَانَهَا صُحُفُ الْعُلَمَاءِ مِنْ مِثْلِ يُونُسَ وَأَيُّ عَمْرُو بْنِ الْعَلَاءِ ،  
يَتَعَلَّمُونَهَا ، وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ ، وَيَنْقُلُونَهَا إِلَى أَذْهَانِهِمْ ، وَيَنْقُشُونَهَا فِي عَقُولِهِمْ ،  
لِيَدُلُّوا بِهَا عَلَى مَدِّى عِلْمِهِمْ فِي اللُّغَةِ ، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِالْأَلْفَاظِ الْمُسْتَعْمَلَةِ وَالْمُهْمَلَةِ .

أُهَا مَسْرَعَةٌ ، وَمَضْبُورَةٌ : مجموعة الخلق ،  
وقرءاء : طريقة الظاهر ، وهرجاءب : ضجعة ،  
والفتق : الفتية الكثيرة اللحم .

(١) تنشطته : يريد ناقته ، وهي خبر قام  
الأعناق ، وتنشطته : جازته . والوقق : مد  
الإبل لأعناقها في السير ، ومغلاة الوقق : يريد

وهذا هو معنى أنها شعر تعليمي<sup>١</sup>، وهي ليست في الأعمال والأيام، كما صنع شاعر اليونان القديم هيزيود، ولا في أحكام الصوم كما صنع أبان بن عبد الحميد في العصر العباسي ولا في النحو كما صنع ابن مالك الأندلسي في ألفيته، وإنما في اللغة من حيث هي لغة. فالمعاني الشعرية لا يصيبها تغيير، وإنما يصيب التغيير للغة من حيث هي، فيختارها الشاعر من القاموس غير المؤلف للناس، بل غير المؤلف للعلماء.

واقترأ في رؤيئة ما شئت فستشعر دائماً كأنك تسير في أرض وعرة صلبة، كلها هذه الصغور من الألفاظ التي يرصفها رصفاً، والتي لا نشك في أنه كان يأتي بها من أجل العلماء أمثال يونس. ومن يستطيع أن يقرأ هذا المطامع الذي استشهدنا به والذي قد بعدد أسهل ما في أرجوزته دون أن يرتطم ويصطدم بالألفاظ الرطبات وأصطدمات، لا ينعفه من الخروج من مأزقها سوى المعاجم المطولة، التي تجمع شواهدا من رؤيئة وأبيه العجّاج ومن يكون على شاكلتهما ؟.

ونحن نؤمن بأن المسألة تحولت عند رؤيئة إلى حيس لغوي دقيق يصوغ به ألفاظاً غريبة، أو قل متوناً لغوية، وكثير من جوانب هذه المتون كان يعتمد فيه على هذا الحيس، بمعنى أنه كان يشتق أحياناً ألفاظاً جديدة يأتي بها ليُطَرِّف اللغويين، وليكون لهم مادة يتدارسونها.

وإذا كان الرواة يروون عن شاعر معاصر له أنه أتى بأربعة ألفاظ جديدة لم تكن معروفة في العربية، وهو ابن أحمر<sup>(١)</sup>، فإننا نؤمن بأن رؤيئة أتت بمئات الألفاظ الجديدة في شعره وأراجيزه. يدل على ذلك ما يروى عنه من أن الطرمّاح كان يصير إليه، فيسأله عن الغريب، فيخبره به، وسرعان ما يراه بعد في أشعاره<sup>(٢)</sup>. وكان الطرمّاح يأتي بالفاظ غير معروفة للعلماء، حتى ليقول ابن حبيب: سألت محمد بن الأعرابي عن ثمان عشرة مسألة، كلها من غريب شعر الطرمّاح، فلم يعرف منها واحدة، يقول في جميعها. لا أدري،

(١) الشعر والشعراء ص ٢٠٨.

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٦/١٢.

لا أدري<sup>(١)</sup>. فإذا كان في ديوان الطرمّاح الذي يأخذ عن رؤبة، والذي يُقلّده في غريبه ثمانى عشرة مسألة فأولّى أن يكون في ديوان رؤبة عشرات المسائل بل هفت المسائل.

ويشعر كل من يقرأ رؤبة وينشيم النظر في أراجيزه أنه كان ينحمت الألفاظ كما يريد ويستويها على الصورة التي يراها ليحبر عن معانيه. وكأنه كان يرى أن من حقه أن يَضَع ألفاظه ويصوغها، وهو لذلك قد يزيد في اشتقاق الكلمة حرفاً، وقد ينقصها حرفاً، وقد يشكّلها شكلاً جديداً، وقد يغيّر في بعض حروفها، فإذا كانت واواً جعلها همزة مثلاً، وقد يأتي بها لأول مرة في تاريخ العربية، معتمداً في ذلك على الحس اللغوي الدقيق الذي تحول فيه إلى ملكة خالقة، تتخلّق اللفظ، وتتخلّق له ما يريد من اشتقاق، ومن حروف وحركات.

ومن هنا تأتي أهمية رؤبة، وبأى شعور يونس في النص الذي مرّ بنا يُشيد به فيه، إذ يشعر أنه غلامه، فهو وغيره من اللغويين عيال عليه، يتقفون بابه، ينتظرون ما يتساقط على مائدة شعره وأراجيزه من هذا الفُتات اللغوي الجديد، الذي لم يسبق إليه.

ونحن لا نرتاب في أن رؤبة كان كلما أخرج للغويين شيئاً من هذا الفُتات اشتدت لهفتهم على غيره. ومن هنا تحول في أراجيزه إلى ما يشبه صاحب مصنع كبير تروج بضاعته في السوق، ويشدّ الطلب عليه فلا يجد أمامه سوى أن يزيد في طاقة مصنعه حتى يمدّ حاجة الناس. يدل على ذلك أكبر الدلالة ما يروى عنه من أنه قال ليونس: «حَتّام تسألني عن هذه البواطيل وأزخرفها لك<sup>(٢)</sup>». فهو يعترف في وضوح بأن يونس كان يستحثه على هذه البطايل التي يزخرفها، أو هذه الألفاظ والأساليب التي يصوغها ويستشققها، ويخزجها في أراجيزه.

وهذا لا ريب اتجاه جديد لم يكن الشعراء قديماً يعرفونه، فالشعر أصبح لا يؤلّف من أجل التعبير عن العواطف فحسب، بل أصبح يؤلّف أيضاً من أجل

يونس وأضرابه من اللغويين . وقد استطاعوا أن يُسمِّروا رُؤبة وأن يُدَرِّبوه في صُور مختلفة على هذا الاتجاه الجديد ، وهو الإتيانُ لهم بالصياغات غير المألوفة في العربية ، ومن هنا يُسمِّيها رُؤبةُ بَوَاطِيلَ ، ولم تكن بَوَاطِيلَ حَقًّا ، وإنما كانت أشياء جديدة غير مألوفة ، حتى للشاعر الذي يُصنِّدُها ويستخرجُها .

وأظنُّ أن الفكرة اتضحت الآن ، فرُؤبةُ كان يصنع أراجيزه ويأتى فيها بكل آيدةٍ لُغَوِيَّةٍ مسبوقة أو مبتكرة ، ليقدم ليونس وأمثاله مادة لغوية طريفة . ولذلك كنا نسمي هذه الأراجيز مُتُونًا ، وهى ليست متونًا عادية ، وإنما هى مُتُونٌ غريبة ، تعتمد على الشاذ غير المألوف فى اللسان العربى ، أو قل لأنها معاجم خاصة بالألفاظ المنبوذة غير المطروقة .

ولم يكثف رُؤبةُ بإبراده للغريب الذى يحفظه أو يُلغِّيه قومه تيم وشواذها ، بل ذهب يفتح هذا الباب الكبير الذى أوصله الشعراء ، وأوصلته كُثْرَتُهُمْ ، وهو بابُ الخلقِ فى اللغة معتمداً على سلكيَّته اللغوية ، التى مرَّنها فى هذا المجال تمرينًا واسعًا .

ومن هنا دار رُؤبةُ فى كتب اللغويين ، فهو مادةٌ لغوية قائمة بنفسها ، بل هو أطرفُ مادةٍ لغوية حصل عليها العصر الأموى ، إذا نظرنا إلى اللغة من حيث هى وتوسيعاتها وتكثير أبنيَّتها وهياكلها ، فإنه كان ما يزال يتشترح على نفسه التعديل فى صورة الألفاظ بزيادة بعض الحروف أو نقصها ، وبالتعديل فى حركاتها والتقديم والتأخير فيها ، ووضعها وضعًا جديدًا بأى صورة من الصور الممكنة ، فإن لم يصنع ذلك وجدناه يتعدَّل إلى مشتقات يصوغها ، أو ألفاظ يتَّصِّعُها لأول مرة .

ونستطيع الآن أن نفهم لماذا كان يونس غلامُ رُؤبة أقدمَ من رُوِيَتْ عنه غرائبُ اللغة ، وفى دار الكتب المصرية نسخةٌ مخطوطةٌ من كتاب الشوارد فى اللغات للصاغاني ، وفى هذا الكتاب فصل طویل لما رُوِيَ عن يونس فى هذا الجانب .

ومن ينظرُ فى هذا الفصل يرى عجبًا فيما يورد من شوارد الكلمات إذ تنغزِّ حركاتها وصُورُها تَغْيِيرًا يكاد يظن الإنسان معه أن كلَّ كلمة فى اللغة يمكن أن

تُعَدَّل حروفها أو تُعَدَّل حركاتها ، أو يُنْقَص منها أو يُزَاد فيها بغير نظام ثابت .

ونحن نَقْطَعُ بأن يونس استمدَّ هذا الفصل من شعر رُوبَة وأراجيزه ، وهو نصٌّ طريف لما كان يقوم به رُوبَة من تعديل في الألفاظ . وكان يضيف إلى هذا التعديل صياغات واشتقاقات جديدة لا عهد للغويين بها . ولذلك كان ديوانه ودواوين الرُّجَّاز الذين سبقوه في العصر الأموي على الغنوم أهمَّ مَرْجِعٍ لمن أَلْفُوا في معاجم اللغة ومُتَوْنِها . ولكن ينبغي أن لا يغيب عنا دائماً أن رُوبَة يُوَضِّعُ في أعلى السجلِّ الخاص بهؤلاء الرُّجَّاز ، فهو الذي نَمَسَتْ عنده — إلى أقصى حد ممكن — سَلَكِيَّةُ الوَضِّعِ في اللغة والتغيير في حروف الألفاظ وحركاتها ، مُسْتَجِيباً في ذلك كله لحسٍّ مُرَهَفٍ دقيقٍ من جهة ، ولحاجة المدرسة اللغوية من جهة ثانية .

ولا ريب في أن هذا تَطَوُّرٌ واسع في تاريخ الشعر العربي إذ أخذت تُخَصَّصُ بعضُ جوانبه لأغراض تعليمية ، وهي أغراض اتسعت بعد عصر بني أمية ، ولكنه على كل حال هو الذي بدأها وهو الذي رَشَّحَ لها ، وهو الذي جعل الشعراء فيما بعد يَتَجَهَّون إلى الرجز ، ليوَدِّعُوا فيه ما يُريدون من شِعْرِ تَعَالِي .

ونحن نؤمن بأن هؤلاء الرُّجَّاز وفي مقدمتهم رُوبَة هم الذين أَعَدُّوا شعراء العصر العباسي لا للشعر التعليمي فحسب ، بل لاقتباسهم للغريب في أشعارهم ، فالغريبُ أصبح جزءاً هاماً في مادة الشعر عند الشعراء المختارين من أمثال بَشَّار وأبي نُوَّاس وأبي تَحَّام .

ولم يكن هؤلاء الشعراء يَسْرِفون على أنفسهم في الغريب كما أسرف رُوبَة وزملاؤه الأمويون ، ولكنهم على كل حال عُنُوا به في أشعارهم ، وأصبحنا في بعض أجزاء منها نظن أنهم يَسْتَظهِمُونَ بلسان رُوبَة وأصحابه ، كأن الغريب غاية ، فهو يُقَصَّدُ لِدَاتِهِ .

وما نَتَقَدَّمُ إلى القرن الرابع في العصر العباسي حتى تظهر التَسَكُّمات ، وهي صحفٌ قصصية من النثر العربي أُرِيدَ بها تعليمُ اللغة ، ولذلك كان يمكن أن تُعَدَّ امتداداً لهذه الحركة التي بدأها الرُّجَّاز في العصر الأموي ، وغاية ما في

الأمر أن الموضوع اختلف ، ففي المَقَامَةِ كانوا يعتمدون على قصّة أصحاب الكُدَيْبَةِ أو السائلين من الأدباء ، وفي الأرجوزة كانوا يعتمدون على قصّة الصحراء ووَصَفَ حيوانها ونباتها ومائها وأرضها وكل ما يتصل بها من رياح وسرّاب .

على كل حال كانت الغاية تَعْلِيمِيَّةً في كل من الأرجوزة والمقامة ، واتفقت الفكرة فيهما جميعاً ، إذ أريد بهما إلى تعليم اللغة ، وإن كنا نلاحظ أن المقامة صُنِعَتْ للناشئة من الأدباء وأن الأرجوزة كانت تُصَنِّعُ للمُتَخَصِّصِينَ في اللغة العربية من مثل يونس وأبي عمرو بن العلاء .

وهكذا كانت الغاية التعليمية في الأرجوزة أدقّ وأصعَبَ وأكثرَ تَعَقُّيداً منها في المقامة ، فإن أصحابها لم يَحْشِدُوا فيها الألفاظ الشاذّة في نَحْوِهَا وحركاتها وحروفها على نحو ما كان يصنع رُوَيْبَةُ ، هم جاءوا بالغريب ولكنهم لم يجعلوه كل أهدأفهم .

ومهما يكن فقد أُلْهِمَتْ الأرجوزة الأُمِيَّةُ أصحابَ الشعر في العصر العباسي أن يقوموا بنظم شعرهم التَعْلِيمِي ، كما ألهمت أصحابَ النثر أن يقوموا بصُنْعِ المقامة . وليس هذا كل ما قدمه رُوَيْبَةُ وزملاؤه لمن جاءوا بعدهم ، فقد جعلوا الرُحْدَةَ في الأرجوزة الشَّطْرَ لَا الْبَيْتَ كما هو الشأن في القصيدة ، ولا نشك في أن أصحابَ الموشَّحات والمربَّعات والخمَّسات قد تأثروا بهم في هذا الجانب .

وعلى هذا النحو اتسع إلهامُ الأرجوزة للشاعر العباسي والأندلسي ، وأيضاً لمن كتبوا في المقامات ، فهي مع صعوبةِ مَتْنِهَا وغبابةِ ألفاظها كانت ذات تأثيرٍ واسع في العصور التالية .

وأكبرُ الظنّ أنه قد بانَ بياناً لا ريب فيه من هذه المتون اللغوية التي كان يصنعها رُوَيْبَةُ وزملاؤه وما تحدثنا فيه من خمريات الوليد ، وهاشميات الكميث ولوحات ذى الرِّمّة ، وغزّك ابن أبي ربيعة ، أن طاقة الشعر العربي اتسعت في عصر بني أُمَيَّةٍ اتساعاً شديداً ، فلم يَجْعُدْ عند الموضوعات القديمة ، بل أخذ يجدّد فيها وبنوعٍ ويوجِّهُ على هَيَاتٍ وألوان مختلفة .

## خاتمة

١

### خلاصة البحث

حاولنا في الصفحات السابقة أن نُصَوِّرَ الاتجاهات الجديدة في الشعر الأموي، فبدأنا بدرس بيئاته المهمة وهي الحجاز ونجد والعراق والشام، وتعمقنا ما كان فيها من حياة في الجاهلية والإسلام. ورأينا عناصر من الحضارتين الفارسية والرومية البيزنطية تسقط إلى الحجاز في العصر الجاهلي، حتى إذا كان عصر الفتوح انغمست الحجاز انغماساً في هاتين الحضارتين، فقد دخل بها أفواج، بل أمواج من الموالى والحواري، قاموا على حياة الناس هناك، وإعداد هذه الحياة.

ووجد في هذه الديار، تحت تأثير الفتوح وما صب في حجور الحجازيين من أموال، طبقة فارغة عمدة بعض عناصرها إلى اللهو، وسرعان ما قدّم لها مواليلها وجواريلها نظريّة جديدة للغناء والموسيقى، وهي النظرية التي نقرأ رموزها عقب الأصوات والأدوار التي يأتي بها صاحب الأغاني. وهذا كله لغزل جديد يعبر عن حياة لاهية، تحضر أصحابها، وأتريف حبيبتهم، وأتريفت أذواقهم.

وبينا تغيرت الحياة في الحجاز هذا التغير كان العرب في نجد لا يزالون يعيشون على شاكله آبائهم في الجاهلية، يرعون أنعامهم وأغنامهم، ويتبعون مساقط الغنم والكلاب، وقد ذهبوا يشكون مر الشكوى من ضريبة الزكاة، واستخذتوا لأنفسهم غزلاً جديداً يظهر فيه تغيير الإسلام لفسيفسائهم، فهو غزل عفيف فيه مثالية، وفيه طهر ونبيل وتسام على اللذائذ الحسية. وكان العراق منذ العصر الجاهلي شديد الصلة بالحضارة الفارسية، وكذلك بالحضارة الرومية البيزنطية، فقد دخلت إليه المسيحية، وتنصرت الحيرة وأجزاء

## تعليق وتعقيب

هذه هي أهم الاتجاهات التي وقفنا عندها في البحث، ولا نزعم أننا عرضنا كل أطراف الحياة العربية الجديدة التي عاشها العرب في العصر الأموي، إنما عرضنا الأطراف البارزة، وميّزنا الخطوط الكبيرة في العصر، وبقيت خطوط صغيرة، أو بعبارة أدق بقيت فروع، هي فروع الحياة التي عاشها العرب، لا في إطارهم القديم فحسب، إطار الجزيرة العربية، بل في إطار واسع، اتسعت خطوط طوله من الهند وخليج الصين إلى جبال البرانس والمحيط الأطلسي.

ومن المحقق أننا كلما أطلنا النظر في ظواهر الحياة في أثناء هذا العصر أمكننا أن نجلب إلى الشعر العربي موضوعات جديدة، وأن نلاحظ فيه جوانب طريقة، تستحق الوقوف عندها والتأمل خلالها فيما أصابه من تغير وتطور وتجديد.

ومن الجوانب المهمة التي تلفت كل من يقرأ في نصوص الشعر الأموي جانب الحروب والفتوح الإسلامية في خراسان وغير خراسان، فقد نُظِمَ في هذه الحروب شعر كثير، صور البيئات الجديدة التي شاهدها العرب، وصور ما فيها من ثلوج ومن نبات وحيوان<sup>(١)</sup>، وصور أيضاً كل ما هنالك من رافه العيش والطعام وفاخر الفُرش والثياب، كما صور الجوارى الأجنبية اللاتي غنمنهن العرب في الحروب<sup>(٢)</sup>.

وظهر في أثناء ذلك موضوع جديد، هو الحنين إلى الوطن، وجرى على ألسنة الشعراء شعر كثير صوروا فيه هذه النزعة تصويراً دقيقاً، فقد فارقوا أوطانهم، وفارقوا عشائهم، وفارقوا أهلهم وأبنائهم، وخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله، وكان كثيراً ما يُلِمُّ بهم طائف الذكرى، وطائف الأهل والبنات والأبناء. وكانت هذه النزعة من الحنين تتضاعف في نفس الشاعر حين يصيبه مرض أو يترامى له الموت

١٧٢ والشعر والشعراء ص ٣٠٤ .  
(٢) انظر على سبيل المثال الأغاني (طبع دار الكتب) ٣١٩/٢ ، ٣٤٠/٦ .

(١) أكثر الشعراء في هذا العصر من وصف الحيوان من مثل القردة والخنازير والجرذان والسنابير والفهود والفيلة . انظر الحيوان للجاحظ ٦٤/٤ ، ٦٦ ، ٨١/٧ ، ١١٥ .

في عصر بني أمية شبكة تتصلّ خيوطها بكل مظاهر الحياة ، بل بكل حواشيتها وذيلها .

وإذا كان هذا الشعر مثل البيئات الجديدة ونفسيات الشعراء فيها وما اتصل بهم من حروب وفتوح فإنه مثل أيضاً حياة العرب في السلم ، وفي مدنهم الجديدة من جميع أقطارها ، وخاصة حياة الخلفاء والولاة وما ارتبط بها من ترف ونظم وشرطة وغير شرطة .

وقد دخلت في الحياة العربية لهذا العصر نظم القوّد والقصاص والحدود مما شرعه الإسلام ، ودخلها الخوف من بطش الولاة ، وخاصة من عرفوا بالقسوة والشدة مثل زياد والحجاج . وقصة هرب الفرزدق من زياد معروفة . وغير الفرزدق كثيرون كانوا يفرّون من الولاة والخلفاء فراراً حين يقتربون ذنباً ، فتضيق الأرض بهم ، على نحو ما نجد عند عبد الله بن الحجاج ، « وكان قد خرج مع نجدة بن عامر الحنفي الخارجي على عبد الملك بن مروان ، فلما قضى على نجدة ضاقت به الأرض بما رحبت ، ووصف هذا الضيق في قوله (١) :

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ      عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةٌ حَابِلٌ  
تُؤَدِّي إِلَيْهِ أَنْ كُلَّ ثَنِيَّةٍ      تَيْمَمُهَا تَرْمِي إِلَيْهِ بِقَاتِلٍ

ولا ريب في أن هذا الخوف الشديد من الخلفاء والولاة أثر في نفسية الشاعر الأموي ، وجعله يفكر ويقدّر ، ويتأثّر ويتسهّل حتى إذا ظنّ الخليفة أو الوالي غاضباً عليه كاد يطير قلبه ، وحسب كل صيحة شرطياً ينادى عليه وينرصده . وصوّر ذلك من بعض الوجوه العديدة بل بن الفرخ العجلي حين ترعده الحجاج ، فقال (٢) :

أَخَوْفُ بِالْحَجَّاجِ حَتَّى كَأَنَّمَا      يُحَرِّكُ عَظَمٌ فِي الْقَوَادِ مَهْيُضُ

والمهْيُض : الذي كُسِرَ ، ثم جُبِرَ ، ثم كُسِرَ . ومن القصائد الطريفة التي تصوّر فرع الشعراء ووجلتهم حين يسمعون بسلطان يتوعدّهم ويتهدّدهم

والثنية : الطريق في الجبل .  
(٢) البيان والتبيين ١/٣٩١ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٣/١٦٢ .  
وكفة حابل : حباله الصائده ، وتكوي : تخيل ،

قصيدة ابن قيس الرقيات حين بلغه أن عبد الملك توعده ، إذ كان يحطب في حبلى أخيه عبد العزيز ، وكان عبد الملك فكّر أن يخلعه من ولاية العهد على نحو ما مر في غير هذا الموضع ، ويولّى ابنه الوليد مكانه ، فندّت على لسان ابن قيس أبيات تدعوا لعبد العزيز ضداً ، وبلغت الأبيات عبد الملك ، وسرعان ما تطوّرت الحوادث ، وتوفّي عبد العزيز ، وبقي ابن قيس خائفاً يرقب . وفي أثناء هذا الخوف كتب هذه القصيدة مستعظفاً ، واستهلّها بقوله (١) :

|                                                   |                                          |
|---------------------------------------------------|------------------------------------------|
| بَشِّرَ الظَّبْيُ وَالْفُرَابُ بِسُعْدِي          | مَرَحِبًا بِالَّذِي يَقُولُ الْفُرَابُ   |
| قَالَ لِي إِنَّ خَيْرَ سَعْدِي قَرِيبٌ            | قَدْ أَتَى أَنْ يَكُونَ مِنْ اقْتِرَابُ  |
| قُلْتُ أَتَى تَكُونُ سَعْدِي قَرِيبًا             | وَعَلَيْهَا الْحَصُونُ وَالْأَبْوَابُ    |
| حَبْدًا الرَّثْمُ ذَوِ الْوِشَاحَيْنِ وَالْقَمَصُ | رُ الَّذِي لَا يَنَالُهُ الْأَتْرَابُ    |
| إِنَّ فِي الْقَصْرِ لَوْ دَخَلْتَ غَزَا لَا       | مُوصِدًا مُصَفَّقًا عَلَيْهِ الْحِجَابُ  |
| أُرْسِلَتْ أَنْ فَدَتْكَ تَنْفِي فَاحْدَرُ        | شُرْطَةٌ هَامُنَا ، عَلَيْكَ غِيْضَابُ   |
| أَقْسَمُوا إِنَّ رَأَوْكَ لَا تَطْعُمُ الْمَا     | وَمَ حِينَ يَقْدِرُونَ ذَنَابُ           |
| قُلْتُ قَدْ يَغْفَلُ الرَّقِيبُ وَتُغْفِي         | شُرْطَةٌ أَوْ يَحِينُ مِنْهَا انْقِلَابُ |
| أَوْ عَسَى اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَ أَمْرًا          | لَيْسَ فِيهِ عَلَى الْحَبِّ ارْتِقَابُ   |
| ارْجِعِي فَأَقْرَنِي السَّلَامَ عَلَيْهَا         | ثُمَّ رُدِّيْ جَوَابَنَا يَا رَبَّابُ    |
| حَدَّثْنِيهَا بِمَا لَقِيتُ وَقَوْلِي             | حَقٌّ لِلْعَاشِقِ الْكَرِيمِ ثَوَابُ     |
| رَجُلٌ أَنْتِ هَمُّهُ حِينَ يُحْنِي               | خَامَرَتُهُ مِنْ أَجْلِكَ الْأَوْصَابُ   |

وواضح أن ابن قيس يُعبر في هذه المقدمة لقصيدته عن كل ما اختلج به قلبه من خوف ، فهذه سَعْدِي صاحبة التي كان يظن أنها رَضِيَتْ عنه ، يُبَشِّرُهَا ظَبْيٌ وَغُرَابٌ أَوْ فَتَالٌ تُنَحْسُ وقال سَعْدِي ، وها هو يخاف الاقتراب من قصرها وما يقوم عليه من حرّاس وحجّاب ورقباء ، وإنه ليستعطفها ، ويتوسّل إليها أن تمنحه ودّها لما يلاقيه من عذاب الإعراض والصدّ بعد الإقبال . وكل ذلك رمزٌ عن عبد الملك وعلاقته به ، إذ كان ابن قيس زُبَيْرِيًّا ، وطلبه عبد الملك بعد قتل مصعب ، وتوسّط له ابن جعفر وأمّ البنين ، فعفّا عنه عبد الملك ، واقترب منه

ابن قيس ومدحه ، ثم اختص بأخيه عبد العزيز . واليوم قد توفي عبد العزيز وأوعد عبد الملك وأندَر ، وكاد يطيرُ بابن قيس طيرةً بطيشاً سقوطها ، فارتاع ، وأصبح فؤاده كأنه كُرَّةٌ تنزى .

وكلُّ ذلك جديدٌ في حياة العربي وعلى نفسيته ، فلم يكن في العصر الجاهل سلطانٌ لأحد على أحد ، وإذا كان هناك سلطانٌ لشيخ القبيلة فهو سلطانٌ محدود . أما في هذا العصر فقد تغير أسلوب الحياة ، وأصبحت هناك الشرطةُ وألوانُ العقاب المختلفة من ضَرْبٍ بالسياط ، ومن تعذيب بالسِّجْن . وهذا ومثله يفكر فيه ابن قيس ويلونُ نفسيته هذه الألوان التي جعلته يصدُرُ في قصيدته لعبد الملك عن هذا القلق والاضطراب الشديد ، فإذا هو يحدثُ هذه المقدمة الغزلية التي صوّرت كل ما جرى في قلبه من وساوس وأوهام .

وهذا الباب ، باب الخوف من أصحاب الأمر والنهي وما يزلونه بالناس حين يرتكبون مخالفات أو يجترّون جنایات نجد له نصوصاً كثيرة في الشعر لهذا العصر . ومن أمثلة ذلك قصةُ محمد بن هشام وإلى مكة لهشام بن عبد الملك مع العرجي ، وهي قصةٌ أطنبَ فيها أبو الفرج في أغانيه ، إذ كان في العرجي شرٌّ كثير ، فجلده محمد بن هشام ، وأقامه في الشمس أياماً ، فشكا العرجي ذلك في شعره من مثل قوله (١) :

أَجْرَرُ فِي الْجَوَامِعِ كُلَّ يَوْمٍ      فَيَا لَلْمَظْلَمَتَيْنِ وَصَبْرِي

وكان بعض الشعراء يسجنُ لما اقتَرَفَ من جرائم ، وتوضع في أيديه وأرجله الأغلال والقيود ، فكانوا يتعرضون للخلفاء والولاة يستعطفونهم ، حتى يطلقوهم ، وكانوا في الوقت نفسه يصفون ما يلقون في غياهب السجون ، وفي كتب الأدب طُرِفَ من ذلك كثيرة ، واستمع إلى ابن مفرغ يصف سجنه بسجستان ، وقد حبه عباد بن زياد بن أبيه (٢) :

حَتَّىٰ ذَا الزَّوْرَ وَانْتَهَىٰ أَنْ يَعُودَا      إِنَّ بِالْبَابِ حَارَسِينَ قُعُودَا  
مِنْ أَسَاوِيرَ لَا يَسْتَوْنَ قِيَامَا      وَخِلَانِيْلَ تُسَهِّرُ الْمَوْلِدَا

(١) أغاني ١/٤١٣ ، والجوامع : الأغلال .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢١١ .

وطماطيم من سبابيج عُثْمٍ يُلْبَسُون مع الصباح قُبُوداً  
فهو يصف حرَّاسه من الأساورة ، أو من جنود الفرس ، ومن السبابيج ، أو  
من جنود السند العُثْم الذين لا يستطيعون بياناً ولا إفصاحاً ، لأنهم عَجْمٌ  
طماطيم . ويذكر ابن مفرَّغ إلى جانب ذلك القيود التي يكبلونه بها كل صباح .  
وأمام هذه السجون كان يوجد الحكام والقضاة ، وقد تعرَّض الشعراء لهم  
يدعونهم إلى العدل والحكم بالقيسطاس في غير ظلم ولا جور . زوى صاحب  
الأغاني أن مُرَّة بن مَحْكَن التميمي خاصم رجلاً إلى الحارث بن أبي ربيعة  
(القُبَاع) وإلى البَصْرَة لابن الزبير ، فلما أراد إمضاء الحكم عليه هَتَفَ به <sup>(١)</sup> :  
أحارٍ تَشَبَّهَتْ في القضاةِ فإنه إذا ما إمامٌ جارٍ في الحكم أقصداً  
ولئك موقوفٌ على الحكم فاحتفظ ومهما تُصِبُه اليومَ تُدْرِكْ به غداً

وهناك نصوص أخرى تحدَّث عن القضاة ويشكو فيها الشعراء من أحكامهم  
وخاصة حين يحكمون لامرأة على صاحبها أو على أهلها <sup>(٢)</sup> .

وإذا كان الشعر الأموي سجَّل هذه الجوانب فإنه سجَّل أيضاً كل ما  
اتصل بأعمال جديدة من حفر جداول أو قنوات أو بناء قصور واتخاذ مساجد  
أو احتفال بأعياد ومهرجانات <sup>(٣)</sup> ، وحتى ما ابتدعه الحجاج من الحامل والسُّقْن  
المُقَيَّرَة ، نظمه الشعراء في أشعارهم <sup>(٤)</sup> ، وكأنما لا يوجد خَيْطٌ في نسج الحياة  
العربية للعصر الأموي إلا وحاكه الشعراء في شعرهم ، حتى اللَّعَب الجديدة كلُّعْبَة  
الشطرنج نجد عند الفرزدق وجربير إشارات إلى بعض مصطلحاتها من مثل البياذق <sup>(٥)</sup>  
وسبق أن تحدثنا في غير هذا الموضع عن كتابة الشعر في أثناء هذا العصر الأموي  
وأنها كانت متداولة وأن كثيراً من الشعراء كانوا كاتبين وللمنقَّع الكندي قطعة  
بديعة في وصف القلم ، ذكرها في قصيدة له مدح فيها الوليد بن يزيد ، وفيها يقول <sup>(٦)</sup> :  
قَلَمٌ كَخَرْطُومِ الحِمامَةِ مائلٌ مُسْتَحْفِظٌ لِلْعِلْمِ مِنْ عِلَّامِهِ

(٥) نقائض جربير والفرزدق ص ٧٨٧ ،

٨٤٥ .

(٦) الحيوان ١/٦٥ .

(١) أغاني ١٠/٢٠ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٨١ وابن سعد ٩٤/٩٤ .

(٣) الشعر والشعراء ص ٤٤٨ .

(٤) الحيوان ١/٨٢ .

يَسِمُ الحُرُوفَ إِذَا يَشَاءُ بِنَاءَهَا      لِبَيَانِهَا بِالنَّقْطِ مِنْ أَرْسَامِهَا  
وَبِأَنْفِهِ شَيْءٌ تَلَامَ فَاَسْتَوَى      سَقَى المدَادَ فزَادَ فِي تَلَامِهِ  
مُسْتَعْجِمٌ وَهُوَ الْفَصِيحُ بِكُلِّ مَا      نَطَقَ اللِّسَانُ بِهِ عَلَى اسْتِعْجَامِهِ  
وَلَهُ تَرَاجُمَةٌ بِالنِّسْنَةِ لَهُمْ      تَبَيَّنَ مَا يَتَلَوْنَ مِنْ تَرْجَامِهِ

وكل ذلك معناه أن العرب عَبَّروا عن الحياة الجديدة التي عاشوا فيها في أثناء عصر بنى أمية تعبيراً لم يترك شيئاً من شياتها دون أن يُسَجِّلَهَا تسجيلاً .  
وليس هذا فحسب ، فإنهم عَبَّروا عن المخطوط العقلية والروحية الجديدة ، وكل ما اتصل بحياتهم من سياسة واقتصاد واجتماع . والشعر الأموي من هذه الناحية مرآة صافية تَرْتَسِمُ عليها حياة العرب الجديدة بكل قَسَمَاتِهَا وملاعِمِهَا ، بل بكل ما صادفها من تطور . ولا يُوجَدُ عُنْصُرٌ من عناصر هذا التطور إِلَّا نَبَتَتْهُ الشعراءُ في شعرهم سواء من حيث السمو الروحي أو من حيث السمو العقلي ، أو من حيث نظام الدولة والمعيشة .

ويستطيع كلُّ باحث أن يستمر في هذا البحث وأن يَمُدَّ حلقاته وأطنايه إلى اتجاهات جديدة في نفسية العرب وعقلهم . فليس هناك ترجمة لشاعر أموي في كتاب الأغاني نَطَّلَعَ عليها إِلَّا نستقبل فيها تأثيرات الحياة الأموية وما أصاب التفكير الفني من تطور وتجديد . وقُلْ ذلك نفسه في دواوين الشعراء وما صاغوا من شعرهم . وإنا لنأمل أن تكون هذه الدراسة حافزاً للباحثين أن يُعْنُوا بحياة الشعر العربي في العصر الأموي عناية تكشفه من جميع أطرافه كشفاً دقيقاً .

## الفهرس

| صفحة      |                                                      |
|-----------|------------------------------------------------------|
| ٦ - ٥     | مقدمة الطبعة الثانية                                 |
| ١٠ - ٧    | مقدمة الطبعة الأولى                                  |
| ٢١ - ١١   | تمهيد : الشعر في صدر الإسلام                         |
| ١١        | ( ١ ) الإسلام                                        |
| ١٣        | ( ٢ ) الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم         |
| ١٨        | ( ٣ ) الشعر في عصر الخلفاء الراشدين                  |
| ٥٤ - ٢٢   | الفصل الأول : بيئات الشعر الأموي                     |
| ٢٢        | ( ١ ) الحجاز                                         |
| ٣٠        | ( ٢ ) نجد                                            |
| ٣٥        | ( ٣ ) العراق                                         |
| ٤٣        | ( ٤ ) الشام                                          |
| ٤٩        | ( ٥ ) بيئات أخرى                                     |
| ١٣٠ - ٥٥  | الفصل الثاني : تطور الشعر الأموي مع الحياة           |
| ٥٥        | ( ١ ) الحياة الدينية                                 |
| ٧١        | ( ٢ ) الحياة العقلية                                 |
| ٨٥        | ( ٣ ) الحياة السياسية                                |
| ١٠١       | ( ٤ ) الحياة الاجتماعية                              |
| ١١٧       | ( ٥ ) الحياة الاقتصادية                              |
| ٢١٨ - ١٣١ | الفصل الثالث : التجديد في المنيح والهجاء             |
| ١٣١       | ( ١ ) منيح الأخطل والفرزدق وجرير                     |
| ١٦٢       | ( ٢ ) تحول الهجاء عند الأخطل والفرزدق وجرير إلى نقاض |
| ١٦٦       | ( ٣ ) نقاض جرير والأخطل                              |
| ١٧٥       | ( ٤ ) نقاض جرير والفرزدق                             |
| ٢٠٣       | ( ٥ ) مقارنة                                         |
| ٣٢٤ - ٢١٩ | الفصل الرابع : ألوان جديدة                           |
| ٢١٩       | ( ١ ) غزل ابن أبي ربيعة                              |
| ٢٤٣       | ( ٢ ) لوحات ذى الرمة                                 |
| ٢٦٨       | ( ٣ ) هاشميات الكميت                                 |
| ٢٩٢       | ( ٤ ) خسريات الوليد                                  |
| ٣١٢       | ( ٥ ) مثنى رؤبة                                      |
| ٣٢٧ - ٣٢٥ | خاتمة                                                |
| ٣٢٥       | ( ١ ) خلاصة البحث                                    |
| ٣٣١       | ( ٢ ) تعليق وتقيب                                    |

## كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- الأدب العربي المعاصر في مصر  
الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات
- البارودي رائد الشعر الحديث  
الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والفناء في المدينة ومكة لعصر  
بنى أمية
- الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي : طبيعته - ومناهجه -  
أصوله - مصادره
- الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطواحه الشعبية على مر العصور  
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

### في الدراسات النقدية

- في النقد الأدبي
- الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة
- فصول في الشعر ونقده
- الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

### في الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة : تطور وتاريخ
- الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
- الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة
- تجديد النحر
- الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
- تيسير النحر والتلخيص قديماً وحديثاً مع نهج تجديده
- الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

### في مجموعة نوايغ الفكر العربي

- ابن زيلون
- الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

### في الدراسات القرآنية

- سورة الرحمن وسور قصار  
عرض ودراسة
- الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

### في تاريخ الأدب العربي

- العصر الجاهلي
- الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامي
- الطبعة العاشرة ٤٦٦ صفحة
- العصر عباسي الأول
- الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
- العصر عباسي الثاني
- الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات ( ١ )  
الجزيرة العربية - العراق - إيران
- الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات ( ٢ )  
مصر - الشام
- الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

### في مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه في الشعر العربي
- الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه في النثر العربي
- الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد في الشعر الأموي
- الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة
- دراسات في الشعر العربي المعاصر
- الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث
- الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة

## في مجموعة فنون الأدب العربي

• الرثاء

الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات

• المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة

• النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

• الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

• الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

## في التراث المحقق

• المغرب في حل المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

• كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

• كتاب الرد على النخاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

• الدرر في اختصار المفازي والسير

لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

في سلسلة اقرأ

• العقاد

الطبعة الرابعة

• البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية

• مكي

الطبعة الثانية

• الفكاهة في مصر

الطبعة الثانية

|                    |                |
|--------------------|----------------|
| ١٩٨٧/٢٤١٨          | رقم الإبداع    |
| ISBN ٩٧٢-٠٢-١٩٨٦-X | الترقيم الدولي |

١/٨٧/٣٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.٠)